



مركز
للبحوث والتحريات الكمبيوترية

اصبهان

للغلام



عليه
صلى الله عليه وسلم

WWW. **Ghaemiyeh** .com
WWW. **Ghaemiyeh** .org
WWW. **Ghaemiyeh** .net
WWW. **Ghaemiyeh** .ir

مختار من تفسیر ابن کثیر
التبیین فی تفسیر القرآن

مُرْهُ عَلَى الْقُرْآنِ

الجزء الثامن

سُورَةُ الْمُلْكَةِ - سُورَةُ الْجِنِّ - سُورَةُ الْغَاثِ

دار الفکر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

من هدى القرآن

كاتب:

آيت الله سيد محمد تقى مدرسى

نشرت فى الطباعة:

دار محبى الحسين (عليه السلام)

رقمى الناشر:

مركز القائمية باصفهان للتحريات الكمبيوترية

الفهرس

٥	الفهرس
١٩	من هدى القرآن المجلد ٨
١٩	اشاره
٢٠	اشاره
٢٤	سوره الحج
٢٤	اشاره
٢٤	فضل السوره:
٢٤	الاسم:
٢٥	الإطار العام
٣٠	[سوره الحج (٢٢): الآيات ١ الى ٧]
٣٠	اشاره
٣٠	اللغه
٣٣	معايشه الساعه سبيل الإصلاح
٣٣	هدى من الآيات:
٣٥	بينات من الآيات:
٤٢	[سوره الحج (٢٢): الآيات ٨ الى ١٤]
٤٢	اشاره
٤٣	الايمن بين المجادلين و الحرفيين
٤٣	هدى من الآيات:
٤٤	بينات من الآيات:
٤٤	اشاره
٤٤	الاتباع على حرف:
٥٢	[سوره الحج (٢٢): الآيات ١٥ الى ٢٢]
٥٢	اشاره

اللغة ٥٢

هكذا يحيط تدبير الله بالإنسان ٥٤

هدى من الآيات: ٥٤

بينات من الآيات: ٥٦

الله يهدي من يريد: ٥٧

[سوره الحج (٢٢): الآيات ٢٣ الى ٢٩] ٦٢

اشاره ٦٢

اللغة ٦٢

واذن في الناس بالحج ٦٤

هدى من الآيات: ٦٤

بينات من الآيات: ٦٥

الجنة نعيم شامل: ٦٥

الصد عن السبيل: ٦٦

ضمان حريه الإنسان في الحرم: ٦٧

نداء الحج: ٧٠

و كلمه اخيره: ٧٢

[سوره الحج (٢٢): الآيات ٣٠ الى ٣٥] ٧٣

اشاره ٧٣

فَاِلهِكُمْ اِلٰهٌ وَّاحِدٌ فَلَهُ اَسْلِمُوْا ٧٤

هدى من الآيات: ٧٤

بينات من الآيات: ٧٥

تعظيم الحرمات: ٧٥

الحنيفيه دين الله: ٧٨

اهداف شعائر الله: ٧٩

[سوره الحج (٢٢): الآيات ٣٦ الى ٤١] ٨٣

اشاره ٨٣

- ٨٥ الجهاد حصن المقدسات
- ٨٥ هدى من الآيات:
- ٨٦ بينات من الآيات:
- ٨٦ اهداف الشعائر:
- ٩٠ شرعيه الجهاد:
- ٩٤ اهداف الحركه الاسلاميه:
- ٩٩ [سوره الحج (٢٢): الآيات ٤٢ الى ٥١]
- ٩٩ اشاره
- ٩٩ اللغه
- ١٠١ فكيف كان نكير
- ١٠١ هدى من الآيات:
- ١٠٣ بينات من الآيات:
- ١٠٣ عاقبه المكذبين:
- ١٠٦ حين يعمى القلب:
- ١٠٨ الزمن عند الله:
- ١١٢ [سوره الحج (٢٢): الآيات ٥٢ الى ٥٧]
- ١١٢ اشاره
- ١١٢ اللغه
- ١١٣ كيف نتحدى التمنى بالذكر؟
- ١١٣ هدى من الآيات:
- ١١٤ بينات من الآيات:
- ١٢٣ [سوره الحج (٢٢): الآيات ٥٨ الى ٦٦]
- ١٢٣ اشاره
- ١٢٥ هكذا ينصر الله المظلوم الذى يتحدى
- ١٢٥ هدى من الآيات:
- ١٢٦ بينات من الآيات:

- ١٢٨ جزء الهجرة:
- ١٣٠ الليل و النهار:
- ١٣١ أسماء الله:
- ١٣٢ الجاذبيه:
- ١٣٥ [سوره الحج (٢٢): الآيات ٦٧ الى ٧٣]
- ١٣٥ اشاره
اللغه
الطغاه لن يخلقوا ذبابا
- ١٣٧ هدى من الآيات:
- ١٣٧ اشاره
بينات من الآيات:
- ١٣٩ اختلاف الشريعة و وحده المشرع:
- ١٤٢ ضَعَفَ الطَّالِبُ وَ الْمُطَّلُوبُ :
[سوره الحج (٢٢): الآيات ٧٤ الى ٧٨]
- ١٤٥ اشاره
هكذا يصطفى الله الدعاه اليه
- ١٤٦ هدى من الآيات:
- ١٤٨ بينات من الآيات:
- ١٤٨ ما قدروا الله:
- ١٤٨ رسل المسؤولينه:
- ١٥١ الاجتباء و حق الجهاد:
- ١٥٢ صفات القائد:
- ١٥٦ سوره المؤمنون
- ١٥٦ اشاره
فضل السوره:
- ١٥٩ الإطار العام

١٦٥ [سوره المؤمنون (٢٣): الآيات ١ الى ١١] -

١٦٥ اشاره

١٦٦ قد أفلح المؤمنون

١٦٦ هدى من الآيات:

١٦٧ بينات من الآيات:

١٦٧ اشاره

١٦٧ صفات المؤمنين:

١٦٧ ١-الخشوع لله:

١٦٨ ٢-الاعراض عن اللغو:

١٦٩ ٣-العطاء:

١٧٠ ٤-تحديد و توجيه الشهوات:

١٧٢ ٥-أداء الأمانات و العهد:

١٧٣ ٦-المحافظة على الفرائض و الحدود:

١٧٣ وراثه الفردوس:

١٧٥ [سوره المؤمنون (٢٣): الآيات ١٢ الى ٢٢] -

١٧٥ اشاره

١٧٥ اللغه

١٧٧ فتبارك الله أحسن الخالقين

١٧٧ هدى من الآيات:

١٧٨ بينات من الآيات:

١٧٨ اشاره

١٧٨ ١-التفكر فى النفس:

١٨١ ٢-التفكر فى الكون:

١٨٦ [سوره المؤمنون (٢٣): الآيات ٢٣ الى ٣٩] -

١٨٦ اشاره

١٨٦ اللغه

١٨٨ ربي انصرتي بما كذبون

١٨٨ هدى من الآيات:

١٨٩ بينات من الآيات:

١٩٨ [سوره المؤمنون (٢٣): الآيات ٤٠ الى ٤٩]

١٩٨ اشاره

١٩٩ بعدا للقوم الظالمين

١٩٩ هدى من الآيات:

٢٠٠ بينات من الآيات:

٢٠٦ [سوره المؤمنون (٢٣): الآيات ٥٠ الى ٦٢]

٢٠٦ اشاره

٢٠٦ اللغه

٢٠٧ من هم المؤمنون

٢٠٧ هدى من الآيات:

٢٠٨ بينات من الآيات:

٢١٦ خوف التقصير:

٢٢٠ [سوره المؤمنون (٢٣): الآيات ٦٣ الى ٧١]

٢٢٠ اشاره

٢٢٠ اللغه

٢٢١ وأكثرهم للحق كارهون

٢٢١ هدى من الآيات:

٢٢٢ بينات من الآيات:

٢٢٧ [سوره المؤمنون (٢٣): الآيات ٧٢ الى ٨٣]

٢٢٧ اشاره

٢٢٧ اللغه

٢٢٩ هكذا نتحدى عقبات الايمان

٢٢٩ هدى من الآيات:

- ٢٣١ بينات من الآيات:
- ٢٣٨ [سوره المؤمنون (٢٣): الآيات ٨٤ الى ١٠٠] -
- ٢٣٨ اشاره
- ٢٣٨ اللغه
- ٢٤٠ سيقولون لله قل أ فلا تذكرون
- ٢٤٠ هدى من الآيات:
- ٢٤٥ بينات من الآيات:
- ٢٥٢ [سوره المؤمنون (٢٣): الآيات ١٠١ الى ١١٨] -
- ٢٥٢ اشاره
- ٢٥٢ اللغه
- ٢٥٤ إنه لا يفلح الكافرون
- ٢٥٤ هدى من الآيات:
- ٢٥٥ بينات من الآيات:
- ٢٦٤ سوره النور
- ٢٦٤ اشاره
- ٢٦٦ فضل السوره:
- ٢٦٧ الإطار العام
- ٢٧١ [سوره النور (٢٤): الآيات ١ الى ٥] -
- ٢٧١ اشاره
- ٢٧٢ الاسره سور الفضيله
- ٢٧٢ هدى من الآيات:
- ٢٧٤ بينات من الآيات:
- ٢٧٤ اشاره
- ٢٧٤ الحدود الشرعيه حصانه المجتمع:
- ٢٧٧ العفه سور المجتمع:
- ٢٧٨ القذف بين الحد و التوبه:

- ٢٨٢ [سوره النور (٢٤): الآيات ١٦ الى ١٥]
- ٢٨٢ اشاره
- ٢٨٢ اللغة
- ٢٨٤ كيف يواجه المسلمون إفك المنافقين؟
- ٢٨٤ هدى من الآيات:
- ٢٨٤ بينات من الآيات:
- ٢٨٤ حكمه اللعان في الإسلام:
- ٢٨٨ الحلف في القانون الاسلامي:
- ٢٩٠ الأفاكون و مسئوليه المجتمع المسلم:
- ٢٩٥ [سوره النور (٢٤): الآيات ١٦ الى ٢٢]
- ٢٩٥ اشاره
- ٢٩٤ البعد الاجتماعي للاشاعه الباطله
- ٢٩٤ هدى من الآيات:
- ٢٩٤ اشاره
- ٢٩٤ نقاط مضيئه:
- ٢٩٨ بينات من الآيات:
- ٢٩٨ اشاره
- ٣٠٣ الموقف السليم:
- ٣٠٥ [سوره النور (٢٤): الآيات ٢٣ الى ٢٩]
- ٣٠٥ اشاره
- ٣٠٥ اللغة
- ٣٠٧ الوازع الدينى و أثره فى تحصين المجتمع
- ٣٠٧ هدى من الآيات:
- ٣٠٨ بينات من الآيات:
- ٣٠٨ اشاره
- ٣٠٨ الشهاده:

٣١٠ حرمة البيت:

٣١٥ [سوره النور (٢٤): الآيات ٣٠ الى ٣٣]

٣١٥ اشاره

٣١٥ اللغة

٣١٧ و انكحوا الأيامى منكم و الصالحين

٣١٧ هدى من الآيات:

٣١٨ بينات من الآيات:

٣١٨ اشاره

٣٢١ الحدود الشرعية للحجاب:

٣٢٩ [سوره النور (٢٤): الآيات ٣٤ الى ٤٠]

٣٢٩ اشاره

٣٢٩ اللغة

٣٣١ بَيِّنَاتٍ أَدِّينَ اللَّهُ أَنْ تَرْفَعِ

٣٣١ هدى من الآيات:

٣٣٣ بينات من الآيات:

٣٣٣ الله نور السموات و الأرض:

٣٣٧ بيوت الله:

٣٤٢ [سوره النور (٢٤): الآيات ٤١ الى ٤٤]

٣٤٢ اشاره

٣٤٢ اللغة

٣٤٣ كُلُّ قَدْ عَلِمَ ضَلَاتَهُ وَ تَشْبِيحَهُ

٣٤٣ هدى من الآيات:

٣٤٤ بينات من الآيات:

٣٤٤ تدبير الله آيه ملكه:

٣٤٩ بين الايمان و العلم:

٣٥٠ [سوره النور (٢٤): الآيات ٤٥ الى ٥٢]

- ٣٥٠ اشاره
- ٣٥٠ اللغه
- ٣٥١ الطاعه المصلحيه الدواعى و النتائج
- ٣٥١ هدى من الآيات:
- ٣٥٥ بينات من الآيات:
- ٣٥٥ اشاره
- ٣٥٨ أولاً: مرضى القلوب:
- ٣٥٨ ثانياً: الريبه:
- ٣٥٨ ثالثاً: الخوف من الحيف:
- ٣٦١ [سوره النور (٢٤): الآيات ٥٣ الى ٥٧]
- ٣٦١ اشاره
- ٣٦٢ وَ لِيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا
- ٣٦٢ هدى من الآيات:
- ٣٦٣ بينات من الآيات:
- ٣٦٣ اشاره
- ٣٦٤ دور القيادة و مسئوليته الامه:
- ٣٦٤ هدف الدوله الاسلاميه:
- ٣٧٠ الانتصار وليد الثقه:
- ٣٧٢ [سوره النور (٢٤): الآيات ٥٨ الى ٦١]
- ٣٧٢ اشاره
- ٣٧٤ تعاليم الإسلام فى دخول البيوت
- ٣٧٤ هدى من الآيات:
- ٣٧٥ بينات من الآيات:
- ٣٨٥ [سوره النور (٢٤): الآيات ٦٢ الى ٦٤]
- ٣٨٥ اشاره
- ٣٨٦ بين القيادة الرساليه و الامه المؤمنه

- ٣٨٦ هدى من الآيات:
- ٣٨٧ بينات من الآيات:
- ٣٩٤ سورة الفرقان
- ٣٩٤ اشاره
- ٣٩٤ فضل السوره:
- ٣٩٤ الاسم:
- ٣٩٧ الإطار العام
- ٤٠١ [سوره الفرقان (٢٥): الآيات ١ الى ٦]
- ٤٠١ اشاره
- ٤٠٢ تبارك الذى نزل الفرقان
- ٤٠٢ هدى من الآيات:
- ٤٠٣ بينات من الآيات:
- ٤٠٣ اشاره
- ٤٠٣ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ :
- ٤٠٤ القرآن رساله الى العالمين:
- ٤٠٨ وَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً:
- ٤١٤ [سوره الفرقان (٢٥): الآيات ٧ الى ١٦]
- ٤١٤ اشاره
- ٤١٤ أَنْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ
- ٤١٤ هدى من الآيات:
- ٤١٧ بينات من الآيات:
- ٤١٧ المقاييس الخاطئه:
- ٤٢٢ صور من العذاب:
- ٤٢٧ [سوره الفرقان (٢٥): الآيات ١٧ الى ٢٦]
- ٤٢٧ اشاره
- ٤٢٧ اللغه

٤٢٩ وَ جَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً

٤٢٩ هدى من الآيات:

٤٣٠ بينات من الآيات:

٤٣٠ متعتهم حتى نسوا الذكر:

٤٣٧ الخوف و الرجاء:

٤٣٨ [سوره الفرقان (٢٥): الآيات ٢٧ الى ٣٣]

٤٣٨ اشاره

٤٣٨ اللغة

٤٣٩ كذلك لنثبت به فؤادك

٤٣٩ هدى من الآيات:

٤٤٠ بينات من الآيات:

٤٤٠ اشاره

٤٤١ لكي لا يكون الرسول خصيماً:

٤٤٥ حكمه التنزيل المتدرج:

٤٥٠ [سوره الفرقان (٢٥): الآيات ٣٤ الى ٤٤]

٤٥٠ اشاره

٤٥٠ اللغة

٤٥٢ أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ

٤٥٢ هدى من الآيات:

٤٥٣ بينات من الآيات:

٤٦٣ [سوره الفرقان (٢٥): الآيات ٤٥ الى ٥٠]

٤٦٣ اشاره

٤٦٣ اللغة

٤٦٤ ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا

٤٦٤ هدى من الآيات:

٤٦٥ بينات من الآيات:

٤٦٥ و هو الذى مَدَّ الظِّلَّ:

٤٧٢ [سوره الفرقان (٢٥): الآيات ٥١ الى ٥٨]

٤٧٢ اشاره

٤٧٢ اللغه

٤٧٣ وَ جَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا

٤٧٣ هدى من الآيات:

٤٧٤ بينات من الآيات:

٤٧٤ الجهاد الكبير:

٤٨١ [سوره الفرقان (٢٥): الآيات ٥٩ الى ٦٧]

٤٨١ اشاره

٤٨١ اللغه

٤٨٣ عباد الرحمن

٤٨٣ هدى من الآيات:

٤٨٤ بينات من الآيات:

٤٨٤ فَسْئَلُ بِهِ خَبِيرًا :

٤٨٧ عند ما يتصور البشر ربه:

٤٨٩ من آيات الكون:

٤٩٠ عباد الرحمن:

٤٩١ ١-التواضع:

٤٩٢ ٢-الرفق:

٤٩٣ ٣-قيام الليل:

٤٩٤ ٤-التقوى من النار:

٤٩٤ ٥-الاقتصاد فى المعيشه:

٤٩٦ [سوره الفرقان (٢٥): الآيات ٦٨ الى ٧٧]

٤٩٦ اشاره

٤٩٦ اللغه

٤٩٨ عباد الرحمن بين السلوك و التطلعات

٤٩٨ هدى من الآيات:

٥٠٢ بينات من الآيات:

٥٠٢ الوجه الآخر للقتل:

٥٠٤ التوبه قرار و عمل:

٥٠٥ صفات عباد الرحمن:

٥٠٥ ١- لا يَشْهَدُونَ الزُّورَ :

٥٠٦ ٢- يمرون باللغو كراما:

٥٠٧ ٣- البصيره و الوعي:

٥٠٨ ٤- الطموح الكبير:

٥٠٩ ٥- الدعاء معراج المؤمن:

٥١١ تعريف مركز

سرشناسه: مدرسی، محمدتقی، - ۱۹۴۵

عنوان و نام پدیدآور: من هدی القرآن / محمدتقی المدرسی

مشخصات نشر: تهران: دار محبی الحسین، ۱۳۷۷.

مشخصات ظاهری: ج ۱۸

شابک: ISBN ۹۶۴-۵۶۴۸-۲۱-۱۱۷-ISBN ۹۶۴-۵۶۴۸-۲۰-۳۱۶-ISBN ۹۶۴-۵۶۴۸-۱۹-X۱۵-ISBN ۹۶۴-۵۶۴۸-۱۸-۱۱۴-ISBN ۹۶۴-۵۶۴۸-۱۷-۳۱۳-ISBN ۹۶۴-۵۶۴۸-۱۶-۵۱۲-ISBN ۹۶۴-۵۶۴۸-۱۵-۷۱۱-ISBN ۹۶۴-۵۶۴۸-۱۴-۹۱۰-ISBN ۹۶۴-۵۶۴۸-۱۳-۰۹-ISBN ۹۶۴-۵۶۴۸-۱۲-۲۸-ISBN ۹۶۴-۵۶۴۸-۱۱-۴۷-ISBN ۹۶۴-۵۶۴۸-۱۰-۶۶-ISBN ۹۶۴-۵۶۴۸-۰۹-۲۵-ISBN ۹۶۴-۵۶۴۸-۰۸-۴۴-ISBN ۹۶۴-۵۶۴۸-۰۷-۶۳-ISBN ۹۶۴-۵۶۴۸-۰۶-۸۲-ISBN ۹۶۴-۵۶۴۸-۲۱-۱۱۷-۱۸؛ ISBN ۹۶۴-۵۶۴۸-۰۵-X۱-ISBN ۹۶۴-۵۶۴۸-۰۴-۱۱۸۰۰۰۹۶۴-۵۶۴۸-۰۳-۳-ISBN ۹۶۴-۵۶۴۸-۲۰-۳۱۶-ISBN ۹۶۴-۵۶۴۸-۱۹-X۱۵-ISBN ۹۶۴-۵۶۴۸-۱۸-۱۱۴-ISBN ۹۶۴-۵۶۴۸-۱۷-۳۱۳-ISBN ۹۶۴-۵۶۴۸-۱۶-۵۱۲-ISBN ۹۶۴-۵۶۴۸-۱۵-۷۱۱-ISBN ۹۶۴-۵۶۴۸-۱۴-۹۱۰-ISBN ۹۶۴-۵۶۴۸-۱۳-۰۹-ISBN ۹۶۴-۵۶۴۸-۱۲-۲۸-ISBN ۹۶۴-۵۶۴۸-۱۱-۴۷-ISBN ۹۶۴-۵۶۴۸-۱۰-۶۶-ISBN ۹۶۴-۵۶۴۸-۰۹-۲۵-ISBN ۹۶۴-۵۶۴۸-۰۸-۴۴-ISBN ۹۶۴-۵۶۴۸-۰۷-۶۳-ISBN ۹۶۴-۵۶۴۸-۰۶-۸۲-ISBN ۹۶۴-۵۶۴۸-۰۵-X۱-ISBN ۹۶۴-۵۶۴۸-۰۴-۱۱۸۰۰۰۹۶۴-۵۶۴۸-۰۳-۳

وضعیت فهرست نویسی: فهرست نویسی قبلی

یادداشت: عربی

یادداشت: کتاب حاضر در سالهای مختلف توسط ناشرین مختلف منتشر شده است

یادداشت: کتابنامه

موضوع: تفاسیر شیعه -- قرن ۱۴

رده بندی کنگره: BP۹۸/م ۴م ۱۳۷۷۸

رده بندی دیویی: ۲۹۷/۱۷۹

شماره کتابشناسی ملی: م ۷۷-۱۲۵۶۱

ص: ۱

اشاره

سوره الحج

اشاره

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِیْمِ

فضل السوره:

عن أبی عبد الله علیه السلام قال :

«من قرأ سوره الحج فی كل ثلاثه أيام، لم تخرج سنه حتى یخرج الی بیت الله الحرام. وان مات فی سفره دخل الجنة.»

الاسم:

وانبتق اسم السوره من أحكام فريضة الحج التي وردت فی هذه السوره.

ص: ٥

أولى آيات سورة الحج تصور لنا أهوال الساعه بهدف بث روح التقوى من الله.

و لعلّ التقوى من الأهداف التي تحققها كل السور القرآنيه، إلا ان انعكاساتها على الحياه تختلف، و قد سبق الحديث عند التدبر في سورة البقره أنّ آياتها تهدف بيان صبغه الله التي جعلها للامه المسلمه، و التي تتجسد في التقوى. و تكاد تكون سورة الحج تأكيداً على تلك الصبغه، حيث أنها تشرع بأمر الناس بالتقوى، و تذكرنا بمناسك الحج، و واجبات الجهاد، و تنتهي ببيان خصائص الامه الاسلاميه.

و لكن هذه السوره التي اختلف المفسرون في أنها نزلت بمكه أو المدينه، أو فيهما معا تتميز عن سورة البقره-فيما يبدو لي-في انها شفاء للقلب من أمراض الغفله و الجدل و الجهل و النفاق، و هي تعالج أيضا الأعذار التي يلجأ إليها الإنسان هرباً من المسؤوليه! مثل التظنّي و التمنّي، و الاتكال على عباده الأوثان، و الخوف من

الطغاه، والخشيه من الهزيمة أمام قوتهم.

كيف يشفى الله بآيات هذه السوره تلك الأمراض، و يطهر القلب من الأعذار و المانع عن التقوى؟ فيما يلي نتذكر معا الحقائق التي نستوحىها من التدبر فى آيات هذه السوره التي تفيض هيبة و جلالاً:

نرى فى بدايتها هزه عنيفه تزلزل قناعات الإنسان، السادر فى الغى، الغافل عن المصير الفطيع الذى ينتظره.

ثم يعالج السياق التبرير القديم الجديد، الذى تلجأ اليه النفس البشريه هرباً من عظمه المسئوليه و هيبة الجزاء..و ذلك هو الجدل فى الله بغير علم، و الريب فى البعث باعتباره مستحيلاً.

و بعد التذكرة بقدره الله على النشور- أو ليس قد خلق الإنسان أطواراً؟! - يعالج حاله الجدل بغير علم، و حاله الايمان الحرفى، حيث يهدف صاحبه المصالح العاجله، و يحذر به بأنه الخاسر فى الدنيا و الآخره.

و يهدينا السياق القرآنى الى ضلاله من يظن بان الله لا ينصره فى الدنيا و الآخره، أو ليس هو السلطان الحق للسموات و الأرض، و هو الذى يفعل ما يشاء؟! و هو الذى يفصل بين الناس-على اختلافهم- بالحق.

ثم يبين جزاء المؤمنين، و عقاب الكفار، و بالذات الذين يصدون عن المسجد الحرام..ذلك البيت الذى بناه إبراهيم و يجب قصده ابتغاء مرضاه الرب.

ان من أعظم حكم الحج بث روح التقوى فى القلب، لتطهيره من درن الشرك، و ذلك عبر ذكر الله، و إطعام البائس و الفقير، و تطهير البدن من النفت.

و هكذا يبدأ السياق بذكر الحج من آيه (٢٦)، و يستمر ببيان جانب هام من التقوى، هو تعظيم حرمة الله و احترام شعائره، و ينهى عن الأوثان، و يأمر برفضها عبر الحنفية التى تعنى الطهاره و النقاء.

ان تعظيم شعائر الله من تقوى القلوب، و الهدف من الذبح تنميه التقوى، عبر ذكر الله عليها. و قد حدد الله لكل امه منسكا، ليدكروا الله على نعمائه.

و أسمى درجات التقوى حاله الإخبات حيث يذكرنا السياق بصفات المختبين، من خشيه الله و الصبر و اقامه الصلاه و الإنفاق.

و خلال آيات (٣٨-٤١) يذكرنا السياق بالجهاد الذى هو حصن المقدسات، و درع الحرمات. و العلاقة وثيقه بين الحج الذى يسمى بجهاد الضعفاء و الجهاد، أو ليسا يهدفان معا إعلاء كلمه الحق، أحدهما بصورة سلميه، و الثانى بالدفاع الدامى؟! و لعل الإذن بالجهاد فى هذا السياق لتكميل جوانب التقوى، حتى لا- يتبادر الى الذهن ان التقوى تعنى العزله و التوقع و الرهبنه.. و عموما يبدو ان هذه الآيات هى سنام السوره.

ثم يعالج السياق تبريرا شيطانيا آخر حيث يظن المكذبين بالرسالات ان تأخير العذاب دليل إهمال الله لهم. بينما ينبغى السير فى الأرض للنظر فى عواقب المكذبين الذين أملى الله لهم ثم أخذهم أخذا شديدا، بينما أسبغ على الصالحين نعمه ظاهره و باطنه. و السير فى الأرض لا ينفع الذين يسعون فى آيات الله معاجزين، و هم

يعاندونها و يتحدونها و لكن لهم عذاب شديد.

و يداوى الذكر الحكيم قلب البشر من التمنيات التى هى أرضيه وساوس الشيطان، و الله سبحانه يؤيد أنبياءه فينسخ ما يلقي الشيطان. ثم يحكم آياته.

و علينا ان نعالج هذه التمنيات بآيات القرآن، حتى لا تكون فتنه لنا.

و لكن القلب المريض و القاسى يستقبل ما يلقيه الشيطان فيه عند التمنى فيضل عن الصراط السوى.

و الكفار يترددون فى ربيهم. و لهم عذاب شديد.

و هناك عذر شيطاني آخر تعالجه آيات الذكر و هو اليأس، حيث يتساءل المرء:

ماذا ينفع القيام لله و المطالبه بالحقوق الضائعه؟.

بلى..الذين يهاجرون فى سبيل الله، و يدافعون عن أنفسهم ضد البغى ينصرهم الله، و لا يعجز الله شىء فى السموات و الأرض، أو ليس هو الملك الغنى الحميد الرؤوف الرحيم، و إنه يحيى و يميت؟! و لكى نعالج حاله اليأس لا بد من النظر فى آيات قدره الله و رحمته.

و لعل ما يعوق الإنسان عن العمل هو الجدل فى الدين، و الله نهى عنه، و نبئنا بأنه قد جعل لكل امه منهجا و منسكا، و انه عليم بكل شىء.

و الشرك ملجأ المبررين حيث يزعم المشرك بأن الاعتماد على الشركاء ينجيه من المسؤوليات، و لكن القرآن يذكرنا بان أولئك لم يخلقوا ذبابا، و انهم لا يقدرون على مقاومته.

و فى الدرس الأخير من السوره يبين الله كيف يصطفى الرسل من الملائكه و من

الناس.. وانه المهيمن عليهم، فلا يزعم البعض بأنهم انصاف آلهه.

و فى ختام السوره نقرأ آيه كريمه تحدد ملامح الأمه الاسلاميه، و تأمر بالجهاد كما ينبغى.

ص: ١٠

[سوره الحج (٢٢): الآيات ١ الى ٧]

اشاره

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ (١) يَوْمَ تَرْوُهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَ تَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَ تَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَ مَا هُمْ بِسُكَارَىٰ وَ لَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ (٢) وَ مِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَ يَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ (٣) كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَنْ تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَ يَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ (٤) يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّن نُّرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَ غَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَ نُقَرِّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشَدَّكُمْ وَ مِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّىٰ وَ مِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْنًا وَ تَرَى الْأَرْضَ هَامِئَةً فَإِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَ رَبَّتْ وَ أَنْبَتْنَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (٥) ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَ أَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٦) وَ أَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَ أَنَّ اللَّهَ يُبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ (٧)

اللغة

١[زلزله]:الزلزله شده الحركه على الحال الهائله و قيل ان أصله زلّ فضوعفت للمبالغه.

٢[تذهل]:الذهول عن الشىء دهشا و حيره.

٣[مرید]:المتجرد للفساد،و قيل ان أصله الملاسه فكأنه متملس من الخير.

٥]نطفه[:المنى-ماء الرجل.

]علقه[:قطعه دم جامد.

]مضغه[:قطعه لحم بمقدار ما يمضغ من اللحم.

]مخلقه[:مستويه الخلقه.

]أرذل العمر[:أسوء العمر و أخبثه(الهرم).

]ربت[:أى زادت و أضعفت نباتها.

]البهيج[:الحسن الصوره.

ص:١٢

هدى من الآيات:

فى الآيات الأولى من هذه السوره يهزّ السياق القرآنى ضمير الإنسان هزّاً عنيفاً بتصوير اللحظات الحرجه الأولى لوقوع الساعه، حيث يذهل الإنسان و يتعد ذهنياً عن كل العوامل التى كانت تضله فى الحياه.

و نسال: لماذا يضل الإنسان؟ لأنه يحب المال و الجاه و الولد و ما أشبهه، فاذا به فى تلك اللحظات يذهل عن ماله و ولده... لان الساعه أدهى و امر، و أكبر و أعظم من كل تلك الأمور، فالمرأه تذهل عن ترضعه، و الحامل تضع ما تحمله، و كل إنسان يكون كالسكران و لكن ليس بنشوه الخمر و انما هو سكر العذاب، و هيبه الساعه.

بعد ان يهز القرآن ضمير الإنسان بهذا الهول الرهيب يقول له: أتعرف لماذا تتورط فى مثل هذا الهول؟ و كيف تخلص نفسك

منه؟!

ص: ١٤

انما تتورط لأنك اتبعت إلهها غير الله من دون علم، وكذلك لأنك غفلت و لهوت حينما يريد الإنسان ان يختار فراشا لبيته أو لونا لغرفته أو ساعه يلبسها أو اى شىء آخر، تراه يفكر و يخطط و يسأل و يستشير، و لكن حينما يريد أن يعبد إلهها غير الله، فانه يعبد من دون تفكير أو بحث، و بالتالى يتورط فى ذلك الموقف العظيم بالاسترسال.

اما كيف يتخلص الإنسان من هذا الهول؟ فهو لا يكون إلا عبر الايمان بالله وحده، و الايمان بالبعث و النشور.

ان كل إنسان مفطور على الايمان بالبعث، و بما انه معروض لوساوس الشيطان الذى يزرع الشك فى قلبه، فهو يكفر ان لم يحاول قمع تلك الوسوس، و يقمع القرآن هذا الشك بقوله: «كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ».

ان النظر الى سلسله الحياه الماضيه يهدينا الى المستقبل، لأن السنه واحده تنطبق على الماضى و الحاضر و المستقبل، فاذا أردت ان تعرف المستقبل فارجع قليلا- الى الوراء و انظر اليه كيف كان؟ خلق الإنسان من تراب ثم من نطفه، فعلقه فمضغه، و بعد الولاده كان فى حاله تطور، فمن الطفوله الى الشباب الى الهرم الى الوفاء، و هذا التطور يسير حسب قانون و تدبير رشيدين، من لدن اله قدير مبدع، فلكى تعرف مستقبلك انظر الى بدايه خلقك، فبعد ما كنت ضعيفا فى رحم أمك قويت و سوف تعاد كذلك فى أرذل العمر، أو ليس الذى انشأك فى ظلمات الأرحام، و فى الحياه خلقا بعد خلق بقادر على انشائك من بعد موتك؟!

ورد فى بعض الأحاديث عن يوم القيامه: ان الأرض تصبح كرحم الام ينشأ الإنسان فيها كما ينشأ فى رحم أمه، و إذا كان الإنسان يولد من بطن امه ولاده،

فانه فى ذلك اليوم ينبت من الأرض نباتا. و الفارق: ان الناس فى الدنيا يولدون بالتدرج اجيالا الا انهم يوم القيامة يولدون جميعا.

و قدره الله فى الأرض تتجلى فى شىء يأمرنا ربنا بالتدبر فيه و هو ان الله يصنع الأشياء بمختلف الصور، فهم لم يخلق نوعا واحدا من الحيوانات و انما خلق كل شىء بمختلف الاحجام و الألوان، كل هذه الحيوانات و الكائنات خلقها و دبر أمرها و صورها حتى أننا لا- نتصور شيئا الا- و قد خلقه الرب، أو ليس الذى استطاع ان يخلق كل شىء بقادر على ان يبعث الإنسان فى الآخرة مره أخرى، كما خلقه اولاً فى رحم أمه؟! و فى نهايه الآيات يذكرنا الله بأمرين:

الاول: ضروره الايمان بقدره الله.

الثانى: ضروره الايمان بيوم القيامة.

ذلك ان الايمان بقدره الله هو الطريق للايمان بالبعث، فكلما شككنا فى البعث لا بد ان ننظر الى آيات قدره الله، لان الشك فى البعث ناتج من الشك فى الله، و الذى يعرف الله حقا لا يشك فى البعث.

بينات من الآيات:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ تشير بسم الله الى ان الحياه و ما فيها مخلوقه من قبل الله سبحانه، و قائمه به، لذلك فاننا كلما بسمنا على أمر فان توجه هذه البسملة يكون نحو ذلك الأمر، فاذا قلت بسم الله أقوم يعنى ان قيامك بالله، و إذا قلت: بسم الله أنام، يعنى ان نومك

بالله، وهكذا.

و تختلف سور القرآن الحكيم في معانيها العامه، لذلك فان كل (بسمله) في بدايه كل سوره تشير الى ان كل شىء هو قائم بالله، فعند ما نحج فانه باسم الله، و هدف الحج هو تقوى الله، و التقوى بدورها من الله و بالله، و عند ما نصوم فإن صيامنا باسم الله، و هدف الصيام هو تقوى الله، و التقوى بدورها من الله و بالله..

و هكذا عند ما نصلى و نقوم بأى واجب آخر.

[١] يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ الهدف من سوره الحج هو تكريس التقوى التى هى أعلى درجات الايمان بالمسؤوليه. ففى سوره الأنبياء- التى سبقت سوره الحج- كان الحديث عن المسؤوليه، اما هذه السوره، فالحديث فيها عن التقوى باعتبارها مرحله متقدمه من الايمان.

من الصعب على الإنسان ان يؤمن بمسلمات، و يظن انها قواعد راسخه يستطيع ان يقيم عليها بناء أفكاره، من الصعب عليه ان يؤمن بغيرها، حتى و لو كانت أقوى، و هنا- بالضبط- يمكن خطأ الإنسان إذا تأسره مسلمات فكرية توجه كل حياته و يزعم انه ضعيف امامها، كلا ان الإنسان أقوى من مسلماته، و علم الإنسان أنفذ من سابقياته الذهنيه، و مما يعتقد به مجتمعه و آباؤه، و ان الايمان بالساعه و زلزالها و أهوالها يحطم المسلمات، و السابقيات الذهنيه، و يعطى البشر قدره هائله للتفكير من جديد. عبر جسر الشك المنهجي فيما يزعم انه من الحقائق المسلمه.

[٢] يَوْمَ تَرُؤُنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ فَلَا تَسْتَطِيعُ الْمَرْضِعَةُ ان تفكر انثذ- لهول الساعه- برضيعها.

وَ تَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمَلٍ حَمْلَهَا وَ تَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَ مَا هُمْ بِسُكَارَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ان الحامل تجهض و يسقط جنينها، و المرأه لا تجهض الا إذا كانت تمر بهول عظيم، و ترى كل إنسان كالسكران، لا يستطيع ان يستوعب ما يجرى حوله، قد شغلته نفسه عن الآخرين، و اسكره العذاب حتى صار فاقدا لقدراته الفكرية.

ان تصور هذه الأحوال المروعه كفيل بايقاظ القلب الغافل. و هكذا كان السلف الصالح

فقد جاء فى قصه نزول هاتين الآيتين من سوره الحج ما يلى:

نزلت الآيات من أول السوره ليلا فى غزاه بنى المصطلق و هم حى من خزاعه، و الناس يسيرون، فنادى رسول الله صلى الله عليه و آله فحثوا المطى حتى كانوا حول رسول الله صلى الله عليه و آله فقرأها عليهم فلم ير أكثر باكيا من تلك الليله، فلما أصبحوا لم يحطوا السرج عن الدواب و لم يضربوا الخيام و الناس بين باك أو جالس حزين متفكر، فقال لهم رسول الله صلى الله عليه و آله: أتدرون اى يوم ذاك؟ قالوا: الله و رسوله اعلم، قال: ذلك يوم يقول الله لآدم: ابعث بعث النار من ولدك، فيقول آدم: من كم كم؟ فيقول عز و جل: من كل الف، تسعمائه و تسعه و تسعين الى النار و واحدا الى الجنة، فكبر ذلك على المسلمين و بكوا فقالوا: فمن ينجونا يا رسول الله؟ فقال صلى الله عليه و آله: أبشروا فان معكم خليقتين: يأجوج و مأجوج ما كانتا فى شىء الا كثرتاه، ما أتم فى الناس الا كشعره بيضاء فى الثور الأسود، أو كرقم فى ذراع البكر، أو كشامه فى جنب البعير، ثم قال:

انى لأرجو ان تكونوا ربع أهل الجنة فكبروا، ثم قال: انى لأرجو ان تكونوا ثلث أهل الجنة ثم قال: انى لأرجو ان تكونوا ثلثى أهل الجنة فان أهل الجنة مائه و عشرون صفا ثمانون منها أمتى، ثم قال: و يدخل من أمتى سبعون ألفا الجنة بغير حساب.

[٣] وَ مِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَقَوْلِهِ «يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ» أَي مِنْ دُونِ تَفْكِيرٍ فِي ذَلِكَ الْإِلَهِ الَّذِي يَجِبُ عَلَيْهِ أَنْ يَطِيعَهُ.

ان الجدل بالباطل لشاهد على حاله الاستقرار الكاذب،الذى لا يرضى صاحبه التحول عنه،حيث يزعم انه يهدم أساس حياته،أو يخالف عزته الشخصيه،بينما الاحساس بزلزال يوم القيامة،يجعل المؤمنين قادرين على مراجعه افكارهم فى ضوء العقل و الوحي و استقبال الحقائق الجديده بلا حميه و لا اعتزاز بالإثم،و الباطل.

و يزعم الكفار انهم يحافظون على كرامتهم،حين يعتزون بأفكارهم الباطله بينما يفقدون استقلالهم و كرامتهم بذلك،إذ انهم يتبعون شيطانا مريدا.

وَ يَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَرِيدٍ مُتَجَرِّدًا عَنْ كُلِّ خَيْرٍ مَتَمَحْضًا فِي الْفَسَادِ وَ الْإِفْسَادِ.

[٤] كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَنْ تَوَلَّاهُ بِإِرَادَتِهِ وَ جَعَلَهُ وَالِيًا عَلَيْهِ.

فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَ يَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ مِنَ الْمَسْتَحِيلِ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ الشَّيْطَانُ الْمَرِيدُ هَادِيًا لِاتِّبَاعِهِ،لأن الله قدر ان يكون مضلاً لمن اتبعه،و ان نهايتهما هى السعير.

[٥] يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبُعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ

﴿تَرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ﴾ ان كنتم فى ريب من البعث فانظروا الى ماضيكم هل باستطاعتكم ان تقولوا:

ان الله لا يقدر على خلقنا من جديد؟ فكيف استطاع إذا ان يخلقكم أطواراً، بعد ان لم تكونوا شيئاً؟! و جاء فى القرآن و السنه ان الإنسان قد خلق مرتين، مره فى عالم الذر حيث خلق كل الناس من تراب، و مره أخرى حينما أودعهم الأضلاب، ثم الأرحام.

فبعد ان تقذف النطفه فى رحم الام، نجدها تتحول بعد فتره الى قطعه دم، تعلق برحم الام (علقه) ثم الى ما يشبه اللحمه الممضوغه (مضغه).

﴿مُخَلَّقَةٍ وَ غَيْرِ مُخَلَّقَةٍ﴾ قد تحددت معالمهما كالعينين و الرأس و الأطراف، أو غير مخلقه لا تلبث ان تسقط من الرحم قبل ان تتحدد معالمها.

﴿لُبِّينَ لَكُمْ لِيَفْهَمَ الْإِنْسَانُ بِأَنَّ التَّطَوُّرَاتِ الَّتِي تَحْكُمُ وَجُودَهُ، دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهُ مَدْبُورٌ وَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَدْبُرُ الْحَكِيمُ لَهُ وَ لِلْخَلْقِ﴾.

﴿وَ نَقَرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَيْهِ أَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ ان المضغه تستمر فى الرحم الى ان يشاء الله و يأذن للجنين بالولاده، و بقاء الجنين فى الرحم ليس محدودا بمده تسعه أشهر، فقد يولد قبل هذا لذلك قال: ﴿وَ نَقَرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَيْهِ أَجَلٌ مُّسَمًّى﴾. و من معانى (و نقر) اى نكتب، لأنه كما ورد فى الأحاديث ان سعادته الإنسان و شقائه يكتبان عليه و هو فى بطن امه.

ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشَدَّكُمْ كَانَتْ بَدَايِهِ الْآيَةُ تَبِينُ تَطَوُّرَ الْجَنِينِ فِي الرَّحْمِ، أَمَا هُنَا فَتَبِينُ تَطَوُّرَهُ بَعْدَ أَنْ يُولَدَ طِفْلاً، حَيْثُ يَتَحَوَّلُ بَعْدَئِذٍ إِلَى شَابٍ يَافِعٍ قَدْ بَلَغَ أَوْجَ قُوَّتِهِ (أَشَدَّهُ).

□
وَ مِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى كَأَنْ يَمُوتَ بَمَرَضٍ أَوْ بِحَادِثٍ أَوْ بِقَتْلِ، وَ لَيْسَتْ لَهُ حِيلَةٌ فِي وَفَاتِهِ، أَمَا تَكُونُ بِأَمْرِ اللَّهِ وَ تَقْدِيرِهِ. وَ قَدْ يَبْقَى طَوِيلًا فِي الْحَيَاةِ لِيَعُودَ ضَعِيفًا كَمَا بَدَأَ.

وَ الْوَاقِعُ أَنَّ الزَّمَانَ لَيْسَ دَائِمًا فِي مَصْلَحَةِ الْإِنْسَانِ، وَ أَنَّ الْإِنْسَانَ لَيْسَ أَبَدًا فِي تِكَامُلِ ذَاتِهِ، كَيْفَ وَ هُوَ إِذَا بَلَغَ أَرْدَلَ الْعُمُرِ يَعُودُ كَالطِّفْلِ فَلَوْ كَانَ تِكَامُلُهُ ذَاتِيًّا، كَانَ لَا بَدَأَ أَنْ يَعُودَ دَائِمًا وَ لَا يَنْتَكِسَ.

حقاً: إن أهم ما يفقده البشر بكبر سنه هو علمه. العلم - في ذات الوقت - أعظم نعمه يسعى البشر نحوها و يحاول المحافظه عليها، لأن العلم يميزه عن سائر الخلقه، و حين يفقد علمه لا يعود ذا كرامه في أهله و ولده و مجتمعه، أو لا يكون ذلك شاهداً على ان تكامل البشر ليس من ذاته؟! وَ مِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْدَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَغْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئاً وَ تَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً كَأَنَّهَا مَوَاتٌ.

□
فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَ رَبَّتْ وَ أَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ إِنَّ تِلْكَ الْأَرْضَ الْمَيِّتَةَ عِنْدَ مَا تَسْتَقْبِلُ الْأَمْطَارَ فَانْهَارَتْ وَ تَنْمُو عَلَيْهَا النَّبَاتَاتُ.

و النباتات ليست ذات شكل واحد، و لو كانت الطبيعه هي التي تحكم الحياه اذن لكانت عمياء و لكان كل شىء على صوره واحده، و لكن تلك المواد الواحده- التراب- الأملاح- الماء- النور- تتحول الى عدّه أنواع من النباتات، بل ان الله يخلق من كل نوع زوجين لضمان استمرار كل فصيل و نوع- ثم ان متانه الصنع لا تمنع جماله.

[٦] ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ إِذْ لَا حَقَّ لِسِوَاهُ، وَ أَنَّهُ حَقٌّ لَا رَيْبَ فِيهِ وَ فِي قُدْرَتِهِ، وَ بِمَا أَنَّهُ الْحَقُّ - كُلُّ الْحَقِّ - فَهُوَ أَحَقُّ أَنْ يَتَّبَعَ.

وَ أَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى وَ أَنَّهُ عَلِيُّ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ [٧] وَ أَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَ أَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَانُوا فِي الْقُبُورِ يَبْعَثُونَ لِلْحِسَابِ بِقُدْرَةِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ، تِلْكَ الْقُدْرَةُ الَّتِي تَتَجَلَّى الْيَوْمَ فِي بَعثِ الْبَدْوَرِ - الْكَامِنَةِ فِي جَوْفِ الْأَرْضِ - بِالنَّسْبَةِ لِلْبَدْوَرِ كَالْقَبْرِ لِلْمَيِّتِ؟ وَ لَكِنْ فَكَمَا يَحْيِي رَبُّنَا بِالْمَاءِ الْبَدْرَةَ وَ كَذَلِكَ يَحْيِي سُبْحَانَهُ الْإِنْسَانَ وَ هُوَ فِي قَبْرِهِ.

من هنا

جاء في الحديث :

«إِذَا أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَبْعَثَ الْخَلْقَ أَمْطَرَ السَّمَاءَ عَلَى الْأَرْضِ أَرْبَعِينَ صَبَاحًا فَاجْتَمَعَتِ الْأَوْصَالُ وَ نَبَتَ اللَّحْمُ»

ص: ٢٢

اشاره

وَ مِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ (٨) ثَانِي عَطْفِهِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَ نُذِيْقُهُ
يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ (٩) ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتَ يَدَاكَ وَ أَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَامٍ لِلْعَبِيدِ (١٠) وَ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ
أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَ إِنْ أَصَابَتْهُ فَتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَ الْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ (١١) يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ
مَا لَا يَضُرُّهُ وَ مَا لَا يَنْفَعُهُ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ (١٢) يَدْعُوا لِمَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ لَيْسَ الْمَوْلَى وَ لَيْسَ الْعَشِيرُ (١٣) إِنْ اللَّهُ
يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ إِنْ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ (١٤)

هدى من الآيات:

تبين آى الذكر هنا جانبنا من حقيقه الايمان، و مواقف الناس تجاهه. فمنهم المجادلون، و منهم الحرفيون الذين لا يصمدون امام الفتنه، و منهم المؤمنون حقا الصالحون عملا.

و تشير الآيه الاولى الى الحجه التى بدونها يصبح الجدل فى الله باطلا. و هى العلم و الهدى، أو الكتاب المنير.

و من لا يملك حجه فهو غير مؤمن، بل مستكبر عن الحق يثنى عطفه و يسعى لإضلال الناس عن سبيل الله، و جزاؤه الخزى فى الدنيا حيث يشمله الصغار و الهوان. اما يوم القيامة فله عذاب الحريق، جزاء وفاقا بما جنته يداه.

اما الذين لم ترسخ فى افئدتهم حقيقه الايمان التى تقاوم الفتن، و تتحدى الضغوط، فتراهم يعبدون الله على طرف السبيل، تطمئن نفوسهم إذا أصابهم الخير

بايمانهم و ينقلبون الى هاويه الجحود ان أصابتهم الفتنة و تعرضوا لضغط. فيخسرون الدنيا و الآخرة ذلك هو الخسران المبين.

ان هؤلاء يميلون مع رياح السلطه و الثروه فيدعون من دون الله ما لا يضرهم و لا ينفعهم، من أصنام حجرية أو بشريه-ذلك هو الضلال البعيد.

بلى انهم يضررون أنفسهم بدعوه الأصنام التي هي قياده سوء و صحابه سوء. أما الذين يعبدون الله باطمئنان و سكينه، و يتحدثون الفتن و الضغوط، فلهم من ربهم الجزاء الحسن، جنات تجرى من تحتها الأنهار ان الله يفعل ما يريد.

بينات من الآيات:

اشاره

[٨] الحجج بين الله و خلقه العقل، و منه العلم و المعرفه، و منه الهدى، و العقل يدل صاحبه الى اتباع الكتاب المنير و من لا يملك هذه الحجج، فانما يجادل في الله باطلا.

وَ مِنْ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ يَقُولُ: هَلِ اللَّهُ قَادِرٌ عَلَىٰ أَنْ يَبْعَثَ الْمَوْتَىٰ، أَوْ يَفْعَلَ ذَلِكَ؟ وَ لِمَاذَا؟ وَ نَسْتَوْحِي مِنَ الْآيَةِ: ان الايمان بالنشور فرع الايمان بالله، و بأسمائه و منها القدره و الحكمه، بل الايمان بسائر حقائق الدين انما هو فرع لمعرفه الله، كما ينبغي ان يعرف، بعظمته و حكمته و رحمته بعباده.

بَغَيْرِ عِلْمٍ وَ لَا هُدًى وَ لَا كِتَابٍ مُنِيرٍ مَا هِيَ حَقَائِقُ هَذِهِ الْكَلِمَاتِ الَّتِي مِنْ تَمَسُّكِ بِوَاحِدَةٍ مِنْهَا فَازَ؟ أ: العلم، و هو ضوء العقل، و هو انكشاف الحقائق للقلب بنور الله، حيث

يغنى صاحبه من اتباع دليل أو التماس حجه.

ب: الهدى و هو مستوى أقل من العلم، كمن يمشى فى الصحراء تائها و إذا به يجد علامه من بعيد تدلّه على الوجهه التى يجب عليه ان يتبعها. و الفرق بين المستويين (العالم و المهتدى) ان العالم يمتلك خريطه مفصله يمكنه الاعتماد عليها فى مسيره الى الله، فهو لا يحتاج الى علامه، اما المهتدى فهو كمن يتبع و ميض نور يسير على هداه.

ج: الكتاب المنير قد لا يكون الإنسان عالما و لا مهتديا، فيكون سائرا على هدى عالم آخر، كما لو ان جماعه من الناس يسرون فى صحراء خلف دليل، و الدليل هو العالم، و قد يكون الدليل هو الكتاب فهم يسرون معه انى اتجه.

[٩] ثَانِي عَطْفِهِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِي مَائِلًا- ما بين منكبه و رقبتة تعبيرا عن التكبر و الاعراض، لما يواجه به من الحق، فهو أبدا مولّ عنه، و يسعى لإضلال الناس عن سبيل الله، و سبيل الله هو الايمان به و العمل الصالح خالصا لوجهه.

لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ لَعَلْنَا نَسْتَوْحِي مِنَ الْآيَةِ: ان من يجادل فى الله، يتلى فى الدنيا بخزى أعده الله له لا يمكنه الفرار منه، فاما فشل ذريع، أو ميتة سوء، أو فضيحه عند الناس، أو لعنه ابدية. أو ليس قد اختار لنفسه الذلّ باتباع إبليس و طاعه الطغاه، و الخضوع للأثرياء؟ وَ نُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ النتيجة فى الآخرة لن تكون أحسن منها فى الدنيا، بل هى أشد و اسوأ.. كلما

تنضح جلودهم تبدل بجلود غيرها،ليذوقوا العذاب الحريق.

[١٠] ذَلِكْ بِمَا قَدَّمْتَ يَدَاكَ وَالْيَدَانِ تَعْبِيرٌ عَنِ كُلِّ الْجَوَارِحِ، فَهَذِهِ حِكْمَةُ اللَّهِ، أَنَّهُ يَتْرَكُ الْإِنْسَانَ فِي الدُّنْيَا يَقْتَرِفُ مَا يَرِيدُ وَيَجْرِمُ مَا يَشَاءُ وَلَكِنَّهُ يَقِفُ لَهُ بِالْمَرْصَادِ يَأْخُذُهُ بِذَنْبِهِ حِينَ يَشَاءُ.

وَ أَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَامٍ لِلْعَبِيدِ لِأَنَّهُ سَبَّحَانَهُ قَدْ أَعْطَاكَ عَقْلًا، وَ بَعَثَ إِلَيْكَ رَسُولًا، وَ أَوْضَحَ لَكَ طَرِيقَكَ، وَ بَيَّنَّ لَكَ كَيْفَ تَعْمَلُ، وَ كَيْفَ تَتَوَقَّرُ لِنَفْسِكَ الْعِزَّةَ فِي الدُّنْيَا وَ النَّعِيمَ فِي الْآخِرَةِ، إِنْ الرَّبُّ قَدْ أَرَادَ الْعِزَّةَ لِلْخَلْقِ حِينَ أَمَرَهُمْ بِعِبَادَتِهِ، وَ رَفَضَ عِبَادَةَ الْمَخْلُوقِينَ، وَ لَكِنَّهُمْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَآخَذَهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ.

و ربما توحى هذه الآيه بان الله لا يأخذ عباده بما ينوون القيام به من السيئات، بل بما يقومون به فعلا.و لذلك جاء التعبير بما قدمت يداك.

الاتباع على حرف:

[١١] كَانَ ذَلِكَ وَاقِعَ الْمُجَادِلِينَ فِي اللَّهِ بَاطِلًا.. وَ هُنَاكَ طَائِفَةٌ ثَانِيَةٌ يَتَحَدَّثُ عَنْهَا السِّيَاقُ هُنَا، وَ هُمْ طَائِفَةُ الْحَرْفِيِّينَ الَّتِي تُؤْمِنُ بِاللَّهِ ظَاهِرًا وَ لَكِنَّهَا عَلَى شَكٍّ، فَإِنْ أَصَابَهُمْ خَيْرٌ اطمأنت نفوسهم و ركنت اليه، و ان أصابهم شر تردوا الى مهاوى اليأس و سوء الظن، انهم كمن يمشى على طرف الهاويه يسقط فيها بأقل زله قدم، و يزعم هؤلاء: ان مقياس الحق ما يحصلون عليه من المنافع، فاذا ما أوتوا قدرا من المال و السلطه إذا هم مع الحق اما إذا مَحَصُوا بِالْبَلَاءِ مِنْ قَبْلِ اللَّهِ نَكَصُوا عَلَى أَعْقَابِهِمْ.

وَ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ

و الحرف هو: الحافه و الطرف.

فَمَاِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطمأنَّ بِهِ ان هذا الاطمئنان ليس بالله، و انما بذلك الخير الذى اصابه، فهو يتبع قياده الرسول ما دام يسبغ عليه الخير.

وَ اِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ و لعل الانقلاب على الوجه تعبير عن التغيير كليا و بصوره فجائيه، حيث يقطع علاقته بالمؤمنين تماما، و يقف فى صفوف الكفار كاملا.

يتحدث الله عن هؤلاء قائلا:

خَسِرَ الدُّنْيَا وَ الآخِرَةَ لان الإنسان الذى يمشى على شك لا يصيب من الدنيا متاعا، و لا ينال فى الآخره اجرا، لأنه فى الدنيا كان مع المؤمنين و هم عاده ما يكونون مبتلين بالشدائد، و يعيشون ظروفًا صعبه من الفقر و الحرمان و المطاردة، اما فى الآخره عند ما يهب الله الأجر للمؤمنين لا يحسب منهم، لأنه ممن كان قلبه متعلقا بالكفار فهو نائل ما ينالونه.

و يؤكد القرآن و بشده على عذاب هؤلاء، لان أكثر الناس الذين يدعون الايمان انما هم من هذه الطائفه، فهم يصلون فى ظروف السلم و الهدنه، اما إذا جدَّ الجدَّ و أصبحت الصلاه جريمه يعاقب عليها القانون، فهم ليسوا مستعدين للصلاه، انهم مع تقلبات السياسه أو الاقتصاد أو المجتمع، كالريشه فى مهب الرياح.

و لقد فسرت كلمه (حرف) فى الأحاديث بأنه الشك، و ابرز مظاهر الحرفيه فى

حياء هؤلاء ان انتمائهم الى القيادات الرساليه يخضع لقانون الحرفيه،فمتى ما وجدوا القياده فى حاله انتصار كانوا معها،و متى ما كان العكس انفضوا عنها.

و لذلك جاء فى أحاديث كثيره و مأثوره:ان الحرفيين هم أولئك الذين يشكون فى القيادات الالهيه،إذ ان الطاعه المطلقه للرسول و أوصيائه من الأئمه و بعدهم الفقهاء،هو ابرز مظاهر الايمان.و لذلك تجد السياق يحدثنا عن مسأله الولاء فى الآيات التاليه.

[١٢]مقياس الايمان الحق الانتماء الى القياده الالهيه،و الثبات معها و طاعتها فى الظروف الصعبه رغم مخالفتها للأهواء و المصالح الذاتيه.

و ابرز مظاهر الحرفيه فى الايمان الشك فى القياده الربانيه عند ما تأمر بعمل صعب،أو يخالف قرارها هوى النفس،أو حينما تتعرض لنكسه أو هزيمه.و ان مصير الحرفيين الارتقاء فى احضان القيادات الجاهليه،كالسلطات الطاغوتيه،أو الأحزاب الملحد،أو الفئات المنحرفه.و هذا يعتبر شركا ظاهرا فى منطق القرآن.

و هو فى ذات الوقت ضلال بعيد.

يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ إِيَّاهُ يُشْرِكُونَ وَمَنْ يَشْرِكْ بِاللَّهِ فَهُوَ كَالضَّالِّ الضَّالِّ لَا يَسْتَنْفَعُ ذَلِكَ هُوَ الضَّالُّ الْبَعِيدُ أحيانا يتبع الإنسان قياده لا تنفعه و هو يحسب أنها تفيده بل هو ينفعها باتباعه

لها،أو ليس الضلال أن يعبى الإنسان طاقاته من أجل لا شىء،فلا نفع و لا دفع للضرر؟!!

و أبعد من هذا الضلال أن ينتمى البشر الى قياده تضر و لا تنفع.

[١٣] يَدْعُوا لِمَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ حيث يتراءى لهذه الفئة من الناس ان القيادات الجاهليه توفر لهم قدرا من العزه، و الثروه، الا ان العاقبه هى الفقر و الاستعباد.

لَبِئْسَ الْمَوْلَى الْقَائِدَ.

وَ لَبِئْسَ الْعَشِيرُ الصَّاحِبَ.

و لعل هذه الآيه تكشف لنا انه لا يجوز للإنسان ان يأذن للآخرين باتباعه ان لم يعرف فى ذاته الكفاءه، و لا يجوز له ان يعتذر بقوله: ان الناس هم الذين نصبونى إماما و قائدا لهم، بل يجب عليه ان يعتزل عن هذا المنصب، و إذا لم يعتزل فانه ممن يقول الله « لَبِئْسَ الْمَوْلَى ».

[١٤] إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَ هُمَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ إيماناً راسخاً، و ترجموا إيمانهم الى ممارسات عمليه، و سلوك صالح.

إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ لأنه قادر مرید مطلق القدره و الاراده، يفعل ما يريد، لا ما يريد غيره، و من

مظاهر إرادته الحكيمه حسن جزائه للمؤمنين الصالحين، و سوء عقابه للمجادلين فيه، و الشاكين فى أنبيائه و أوليائه.

أو ليس الأولى بنا إذا ان نسعى الى جنان الرب التى وعدنا إيّاها ان كنا مؤمنين صادقين؟ و أية جنات هى التى بشر الله عباده بالغيب؟ دعنا نستمع الى أئمه آل البيت عليهم السّلام و هم يفسرون القرآن، و ينقلوننا الى رحاب تلك الجنات التى بشر بها القرآن.

إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى وَ لِيَأْشَهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ

حدثنى أبى عن ابن أبى عمير عن أبى بصير قال: قلت لأبى عبد الله عليه السلام: جعلت فداك شوقنى فقال: يا أبا محمد من أدنى نعيم الجنة أن يوجد ريحها من مسيره ألف عام من مسافه الدنيا، و أن ادنى أهل الجنة منزلا لو نزل به الثقلان الجن و الانس لوسعهم طعاما و شرابا، و لا ينقص مما عنده شيئا، و ان أيسر أهل الجنة منزله من يدخل الجنة فيرفع له ثلاث حدائق، فاذا دخل أدناها رأى فيها من الأزواج و الخدم و الأنهار و الثمار ما شاء الله مما يملأ عينه قره و قلبه مسره، فاذا شكر الله و حمده قيل له: ارفع رأسك الى الحديقه الثانيه فيها ما ليس فى الأولى، فيقول: يا رب اعطني هذه، فيقول الله تعالى: ان أعطيتكها سألتنى غيرها، فيقول: رب هذه فاذا هو دخلها شكر الله و حمده، قال: فيقال: افتحوا له بابا الى الجنة و يقال له: ارفع رأسك فاذا قد فتح له باب من الخلد و يرى أضعاف ما كان فيما قبل فيقول عند مضاعف مسراته: رب لك الحمد الذى لا يحصى إذ مننت علىّ بالجنان، و أنجيتنى من النيران، قال أبو بصير: فبكيت و قلت له:

جعلت فداك زدنى قال: يا أبا محمد ان فى الجنة نهرا فى حافتيه جوار نباتات، إذا مر المؤمن بجاريه أعجبتة قلعهها و أنبت الله عز و جل مكانها أخرى، قلت: جعلت فداك زدنى قال: يا أبا محمد المؤمن يزوج ثمانمأه عذراء، و اربعة آلاف ثيب، و زوجتين من الحور العين. قلت: جعلت فداك ثمانمأه عذراء؟ قال: نعم ما يفترش منهن

شيئا الا وجدها كذلك.قلت:جعلت فداك من أى شىء خلقن الحور العين؟ قال:من تربه الجنه النورانيه و يرى مخ ساقها من وراء سبعين حله كبدها مرآته و كبده مراتها،قلت:جعلت فداك ألهن كلام يتكلمن به فى الجنه قال:نعم.

كلام لم يسمع الخلايق اعذب منه،قلت:ما هو؟قال يقلن بأصوات رخيمه:

نحن الخالدات فلا- نموت،و نحن الناعمات فلا نبأس،و نحن المقيمات فلا نظعن،و نحن الراضيات فلا نسخط،طوبى لمن خلق لنا،و طوبى لمن خلقنا له، و نحن اللواتى لو أن قرن أحد بنا،علق فى جو السماء لأغشى نوره الأبصار. (١)

ص:٣٢

١-١) بج ج ٨ ص ١٢٠.

إشاره

مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمِذْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لِيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدَهُ مَا يَغِيظُ (١٥) وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَأَنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يُهِيدُ (١٦) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (١٧) أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالْدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ (١٨) هَذَانِ خَصِمَاتٌ إِخْتَصِمُوا فِي رَبِّهِمْ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِنْ نَارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُؤُسِهِمُ الْحَمِيمُ (١٩) يُصْهِرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ (٢٠) وَلَهُمْ مَقَامِعٌ مِنْ حَدِيدٍ (٢١) كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ (٢٢)

اللغة

١٥ [بسبب]:السبب كل ما يتوصل به الى الشىء.

[يغيظ]:ما أوجب غيظه من المشكله و الفتنة التى وقع فيها.

١٧ [الصابئين]:هم خليط من الأديان،وقيل لكل خارج من الدين الى دين آخر صابئ.

[المجوس]:عبدوا النار كان لهم نبي و كتاب،فقتلوا نبيهم و أحرقوا كتابهم.

هدى من الآيات:

تطرت الآيات السابقة عن ان هناك من يؤمنون بالله ايماناً حرفياً، فاذا أصابتهم نعمه اطمأنوا بها، أما إذا امتحنوا بفتنه انقلبوا على وجوههم و قالت: ان هؤلاء يتبعون قاده يضرون و لا ينفعون.

و فى هذا الدرس يذكرنا القرآن بأن الحاكم الحقيقى للكون، و من له الولاية الحق على الإنسان هو الله، ليس فقط فى المجال التشريعى و فى الآخرة، و انما أيضا فى الدنيا و فى المجال التكوينى.

و لتأكيد هذه الفكرة تذكرنا الآيات بعده حقائق:

أولاً: ان الذين يزعمون انهم منفصلون عن اراده الله و تديره فليفعلوا ما يشاءون، و ليكيدوا ما يريدون، ثم لينظروا، هل باستطاعتهم ان يخرجوا من حدود قدره الله و ملكوته؟

ثانيا:هل باستطاعه الإنسان ان يهتدى الى سواء السبيل،و يعرف الطريق القويم،من دون هدى الله المتمثل فى آياته و رسوله و فى توفيقه للهدى؟ ثالثا:هل بالإمكان توحيد البشر على أساس غير رساله الله الحق؟ كلا..

ان رساله الله و العمل بها هو الأساس الوحيد لتوحيد الناس.

ثم يؤكد الذكر على ان كل ما فى السماوات و الأرض خاضع لله و ساجد له، كالشمس و القمر و النجوم و الشجر و الدواب،و لكن تبقى مجموعه من البشر تشذ عن هذه السنه لفته محدوده،و فى مجال محدود،ينتهبون بانتهااء الفرصه التى أعطاهم الله.فليس بإمكان الإنسان ان لا يأكل أو لا يشرب أو لا ينام،و كذلك ليس باستطاعته ان يخرج نفسه من الأرض،أو يتمرد على سنن الحياه،نعم بإمكانه ان لا يصوم أو لا يصلى،فى هذا المجال المحدود فقط اعطى الحريه لكى تمتحن إرادته، اما فى سائر المجالات فلا- بد له من الخضوع طوعا و كرها؟ اذن ما دمت لا تستطيع الخروج عن ولايه الله،فلما ذا تتمرد عليه و تتخذ غيره وليا؟ هذا فى الدنيا،اما فى الآخره فيساق المجرمون الى جهنم سوقا و تفصل لهم ثياب من نار،و يصب من فوق رؤوسهم الحميم فيصهر ما فى بطونهم و أجوافهم،و لهم مقامع«مطارق»من حديد ملتهب،و كلما حاولوا الفرار من النار أعيدوا إليها مقهورين.

اذن فبدايه الإنسان و نهايته محدودتان بتدبير الله،انه لا يخرج من ملكوت الله و سلطانه،فحرى بالإنسان ان لا يتخذ غير الله وليا و قائدا.

[١٥] مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمِدُّدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لِيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ (الهاء) في كلمه (ينصره) تعود الى أحد معنيين، اما الى نبينا محمد صلى الله عليه و آله و اما الى من فى جمله « مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ ».

ففى الحاله الاولى يكون المعنى: انه من كان يحقد على محمد صلى الله عليه و آله ، و ما جاء به من رساله الله و يشك فى نبوته، و لا يعتقد بان الله ناصره فى الدنيا و الآخرة، فليبدل كل ما فى وسعه، و ليحرب كل حيله الى ذلك، حتى لو استدعى ذلك ان يمد جبلا من أعلى و يشنق نفسه، ثم لينظر: هل استطاع ان يتحدى اراده الله بمنع رسوله أو بمنع رسالته فيشفى بذلك حقه و ظنه؟ اما فى الحاله الثانيه فان الآيه تعنى ان الله سبحانه ينصر الإنسان، و يحفظه و يعينه فى الدنيا و الآخرة. و من كان يظن غير ذلك، فليذهب انى يشاء، و ليفعل ما يريد، حتى و لو شاء خنق نفسه (بمد جبل الى السماء ثم قطعه) فانه لن يقدر على تحدى سلطان الله، و لن يذهب عمله و حقه على الله.

و لعل الآيه تتضمن تحديا اعجازيا للبشر، فاذا كانوا يشكون فى قدره الله اذن فليخرجوا من ملكوت الله، و من سننه و قوانينه الثابته التى اخضع لها كل شىء، و التى يكرهون على الخضوع لها، و من ثم لينظروا-بعد ان يستخدموا كل امكانياتهم و علومهم-هل استطاعوا ان يخرجوا من ملكوت الله، أو هل تحرروا من قوانين الحياه الماديه و المعنويه، فيشفوا بذلك غيظهم النابع من جهلهم الموجه ضد اراده الله و سننه التى وضعت لمصلحتهم، و التى كان ينبغى عليهم ان يعملوا بموجبها و يشكروا الله عليها لأنها أهم مظاهر رحمه الله بعباده. فيكون معنى الآيه: مدّوا

بحبل الى السماء، فهل تقدررون على ذلك؟ و الله العالم.

عند ما صعد رائد الفضاء (ارمسترونغ) الى القمر.. هل استطاع ان يخرج من اراده الله؟! كلا.. انه لا يستطيع ذلك حتى انه لم ينس مشاكله العائليه مع زوجته، فقد صرّح بعد نزوله الى الأرض: كنت أفكر و انا على سطح القمر فى خلافاتى مع زوجتى.. و هل هى راضيه عن عملى هذا الذى أقوم به أم لا؟ هكذا يبقى الإنسان محكوما بالانظمه و القوى الطبيعيه حوله، ماديه كانت أم معنويه، شاء ذلك أم ابى، و لا يمكنه و الحاله هذه الا ان يمثّل لأمر مولاه. و ان تكبر و استنكف فلا يضر الا نفسه.

و أخيرا لو تفكر الإنسان: من الذى يرزقه و يسبغ عليه النعم، و من الذى يدفع عنه آلاف الاخطار التى تحمل فى طياتها الموت و الدمار، لو وجد انه هو الله الرزاق ذو القوه المتين، و ما عداه ليس الا أسبابا مخلوقه..

الله يهدى من يريد:

[١٦] وَ كَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَ أَنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يُرِيدُ كَمَا ان الجانب المادى من حياتنا محكوم بإرادته الله سبحانه فكذلك الجانب المعنوى منها كالهدايه، و لو كان العقل و الفطره كافيان لهدايه الإنسان، فلما ذا يضل البعض و يهتدى الآخرون و الجميع يمتلك العقل و الفطره؟ كلا.. أَنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يُرِيدُ . و ما دامت الهدايه من الله فلنتخذة وليا، لا نعبد سواه.

[١٧] إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ الَّذِينَ هَادُوا وَ الصَّابِئِينَ وَ النَّصَارَى وَ الْمَجُوسَ وَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ ان الاختلاف الناشئ بين البشر دليل واضح على ان الإنسان بحاجة الى

اللّٰه ليهديه الى الطريق القويم و ان اللّٰه هو الذى يقضى بالحق، و يفصل بين اتباع المذاهب المختلفه.

□
إِنَّ اللّٰهَ عَلِيٌّ كُلُّ شَيْءٍ شَهِيدٌ إِنَّ فَصَلَ اللّٰهَ بَيْنَ المذاهبِ و الآراءِ المختلفه، و بالتالى بين الحق و الباطل فى كل قضيه صغيره أو كبيره، انما هو تجل لشهادته الشامله لكل شىء، و انه المهيمن الذى لا يعزب عن علمه شىء فى السموات و الأرض.

و لأنه شهيد على كل شىء، فلا بد من احترام محضره المبارك، و التحسس برقابته المباشره و اشرافه الدائم، و ان يسأل كل إنسان نفسه عند ما يهيم بعمل أو قول، أو حتى عند ما يجيل بخاطره فكره، و يريد ان يتخذ قرارا أو يصدر رأيا، هل اللّٰه راض عن ذلك، انه يحاسبه غدا عليه. ان هذا الاحساس هو الذى يبعث نور الهدى فى ضمير البشر، و يشد أزر العقل ضد الهوى، و يساعد على منهجيه التفكير دون الفوضى، و يقوم سلوك الفرد دون التطرف.. و يجعل له من نفسه واعظا مرشدا.

لقد جاء فى الأثر: ان زليخا عند ما طلبت الفحشاء من يوسف عليه السلام و غلقت الأبواب رأت فى جانب الغرفه صنما، فقامت و غطته، فسألها يوسف: لماذا صنعت هكذا؟ فقالت: لكى لا يرانا، فقال يوسف: تستحين أنت من صنمك و هو لا يسمع و لا يبصر، و لا استحي انا من ربى؟! [١٨] ثم يوجه القرآن الحكيم نظر الإنسان الى السماء و الأرض.. الى آيات اللّٰه التى تشهد جميعها على هيمنه اللّٰه المطلقه و خضوع كل شىء فى الوجود له سبحانه.

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالْدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ إِنَّ هَذِهِ الْأَشْيَاءَ تَخضع خضوعاً لله.

وَكَثِيرٌ حَقٌّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ لَكِن كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَا يَسْجُدُونَ لِلَّهِ وَهُؤُلَاءِ لَا يَشْكُرُونَ فِي الْوَاقِعِ سِوَى نَسْبِهِ ضَيْئِلَهُ إِذَا مَا قَيْسُوا بِمَا فِي الْكُونِ مِّنْ مَّخْلُوقَاتِ هَائِلِهِ، وَاعْدَادِ غَيْرِهِ تَعْجِزُ الْكَمْبِيرَاتِ عَنْ إِحْصَائِهَا وَتَسْجِيلِهَا.

إِنَّ كِرَامَةَ الْإِنْسَانِ تَقْتَضِي السَّجُودَ لِرَبِّ تَسْجُدَ لَهُ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ، وَمِنْ فِيهِمَا، ذَلِكَ اللَّهُ الْفَاعِلُ مَا يَشَاءُ، أَمَا السَّجُودُ لَصْنَمٍ لَا يَضُرُّ وَلَا يَنْفَعُ بَلْ يَضُرُّ وَلَا يَنْفَعُ، أَوْ لِبَشَرٍ ذَلِيلٍ حَقِيرٍ كَالسَّلَاطِينِ الْمَغْرُورِينَ، أَوْ كَأَصْحَابِ الثَّرْوَةِ الْمَفْسُدِينَ فَانَّهُ يَسْتَتَبِعُ أَهَانَهُ وَذَلِكَ وَصَغَارًا.

وَاللَّهُ سَبْحَانَهُ حِينَ لَا يَهْدِي الْبَشَرَ يَتَّبِعُهُ بِعِبَادِهِ الْأَصْنَامِ الصَّامِتَةِ أَوْ النَّاطِقَةِ، فِيهِنَّ بِذَلِكَ، وَمِنْ أَهَانَةِ اللَّهِ لَا مَكْرَمَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ.

وَلَا يَقْدِرُ أَحَدٌ تَحْدِي إِرَادَةَ اللَّهِ، وَالْخُرُوجُ عَنْ أُطَارِ الْإِهَانَةِ الشَّرِكِيَّةِ إِلَى عِزِّ التَّوْحِيدِ، لِأَنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ، وَلَا يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ غَيْرُهُ سَبْحَانَهُ.

وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرَمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ مِنْ أَهَانَةٍ هُؤُلَاءِ، أَوْ إِكْرَامِ أَوْلِيكَ الَّذِينَ يَسْجُدُونَ لَهُ، مِنْ هُنَا كَانَ عَلَيْنَا الْإِلْتِجَاءُ إِلَيْهِ لِيَهْدِينَا إِلَيْهِ، وَيَجْعَلَنَا مِمَّنْ أَكْرَمَهُمُ بِالسَّجُودِ لَهُ.

[١٩] هَذَانِ خَضَمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ

فريق هدى و فريق حق عليهم الضلالة..

فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ [□]يَابٌ مِنْ نَارٍ الَّذِينَ كَفَرُوا تَقَطَّعَ لَهُمْ ثِيَابٌ مِنْ نَارٍ فَصَيَّلت بمقدارهم،حتى تكون النار أكثر ملامسه لكل جزء من أبدانهم كذلك ليدوقوا العذاب الشديد.

يُصَّبُ مِنْ فَوْقِ رُؤُسِهِمُ الْحَمِيمُ عند ما يحيط الثوب النارى بالجسم تبقى بعض الأعضاء مكشوفه كالرأس فيصب عليه الحميم الساخن ليكون العذاب شاملا لكل أجسامهم.

[٢٠] يُصَيَّرُ بِهِ [□]مَا فِي بُطُونِهِمْ وَ الْجُلُودُ ان الحميم من شده حرارته(و الذى قيل فى شأنه انه الرصاص المذاب)يصهر ما فى أجوافهم القلب-الكبد-الأعاء.

[٢١] وَ لَهُمْ مَقَامِعٌ [□] مِنْ حَدِيدٍ المقمعه:آله تستعمل للدق،تحملها الملائكه لتضرب بها رؤوس المجرمين.

[٢٢] كَلِمًا [□] أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا [□] مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا [□] وَ ذُوقُوا عَذَابَ الْخَرِيقِ بالرغم من ان الكفار فى جهنم يعلمون ان لا أمل لهم فى النجاه منها الا أنهم من شده العذاب يحاولون الخروج منها بسبب غمها و كدرها،و فى كل مره يحاولون ذلك يفشلون،و هذا بحد ذاته عذاب نفسى لهم.

هكذا يتبين مدى خطأ الفكره التفويضييه التى ترى ان الله لا ينصر العبد فى

الدنيا والآخرة، وانه لا- يرتبط به شيء من التقدير والتدبير، كلا.. ان الله هو الذي ينعم ويهدي ويكرم ويجازي، فالى كهفه نلتجى، و من غضبه الى رحمته نفر، و به من عذابه نستعيذ.

ص: ٤٢

اشاره

إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَ لُؤْلُؤًا وَ لِبَاسَهُمْ فِيهَا خَيْرٌ (٢٣) وَ هُودُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَمْوِيلِ وَ هُودُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ (٢٤) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ يَصُدُّونَ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ وَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاطِقِ فِيهِ وَ الْبَادِ وَ مَنْ يُرِدْ فِيهِ بِالْحَادِ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ (٢٥) وَ إِذْ يَوَّأُنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَ طَهَّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَ الْقَائِمِينَ وَ الرُّكَّعِ السُّجُودِ (٢٦) وَ أَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَ عَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ (٢٧) لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَ يُذَكِّرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَ اطَّعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ (٢٨) ثُمَّ لِيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَ لِيُوفُوا نُدُورَهُمْ وَ لِيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ (٢٩)

اللغة

٢٥] بِالْحَادِ: الإلحاد العدول عن القصد.

٢٦] بَوَّأُنَا: ووطأنا.

ص: ٤٣

٢٧]فج عميق[:طريق بعيد.

٢٩]العتيق[:هو الكعبه، و انما سَمِيَ عتيقا لأنه أعتق من أن يملكه العبيد.

ص: ٤٤

هدى من الآيات:

انتهت آيات الدير السابق بإنذار بالغ الشده للذين كفروا،و ذلك بتصوير مشهد من مشاهد العذاب فى يوم القيامة،و لأنه كلما ورد إنذار فى القرآن الحكيم شفيع بترغيب و بشاره فقد جاءت هذه الآيات تبشر المؤمنين بان لهم عند ربهم ثوابا يتجلى فى جنه تجرى من تحتها الأنهار،و فى زينه يتزين بها هؤلاء فى تلك الجنه،و من قبل هداهم الله الى القول الطيب و الصراط الحميد.ثم يتناول موضوع الحج باعتباره منسكا من مناسك الامه الإسلاميه الواحده،و يهدف تكريس التقوى فى نفوس ابنائها،أما الكفار الذين يصدون عن سبيل الله،و من أبرز مصاديقه المسجد الحرام،فلهم عذاب اليم،بل كل من ينحرف فيه بظلم الناس،فله عذاب اليم.

و يعيدنا القرآن الى اليوم الاول الذى بنى فيه المسجد الحرام،و كيف أمر الله تعالى إبراهيم عليه السلام ببناء البيت للناس جميعا،لا من أجل طائفه أو قوم.انما البيت للقريب و البعيد،للقاصى و الدانى.

و لم يوضع الحرم لكى يشرك بالله غيره،انما وضع لكى يعبد الله وحده هناك.

(بإقامه الصلاه و بالركوع و السجود)فقد أمر الله إبراهيم عليه السلام ان يطهر بيته من الأصنام التى كانت تعبد من دون الله،فى أيام الجاهليه،و الأصنام البشريه التى تعبد اليوم هناك و باسمه.

و آيات هذا الدرس هى سنام هذه السوره-فيما يبدو لى-لأنها تتحدث عن وسيله تكريس التقوى،و الحج هو أفضل وسيله لذلك،و قد عرفنا مسبقا أنّ التقوى هى أعلى درجات الاحساس بالمسؤوليه.

بينات من الآيات:

الجنة نعيم شامل:

[٢٣] إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا صَادِقًا بِاللَّهِ،هم المؤمنون حقا،و هم الذين ينعكس ايمانهم فى واقع حياتهم،بالقيام بالأعمال الصالحه.و الجنات التى يدخلها هؤلاء هى ترجمه لعملهم الصالح،و لهذا جاءت كلمه(جنات)بلفظ الجمع باعتبار ان عملهم الصالح على درجات و ان لكل عمل جنة.

يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَ لُؤْلُؤًا وَ لِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ اى يزينون بأساور من الذهب،كما يتوجون أو يقلدون باللؤلؤ النفيس، و يلبسون ملابس خضراء من حرير فاخره و تصور هذا المنظر يشوق الإنسان الى الجنة.

[٢٤]ثم لا يكتفى السياق ببيان النعم الماديه،بل يضيف إليها النعم المعنويه

أيضا حيث يقول:

وَهُدُّوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدُّوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ الطيب من القول هو: (السَّيِّئَاتِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ) وجاء في بعض الأحاديث، انه كلمة التوحيد، وقد ورد في بعض النصوص: أنّ الله يرسل الى أهل الجنة كل وقت بهديه و انها هي الطيب من القول، وهذا هو المعنى الذى ذهب اليه المفسرون، و كأن الهدايه تتم فى الجنة، و لكن يبدو لى ان معنى الآية: ان المؤمنين قد هداهم الله فى الدنيا الى الطيب من القول، و هو كلمة التوحيد و الإخلاص. و الى الصراط الحميد، و هو طريق الأنبياء و الأئمه الهداه، عليهم جميعا صلوات الله.

الصد عن السبيل:

[٢٥] بعد ذلك يبدأ القرآن بنبذه عن الكفار، و ما هو عملهم، بالمقارنه مع المؤمنين، و عملهم فيقول:

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَيْسَ الْكُفْرُ هُوَ الْكَلَامُ النَّظْرَى أَوْ الْعَقِيدَةُ الْمَجْرَدَةُ فَحَسَبَ. بل هو أيضا ما نبع من ذلك كالهذيان و العمل الشىء، لذلك لا يلبث القرآن بعد ان ذكر الكفار، ان يبين واقع كفرهم قائلا: «وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ» يعنى ان هؤلاء قد كفروا فى قراره أنفسهم، اما عملهم فصد عن سبيل الله، و لذلك تجد كلمه «كفروا» جاءت بصيغته الماضى، بينما جاءت كلمه «يصدون» بصيغته المضارع الداله على الحال و المستقبل، فالكفر قرار واحد، اما الصد عن سبيل الله فهو عمل دائم و مستمر.

و الصد عن سبيل الله، يقف حاجزا بين الإنسان و قيامه بالعمل الصالح، أيا كان هذا العمل -امرا بمعروف أو نهيا عن منكر أو بناء مساجد الله و أداء فرائضه

-لان الصد عكس ذلك تماما كخلق العراقيين التي تمنع الحجاج عن أداء فرائضهم، أو منع السلطات عماره الأرض، و كبت حريه العمل و التجاره، و عموما فان الكفر يقف حجر عثره فى طريق الإنسان لكي لا يصل ذرى التقدم و التكامل المادى و المعنوى.

وَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَمَا الصَّدْعُ عَنِ الْمَسْجِدِ فَهُوَ نَوْعَانِ:

النوع الاول: تكبير الناس بالقوانين الاداريه الجائره، و منعهم من السفر الى الحج أساسا.

النوع الثانى: هو ان يتمكن الحجاج من الوصول الى المسجد الحرام، و لكنهم لا يتركون ليؤدوا شعائرهم الدينيه، كما فرضها الله عليهم بحريه تامه، بسبب هيمنه و ضغط السلطات الجائره المتحكمه على الأماكن المقدسه.

ضمان حريه الإنسان فى الحرم:

و قبل ان يسوق القرآن الحديث حول بيت الله و مناهج الحج اليه، يفرض احترام المسجد الحرام، و يتوعد الذين يظلمون فيه، و يعتدون على حرمت الناس، و يصادرون حرياتهم، بالعذاب الأليم.

و الحريه هنالك تعنى كل شىء، إذ من دونها تكاد تتفرغ مناهج الحج من محتوياتها، فكيف يشهد الحجاج منافع لهم و سيف الظلم مسلط عليهم. و كيف يتفكرون فى شؤون الامه، و اجهزه القمع المتسلطه تلاحقهم، و كيف يخلعون ثياب الشرك، و يتحررون من خوف الجبابره ليعبدوا الله وحده، و شياطين السلطه يحيطون بهم.

و هكذا نفهم ان أى انحراف يتم بالظلم تشمله الآية، حتى و لو لم يكن من قبل الدوله، بل من أصحاب السلطه الصغار كالزوج و المالك و المدير و..و..

جاء فى حديث مأثور على الامام الصادق -عليه السلام- :

«كل ظالم يظلم الرجل نفسه بمكه من سرقه أو ظلم أحد أو شىء من الظلم فانى أراه إلحادا. و لذلك كان ينهى ان يسكن الحرم» (١).

أى كانت الاقامه الدائمه بمكه مكروهه شرعا، لان الإنسان لا يخلو من ظلم نفسه بواحد من هذه المحرمات فاذا سكن البيت اعتبرت معاصيه هذه إلحادا، و ضاعف الله عليها العقاب.

الَّذِي جَعَلَنَاهُ لِلنَّاسِ مَلِكًا أَحَدًا، لَا لِعَائِلَةٍ مَعِيْنَةٍ وَلَا لِدَوْلَةٍ خَاصَّةٍ، إِنَّمَا هُوَ لِلنَّاسِ جَمِيعًا، وَ قَدْ جَعَلَهُ اللَّهُ كَذَلِكَ.

سَوَاءٌ الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِىُّ أَيْ يَتَسَاوَى فِيهِ الْمَقِيمُ الْمَعْتَكِفُ بِمَكِهِ، مَعَ ذَلِكَ الَّذِي يَأْتِيهِ مِنَ الْبَدْوِ أَيْ الصَّحْرَاءِ، ثُمَّ يُوَكِّدُ اللَّهُ هَذِهِ الْحَقِيقَةَ، مَرَّةً أُخْرَى، قَائِلًا:

وَ مَنْ يُرِدْ فِيهِ بِالْحَادِ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ إِنْ أَصْحَابُ السُّلْطَاتِ الظَّالِمَةُ الَّتِي تَتَّخِذُ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ وَ حَاجَةَ النَّاسِ إِلَيْهَا سَبَبًا لِتَحْرِيفِ النَّاسِ وَ تَضْلِيلِهِمْ، أَوْ الَّتِي تَفْرِضُ عَلَى الْآخَرِينَ مِنْهَجًا مَعِينًا فِي التَّفْكِيرِ.. سَوْفَ يَنْذُقُونَ عَذَابًا أَلِيمًا. معنى (بالحاد) بانحراف.

ص: ٤٩

و لكي يمرر الجاهليون ظلمهم و تسلطهم و افسادهم في الحرم تراهم يحرفون الكلم عن مواضعه و هذه هي مشكله الإنسان الرئيسي. حيث ان أصحاب السلطه قادرون على تحريف المناهج التي وضعت لانقاذه منهم، بحيث لا تنفع أو تكون اداه لتسلطهم عليه من جديد. و يبدو ان الآيه هنا تحذر من هذه الحاله لكي لا يتحول المسجد الحرام الى مكان للظلم و الإلحاد باسم جديد! [٢٦] وَ إِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا لَقَدْ حَدَدَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَ تَعَالَى مَكَانَ الْبَيْتِ الْحَرَامِ، لِإِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لكي يرفع قواعده عاليه شامخه، و لهدف معين هو: ان يكون البيت القاعده الرئيسي لنسف فكره الشرك اولاً- و لاقامه منهج التوحيد الصحيح ثانياً. و الواقع ان الكعبه المشرفه كانت موجوده من قبل إبراهيم عليه السلام و لكنها مع مرور الزمان، اندرست آثارها، و لم يبق لها رسم يدل عليها، و لم يكن إبراهيم عليه السلام ليعلم حدود البيت.

كما انه لم يكن باستطاعته ان يختار بيتا حسب رأيه الخاص، لان هذا الأمر يختص بالخالق العظيم، جل شأنه- الذي له الأمر و الخلق.. فحدد الله مكانها له ثم أمره قائلاً:

وَ طَهَّرْ بَيْتِي لِلطَّائِفِينَ وَ الْقَائِمِينَ وَ الرُّكَّعِ السُّجُودِ أَيْ طَهَّرَ بَيْتِي مِنَ الْأَدْرَانِ الْمَادِيهِ وَ الْأَرْجَاسِ الْوَثْنِيهِ. و قد ذكرت هذه الآيه الحالات الأربع للعباده عند المسجد الحرام، و هي: الطواف و القيام.. (الاقامه أو الدعاء و الذكر) و الركوع و السجود و هما يرمزان الى الصلاه و يعبران عن الكثره، و هذه العبادات ترمز الى التوجه الخالص لله، و الخضوع له و التسليم لأمره، و اتخاذ شريعته محورا للحياه.

[٢٧] وَ أَدَّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ جَاءَ فِي الْأَثَرِ عَنْ هَذِهِ الْآيَةِ أَنَّهُ لَمَّا فَرَّغَ إِبْرَاهِيمُ مِنْ بِنَاءِ الْبَيْتِ أَمَرَهُ اللَّهُ أَنْ يُؤَدِّنَ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ، فَقَالَ: يَا رَبِّ! مَا يَبْلُغُ صَوْتِي؟ فَقَالَ لَهُ: أَذْنُ.. عَلَيْكَ الْأَذَانُ وَ عَلَيْنَا الْبَلَاغُ، وَ ارْتَفَعَ عَلَى الْمَقَامِ وَ هُوَ يَوْمُنْذُ مَلْصُقٌ (مَلْتَصِقٌ) بِالْبَيْتِ، فَارْتَفَعَ بِهِ الْمَقَامَ حَتَّى كَانَ أَطْوَلَ مِنَ الْجِبَالِ، فَنَادَى وَ ادْخَلَ إِصْبَعَهُ فِي أُذُنِهِ وَ اقْبَلَ بِوَجْهِهِ شَرْقًا وَ غَرْبًا يَقُولُ: أَيُّهَا النَّاسُ كَتَبَ عَلَيْكُمْ بِالْحَجِّ إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ، فَأَجِيبُوا رَبِّكُمْ، فَأَجَابُوهُ مِنْ تَحْتِ الْبُحُورِ السَّبْعِ، وَ مِنْ بَيْنِ الْمَشْرِقِ وَ الْمَغْرِبِ، إِلَى مَنْقَطِعِ التَّرَابِ مِنْ أَطْرَافِ الْأَرْضِ كُلِّهَا وَ مِنْ أَصْلَابِ الرِّجَالِ، وَ مِنْ أَرْحَامِ النِّسَاءِ بِالتَّلْيِيهِ: لِيَبْكِيَكَ اللَّهُمَّ لِيَبْكِيَكَ.. أَوْ لَا تَرَوْنَهُمْ يَلْتَوْنَ؟ فَمَنْ حَجَّ مِنْ يَوْمُنْذُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ فَهُمْ مِمَّنْ اسْتَجَابَ اللَّهُ وَ ذَلِكَ قَوْلُهُ: « فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ » يَعْنِي نَدَاءَ إِبْرَاهِيمَ عَلَى الْمَقَامِ.

يَأْتُوكَ رِجَالًا وَ عَلَيَّ كُلُّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ رِجَالًا: أَيُّ مَتْرَجِلِينَ عَلَى أَقْدَامِهِمْ، وَ ضَامِرٌ: الدَّوَابُّ الْمَضْمَرَةُ الَّتِي أَضْمَرَتْ بِكَشْرِهِ التَّدْرِيْبَ أَوْ لَطْوُلِ الْمَسَافَةِ، وَ هَذِهِ الْآيَةُ تَرْمِزُ إِلَى أَنَّ الْحِجَّاجَ يَأْتُونَ إِلَى الْحَجِّ مَتْلَهْفِينَ أَمَّا رَاجِلِينَ أَوْ مَمْتَطِينَ دَوَابَّهُمْ الضَّامِرَةَ.

[٢٨] لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ الْمَنَافِعُ الْمَادِيَّةُ وَ الْمَعْنَوِيَّةُ الْمُخْتَلِفَةُ الَّتِي فِيهَا صَلَاحٌ مَعَاشِهِمْ وَ اسْتِقَامَةٌ حَيَاتِهِمْ..

وَ يَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ

أى فى أيام الحج من شهر ذى الحجه.

عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ الِاضْحِيَاتِ الِتِى تَنَحَّرُ فِى مِنَى يَوْمِ الْعَاشِرِ.

فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعَمُوا الْبِائِسَ الْفَقِيرَ أَى كَلُوا مِنْهَا أَنْتُمْ وَقَرَابَاتِكُمْ، وَأَطْعَمُوا الْفَقِيرَ الَّذِى قَدْ بُوَسَّ وَجَاعٌ. وَهَذِهِ دَعْوَةُ صَرِيحِهِ لِلْمُوسِرِينَ، مِنْ أَجْلِ أَنْ يَخْرُجُوا مِنْ حُدُودِ أَرْضِهِمْ وَشَحْمِهِمْ، كَى يَقْضُوا حَاجَاتِ الْمَعْسَرِينَ الْمَحْتَاجِينَ..

[٢٩] ثُمَّ لَيَقْضُوا تَفَثَهُمْ حَيْثُ تَصْبِحُ شُعُورُهُمْ شَعَثًا غَبْرَاءَ مِنْ كَثْرَةِ التَّرْحَالِ وَالْمَسِيرِ، كَمَا تَطُولُ أَظْفَارُهُمْ، وَفِى نَهَائِهِ مَوْسَمَ الْحَجِّ يَقْصُونَ شُعُورَهُمْ وَيَقْلَمُونَ أَظْفَارَهُمْ. وَيَطْهَرُونَ أَبْدَانَهُمْ مِنَ الْأَدْرَانِ، وَالتَّفَثِ فِى اللُّغَةِ الدَّرَنُ.

وَ لِيُؤْفُوا نُذُورَهُمْ وَ لِيَطُوفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ وَ تَلْمَحَ هَذِهِ الْآيَةَ إِلَى أَنْ ضَرُورَةُ قِضَاءِ النُّذُورِ وَ هِىَ -عَادَةٌ- تَلْمَحُ الِتِى يَلْزِمُهَا الْفَرْدُ عَلَى نَفْسِهِ أَنْ يَبْلُغَ مَكَّةَ سَالِمًا، أَوْ أَنْ قَضَى حَاجَاتِهِ. وَ لَعَلَّنَا نَسْتَفِيدُ مِنْ هَذِهِ الْآيَةِ التَّأَكِيدِ بِتَطْهِيرِ الْقَلْبِ وَ التَّخْفِيفِ عَنْهُ بِالْوَفَاءِ بِالنُّذُورِ، حَتَّى يَعُودَ الْحَاجُّ إِلَى بَيْتِهِ بِصَفْحَةٍ جَدِيدَةٍ. أَمَّا الطَّوْفُ بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ، فَقَدْ جَاءَ فِى الْأَحَادِيثِ أَنَّهُ الطَّوْفُ الْأَخِيرُ الَّذِى يَسْمَى بِطَّوْفِ النِّسَاءِ لِأَنَّ النِّسَاءَ لَا يَحِلُّنَ إِلَّا بَعْدَهُ، وَ يَسْمَى الْبَعْضُ بِطَّوْفِ الْوَدَاعِ، لِأَنَّهُ آخِرُ طَّوْفٍ حَوْلَ الْبَيْتِ، الَّذِى سَمَّاهُ الرَّبُّ هُنَا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ، لِأَنَّهُ حَرَّعَ عَنْ مَلَكَهِ الْإِنْفِرَادِ وَ عَنِ سُلْطَةِ الْجَبَابِرَةِ وَ مَرَكُزِ لِحْرِيَةِ النَّاسِ. وَ هُوَ

أول بيت وضع للناس (جميع الناس) وقد أعتقه الله من الغرق عند الطوفان الأعظم على عهد النبي نوح عليه السلام.

و كلمه اخيره:

لقد فسرت في أحاديث أهل البيت عليهم السلام كلمه (ليقضوا تفثهم) باللقاء مع (الامام) أو ليس الحضور عند الامام و الالتقاء به في اجواء الحريه عند البيت الحرام يقضى على الأدران المعنويه لقلب الحجاج، و يؤهلهم لبدء رحله جهاديه جديده، و هذا التفسير يؤكد على الجانب الحضارى للحج، المتمثل في تطوير الحياه السياسيه و الاقتصاديه و الاجتماعيه للامه عبر الحج و ذلك باللقاء مع امام الامه، و قائد مسيرتها، و رائد حركتها المباركه.

و

في حديث آخر: يجعل الامام احدى حكم الوفاده الى بيت الله التفقه في الدين. و نقل أنباء القياده، الى الأقطار.

جاء في الأثر المروى عن الامام الرضا عليه السلام و هو يبين علل الحج: قال: لعله الوفاده الى الله تعالى، و طلب الزياده، و أضاف: و نقل اخبار الأئمه - عليهم السلام - الى كل صقع و ناحيه، كما قال الله عز و جل:

« فَلَوْ لَا نَفَرْنَا مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَ لِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ »، و ليشهدوا منافع لهم.

(١)

ص: ٥٣

ذَلِكَ وَمَنْ يُعِظْ حُرْمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَأُحِلَّتْ لَكُمْ الْآثَامُ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ (٣٠) حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ (٣١) ذَلِكَ وَمَنْ يُعِظْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ (٣٢) لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَىٰ الْبَيْتِ الْعَتِيقِ (٣٣) وَلكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا لِيذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَإِلَهُكُمْ إِلَهُ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ (٣٤) الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَىٰ مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (٣٥)

هدى من الآيات:

التقوى تنبت فى ارض التوحيد، و فروعها تشمل كل حقول الحياه، و أهم و أبرز مظاهرها هو تعظيم حرمان الله و شعائره.

و الذين يخالفون التقوى هم الذين يرتكبون الرجس من الأوثان، فيفعلون ما ينبغى تركه و يتركون ما ينبغى فعله، و يتبعون قول الزور و الباطل، فاذا بهم يرتكبون ما حرم الله كعباده الأوثان، و من جهه اخرى يقبضون أنفسهم عما أحل الله لهم زورا و بهتاناً، و هذا مناف للتقوى.

و يعود القرآن-مره أخرى-ليذكرنا بان جذر التقوى فى النفس هو تحدى الضغوط، بحيث يكون الإنسان حنيفاً، مائلاً عما يريد الآخرون له، و ما يحاولون فرضه عليه. و من يشرك بالله يكون كمن يهوى من السماء الى الأرض، فإما ان يلتقطه الشيطان فيبتلع قدراته و قواه، كما تخطف الطيور فريستها من السماء، أو يترك حتى يهوى الى مكان سحيق.

و الدرجة العليا للتقوى هي تعظيم شعائر الله، بتعظيم كل ما يرتبط بالله تبارك و تعالى احتراماً له.

و يعود القرآن فيبين بعض مناسك الحج التي هي من شعائر الله: كالإبل التي تساق الى الحج لتنحر فيه. و يؤكد: ان عمل الإنسان هو الذي ينمى التقوى فى قلبه.

بينات من الآيات:

تعظيم الحرمات:

[٣٠] ذَلِكْ وَ مَنْ يُعْظِمِ حُرْمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ لَآنَ تَعْظِيمِ حُرْمَاتِ اللَّهِ وَ شَرَائِعِهِ يَعُودُ نَفْعُهُ إِلَى الْفَرْدِ نَفْسِهِ، إِذْ يَحْتَسِبُهُ اللَّهُ لَهُ، فَيَجَازِيهِ خَيْرًا مِنْهُ، سِوَاءٍ فِي الدُّنْيَا بِزِيَادَةِ الْبَرَكَاتِ، أَوْ فِي الْآخِرَةِ بِالْجَنَاتِ.

وَ أُحِلَّتْ لَكُمْ الْبَهِيمَةُ الْأَنْعَامُ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ إِنْ أَحَلَّ اللَّهُ لَنَا الْبَهِيمَةَ الْأَنْعَامَ إِلَّا النَّزْرَ الْيَسِيرَ، كَالْمَوْقُودِ وَ الْمَتْرَدِيهِ وَ النَّطِيحِ وَ مَا أُكِلَ السَّبْعِ، وَ إِنْ أَلْتَرَامَ بِمَا أَحَلَّ اللَّهُ وَ بِمَا حَرَّمَ، هُوَ جَوْهَرُ التَّقْوَى وَ أَهَمُّ مَصَادِقِهِ.

فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ هَذَا الشَّطْرُ مِنَ الْآيَةِ يَبِينُ الْإِبْعَادَ الْمَعْنَوِيَةَ لِلتَّقْوَى، فَتَنْقَلُ الْإِنْسَانُ مِنْ اجْتِنَابِ اللَّحْمِ الْمَحْرَمِ، إِلَى اجْتِنَابِ الرِّذَائِلِ الْخَلْقِيَةِ الَّتِي تُضَرُّ بِكَرَامَةِ الْإِنْسَانِ، بَلْ تُضَرُّ الْمَجْتَمِعَ وَ تُسِيءُ إِلَيْهِ كَلَّهُ.

و نسأل ما هو الرجس؟

لقد وقف المفسرون طويلا عند هذه الكلمه، فمنهم من قال: انها القمار و النرد و الشطرنج، و منهم من قال: انها الأوثان التي تعبد من دون الله، باعتبار ان الحج كان ملوثا عند الجاهليه بعباده الأوثان، و قد أمر الله سبحانه ان يطهر الحج من عباده الأوثان. و قال بعضهم: ان الرجس هو مجرد قبول فكره وجود الصنم في بيت الله الحرام. و قال بعضهم: انها تلك الذبائح التي تذبح لغير الله. و قد سبق ان قال الله تبارك و تعالى: **وَ أُحِلَّتْ لَكُمْ الْبَاطِنَاتُ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ** و في أماكن متفرقه من القرآن يؤكد الله على ان ما ذبح لغير الله حرام، و انه رجس.

كل ذلك صحيح و مقبول و لكن يبدو ان هناك فكره اعمق و هي: ان الإنسان اما ان يعبد الله وحده لا شريك له، و يلتزم بالقيم التي أمر بها الله سبحانه، و اما ان يخضع للشىء أى شىء كان. بتعبير آخر: الناس اثنان، فاما إنسان قيمى يقدر القيم و يؤمن بالغيب، أو إنسان شئى لا يؤمن الا بالشهود، و هو يقدر الأشياء، ان الرذيله.. الانحراف.. الظلم.. إلخ كل ذلك ناتج عن شئيه الإنسان و عدم تقديسه للقيم، و قد يحول فى بعض الأحيان القيم الى الشىء، فتراه يذهب الى الحج و لكنه ليس بهدف الوصول الى الله من خلاله، بل ينظر الى مناكسه نظره شئيه، فيتوجه قلبه الى هذه الأشياء دون ان يجعلها سبيلا. و رمزا الى القيم التي وراءها، فالكعبه يجب ان تكون عندنا رمز التوحيد و الوحده، و الذبح يجب أن يرمز الى ان كل شىء فداء لله، و رمى الجمار يجب ان يرمز الى ضروره مقاومه الشياطين... إلخ.

و الذى ينحرف فيعبد الشىء لا شك انه سوف ينحرف انحرافات أخرى، و منها الشطرنج، الذى يشبه الى حد ما تلك العاده الجاهليه التافهه، التي كانت تقضى بالقرعه عند الأوثان، ثم العمل بمقتضى ما يستخرج منها.

لذلك

جا فى الأثر: عن أبى عبد الله الصادق عليه السلام، قال فى قول الله عز و جل:

ص: ٥٧

« فَاجْتَنِبُوا الرَّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ قَالَ:

الرجس من الأوثان الشطرنج، وقول الزور الغنا» (١)

و في حديث آخر عن الامام الصادق عليه السلام أيضا: ان من قول الزور:

«قول الرجل للذي يغنى: أحسنت» (٢)

و في روايه أيمن بن خزيم عن رسول الله صَلَّى الله عليه و آله انه قال :خطبنا فقال:

«ايها الناس عدلت شهاده الزور بالشرك بالله» ثم قرأ « فَاجْتَنِبُوا الرَّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ » (٣) و من مجموع هذه الأحاديث نستوحي ان قول الزور هو كل قول باطل.

وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ صحيح ان كلمه (قول الزور) فسّرت بالغناء و الطرب و اللهو، و لكن أهم و أعظم من قول الزور هذا هو: ان يقول الإنسان كلاما فينسبه الى الله تعالى، و يتعبد به فيحلل ما حرم الله و يحرم ما أحلّ الله سبحانه.

ص: ٥٨

١-١) نور الثقلين ج ٣-ص ٤٩٦.

٢-٢) المصدر ص ٤٩٥.

٣-٣) المصدر ص ٤٩٦.

[٣١] حُنْفَاءٌ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ الحنيفيه تعنى الطهاره من أدران المجتمع و الميل الى ما يريدہ اللہ منك، كالميل عن سلوك المجتمع، أو عن ضغط الأهواء و الشهوات خالصا لوجه اللہ.

فليس من الحنيفيه المطلوبه ان تتحدى ضغطا اجتماعيا لضغط آخر، أو هوى نفسانيا لهوى آخر أو تحارب طاغوتا من الغرب، من أجل آخر من الشرق، كلا، انما عليك ان تتحدى و تقاوم الضغوط كلها و الأهواء جميعا و كل السلطات الظالمه لأجل اللہ الحق سبحانه.

فالحنيفيه طريق واضح و محجه بيضاء، تختلف تمام الاختلاف، و تتناقض تمام التناقض، مع كل السبل الاخرى و لها وجهان: ميل عن الشركاء و الضغوط، و اتجاه الى اللہ وحده.

و الواقع: ان الحنيفيه هي فطره الإنسان الطاهره النقيه التي يثوب إليها المؤمنون، من هنا

جاء في حديث مأثور عن أبي جعفر الباقر عليه السلام حين سأله زراره: عن قول اللہ عز و جل: «حُنْفَاءٌ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ» و عن الحنيفيه قال:

«هي الفطره التي فطر الناس عليها، لا- تبديل لخلق اللہ قال فطرهم على المعرفه. «(١) وَ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخَطَّفَهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوَى بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ

ص: ٥٩

بفعل الجاذبيه يخز الشىء من السماء،فاذا كان هذا الشىء صيدا تسارع الطيور لاصطياده،و ان لم تصطده يستمر فى السقوط الى ان يصل الى الهاويه،وكذلك الإنسان الذى يشرك بالله،اما ان يصبح من نصيب الطغاه يجيرونه لمصلحتهم و ينتفعون من طاقته،و اما ان يكون من نصيب الوادى السحيق،البعيد القعر فى جهنم.

اهداف شعائر الله:

[٣٢] ذَلِكْ وَ مَنْ يُعْظِمُ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ الالتمام بحرمات الله جانب من التقوى،اما الجانب الأكل منها فهو تعظيم شعائر الله،الذى يعنى تعظيم كل شىء يدلنا على الله.ان تعظيم قطعه قماش منصوبه على طرف عمود ليس تعظيما لذاتها،انما هو تعظيم للوطن الذى يمثله هذا العلم، كذلك تعظيم المسجد،و العالم و القرآن انما هو تعظيم لله،فالله سبحانه هو الحق،و سائر الحرمات و الشعائر وسائل اليه،و كل شىء محترم أو شخص مقرب، يقدر لله،لا لأجل ذاته.

و الشعائر:جميع شعيره بمعنى العلامه التى تدلك على الشىء.و شعائر الله هى الواجبات الدينيه التى تشهد على عظمه الرب مثل مناسك الحج و صلاه الجمعه و الجماعه،و سائر مظاهر التوحيد.و الشعيره التى جاءت هذه الآيه فى سياقها:هى الأنعام التى يسوقها الحاج من منزله الى بيت الله.و قد علمها بعلامه تدل على أنها هدى،بالغ الكعبه.

[٣٣] لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعٌ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّىٰ بِاسْتِطَاعَتِكُمْ ان تستفيدوا من الانعام التى تنوون تقديمها الى الله،من حليها

و صفوها و وبرها،الى ان تصلوا مكة. كما أكدت ذلك أحاديث عديده. (١)

ثُمَّ مَحَلُّهَا أَي مَنَزَلُهَا الْآخِرِ.

إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ الْعَتَقُ هُوَ التَّحْرِيرُ بَعْدَ الْعُبُودِيَّةِ، وَ لَقَدْ أَعْتَقَ اللَّهُ الْبَيْتَ الْحَرَامَ مِنْ مَلَكيهِ الْإِفْرَادِ أَيَا كَانُوا وَ جَعَلَهُ لِلنَّاسِ سِوَاءً، وَ هُوَ فِي نَفْسِ الْوَقْتِ مَكَانَ الْعَتَقِ، أَي أَنَّ الْإِنْسَانَ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَحْرُرَ نَفْسَهُ مِنْ ذُنُوبِهِ، وَ مِنْ كُلِّ مَنْ يَسْتَعْبِدُهُ مِنْ شَيْطَانِ الْجِنِّ وَ الْإِنْسَانِ.

[٣٤] وَ لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنَسَكًا لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيَّ مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ .

لكل امه من الأمم شعائر، وضعت من أجل ذكر اسم الله، فتقديس هذه الشعائر لذاتها هو نوع من الرجس و الوثنيه، اما نحن فعلينا الأ نقدس المناسك لذاتها، انما نقدس المناسك لأنها تدعونا الى ذكر الله، و قد سبق القول: بان المناسك المذكوره فى هذه السوره تهدف-فيما تهدف-الى بيان خلفياتها، لثلاث تقديس المناسك ذاتها و يهمل ما وراءها من قيم و اهداف، و الهدف من الانعام التى تذبح لله ليس إهداء لحمها الى الله، لان الله لا ينال لحومها و لا شحومها، بل تناله التقوى و ذكر الله، فذكر الله هو الهدف الرئيسى من كل المناسك، لذلك قال: « لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيَّ مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ » و ذكر الله ليس ذلك الذكر اللسانى، بل نية القلب، و إخلاص العمل، كذل قال الله: « وَ لَكِنَّ يِنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ ».

و المنسك حسب الراغب-العباده. و حسب الطبرى و الرازى يقال المنسك و يقصد الذبيحه. (٢)

ص: ٤١

١-١) راجع نور الثقلين ج ٣ ص ٤٩٧.

٢-٢) تفسير نمونه ج ١٣-ص ١٠٢.

فَاِلهُكُمْ اِلٰهٌ وَّاحِدٌ لَّيْسَ اِلهُكُمْ الْاَنْعَامُ الَّتِي تَفْدُونَهَا، وَّ لَيْسَ اِلهُكُمْ الزَّيْنَةُ الَّتِي تَتَرَيْنَ بِهَا فِي يَوْمِ الْعِيدِ، وَّ لَيْسَ اِلهُكُمْ مَجْتَمِعُكُمْ. كَلَّا.. اِنَّمَا اِلهُكُمْ اِلٰهٌ وَّاحِدٌ، وَّ كُلُّ هَذِهِ النِّعَمُ مِنَ اللّٰهِ وَّ تَحْتَرَمُ بِاَمْرِ اللّٰهِ.

فَلَهُ اسْلِمُوا وَّ بَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ الْمُخْبِتُونَ: الَّذِينَ سَلِمُوا لَآ وَّ اَمْرَهُ، وَّ سَلِمُوا لَوْحِدَانِيَّتِهِ.

[٣٥] و يتميز المخبتون بعده صفات هي:

١- و جل القلب بذكر الله. و هو تعبير عن قوه الروح، و عمق الايمان، و قد بلغت تقوى الله في أنفسهم، درجه تجرى عبراتهم بمجرد ذكره، اى وصلوا الى درجه العرفان، فكان الله اجلى و اعظم حقيقه في نفوسهم كما

جاء في الدعاء المأثور عن سيدهم الامام الحسين عليه السلام: «الهي كيف يستدل عليك بما هو في وجوده مفتقر إليك، أ يكون لغيرك من الظهور ما ليس لك حتى يكون هو الدليل عليك، متى غبت حتى تحتاج الى دليل يدل عليك، و متى بعدت حتى توصلنا الآثار إليك، عميت عين لا تراك عليها رقبيا. » ٢- الصبر على الرساله، و على ظلم الناس، و الصبر أيضا على قمع الأهواء و الشهوات.

٣- اقامه الصلاه التي هي رمز لسائر العبادات.

٤- حرصهم و محافظتهم على بناء صرخ المجتمع بالإنفاق.

ص: ٦٢

كذلك قال ربنا و هو يصف المختين:

الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَىٰ مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ

ص: ٦٣

وَ الَّذِينَ جَعَلْنَا لَكُمْ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَ أَطْعَمُوا الْفَانِعَ وَ الْمُعْتَرَّ كَذَلِكَ سَيَخْرُجُنَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٣٦) لَنْ يَدْعَاكَ اللَّهُ لِحُومِهَا وَ لَا دِمَائِهَا وَ لَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ كَذَلِكَ سَيَخْرُجُنَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَ بَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ (٣٧) إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ (٣٨) أُوذِيَ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ (٣٩) الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَ لَوْلَا دَفَعَهُ اللَّهُ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهَدَمَتْ صَوَامِعُ وَ بِيَعٌ وَ صَلَوَاتٌ وَ مَسَاجِدٌ يُذَكَّرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَ لَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ (٤٠) الَّذِينَ إِذَا مَا كَانُوا فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَ آتَوْا الزَّكَاةَ وَ أَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَ نَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَ لِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ (٤١)

هدى من الآيات:

هكذا جعل الله البدن، و هي الإبل، من شعائره، حيث تساق الى البيت الحرام، من شقه بعيده، فاذا صفت أيديها و ارجلها للنحر، التفت حولها الناس، و منهم الجائعون، يذكرون اسم الله عليها، حتى إذا وقعت منحوره أكلوا منها و أطعموا الفقير و المسكين، و شكروا الله.

لمن هذه اللحوم التي تطعم، و تلك الدماء التي تراق؟ انما هي للناس، و فائده الذبح و النحر تنميه التقوى فى النفوس. و الهدف من تسخيرها لهم تذكيرهم بعظمه الله. و ان يكبروه على ما هداهم، و يحسنوا الى الناس..

و بمناسبة الحديث عن الحرمات و الشعائر، يبين السياق حكم الدفاع عنها، فالله سبحانه يدافع عن الذين آمنوا انه لا يحب كل خوان كثير الخيانه دائم الخيانه، الكفور بنعم الله. و الخونه هم الذين يقاتلون المؤمنين، و لا- يفون بعهد و لا- ذمه. اما المؤمنون فعليهم ان يقاتلوا الكفار لأنهم قد ظلموا و يتوكلوا على الله واثقين بنصره،

أو لم يخرجوا من ديارهم بغير حق، و إنما لأنهم يقولون: ربنا الله؟ بلى و إنما تبقى للمقدسات حرمة بدفاع المؤمنين عنها. و إلا هدمت بيوت العبادة و الله ينصر من ينصر دينه و هو القوى العزيز.

و إنما يهدف المؤمنون بقتالهم التمكن فى الأرض و اقامه حكم الله فيها.

بينات من الآيات:

اهداف الشعائر:

[٣٦] وَ الْبُذُنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِّنْ شَعَائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ الْبَدَنُ هِيَ الْإِبِلُ الَّتِي تَقَلَّدُ لِتَنْحَرُ فِي مَنِ، و هذه من الشعائر المقدسه، و لنا فيها و أمثالها من الشعائر خير، خير مادي و معنوي، بالاستفاده منها اولاً، و بالحصول على التقوى من خلالها ثانياً.

فَإذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صِيَّوْفًا أَي اذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا حِينَ تَصِفُ أَيْدِيهَا وَ أَرْجُلَهَا اسْتِعْدَادًا لِلنَّحْرِ، و ذكر الله واجب عند النحر، و ليست هنالك صيغه خاصه له. إلا ان الأثر جاء بنص يعتبر الأكمل،

ففى حديث مروى عن أبى عبد الله الصادق عليه السلام جاء هذا الذكر عند النحر .

«وجهت وجهى للذى فطر السموات و الأرض حنيفاً مسلماً و ما انا من المشركين، ان صلاتى و نسكى و محياى و مماتى لله رب العالمين لا شريك له و بذلك أمرت و انا من المسلمين، اللهم منك و لك، بسم الله و بالله، و الله أكبر، اللهم تقبل منى .» (١)

ص: ٦٧

و فائده هذه الشعائر هي أنها تزيد من الكمالات الروحية و المعنوية.

فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا أَي خرت صريعته بعد نحرها، حتى استقرت جنباتها على الأرض بالكامل كناية عن انتهاء حركتها.

فَكُلُّوا مِنْهَا وَ أَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَ الْمُعْتَرَّ كَلِمَتِي (القانع و المعتر) تدلان على معنيين هما الفقير و المسكين. و الفقير هو الذى لا يملك قوت سنته، اما المسكين فهو الذى أسكنه الفقير بيته، و هو أشد فقرا منه.

و أصل كلمه القانع هو الفقير الذى يقتنع بما تعطيه، فهو كما قال الرب سبحانه فى آيه أخرى: تحسبهم أغنياء من التعفف.. بينما أصل كلمه المعتر الذى لا يملك تعففا من السؤال. و الكلمه مشتقه من (العز) و هو مرض الجرب يصيب جلد البعير، و كان المعتر قد أصاب وجهه مرض فسقط جلده كناية عن ذهاب ماء وجهه و عدم الحياء لديه. و جاء فى روايه ان المعتر هو الذى يعتريك.. و لا يسأل.

و فى حديث آخر عن أبى عبد الله الصادق عليه السلام :

«القانع الذى يرضى بما أعطيته و لا يسخط و لا يكلم و لا يلوى شذقه غضبا، و المعتر المار بك لتطعمه. » (١) كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ الهدف من تسخير الله الانعام للإنسان هو الشكر له سبحانه، و عموما فان

ص: ٦٨

الهدف من النعم الماديه هو التكامل المعنوى.

و نستوحى من هذه الآيه: ان النعم الماديه فى الحياه الدنيا وسيله للتكامل المعنوى، فالإنسان الجائع الذى لا يمتلك مأوى يأوى اليه ليحميه من قيظ الصيف و برد الشتاء، من الصعب عليه ان يسعى من أجل بناء كيانه المعنوى، ان ينمى علمه و ايمانه و تقواه، اما الذى استطاع ان يتجاوز ضرورات حياته، فان باستطاعته ان يتفرغ لما هبى له.

و ضرورات الحياه تشبه وقود السياره، فحينما تمتلئ السياره بالوقود آنئذ تصبح مهيأه للسير، فسير السياره هو الهدف بينما الوقود ضروره الهدف، فالسياره لم تصنع لكى تبتلع الوقود، انما صنعت لكى تنطلق، و كذلك الإنسان لم يأت الى الحياه لكى يأكل و يشرب و ينام، و..و.. انما أتى الى الحياه و فرضت عليه تلك السنن، لكى يسمو بروحه و يعرج فى مدارج الكمال.. و هذه الفكره نستوحىها من الآيتين الاوليتين من هذا الدرس.

[٣٧] ثم ان التقوى كالشجره التى تنبت فى القلب بحاجه الى تنميه، و الاضحيه تنمى شجره التقوى فى القلب.

لَنْ يَنْزَالَ اللَّهُ لُحُومَهَا وَلَا دِمَائُهَا ثُمَّ يَبَيِّنَ اللَّهُ سَبْحَانَهُ بِأَنَّهُ لَيْسَ لِرَبِّهَا نَصِيبٌ فِي لَحُومِهَا أَوْ دِمَائِهَا، انما النصيب راجع الى الناحر الذى يزداد بذلك تقوى و ايماناً.

وَ لَكِنْ يَنْزَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ كَذَلِكَ جَاءَ فِي الْحَدِيثِ الشَّرِيفِ: مَا عَلَهُ الْاَضْحِيهِ؟ قَالَ:

الإنسان، هل هو مستقر أم مستودع؟ حينما ينزل في حلبة الصراع، فيعرف مدى إيمانه، و للصراع فوائد كثيرة أهمها:

١١/ انه يجعل الإنسان مؤمنا صادقا، و يزيل عنه رواسب كفره و شكه، و جهله و غفلته، كما انه يكشف الأفراد الضعفاء ايمانا و اراده في المجتمع الاسلامى و الذين لا- يستحقون ان يكونوا أعضاء مؤثرين فيه. و بكلمه موجزه: ان الجهاد يكرس الواقع الايمانى فى المجتمع.

٢/ و الجهاد حصن المقدسات و درع الحرمات و الشعائر، فاذا كانت الحريه مكفوله لجميع الناس عند حرم الله، و إذا كان المؤمنون يقصدون- بكل أمان- بيت الله و معهم شعائرهم من أقصى الأرض، فلأن المجاهدين يحمون البلاد من أطرافها، و إذا كانت القوى الكافره و المنافقه و المترفه لا تهتك حرمات الناس داخل البلاد فلأن المجاهدين يقفون لهم بالمرصاد. و إذا كانت مراكز الطاعه المقدسه تعلقو فى آفاق الأرض فلان حولها ليوث الجهاد الأشداء. يحمونها كما يحمى الأسد عرينه.

و بالتالى فان المساجد، و المعابد، و الكنائس انما تقوم على أساس دفاع المؤمنين عنها، و لو لا دفاع المؤمنين عن مراكز عبادتهم، و محل اقامه شعائرهم و مناسكهم، اذن لتهدمت هذه المساجد و المعابد و الكنائس على ايدى أعداء الله و أعداء دينه.

فالكعبه مثلا- قائمه على دفاع المؤمنين، عن وجودها و حريه العباده فيها، فاذا ترك المؤمنون الدفاع عنها فانها تزول حرمتها و قداستها.

ان ربط المقدسات بعمل المؤمنين و جهادهم هى أهم و ابرز فكره حضاريه يحتاجها المسلمون اليوم، ان بعض المسلمين اليوم يظنون ان وجود رسم القرآن بينهم

«انه يغفر لصاحبها عند أول قطره تقطر من دمها الى الأرض و ليعلم الله عز و جل من يتقيه بالغيب. و أضاف: انظر كيف قبل الله قربان هاييل ورد قربان قابيل».

كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هِيَ مُدَاكُمُ ان نحر الانعام أو ذبحها يهدف شكر الله. و فى آيه سابقه، ذكر الله. إنَّ هدف الشعائر هو تقوى القلوب، اما هدف التسخير فهو تكبير الله، كل ذلك يوحى بان الهدف الأسمى من النعم الماديه التكامل المعنوى. و تكبير الله هو إخراجها من حدّ التعطيل و التشبيه، كما جاء فى الحديث، و تكبير الله على الهدايه تمجيده على ان هدايا للايمان، و أرشدنا الى الحنيفيه البيضاء. و الآيه تشير الى التكبير أيام التشريق فى الصلوات بمنى فى عقب خمس عشره صلاه، و فى الأمصار عقب عشر صلوات. (١)

وَ بَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ كيف يمكن للإنسان ان يستفيد من النعم فى مجال تكامله المعنوى و الروحى؟ يجب القرآن على هذا السؤال و يقول: «وَ بَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ»، فبالاحسان تخرج من شح الذات الى فضاء الخير، فالعطاء مفتاح الرزق، و طريق الايمان.

شرعيه الجهاد:

[٣٨] الايمان ليس مجرد كلام يقال، و لا حتى عقيدته مقطوعه الجذور، كلا ذلك لان الايمان حقيقه راسخه فى القلب يصدّقها العمل، و انما يتضح إيمان

ص: ٧١

يجعلهم أعزاء، كلاً.. ان ايمانهم بالقرآن و دفاعهم عنه هو الذى يجعل القرآن عزيزا بينهم و عزيزا فى العالم أجمع.

فليس وجود الكعبه يعز المؤمنين فقط، انما وجود المؤمنين حولها يجعلها عزيزه أيضا، و من دون هذه العزه التى يسبغها المؤمنون على مقدساتهم، فانها لا تبقى، و نحن هنا نؤمن بدور الغيب الذى يظلل المؤمنين بظلال من التأيد و الرعايه، ذلك ان الصراع بين الحق و الباطل ليس بعيدا عن هيمنه الغيب، أو ليس الله يدافع عن المؤمنين، بل. و لكنه قد يدافع عنهم بأيديهم، و بكلمه: ان بدايه أى تحرك يكون من الناس، ثم يأتى التأيد و النصر من الله.

إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ وَ هَذِهِ آيَةٌ تَزْرَعُ الْأَمَلَ وَ الثِّقَةَ وَ الْأَطْمِئْنَانَ فِي قُلُوبِنَا، لِأَنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنَّا، وَ مَعْلُومٌ أَنَّ الْأَمَلَ وَ قُوَّةَ الثَّوْرَةِ، وَ الثِّقَةَ وَ قُوَّةَ الْعَمَلِ، وَ الْأَطْمِئْنَانَ قَاعِدَةُ السَّعْيِ.

[٣٩] ان شياطين الجن و الانس يحيطون بقلب الإنسان و يملأونه باليأس و الخوف، اما ذكر الله فهو-على العكس من ذلك- ينمى فينا التطلع، و يحفزنا للأخذ بحقنا، كما انه يزرع الخوف و القلق فى نفوس أعداء الدين، و سراق الحريه، الذين لا يزالون يخونون امانه الله و الناس، و يكفرون بنعم الله.

أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلِمُوا وَ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصِيرِهِمْ لَقَدِيرٌ يَبْحَثُ الْإِنْسَانُ الْمُؤْمِنُ عَنِ شَرْعِيَةِ الْجِهَادِ، وَ اللَّهُ يَعْطِيهِ هُنَا الشَّرْعِيَّةَ بِقَوْلِهِ:

«اذن» فلقد اذن الله للمعتدى عليهم المظلومين، ان يرفعوا رايه القتال لرد ظلامتهم، و ذلك لأنك، مهما أصابك من الظلم و الاستضعاف، لا يجوز ان تيأس من النصر، بل جدد العزم لان الله قادر على نصرك، فما دمت تملك شرعيه الجهاد

و تحمل فى جنبك الأمل، و كان هنالك من يدافع عنك و يحميك، فما ذا تنتظر بعدئذ؟ اقتحم كل حصن و وكر، و جاهد كل طاغية، فان قوه الله و عزته تتجلى فى سواعد المؤمنين و بهم يدفع الله أعداءه و أعداء دينه، و أعداء البشر.

[٤٠] الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ هَذِهِ أَبْرَزُ صُورِهِ مِنْ صُورِ الظُّلْمِ الَّذِي قَالَ عَنْهُ سُبْحَانَهُ «بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا».

ذلك لأن أولئك الذين قالوا ربنا الله بصدق، هم الذين رفضوا تسلط الطغاة، و قاوموا هيمنة الجبارين. الذين أرادوا فرض قوانينهم و ثقافتهم على الناس. فكفروا بهم و آمنوا بالله الواحد. ثم استقاموا و اخرجوا من ديارهم لأنهم احتفظوا باستقلالهم. و لعل الطغاة لم يرفضوا عليهم الخروج بل انهم هاجروا خشية بطش الجبارين، و استعدوا للقتال حتى تحرير الأرض من هيمنتهم. كما فعل المسلمون عند ما أمرهم الله و رسوله بالهجرة الى المدينة. حيث نزلت الآية فيهم و جرت فى غيرهم.

جاء فى الحديث المروى فى كتاب الكافى عن الامام أبى جعفر الباقر عليه السلام انه قال :

«نزلت فى رسول الله و على و حمزه و جعفر و جرت فى الحسين عليهم السلام أجمعين.» (١) و كلمه (ربنا الله) هى هدف الهجره و هدف الجهاد، و هى فى ذات الوقت و سبيله النصر و سبب الفتح. إذ ان أهم شروط الانتصار الاتجاه الكلى الى الله، و المحافظه على استقلاليه العمل فى سبيله، و الا نتصور يوما ان النصر يمر عبر عواصم

ص: ٧٣

الشرق أو الغرب، لأنهما أعجز من ان يتوليا نصرنا، وهم أعجز من نصر أنفسهم، بل ان الله أمرنا بمقاومتهم لأنهم مصدر بلائنا، وهم المسؤولون الحقيقيون عما يجرى علينا.

فهؤلاء المخرجون من ديارهم-هم المظلومون الذين تكفل الله بنصرهم وبتأييدهم، شريطه أن يتجهوا اليه سبحانه.

وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهَدَّمت صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدٌ يُذَكَّرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا صَوَامِعُ: معابد بينها البعض في الأصقاع النائية يتعبدون فيها، أما السبع: فهي معابد اليهود، و الصلوات: هي معابد النصارى و كنائسهم، و المساجد: محاريب المؤمنين، و كل هذه المراكز تهدف ذكر الله، و ذكر الله لا يتم إلا بالتحشيد الاجتماعي، و تعبئه الناس ايمانيا من خلالها، فاذا هدمت فان سببا من أسباب تجميع الناس على الايمان سوف ينهار، فالمسجد و الكنيسة و الدير هي رمز للمؤمنين فتحطم هذا الرمز يعنى زوال سبب وحده المؤمنين و تجمعهم حول مبادئهم، لذلك فان المؤمنين مأمورون بالحفاظ على مقدساتهم هذه.

وَلَيُنصِرَنَّ اللَّهُ مَن يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ انصروا الله و القيم، حافظوا على المقدسات و كرامتها، دافعوا عن حريه الإنسان انكم حين تعملون كل ذلك ينصركم الله، و إذا نصركم فلا غالب لكم، ان الله قوى يمتلك أدوات القوه فهو: «تُوتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَ تَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ» و هو عزيز «تُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَ تُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ» - فهو يعزكم ان نصرتموه و الا اذلكم، و ان نصرتموه حقا أذل أعداءكم.

[٤١] الَّذِينَ إِنْ مَكَرْتَهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَآمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ تَبَيَّنَ هَذِهِ الْآيَةُ اَهْدَافَ الْحَرَكَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ الَّتِي يَجِبُ أَنْ يَبْصُرَهَا كُلُّ فَرْدٍ رِسَالِيٍّ، وَيَخْلَصُ نِيَّتَهُ فِي السَّعْيِ وَرِثَائِهَا، وَالْعَمَلِ الْجَدِّيِّ مِنْ أَجْلِ بَلُوغِهَا وَهِيَ:

١- إقامة الصلاة: إذ أنها رمز لكل العبادات من ناحيه، و من ناحيه ثانيه:

فإن إقامة الصلاة تعنى توفير الشروط الموضوعيه لإقامتها، كبناء مساجد الله، و السلامه الروحيه، و...

٢- إيتاء الزكاه: و هو يشمل كل ابعاد الإنفاق الواجب و المستحب و يساهم في إرساء العدالة الاجتماعيه، بل و في توفير الرخاء في المجتمع المسلم.

٣- الأمر بالمعروف: القيام بما أمر به الشارع المقدس، من التشجيع على الصالح من الأعمال.

٤- النهي عن المنكر: القضاء على كل المفاسد الاجتماعيه و الاقتصاديه و السياسيه، و.. و..

وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ إِنْ الَّذِي يَجْعَلُ عَمَلَهُ وَ حَرَكَتَهُ مَتَّجِهَةً إِلَى اللَّهِ، فَانَّهُ سَوْفَ يَمْسُكُ بِزِمَامِ الْأُمُورِ وَ بِالتَّالِيِ فَانَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ الْعَاقِبَةَ الْحَسَنَى..

و هذه الآيات الكريمة توضح أهداف الحركة الاسلاميه، و شروط المجاهدين في سبيل الله، الذين اذن لهم بالقتال، و هم الذين يطبقون بأنفسهم التعاليم

الإسلاميه، ثم يندفعون لنشرها بين الناس و في الحديث المفصل التالي تبيان بالغ الاهميه لاهداف الحركه الاسلاميه، و شروط القائمين بها، و نكمل هذا الدرس به:

جاء في الكافي مسندا عن أبي عمرو الزبيرى عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قلت له: أخبرنى عن الدعاء الى الله و الجهاد فى سبيله أهو لقوم لا- يحل الا- لهم و لا يقوم به الا من كان منهم أم هو مباح لكل من وحد الله عز و جل و آمن برسوله صلى الله عليه و آله، و من كان كذا فله أن يدعو الى الله عز و جل و الى طاعته و ان يجاهد فى سبيله؟ فقال:

ذلك قوم لا يحل الا لهم و لا يقوم بذلك الا من كل منهم، قلت: من أولئك؟ قال: من قام بشرائط الله تعالى فى القتال و الجهاد على المجاهدين فهو مأذون له فى الدعاء الى الله تعالى، و من لم يكن قائما بشرائط الله فى الجهاد على المجاهدين فليس بمأذون له فى الجهاد و لا الدعاء الى الله حتى يحكم فى نفسه ما أخذ الله عليه من شرائط الجهاد، قلت: فبين لى رحمك الله.

قال: ان الله تعالى أخبر فى كتابه الدعاء اليه و وصف الدعاء اليه، فجعل ذلك لهم درجات يعرف بعضها بعضا، و يستدل ببعضها على بعض. الى ان قال عليه السلام: ثم أخبر تبارك و تعالى انه لم يؤمر بالقتال الا أصحاب هذه الشروط، فقال سبحانه و تعالى: **أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُمُ الْقُدْرَةُ عَلَى الْقِتَالِ لَإِذْنٌ مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ لِّذِي الْقُلُوبِ** **لَقَدْ يَرْجُو أُولَئِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَ رِزْقِهِ وَأَنْ يُقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَ يُقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُقَاتِلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُمُ الْقُدْرَةُ عَلَى الْقِتَالِ لَإِذْنٌ مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ لِّذِي الْقُلُوبِ** **لَقَدْ يَرْجُو أُولَئِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَ رِزْقِهِ وَأَنْ يُقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَ يُقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُقَاتِلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُمُ الْقُدْرَةُ عَلَى الْقِتَالِ لَإِذْنٌ مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ لِّذِي الْقُلُوبِ** جميع ما بين السماء و الأرض لله عز و جل و لرسوله و لأتباعهم من المؤمنين من أهل هذه الصفه، فما كان من الدنيا فى ايدى المشركين و الكفار و الظلمه و الفجار من أهل الخلاف لرسول الله صلى الله عليه و آله و المولى عن طاعتها مما كان فى أيديهم ظلموا فيه المؤمنين من أهل هذه الصفات، و غلبوهم عليه ما أفاء الله (1) على رسوله فهو حقهم أفاء الله عليهم و رده إليهم (2).

ص: ٧٦

١- ١) و فى المصدر «مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ» و فى الوافى «فما أفاء الله».

٢- ٢) لعلنا نستفيد من هذه الكلمه: ان السلطه فى العالم يجب أن تكون للمؤمنين الصادقين فهى لهم حقا.

ثم قال عليه السّلام: واما اذن للمؤمنين الذين قاموا بشرائط الايمان التي وصفناها، و ذلك انه لا يكون مأذونا له في القتال حتى يكون مظلوما، و لا يكون مظلوما حتى يكون مؤمنا، و لا يكون مؤمنا حتى يكون قائما بشرائط الايمان التي اشترط الله تعالى على المؤمنين و المجاهدين، فاذا تكاملت فيه شرائط الله تعالى كان مؤمنا، و إذا كان مؤمنا كان مظلوما، و إذا كان مظلوما كان مأذونا له في الجهاد، لقوله عز و جل: **أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بِأَنفُسِهِمْ ظُلْمًا وَّ إِنَّا لِلَّهِ عَلِيُّ نَصِيرِهِمْ لَقَدِيرٌ** و ان لم يكن مستكملا لشرائط الايمان فهو ظالم ممن يبغى و يجب جهاده حتى يتوب، و ليس مأذونا له في الجهاد و الدعاء الى الله عز و جل، لأنه ليس من المؤمنين المظلومين الذين اذن لهم في القرآن في القتال، فلما نزلت هذه الآية: **«أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بِأَنفُسِهِمْ ظُلْمًا»** في المهاجرين الذين أخرجهم أهل مكة من ديارهم و أموالهم أحل لهم جهادهم بظلمه إياهم و اذن لهم في القتال.

فقلت: فهذه نزلت في المهاجرين بظلم مشركى أهل مكة لهم فما بالهم في قتال كسرى و قيصر و من دونهم من مشركى قبائل العرب؟ فقال: لو كان اذن لهم في قتال من ظلمهم من أهل مكة فقط لم يكن لهم الى قتال جموع كسرى و قيصر و غير أهل مكة من قبائل العرب سبيل، لان الذين ظلموهم غيرهم، و انما اذن لهم في قتال من ظلمهم من أهل مكة لإخراجهم إياهم من ديارهم و أموالهم بغير حق، و لو كانت الآية انما عنت المهاجرين الذين ظلمهم أهل مكة كانت الآية مرتفعة الفرض عن بعدهم، إذ لم يبق من الظالمين و المظلومين أحد، و كان فرضها مرفوعا عن الناس بعدهم إذ لم يبق من الظالمين و المظلومين أحد، و ليس كما ظننت و لا- كما ذكرت، و لكن المهاجرين ظلموا من جهتين ظلمهم أهل مكة بإخراجهم من ديارهم و أموالهم، فقاتلوهم بإذن الله لهم في ذلك، و ظلمهم كسرى و قيصر و من كان دونهم من قبائل العرب و العجم بما كان في أيديهم، مما كان

المؤمنون أحق به منهم، فقد قاتلوهم بإذن الله تعالى لهم في ذلك. (١)

و بحجه هذه الآيه يقاتل مؤمنوا كل زمان، وإنما أذن الله للمؤمنين الذين قاموا بما وصف الله-تعالى- من الشرائط التي شرطها الله على المؤمنين في الايمان و الجهاد، و من كان قائما بتلك الشرائط فهو مؤمن، و هو مظلوم، و مأذون له في الجهاد بذلك المعنى، و من كان على خلاف ذلك فهو ظالم و ليس من المظلومين، و ليس بمأذون له في القتال، و لا بالنهي عن المنكر، و الأمر بالمعروف، لأنه ليس من أهل ذلك، و لا- مأذون له في الدعاء الى الله تعالى، لأنه ليس يجاهد مثله، و أمر بدعائه الى الله، و لا يكون مجاهدا من قد أمر المؤمنون (٢) بجهاده، و حضر الجهاد عليه، و منعه منه، و لا يكون داعيا الى الله-تعالى- من أمر بدعاء مثله الى التوبه، و الحق، و الأمر بالمعروف، و النهي عن المنكر، و لا يأمر بالمعروف من قد أمر أن يؤمر به، و لا ينهى عن المنكر من قد أمر أن ينهى عنه، فمن كانت قد تمت فيه شرائط الله-تعالى- التي وصف بها أهلها من أصحاب النبي (صلى الله عليه و آله) و هو مظلوم، فهو مأذون له في الجهاد، كما أذن لهم (٣) في الجهاد، لأن حكم الله-تعالى- في الأولين و الآخرين، و فرائضه عليهم سواء الأمن عله أو حادث يكون، و الأولون و الآخرون أيضا في منع الحوادث شركاء، و الفرائض عليهم واحده، يسأل الآخرون عن أداء الفرائض عما يسأل عنه الأولون، و يحاسبون عما به يحاسبون.

و من لم يكن على صفه من أذن الله له في الجهاد من المؤمنين فليس من أهل الجهاد، و ليس بمأذون له فيه حتى يفىء بما شرط الله-تعالى- عليه، فإذا تكاملت فيه شرائط الله تعالى على المؤمنين و المجاهدين فهو من المأذون لهم في

ص: ٧٨

-
- ١ - ١) قال المجلسي (ره): حاصل الجواب انا قد ذكرنا ان جميع ما في ايدي المشركين كان من أموال المسلمين، فجميع المسلمين مظلومون من هذه الجبهه المهاجرون ظلموا من هذه الجبهه، و من جهه إخراجهم من خصوص مكه.
- ٢ - ٢) و في بعض النسخ «أمر المؤمنين» و لعله الأوفق بالسياق لقوله «و منعه منه».
- ٣ - ٣) اي لأصحاب النبي صلى الله عليه و آله.

الجهاد، فليتق الله-تعالى-عبد، و لا- يغتر بالأمانى التى نهى الله-تعالى- عنها، من هذه الأحاديث الكاذبه على الله، التى يكذبها القرآن و يتبرأ منها، و من حملتها و رواتها، و لا يقدم على الله بشبهه لا يعذر بها، فانه ليس وراء المعترض للقتل فى سبيل الله منزله يؤتى الله من قبلها، و هى غايه الأعمال فى عظم قدرها، فليحكم امرء لنفسه، و ليرها كتاب الله-تعالى- و يعرضها عليه، فانه لا أحد أعرف بالمرء من نفسه، فان وجدها قائمه بما شرط الله عليه فى الجهاد فليقدم على الجهاد، و ان علم تقصيرا فليصلحها و ليقيمها على ما فرض الله عليها من الجهاد، ثم ليقدم بها و هى طاهره مطهره من كل دنس يحول بينها و بين جهادها، و لسنا نقول لمن أراد الجهاد و هو على خلاف ما وصفنا من شرائط الله عز و جل على المؤمنين و المجاهدين لا تجاهدوا، و لكن نقول: قد علمنا كم ما شرط الله-تعالى- على أهل الجهاد، الذين بايعهم و اشترى منهم أنفسهم و أموالهم بالجنان، فليصلح امرء ما علم من نفسه من تقصير عن ذلك، و ليعرضها على شرائط الله، فان رأى انه قد وفى بها، و تكاملت فيه فانه ممن أذن الله-تعالى- له فى الجهاد، و إن أبى أن لا يكون مجاهدا على ما فيه من الإصرار على المعاصى و المحارم، و الاقدام على الجهاد بالتخيط و العمى، و القدوم على الله-عز و جل- بالجهل و الروايات الكاذبه، فلقد لعمرى جاء الأثر فيمن فعل هذا الفعل ان الله-تعالى- ينصر هذا الدين بأقوام لا خلاق لهم، فليتق الله امرء، و ليحذر أن يكون منهم، فقد بين لكم و لا عذر لكم بعد البيان فى الجهل، و لا قوه إلا بالله، و حسبنا الله عليه توكلنا و إليه المصير. (١)

ص: ٧٩

اشاره

وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ (٤٢) وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ (٤٣) وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ فَأَمَلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ (٤٤) فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْسَ مَعْطَلَةٌ وَقَصْرٍ مَشِيدٍ (٤٥) أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبَ الَّتِي فِي الصُّدُورِ (٤٦) وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ (٤٧) وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَمَلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَى الْمَصِيرِ (٤٨) قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ (٤٩) فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (٥٠) وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ (٥١)

اللغة

٤٥ [كأين]:كم من.

[خاويه على عروشها]:يقال خوت الدار أى خلت من ساكنيها.

[قصر مشيد]:المرتفع من الأبنية.

ص:٨٠

فى اطار الحديث عن اهداف الحركه الاسلاميه،و الدعوه الى الله،(موضوع الدرس السابق)يذكرنا السياق بالتأييد الالهى للرساله،و خذلانه لاعدائها المكذبين بها.

لم يكن الرسول بدعا من الرسل،و لم يكن تكذيبه جديدا،فلقد كذبت رسالات الله قوم نوح و عاد و ثمود،كذلك قوم ابراهيم و قوم لوط و أصحاب مدين، و هكذا كذب فرعون و قومه موسى عليه السلام.

ان الرساله و تكذيبها حقيقه تكررت،و تراكمت حولها تجارب غنيه،أ فلا ندرسها لنعبر بها،فلما ذا لا نسير فى الأرض،و ننظر فى عاقبه ذلكم التكذيب المتكرر،على أولئك الكافرين و لا نعتر بتأخير العذاب،إذ ان ربنا يملى لهم، فيستدرجهم ليأخذهم بغته؟

فارغه من سكنتها، و هنالك البئر المعطلة لا تستقى، و القصر المبنى لا يسكن.

إن التجارب التاريخيه كثيره، و الأبصار التي تراها كثيره، الا ان القلوب التي تعقلها و تستفيد منها هي القليله. قد أصابها العمى و أنكر العمى عمى القلوب التي في الصدور.

و لان أفق البشر ضيق، فهو لا يحسب لمستقبله حسابا، فتراه يستعجل الرسول بالعذاب، و لا يعلم بان صبر الله و إملاءه عظيم، فاليوم هنالك كألف سنه مما يعده البشر هنا، و ان وعد الله لا يتخلف، و ها هي أمامنا القرى التي امهلها الله، و املى لهم بالرغم من انها كانت ظالمه ثم أخذها و اليه المصير! و هذه رساله الله تنذر الناس، بمثل ذلكم العذاب، و تبلغهم الإنذار ببيان واضح.

فالمؤمنون الذين يعملون الصالحات جزاؤهم مغفره الذنوب التي ارتكبوها، و رزق كريم للصالحات التي كسبوها. اما الذين يسعون في آيات الله معاجزين يتحدونها، و يعوقون طريقها، و يحسبون انهم يسبقون الرب و يعجزونه، فأولئك أصحاب الجحيم، يملكونها و تمتلكهم.

لقد غرتهم الفرصه، فأخذهم الله في لحظه، أخذ عزيز مقتدر، و في نهايه هذا الدرس تأكيد على مهمتى التبشير و الإنذار في رسالات الله (الأمر بالمعروف و النهى عن المنكر)، فالإنذار عاده ما يسبق البشاره، لان الإنذار يهدف الى خلق الارضيه في نفس الإنسان، فخشيته الإنسان من فقدته ما في يده، أكثر من خشيته فقدته ما في يد غيره، فالإنذار مؤشر خطر عند الكفار لأنه ينذر بزوالهم و زوال نعمهم، فلذلك يندفعون الى الايمان خوفا، و من ثم فان البشاره تأتي لتسد هذا الخوف مبشره بالجنه.

[٤٢-٤٣-٤٤] وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودٌ وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ التَّكْذِيبِ عَادَهُ جَرَتْ عَلَيْهَا إِسْلَافٌ هَؤُلَاءِ الْمَذْكُوبِينَ، وَهَذِهِ امثله من التاريخ حيث كذب هؤلاء الرسل وأصروا على منكرهم، فلا ينبغي ان ننتظر ما دمنا فى خط الرسل القبول السريع و المؤكد من أقوامنا، و لكن لنطمئن، فان طريقنا و تحركنا ينسجم و الخط العام للحياه. لان الخط العام للكون و طريقنا آتئذ يسيران معا فى اتجاه واحد، الى (الله).

ليس من مسئوليات الرسول ان يكره الناس على قبول رسالته، كما انه ليس عليه ان يقلق لتكذيبهم، فانه عاده الناس، و لكن واجب الرسول الصبر و انتظار الفرج، و سواء استمع اليه الناس أم اعرضوا.. صدقوه أم كذبوه، فدوره ينتهى بتبليغ الرساله، و من ثم، فالنتيجه بيد الله، ان شاء عذبهم، أو أمهلهم حتى حين.

وَ كُذِّبَ مُوسَى لَمْ يَكْذِبْ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنْ قَبْلِ قَوْمِهِ وَ انما كذبه فرعون و ملائته، و لذلك لم يعطف السياق على السابق و انما قال: «وَ كُذِّبَ مُوسَى».

فَأَمَلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ أَيِ اعْطَيْتُهُمْ مهله من الوقت قد تطول أو تقصر « ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ » فاجأهم العقاب المدمر.

فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ لَقَدْ سَلَطَ اللَّهُ عَذَابَهُ عَلَيْهِمْ، فَمَحَقَهُمْ مُحَقًّا، وَوَضَعَ حَدًّا لِمَا هُمْ عَلَيْهِ مِنَ التَّكْذِيبِ وَالجُحُودِ، وَهَكَذَا يَنْكُرُ اللَّهُ عَلَى النَّاسِ تَكْذِيبَهُمْ إِنْكَارًا عَمَلِيًّا. أَرَأَيْتُمْ كَيْفَ يَكُونُ نَكِيرُ اللَّهِ؟ [٤٥] إِنْ اللَّهُ سَبَّحَانَهُ قَدْ جَعَلَ فِي التَّارِيخِ حَتْمِيَهُ لَا مَحِيصَ عَنْهَا، هِيَ حَتْمِيَةُ الْإِنْتِقَامِ مِنْ أَعْدَاءِ اللَّهِ، إِذْ إِنْ سَنَّ اللَّهُ فِي الطَّبِيعَةِ تَلْتَقَى مَعَ الْحَقِّ فِي كُلِّ النِّقَاطِ، وَتَجَاوِزُ الْحَقَّ، تَعُدُّ عَلَى تِلْكَ السَّنَنِ، فَلَا بَدَّ لَهَا إِنْ تَنْتَقِمُ بِإِرَادَةِ اللَّهِ سَبَّحَانَهُ، وَبِأَيِّ شَكْلِ كَانَ، سِوَاءِ عَلَى شَكْلِ صَاعِقِهِ تَنْزِلَ، أَوْ فِي صُورِهِ بِرِ كَانِ يَتَفَجَّرُ، أَوْ حَرْبِ تَدْمُرُ، أَوْ قَحْطِ شَامِلٍ، أَوْ طَاعُونَ يَنْشُرُ الْمَوْتَ. وَعَلَى الْإِنْسَانِ إِنْ لَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ، فَيَنْسَى نَقْمَتَهُ، وَيَظُنُّ إِنْ مَا يَحِيطُ بِهِ مِنْ نِعْمَةٍ وَفَضْلَةٍ وَآلَائِهِ، هُوَ كُلُّ مَا فِي الْحَيَاةِ، كَلَّا بَلْ إِنْ لِلْحَيَاةِ وَجْهًا آخَرَ، يَتِمُّثَلُ فِي الْإِنْتِقَامِ الشَّدِيدِ.

بَلَى. مِنَ الصَّعْبِ عَلَى الْإِنْسَانِ إِنْ يَصْدُقُ بِأَنَّ ذَلِكَ الْإِلَهَ الرَّحِيمَ الْكَرِيمَ، الَّذِي تَوَلَّى خَلْقَهُ طَوْرًا فَطَوْرًا، وَكَانَ مَعَهُ فِي كُلِّ حَرَكَةٍ مِنْ حَرَكَاتِهِ، وَالَّذِي تَتَجَلَّى رَحْمَتُهُ وَفَضْلُهُ عَلَيْهِ فِي كُلِّ شَيْءٍ، أَنَّهُ تَعَالَى يُمْكِرُ بِهِ وَيَنْتَقِمُ مِنْهُ أَشَدَّ الْإِنْتِقَامِ، لِذَلِكَ نَجِدُهُ تَسْتَدْرِجُهُ النَّعْمَ، وَتَغْرَهُ الْإِمَانِيَّ، حَتَّى إِذَا أَحَاطَ بِهِ ذَنْبُهُ قَالَ: رَبِّ ارْجِعُونِي لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا. فَلِكَيْ لَا يَصْبِحَ هَكَذَا يَجِبُ عَلَيْهِ إِنْ يَذْكَرُ نَفْسَهُ بِمَا مَضَى مِنَ الْأَمْرِ، وَمَا جَرَى عَلَيْهِمْ، وَإِنْ يَسِيرُ فِي الْأَرْضِ بَحْثًا عَنْ تِلْكَ الْحَضَارَاتِ الَّتِي سَادَتْ وَتَسَاءَلُ لِمَاذَا بَادَتْ. إِنْ السَّيْرُ فِي الْأَرْضِ، وَزِيَارَةُ الْمَتَاحِفِ الْإِثْرِيَّةِ، وَاطْلَالُ الْمَدَنِ الْكُبْرَى، وَدِرَاسَةُ التَّارِيخِ، لَا سِيَّمَا تَارِيخَ الْحَضَارَاتِ الْبَائِدَةِ، كُلُّ ذَلِكَ يُوْحِي إِلَيْنَا بِتِلْكَ الْحَقِيقَةِ الَّتِي لَا تَسْتَهْوِينَا، وَلا نُرِيدُ مَعْرِفَتَهَا، وَهِيَ إِنْ اللَّهُ يُمْكِرُ بِالْإِنْسَانِ إِذَا ظَلَمَ وَطَغَى. وَيَنْتَقِمُ مِنْهُ بِأَشَدِّ الْعَذَابِ.

و تؤكد آيات هذا الدرس على هذه الفكرة، و تشير أيضا الى مصير أولئك الذين كذبوا هذه الحقيقه الناصعه، و لم ينفعهم النهى عن المنكر الذى قام به أنبياء الله عليه السلام، و من سار على دريهم.

فَكَأَيُّنَ مِنْ قَوْمٍ أَهْلَكْنَا وَ هِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَ بئْرٌ مُعَطَّلَةٌ وَ قَصِيرٌ مَشِيدٌ تبيد الحضاره فى بعض الأحيان بصوره طبيعیه كما يموت الإنسان بعد ان يشيخ و تضعف بنيتة الجسديه، فتنتطفئ شمعه الحياه شيئا فشيئا، و قد تباد الحضارات بصوره فجائیه و بعذاب الهی فتكون كما يموت الشاب بموت الفجأه بالرغم من ان جميع أعضائه تبدو سالمه، كل ما فى الأمر ان الروح تفارق جسده، هكذا حال الحضارات، فعند ما تنحرف عن اهدافها المرسومه لها، فان الله يوجه إليها ضربه قاضيه فى صوره زلزال مدمر أو صاعقه من السماء، فتبيد حضارتهم البشريه، بالرغم من ان المظاهر الماديه لهذه الحضارات تظل سالمه لتبقى عبره للاجيال.

و لعلنا نستوحى هذه الفكرة من قوله سبحانه وَ هِيَ ظَالِمَةٌ الَّتِي تَدُلُّ عَلَى ان الهلاك نزل بهم حين ظلمهم.

لقد خلق الله سبحانه الطبيعه بحيث لا تتلائم مع الانحراف و الجريمه، فهى تصبر زمنا ثم تتفجر غضبا- حين يشاء الله- لتعيد الأمور الى نصابها.

« فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا » اى خاليه من ساكنيها بالرغم من سلامه أبنيتها و عمرانها. « وَ بئْرٌ مُعَطَّلَةٌ » هى التى ما زال ينضح ماؤها، و لكن امست بلا رواد.

اما القصر المشيد فانه يرمز الى مباني الملوك و الحكام الظلمه، حيث ذهبوا و لم تغن عنهم قصورهم من الله شيئا.

لقد هلك القوم و تداعت البيوت فيها فهي خاليه، و عروشها قد تهاوت، اما البئر التي هي محور الحضاره في الصحراء و يعتبر مالکها سيد الناس، فقد تعطلت بعد ان كانت مركز التجاذب و سبب الصراع، بينما بقيت القصور المشيده التي تعالت و تجصصت خاليه ترمز الى فناء أهلها.

و

في الأحاديث ان العالم الصامت، هو البئر المعطله، بينما العالم الناطق هو القصر المشيد (١)، و لعل المناسبه بين هذا التأويل و ذلك التفسير ليست مجرد التشبيه، بل و أيضا: لان هلاك الظالمين انما هو بتعطيل العلم، و ذلك بعدم الاستفاده من العالم الصامت (البئر المعطله) و لا من العالم الناطق (القصر المشيد).

ترى كيف يصور القرآن هذه الحقائق تصويرا بديعا بحيث لو أخذت ريشه و صورتها لخرجت مكتمله الملامح معبره عن الفکره، أبلغ تعبير خذ الآن ريشه و حاول ان ترسم قريه خاليه بأبنيتها و شوارعها، ثم ارسم بئرا قد تدلى عليها دلوها و عليها بكرتها و لا- أحد عندها، ثم صور قصرا فخما مهجورا، ثم انظر ماذا ترى، انك ترى لوحه تنطق بالموت الرهيب و تعطى للذين غرهم تقلبهم في الحياه، العبره الزاجره.

حين يعمى القلب:

[٤٦] أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ إِي لِمَاذَا لَا يَسِيرُونَ فِي الْأَرْضِ، لِيَعْتَبِرُوا بِآثَارِ السَّابِقِينَ أَنَّهُمْ يَسِيرُونَ فِيهَا وَ لَكِن لَّا يَعْتَبِرُونَ.

ص: ٨٧

فَتَكُونُ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا قَدْ يَكُونُ اشْتِقَاقُ (قلوب) لغويا من الفعل (قلب-يقلب) اى تقلاب الأمر بشتى وجوهه و احتمالاته
فيكون مدلول القلب قريبا من مدلول (الفكر)، فيكون معنى الآية: أ فلا- يتفكرون فى الحياه، و يعقلون حقائقها، و كيف حل بمن
قبلهم لما عصوا و كانوا يعتدون.

أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا الْإِنْسَانُ: اما ان تكون له القدره على فهم الحقائق شخصيا، و اما ان يسمعها و يتلقاها ممن تفكر بها، لذلك
يقول القرآن: فَتَكُونُ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا بِصُورِهِ مَبَاشِرَةً، أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا بِالِاسْتِفَادَةِ مِنْ عُلُومِ الْآخِرِينَ وَ تَجَارِبِهِمْ.

فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَ لَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ حِينَئِذٍ لَا يَجِدُ عِنْدَ الْإِنْسَانِ فِكْرًا، وَ يَنْطَفِئُ نُورُ قَلْبِهِ، وَ لَا يَسْتَوْعِبُ
الْعَبْرَ، فَمَاذَا تَنْفَعُ الْعَيْنَ، وَ مَاذَا تَعْنَى الْأُذُنُ؟! ان تعبير «الَّتِي فِي الصُّدُورِ» يشير الى ان الفساد لا يصيب الظاهر من الإنسان، و لكن
الذى يفسد- فى الحقيقه- هو داخل الإنسان، نفسيته و روحه و كيانه.

جاء فى الحديث الشريف: عن أبى عبد الله الصادق عليه السلام: و هو بذكرنا بعمى القلب و كيف يتم اتقائه: تاه من جهل، و
اهتدى من ابصر و عقل:

ان الله عز و جل يقول: فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَ لَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ.

و كيف يهتدى من لم يبصر؟ و كيف يبصر من لم يتدبر؟! اتبعوا رسول الله و أهل بيته، أقرأوا بما نزل من عند الله و اتبعوا اثار
الهدى،

الزمن عند الله:

[٤٧] وَ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ مِنَ الْمَشَاكِلِ النَّفْسِيَةِ الَّتِي يَعَالَجُهَا الْقُرْآنُ الْحَكِيمُ فِي آيَاتِهِ الْمَرَّةَ تَلُو الْآخِرَى هِيَ مُشْكَلُهُ الْإِغْتِرَارُ بِالْفُرْصَةِ، فِتْرَى الْإِنْسَانَ يَقُولُ، عِنْدَ مَا يَرَى أَلْوَانَ النِّعَمِ تَصَبَّ عَلَيْهِ:

اين هو عذاب الله؟ و لماذا لم يأت؟ فيكفر بالعقاب أساسا لأنه يبطن عليه.

لقد وعد الله بالعذاب وعدا حتما، و لكن يعطى الإنسان مهله كافيه لعله يكتشف خطأه، و لو بعد حين، فيتوب الى الله متابا، فاذا لم يكن للاعتراف و الاستغفار فى قلبه محلا، و حان اجله آتئذ لا يستقدم ساعه و لا يستأخر.

جاء فى الدعاء: (سبحانك ما أعجب ما اشهد به على نفسى، و اعدده من مكتوم أمرى، و أعجب من ذلك أناتك عنى و ابطاؤك عن معاجلتى، و ليس ذلك من كرمى عليك، بل تأنيا منك لى، و تفضلا منك على لان ارتدع عن معصيتك المسخطة، و اقلع عن سيئاتى المخلقه، و لان عفوك عنى أحب إليك من عقوبتى...).

وَ إِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ لَوْ كَانَ لِلزَّمَنِ عِنْدَ اللَّهِ قِيمَةٌ إِذَا لَاهَلَكْنَا عِنْدَ أَوَّلِ ذَنْبٍ. و لكن الله الذى لا يقدر أحد على الفرار من حكومته، و لا يفوته شىء فى السموات و الأرض، لا يبادر بالجزاء و يكون اليوم الواحد عنده كألف سنه.

ص: ٨٩

انه سبحانه ليس كما نحن، اننا محدودون بالزمان و المكان، و علمونا و قدراتنا محدوده، بينما الله على كل شىء قدير، و هو مهيمن على خلقه، قادر على ان يقبض المكذبين متى شاء كيف شاء، فلما ذا العجله، و انما يعجل من يخاف الفوت، سبحانه؟ [٤٨] ان تأخير العذاب، و تلاشى قانون الزمن عند الله، لا يعنى ان العذاب لن يأتى، فكم من امه أعطاها الله مهله بالرغم من انها ظالمه، ثم أخذها بالعذاب حين حقت عليها كلمته.

وَ كَأَيِّنْ مِنْ قَوْمٍ أَمَلَيْتُ لَهُمْ وَ هِيَ ظَالِمَةٌ لَهُمْ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ وَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ أَيْنَ يَذْهَبُ هَؤُلَاءِ أَوْ لَيْسَ إِلَى اللَّهِ؟ بلى انه سبحانه لا يخشى الفوت، و من لا يخشى الفوت لا يبادر بالانتقام.

[٤٩] ان وظيفه الرسول هى تبليغ الرساله للناس، لتكون لهم نذيرا بين يدي عذاب شديد. ان هم أصروا على المعصيه. و بالرغم من ان الرسول بشير أيضا الا ان السياق أكد على جانب الإنذار لان الإطار العام للحديث هنا التكذيب و العذاب.

قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ [٥٠] فَالَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَ رِزْقٌ كَرِيمٌ من يقف بجانب الرساله و يؤمن بها و بالرسول و يعمل الصالح بموجبها، فانه يفوز بجائزتين: أولهما المغفره و حط الذنوب، و ثانيهما الرزق الكريم، انها جائزه معنويه تتمثل فى التطهير من الذنوب و أخرى ماديه و هى الرزق الكريم، اى يوفر كرامه الإنسان ذلك لأن من الرزق ما يذهب بها، و يسبب له الهوان.

و ليس فى الآيه ما يدل على الآخره فقط بل يشمل الدنيا أيضا.ذلك ان المغفره و كفران الذنوب و تطهير الواقع الفردى و الاجتماعى من آثار الانحراف و الفساد، و تزكيه النفس من قذر العقد و الأحقاد، ان كل ذلك نعمه عظيمه يسبغها الله على المؤمنين فى الدنيا أيضا.

كذلك الرزق الكريم يوفره الله لعباده المؤمنين،الذين يرفضون الخضوع لأصحاب السلطه و الثروه،و يتعالون على الذله و الهوان،أو لم يقل ربنا سبحانه:

« وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ »؟ [٥١] وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ
أولئك الذين يبذلون قصارى جهدهم فى سبيل تعجيز آيات الله،حسب ظنهم، اى عرقله مسيرتها،و تعويق تطبيقها،و تحديها و التكذيب بها أو تأويلها،انهم أصحاب الجحيم.

و يسعى هؤلاء نحو الحاق العجز بالآيات،بتحديها و مواجهتها،فهم بعكس المؤمنين الذين يسلّمون بالآيات،و يقولون: كُلُّ مَنْ عِنْدَ رَبِّنَا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ. و لا جدال.

و يدخل ضمن هؤلاء:

أولئك الذين يكذبون بالآيات رأسا.

و أولئك الذين يأولونها و يحرفون مواضعها،مثل خدم السلاطين من علماء السوء.

و أولئك الذين يعوقون تطبيقها كالحكام الظلمه.

و أولئك الذين يحبسونها في حدود ضيقه.

و كلمه «معاجزين» من معاجزه، على وزن مفاعله و هى صرف الشىء عن وجهه.

و الإنسان الذى لا يريد ان يطبق أوامر الله و شريعته يبدأ بتأويل الآيات القرآنيه المحتويه على الأحكام و الشرائع فيبعدها عن مقاصدها، و هذه هى المعاجزه.

يؤكد القرآن مثلا- على محاربه الطاغوت، اما المعاجز فيقول: صحيح ان القرآن يؤكد على محاربه الطاغوت و لكن الطاغوت المقصود فى القرآن هم (فرعون، نمرود...) و ليس هؤلاء طغاه اليوم، و القرآن يحرم الربا، و يقول المعاجز انما تأخذ الفائدة.

ان الآيات من الوضوح بحيث لم تدع سبيلا- لتحريف مدلولاتها، ان الطاغوت هو الطاغوت، و لا- سبيل الى التستر عليه بعد ان سلطت عليه الآيات القرآنيه الا- ضواء الكاشفه، ففرعون قال: انا ربكم الأعلى، و فلان (...). حاكم قال مثل ذلك بعمله و تصرفاته. و هما سواء، كما انه لا فرق بين الفائدة و الربا.

ان فى القرآن الحكيم العلاج الناجح لأدواء الإنسان و امراضه، فالقرآن لا يشير الى العلاج فقط، بل و يقوم أيضا بمعالجه الإنسان مباشره، بشرط ان يتفاعل مع آياته و لا يعاجزها فيزداد مرضا على مرض.

إشارة

وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٥٢) لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ (٥٣) وَلِيُعَلِّمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ الْهَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٥٤) وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ يَوْمَ عَقِيمٍ (٥٥) الْمَلِكُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (٥٦) وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ (٥٧)

اللغة

٥٥[عقيم]: أى لا مثيل له فى عظم أمره.

هدى من الآيات:

فى اطار تذكره سورہ الحج بمواقف الناس من الهدى، و بعد الحديث عن موقف التحدى (المعاجزه) عند البعض، تبين آيات الدرر: خطأ التمنى، و انه حتى الأنبياء و الرسل لو تمنّوا، القى الشيطان فى أمانهم، بيد ان ربنا يعصمهم مما يلقيه الشيطان بآياته الحكيمه التى تنسخ إلقاءات الشيطان، التى هى فتنه يتبعها مرضى القلب، و قساته من الناس، و ذلك بسبب ظلمهم الذى يضلهم عن الطريق السوى بعيدا بعيدا.

اما المؤمنون فان هدى الله يتّور قلوبهم، و يطهرها من أمانى الشيطان، فيعلمون انه الحق من ربهم فيؤمنون به، فتصبح قلوبهم خاضعه للحق، مسلمه لأمر الله، و يهديهم الله بإيمانهم الى صراط مستقيم، بينما يفقد الكفار نعمه اليقين فتراهم لا يزالون فى ريب منه برغم كل آيات الصدق، حتى تأتيهم الساعه بغته بالموت، أو يأخذهم الرب، بعذاب يوم عقيم.

و يوم القيامة، يتجلى ملكوت الله الذى يحكم بينهم، و يكرم الذين آمنوا و عملوا الصالحات فى جنات النعيم كما يهين الكفار الذين كذبوا بآيات الله، فيلقيهم فى عذاب أليم.

بينات من الآيات:

[٥٢] تعالج آيات هذا الدرس الكريم ثلاثه مواقف للإنسان تلقاء الذكر الحكيم:

الف: موقف التحدى و المعاجزه.

باء: موقف التمنى.

جيم: موقف التسليم.

و الموقفان الأولان خاطئان، و هما متطرفان ذات اليمين و ذات الشمال و المحجه السالمه، الموقف الثالث.

ان على الإنسان ان يسلم نفسه للحق كله، و يؤمن بحلوه و مره، ثوابه و عقابه، سهله و صعبه، و يكيف-بالتالى-واقعه له انى كان.

و من الناس من يصارع الحق و يسعون فى آيات الله معاجزين متحدين. و منهم من يتمنى فيخلط بين الحقائق و الأحلام، بين ما هو حق و واقع، و بين ما يصبو اليه و يتطلع نحوه.

و لعل العلاقة بين المعاجزه و التمنى، هى ان كلا الموقفين نابعان من عدم التسليم للحق كما هو، مع فارق فى الطريقه، فأصحاب المعاجزه يتحدون الحق، و يكفرون به، بينما اولى التمنى يرفضون طريقه تحقيق الحق، و تكريسه، من

السعى و الاجتهاد و القتال..ثم القبول بالنتائج.

و لا- ينبغي ان يسترسل المؤمن مع زخم امنياته فيذهب مع رياح الأحلام،انى اتجهت،و حتى الأنبياء العظام،و الرسل الكرام لو تمنوا بطبعهم البشرى،تمنوا مثلا ان لو هدى الله الناس جميعا،أو أهلك الظالمين فورا،أو أسعد الخلق بوافر نعمائه بلا سعى و لا عسر،أو اخلد الصالحين و لم ينزل عليهم مصيبه الموت،أو ما الى ذلك من أحلام تنبع من فرط حسم للخلق و للقيم الرساليه،فان الشيطان يلقي فى امنياتهم، الا ان الله يعصمهم و يحكم آياته فى واقعهم.

و لكن على المؤمنين ان يعرضوا هذه التمنيات على الحق الذى أنزله الله فى آيات الكتاب فيلزموا أنفسهم حقائق الكتاب و يعرفوا ان الله قد خلق الدنيا دار ابتلاء، و لم يجعلها دار جزاء،حتى يعجل للكفار العذاب،أو للمؤمنين بالشواب! و ان الهدايه ليست كرها على الناس،و ان الله قد فرض القتال على المؤمنين لحكمه بالرغم من انهم له كارهون.

و هكذا جاء فى الأحاديث-اضافه حكمه و لا-محدث،و لعله للدلاله على ان الربانيين من العلماء هم بدورهم معصومون من اللقاءات الشيطان،مؤيدون بروح الايمان.

وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَ لَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ و يبدو ان معنى ذلك،ان النبى و الرسول و الامام المحدث يكاد يتمنى،و لكنه لا يتمنى لقوله سبحانه:

فَيَنْسُخُ اللَّهُ مَا يُلْقَى الشَّيْطَانُ

فى روع الرسول لمقامه البشرى الضعيف لولا تأييد الله و نصره.

ثُمَّ يُحَكِّمُ اللَّهُ آيَاتِهِ بِالْعَصْمَةِ الَّتِي تَجْعَلُ الرَّسُولَ لَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ بَلْ هُوَ وَحَىٰ يُوحَىٰ.

وَ اللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ فهو يحيط علما بالقلب البشرى، و اللقاءات الشيطان فيه و هو ينسخها من ضمير المؤيدين كالنبي و الرسول و المحدث بحكمته. و هذه الآيه أكبر شاهد على عصمه أنبياء الله و أئمه الهدى. ذلك لان الله لا يسمح للشيطان بأن يوسوس إليهم فى صدورهم، بل يعصم عزائمهم، و امنياتهم و افكارهم من اللقاءات الشيطان. و تشبه هذه الآيه آيات اخرى فى القرآن الحكيم، كقوله سبحانه:

« وَ لَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَ هَمَّ بِهَا لَوْ لَا أَنْ رَأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ » حيث تدل على ان يوسف عليه السلام تعرض لطائف من الشيطان فعصمه الله رأسا، و قوله تعالى:

وَ لَوْ لَا أَنْ جَبْتَنَّاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَوَكَّنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا .

حيث ان الله لم يدع الضغوط الجاهليه تؤثر على مسيره النبي المستقيمه.

و من المفارقات الغريبه اننا نجد تلفيقات من اللقاءات الشيطان حول هذه الآيه.

حيث جاء فى بعض الاخبار المرويه: ان رسول الله صلى الله عليه و آله جلس فى أحد نوادى مكه، و قرأ على المشركين سورة (النجم) حتى إذا بلغ قوله تعالى:

أَفَرَأَيْتُمُ اللَّامَةَ وَ الْعُرَىٰ وَ مَنَاءَ الثَّلَاثَةِ الْأُخْرَىٰ أَضَافَ إِلَيْهَا: و انهن لهن الغرائق العلا و ان شفاعتهن لهى التى ترتجى و مضى فى قراءه السوره حتى انتهى الى السجده فى آخرها فسجد و سجد المشركون معه، و لم يتخلف منهم أحد، فاعلنت قريش

رضاهما!!! و في بعض الروايات ان رسول الله صَلَّى الله عليه و آله كان يقرأ سورة النجم في الصلاة، فعند ما كان يقرأها فاذا بأحد خلفه يردد آيات الغرائق فرددتها الرسول عدة مرات على غفله منه، فنزلت هذه الآية.

و ان هذه الرواية و أمثالها لا- تحتمل التصديق لان سورة الجن نزلت في مكة و سورة الحج نزلت في المدينة، عوضا عن ان الرسول يعلم علم اليقين ان سورة النجم التي تحتوي على سجده واجبه لا تقرأ في الصلاة.

المهم جاءت هذه الآية لتؤكد بان شفاعه هذه الغرائق لا ترتجى، و ان هذه القصة ليس سوى امنيات ألقاها الشيطان ليختبر بها الله عباده المؤمنين، فما هي الا- اسطوره لا- أكثر و لا- أقل. لان الرسول أرفع من ان ينزل الى مستوى الجاهل با هم أصل من أصول رسالته، الذي يعتبر الركيزه الاولى التي قام عليها الدين بأكمله و هي التوحيد، فحتى لو أغمضنا العين بقول ان رسل الله معصومون عن الذنب، و الخطأ و السهو النسيان و بالذات رسول الله محمد خاتم النبيين صَلَّى الله عليه و آله الذي يقول عنه الرب سبحانه: «وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۗ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۗ» ان هذه الآية نقرأها في سورة النجم بالذات التي حولها هذه الاسطوره ثم هل من الممكن ان نتصور رسولا يبعثه الله لا بلاغ رساله التوحيد ثم ينسى هذه الحقيقه، و يبدلها بخرافه الشرك؟! ان هذا الحديث الذي يقول عنه أبو بكر الزار لا- نعلمه يروى عن النبي ياسناد متصل يجوز ذكره، انما تقوله الجاهليون الحاقدون على الرسول نكايه به، و تناقله الجاهلون الذين لم يعرفوا رسول الله بل لم يعرفوا رسالات الله.

و لو افترضنا- جدلا- صحه هذه الروايه فلا بد ان يكون هذا الكلام من

القاءات الشيطان فى قلوب المشركين، التى أضافوها الى الآيات، و اشاعوها بين الناس، ليشبهوا على الناس، الا ان الله سبحانه-الذى وعد بحفظ القرآن عن عبث العابثين و تحريف المبطلين-احكم آياته، و فضح القاءات الشيطان، و قد ذكر كثير من المفسرين هذا الاحتمال فى هذه الروايه التاريخيه.

[٥٣] ان قلوب الناس على ثلاثه أنواع: السليم، و المريض، و القاسى، و القلب السليم يعصمه الله عما يلقي الشيطان فى امنياته، بينما القلب المريض و القاسى يلقيان ما يلقيه الشيطان، و يصبح بالنسبه إليهما فتنه تستهويهما و يصعب عليهما التخلص منها.

لِيَجْعَلَ لِمَن يُلْقَى الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَ الْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مَا هُوَ الْقَلْبُ الْمَرِيضُ وَ الْقَاسِيَةُ؟ لعل امراض القلب هى تلك العقد النفسيه، التى تظهر فى الصفات الرذيله كالحسد و الحقد و الكبر و اليأس، و حب الرئاسه، و الجدل فى الله بغير حق.

و اما قسوه القلب فهى التى تنشأ بسبب تراكم اثار الذنوب عليه، فاذا به لا يستجيب للحق، و لا يهتز للانذار و التبشير، و لا يعتبر بمصير المجرمين، و لا ينتفع بآيات الله فى الافاق.

و كيف تصبح القاءات الشيطان بالنسبه إليهما فتنه؟ لأن القلب المريض أو القاسى يبحث أبدا عما يتوافق معه، فإنه يستجيب سريعا لوساوس الشيطان و يكون مثله مثل الجسم المريض الذى تكاثرت فيه الجراثيم، و ضعفت مناعته الذاتيه، فاذا به يتلقف الجراثيم الجديده بسهولة، ان

مقاومه هذا الجسم للمرض ضعيفه،فخطر المرض عليه شديد،كذلك القلب المريض أو القاسى،يصعب عليه مقاومه الاشاعات الشيطانيه التى تنتشر و تلقى هوى فى النفس.

مثلا:انك ترى قلوب الجاهليين المريضة بحب«الغرائق العلى»،و التى تراكمت عليها آثار عباده الأصنام،و تحن الى أيام الصبا حيث كانوا يتساقطون امام الأصنام المزخرفه،و يسحرون على وقع الاناشيد و الطبول،و فى احتفالات اللعب و اللهو و بانتظار موائد الطعام و الشرب و المسكرات،و مع صبايا الحى الجميلات و الصبيان الحسان.

انك تراها اليوم تتلهف الى اشاعه تروج فى مكه،بان النبى قد مدح هذه الأصنام،و وقع ساجدا لها،و اعطى الشرعيه من جديد لها،و تناقل الأفواه هذه الشائعه المفضوحه بشوق عظيم،و إذا بها تصبح ماده اعلاميه لكل من سولت نفسه النيل من مقام سيد البشر و منار الهداه و قدوه الصالحين محمد بن عبد الله الطهر الطاهر المطهر،الذى عصمه الله من كل ذنب،صلى الله عليه و على آله المعصومين.

و تستمر الأفواه تتناقلها حتى اليوم حيث تتلقفها أقلام المستشرقين و تنسج حولها بيوت العنكبوت و من راجع كلمات المستشرقين و محاور تركيزهم و جدها تدور فى الأغلب حول تلك الاشاعات الكاذبه التى روجتها أفواه الحاقدين على الرسول صلى الله عليه و آله،ثم دخلت فى كتب التاريخ اما بسهواً أو عبر أصحاب القلوب المريضة الذين تظاهروا بالإسلام،و هم ينوون النيل من الإسلام كبنى أميه، و أحزابهم.

و مع الأسف استرسلت أقلام بعض المفسرين مع هذه التقولات الكاذبه حتى صنعت من الرسول شخصيه مفروزه،و لم تلتفت الى الحديث المجمع عليه و المأثور

عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ (ستكثر من بعدى القاله) و لم تلتفت الى حذر أصحاب الرسول من بعده عن قبول الأحاديث الا إذا شهد عليها شاهدان، وقد طردوا بعض الرواه و ضربوهم بالدره، لأنهم أكثروا من نقل الحديث غته و سمينه.

و قد تصدى أئمه أهل البيت بحزم لهذه الظاهره الخطيره و أصروا بان يعرض كلام الرسول و كلامهم أيضا على كتاب الله. فما وافق كتاب الله أخذ و ما خالف كتاب الله ضرب به عرض الحائط، و استطاعوا ان يفتندوا الكثير من الاشاعات الضاله بهذا المقياس الرشيد.

وَ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ان الذين ظلموا أنفسهم بارتكاب المعاصي، حتى مرضت قلوبهم و قست و استجابت لفتنه الشيطان انهم بعيدون عن الحق كثيرا.

و يستوحى من الآيه الكريمة: ان قسوه القلب مرحله تاليه لمرضه، و ان ما يسبب مرض القلب هو الظلم فاذا فحش و ازداد قسى القلب.

[٥٤] وَ لِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ يميز الذين أوتوا العلم، بأن موقفهم أخذ في التكامل فمن العلم الى الايمان الى الإخبات، ذلك لان العلم هو اكتشاف الحقيقه و الايمان هو الاعتراف بها، و الإخبات هو ان تتبعها بكل كيانتك.

و هذا التكامل يتم عبر الصراط المستقيم الذى كلما مشى فيه الإنسان ظهرت له معالم الحق، و الله هو الذى يهدى المؤمنين الى هذا الصراط، و لا أحد سواه قادر على الهدايه اليه.

وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ [٥٥] أما الذين كفروا فهم باقون أسارى شكهم النابع من جهلهم. ولا يمكنهم التخلص من هذا الشك الى اليقين بسبب كفرهم.

وَإِلَّا يَرَأِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مَرِيهِ مِنْهُ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ يَوْمِ عَقِيمٍ السَّاعَةُ هِيَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، أما العذاب العقيم فهو العقاب في الدنيا.

[٥٦] هنالك عند قيام الساعة، يتجلى ملكوت الرب، وقضاؤه الفصل و جزاؤه العادل، فهو الملك و الحاكم و المدبّر.

الْمَلِكُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ فَله السلطان الظاهر، حيث يطوى بعزته سلطات الجور التي نشرها الشيطان، و امهلها الله بحكمته الى أجل مسمى.

يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فلا أحد يستطيع رد حكمه، و الادعاء كذبا بأنه على حق كما هو اليوم في الدنيا.

فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ [٥٧] ذلك هو مصير المؤمنين العاملين للباقيات الصالحات، أما مصير الكافرين فهو العذاب المهين.

وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ كلمة المهين توحى بان أهم العوامل التى تدعو الإنسان للشك و اتباع الامانى هو التكبر، و الاهانة هى العذاب النفسى الذى يصيب المتكبرين. و لعله أشد ألما من العذاب المادى.

ص: ١٠٣

وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسِينًا وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (٥٨) لِيُدْخِلَنَّهُمْ مُدْخَلًا يَرْضَوْنَهُ
 وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ (٥٩) ذَلِكَ وَمَنْ عَاقَبْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنْصُرَنَّهُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوفٌ غَفُورٌ (٦٠) ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ
 يُوَلِّجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُوَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (٦١) ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنْتَ إِدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ
 الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ (٦٢) أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتَصُبُّ بِحِ الْآرْضِ مُمْخَضَةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ (٦٣) لَهُ مَا
 فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (٦٤) أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مِمَّا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ
 بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرُؤُوفٌ رَحِيمٌ (٦٥) وَهُوَ الَّذِي أَخْلَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ
 إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ (٦٦)

هدى من الآيات:

هنالك هجرتان: هجره معنويه و اخرى ماديه، فالهجره الماديه عاده ما تتبع الهجره المعنويه، لذلك نجد القرآن الحكيم حينما يحدثنا فى هذا الدرس عن الهجره الماديه من دار الكفر و الكبت و الحرمان، الى دار الحريه و الإسلام، لا يلبث ان يحدثنا عن الجوانب المعنويه لهذه الهجره.

و بمناسبه الحديث عن الهجره يحدثنا القرآن الحكيم عن قدره الله، و أهم و أبرز مظاهر هذه القدره حركه الليل و النهار، و إيلاج كل واحد منهما فى الثانى، فكما يبذل الله-سبحانه-الليل نهارا، فانه كذلك يبذل ظلام الإرهاب و الكفر و الجاهليه الى نور العداله و الإسلام و الحريه.

تلك القدره المهيمنه على الكون هى ذاتها القدره المهيمنه على المجتمع، لأن قياده هذا الكون، و ولايته سواء فى السماء أو فى الأرض لله الحق وحده.

[٥٨] بعد ان ذكرنا الرب سبحانه ببعض حقائق الايمان فى آيات آنفه، جاءت هذه الآيه تذكرنا بدور الهجره فى الله. لماذا؟ لان الطريق الى الايمان يمر عبر الهجره و الجهاد. إذ أنّ الطغاه لا يدعونك حرا تؤمن بالله وحده، و تطبق منهجه فقط، إنّما يريدون أن تميل عن عبادته الله الى الشرك به بعبادتهم، و لا بد من تحدّيهم حتى تصبح مؤمنا بالله وحده. و من هنا تبدأ مرحله الجهاد بالهجره من ديار الكفر الى بلاد الإسلام. و الواقع فالهجره ذاتها مرحله متقدمه من مراحل الإيمان، فليس كل مؤمن مستعدا للهجره الى الله بعيدا عن اهله و وطنه، و الهجره لا تتم من دون معاناه، فالمهاجر عاده يتعرض للقتل بسبب أو بآخر.

و ليس هناك ما يعوض القتل أو الموت إلا الرزق الحسن من الله، فهذا المهاجر الذى ترك موارده الخصبه فى بلده، يعوّضه الله خيرا منها دار الخلود، و بدل خروجه من وطنه ساخطا يدخله تلك الدار راضيا مرضيا.

هذا لمن يهاجر و يلقي حتفه، اما الذى يبقى حيّا فإن الله سوف ينصره نصرا مؤزرا على من كانوا السبب فى تهجيريه و تشريده، و بما أن الهجره من دار الكفر الى دار الايمان تنشأ من السخط على الأوضاع الفاسده-السياسيه أو الاقتصاديه أو الاجتماعيه- فإن الهجره فى عرف الطغاه تشكل سنّ الحربه لذا فهم يسعون لوأد هذه الحركه بقتلهم المهاجرين، أو التضيق عليهم كأن يبرموا الاتفاقات مع الدوله الاخرى كى يسلموهم، أو يضيقوا عليهم، حتى يستحيل عليهم النصر فيموتوا بعد سنّ النضال الطويل.

وَ الَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ

رِزْقًا حَسَنًا وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ هكذا يعرفنا الله نفسه.

من الآيه (٥٨) الى الآيه (٦٥) يذكرنا القرآن ب(١٥) اسما من الأسماء الحسنى، هي خير الرازقين، العليم، الحليم، العفو، الغفور، السميع، البصير، العلى، الكبير، اللطيف، الخبير، الغنى، الحميد، الرؤوف، الرحيم.

و نستوحى من منهج القرآن فى ذكر أسماء ربنا هنا و فى سائر السور، ان الله يريد ان يعرفنا نفسه فى مختلف جوانب الحياه التشريعيه و الاجتماعيه، أو الماديه التكوينيّه، و ان هناك مسافه تفصل بين الايمان و المعرفه، كما تفصل مسافه مماثله بين الإسلام و الايمان، فليس كل مسلم مؤمنا، و ليس كل مؤمن عارفا و ان للعرفان درجات.

ان الله سبحانه و تعالى قد تجلى فى آيات القرآن لعباده، و كما تجلى فى آيات الحياه ليعرفنا نفسه، فكيف نعرف الله؟ باستطاعتنا ان نعرف الله سبحانه عبر صفاته و أسمائه الحسنى، الماثوثة فى آياته القرآنيه و الكونيه، فكل شىء، و كل آيه هى تجلّ واضح لأسماء الله و صفاته.

جمال الربيع، و بهجته، و عقب أزهاره، يقودنا الى جمال الله، و عظمه الليل و النهار، و دوران الفلك العظيم بشموسه و أقماره، يهديننا الى عظمه الله، و انه على كبير.

و قطرات المطر التى تنزل من السماء، ثم تستقر فى رحم الأرض، و تتفاعل مع حبات التراب، و إذا بتلك البذره الصغيره ترتفع نحو السماء، فتصبح شجره عظيمه، كل ذلك يقودنا الى لطف الله فى صنعه.

اما إذا نظرنا الى ما فى الجبال من خزائن، و ما فى البحار من ثروات معدنيه و حيوانيه، و ما فى الأرض من كنوز و معادن، فسنعرف آنذاك أن ربنا غنى حميد، و انه على كل شىء قدير.

و حين نعرف بأن ربنا سبحانه قد جعل فى السموات و الأرض أنظمه و سننا- يحفظنا بها- و لو لا ذلك لانتهد حياتنا على الأرض، أو تحولت فى أحسن الظروف الى جحيم لا يطاق.

ان نظام الغلاف الجوى كأبرز مثال من الدقه بحيث لو انه كان أقل سمكا لتهافتت النيازك و الشهب فأحرقت الأرض، و لو انه كان اسمك قليلا- لما استطاعت الأرض ان تأخذ قدرا كافيا من اشعه الشمس فكانت تتجمد، و هكذا الجاذبيه، و سماكه الأرض.. أقول إذا عرفنا كل ذلك هدانا الله الى انه سبحانه رؤف رحيم.

و كذلك تحولات حياتنا من الموت الى الحياه، و من الحياه الى الموت، يدلنا على ان تدبير الأمور بيد غيرنا لا بيدنا نحن، و ان الرحمن على العرش استوى. و هكذا نجد فى هذه الآيات منهجا قرآنيا عظيما. حيث يذكرنا بآيه من الآيات، ثم بصفه من صفات الخالق، و اسم من أسمائه، و هذا هو الأسلوب المناسب لمعرفة الله سبحانه، و بتعبير آخر التحول من درجه الايمان الى درجه المعرفه.

جزاء الهجره:

[٥٩] لَيُدْخِلَنَّهُمْ مُدْخَلًا يَرْضَوْنَهُ قَدْ يَكُونُ هَذَا الْمُدْخَلُ الَّذِي يَرْضَوْنَهُ فِي الدُّنْيَا، لِأَنَّهُمْ خَرَجُوا غَاضِبِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَ قَدْ يَكُونُ الْمُدْخَلُ هُوَ الْجَنَّةُ لِأَنَّ اللَّامَ فِي قَوْلِهِ: لَيُدْخِلَنَّهُمْ تَفِيدُ الْمُسْتَقْبَلَ.

□
وَ إِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ

ص: ١٠٩

فهو يعلم عملك و سيجازيك عليه-و لكن بعد حين-لأنه حلیم لا يعجل، فمن جهة يعطى الكافرين مهله أطول،و من جهة أخرى يطلب من المؤمنين الصبر حتى يعلم صدق إيمانهم.

[٦٠] ذَلِكْ وَ مَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لِيَنْصُرَهُ اللَّهُ ذَلِكَ لَان الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ مُهَاجِرِينَ إِلَى اللَّهِ سَوْفَ يَرْجِعُونَ إِلَيْهَا فَاتِحِينَ يَا ذَنُوبَهُ، فَيَقْتُلُونَ أَعْدَاءَ اللَّهِ وَ أَعْدَاءَهُمْ، لِأَنَّهُمْ تَعَرَّضُوا لِلْبُغْيِ، وَ الْبُغْيُ هُوَ أَنْ تَطَالِبَ بِحَقِّكَ الْمَغْضُوبَ فَلَا تَعْطَى إِيَّاهُ، بَلْ وَ أَيْضًا تَوَاجَهَ بِالْقَمْعِ وَ الْإِرْهَابِ. إِذْ لَا يَجِدُ غَاصِبُوكَ سَبِيلًا لِاسْكَاتِكَ إِلَّا بِالْقَضَاءِ عَلَيْكَ.

« ذَلِكْ وَ مَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ » أَي مُوَاجَهَهُ الْإِعْدَامَ بِالْإِعْدَامِ.. مِثْلًا بِمِثْلِ، « ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ » أَي ظَلَمَ بَعْدَ أَخْذِهِ لِحَقِّهِ الْمَشْرُوعِ (لِيَنْصُرَهُ اللَّهُ) فِي هَذِهِ الْكَلِمَةِ تَأْكِيدَانِ عَلَى تَحْقِيقِ النُّصْرَةِ، أَوْلَهُمَا يَدُلُّ عَلَيْهِ لَامُ التَّوَكُّيدِ، وَ ثَانِيَهُمَا تَعْبِيرٌ عَنْهُ نُونُ التَّوَكُّيدِ.

إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوفٌ غَفُورٌ عَفْوٌ غَفُورٌ عَمَّا تَجَاوَزْتُمْ، وَ دَلَالُهُ عَفْوُهُ وَ غَفْرَانُهُ نَصْرُهُ لَكُمْ.

استوحى بعض المفسرين من الآية فكره هامه ان الصراع فى الإسلام ليس قاعده مطرده كما فى النظرية الماركسيه،انما هو حاله اضطراريه،فالإسلام يدعوك الى ان تضرب صفحا عمن يظلمونك أو يسلبون بعض حقوقك البسيطة،اما حين يتعدى هؤلاء الحد فى السلب و الظلم،آنئذ يجب عليك ان ترفع عقيرتك فى وجوههم و تواجههم فيكون صراعك لا- من أجل الصراع ذاته،بل من أجل العدالة،و حالما يعود إليك حقك آنئذ تقف عند هذا الحد.و مثل هذه الآية قوله تعالى:

وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيهِ سُلْطَانًا فَلَا يَسْرِفُ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا .

إذا و قبل كل شيء يجب ان يكون الصراع فى الله و بالله، نهب متى استنهضنا و نقف عند ما يأمرنا بذلك.

الليل و النهار:

[٦١] ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ يُوَلِّجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَ يُوَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ مَا يَحْدُثُ فِي الطَّبِيعَةِ مِثْلَ حَيِّ تَمْرٍ بِهِ الْأُمَمُ، فَمَرَهُ يَمْتَطِي صَهْوَهُ التَّارِيخَ كَفَرَهُ فَجَرَهُ، فَيَصِيبُ الْمُؤْمِنُونَ جَامَ انْتِقَامِهِمْ عَلَيْهِمْ، فَتَعُودُ مُؤْمِنَةٌ كَمَا كَانَتْ، لَكِنِهَا لَا تَلْبِثُ أَنْ تَضْمَحِلَّ وَ تَتَلَّاشَ وَ تَعُودَ مِنْ جَدِيدٍ كَأَفْرِهِ فَاجْرِهِ.. وَ هَكَذَا تَتَعَاقَبُ الْأُمَمُ حَتَّى يَأْذَنَ اللَّهُ لِأَوْلِيَائِهِ الصَّالِحِينَ بِالنُّهُوضِ لِإِزَالَةِ الْجَاهِلِيَّةِ وَ الضَّلَالِ مِنَ الْأَرْضِ الْإِنْسَانِيَّةِ جَمِيعًا.

ان معنى الإيلاج هو الإدخال، فمره يلج الليل فى النهار و يدخل فيه، و مره يلج النهار فى الليل و يدخل فيه، ففى المره الاولى يكون الفصل شتاء، و فى المره الاخرى يكون الفصل صيفا، لان إيلاج الليل فى النهار يعنى اقتطاع الليل قطعه من النهار فيصير الليل أطول، و هذا فصل الشتاء، و العكس من ذلك إيلاج النهار فى الليل.

وَ أَنَّ اللَّهَ سَيَجِيعُ بَصِيرًا إِي ان الله قريب من السنن الجارية فى السموات و الأرض و من مظاهر قربه سمعه و بصره، و احاطته بكل صغيره و كبيره.

[٦٢] ذَلِكْ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَ أَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ سلطته أعلى من سلطه الآخرين، هذا إذا سلمنا جدلا بأن لآخرين سلطه، و الافهم فى الحقيقه سراب يحسبهم الظمان ماء و الله هو الحق المبين.

وَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ فما سواه ليس عليا و لا كبيرا، الا به و العلو و الكبر تعبير ان عن قدره الله و سعه سلطانه، فلتسقط الأصنام البشرى و الحجرى التى تعبد من دون الله، و ليخلص العارف نيته و عمله لله الذى يولج الليل فى النهار و يولج النهار فى الليل لأنه وحده الحق و ما سواه هو الباطل.

[٦٣] و انه لطيف خبير، لطيف بعباده يرزقهم من حيث يحتسبون و من حيث لا يحتسبون، و خبير بحاجاتهم.

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ السماء تمطر و الأرض تستقبل حبات المطر، لتتحول تلك الحبات الى بساط أخضر، فطعام لنا و لأنعامنا. ان كل ذلك يدل على إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ .

ان علماء النبات يعرفون، كم هى دقيقه و عظيمه تلك القوانين التى تنظم نمو النبات، التى عاده ما نمر نحن عليها بلا- تأمل أو اعتبار. فبعد ان صرفوا الملايين من الدولارات فى المختبرات النباتيه لم يعرفوا و الى الآن سرّ التمثيل الضوئى.. كيف ان شعاع الشمس يتحول الى ثمره كالتفاح مثلا التى تعتبر أكثر موادها من نور

[٦٤] لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُ الْعِزَّةُ الْحَمِيدُ ان الله سبحانه و تعالى يمتلك كل الأشياء، و يسير قوانينها، و هو بالرغم من انه يمتلك الأشياء و قوانينها فهو غنى عنها و لا يحتاج إليها، فهي لا تعطيه القوة، بل هو من جهة غنى عنها، و من جهة اخرى حميد يعطيها الوجود و الحركة تبارك و تعالى.

[٦٥] أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مِمَّا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلُوكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ كُلِّ مَا فِي الْأَرْضِ مُسَخَّرٌ لَنَا..بقسميها البرى و البحرى، فالقسم البرى يحوى المعادن و الكنوز، و الأشجار و الحيوانات، و يحوى القسم البحرى الحيوانات و المعادن و لعل أهم فائده نستفيدها من البحر، هي جريان سفننا بأمر الله فيه و ان من أمر الله الرياح التى تدفع السفن و تحركها الى الامام.

الجاذبيه:

و يُمَسِّكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ ان النجوم و الكواكب و سائر الاجرام السماويه تبقى فى مساراتها بقدره الله، و لو لا ان الجاذبيه موجوده لاختل نظام الأفلاك و لاصطدمت ببعضها و تناثرت على الأرض فدمرتها. و ربما يكمن التفسير الصحيح فى الآيه ذاتها فى قوله: «الا- باذنه» اى من الممكن ان تسقط إذا اذن الله لها بالسقوط، و ما هي السواقط تلك؟ ان السواقط التى يعبر الله عنها بالسما هي: النيازك و الشهب التى تهبط الى الأرض بإذن الله، و لم يكتشف العلم الحديث و الى اليوم سر الجاذبيه، ما هي؟

و اين هي؟ و لكن الله يعبر عنها بقوله:

«و هو الذى يُمَسِّكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ» □ اى ان الجاذبيه بيد الله...وضعها حسبما شاء و باستطاعته ان يعدمها، و لكن كلمه «الا باذنه» لا تدل على ان الله يعدم الجاذبيه بل هو إثبات لها، فالنيازك و الشهب التى تسقط على الأرض بفعل الجاذبيه نفسها.

و معلوم ان تقلص الأرض هو نتيجة طبيعیه لاعمال الإنسان، بسبب صرفه لطاقات الأرض إذ تزايد فى الآونه الاخيره استخدام الطاقه، و استحلاب الأرض من معادنها و غير ذلك.

كما قال تعالى:

«ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَ الْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ» □ (١٤١/الروم) و لعلنا نستوحى من هذه الآيات ان الله لا يأذن للأرض بالدمار الا بسبب فساد الناس.

□ □ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَوْفٌ رَحِيمٌ آيه رأفته و رحمته انه سخر لنا فى البر و البحر، و أمسك السماء ان تقع على الأرض الا باذنه و الا فهو قادر على ان يجعل كل ذلك جحيما علينا، فهناك احتمالات رهيبه فى الكون لا يمكن ان تصدق، و أبرز مثال على ذلك ان هناك الكثير من الشهب و النيازك تتساقط على الأرض و باعداد هائله، و لكنها لا تلبث ان تتلاشى إذا اصطدمت بالغلاف الجوى و هكذا نقرأ فى الدعاء، سبحان من لا يأخذ أهل الأرض بألوان العذاب سبحان الرؤوف الرحيم.

ص: ١١٤

[٦٦] وَهُوَ الَّذِي أَخْلَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ ثُمَّ بَعْدَ عَرْضِ آيَاتِ اللَّهِ، وَبَعْدَ عَظِيمِ عِلْمِهِ وَرَأْفَتِهِ تَرَانَا نَكْفُرُ
بِنِعْمِ اللَّهِ. إِنَّ الْمَشْكَلَةَ فِي الْإِنْسَانِ أَنَّهُ مَحْدُودُ النَّظَرِ، فَلَوْ نَظَرَ إِلَى مَا حَوْلَهُ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ، بَلْ لَوْ رَأَى خَلْقَهُ.. وَتَقْلِبَاتِ كُلِّ ذَلِكَ مِنْ
حَيَاةٍ إِلَى مَوْتٍ لِأَمْنٍ، وَلَكِنَّ الْإِنْسَانَ كَفُورٌ بِنِعْمِ رَبِّهِ، وَبِعَطَائِهِ، وَلَعَلَّ كُفْرَهُ هَذَا هُوَ عِلْمُهُ كُفْرَهُ بِاللَّهِ رَأْسًا.

إشاره

لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنَازِعُونَكَ فِي الْأَمْرِ وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ (٦٧) وَإِنْ جَادَلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ (٦٨) اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (٦٩) أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (٧٠) وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يَنْزَلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَا لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ (٧١) وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍِّ مِّنْ ذَلِكَُمُ النَّارُ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (٧٢) يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضَرْبٌ مِّثْلُ مَا سَمِعْتُمْ لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَفِيدُوهُ مِنْهُ ضَعْفَ الطَّالِبِ وَالْمَطْلُوبِ (٧٣)

اللغه

٧٢ [يسطون]: إظهار الحال الهائله للاخافه.

لكى يزداد البشر تقوى و إحساسا بمسؤولياته فى الحياه، لا- بد ان يزداد معرفه باللّٰه و بأنه محيط به علما، و لا بد ان يشعر بان هناك رقبيا يراقبه، و يحيط به، و هذه المعرفه تعطيه التزاما أكثر بمسؤولياته.

و فى هذا الدرس ما قبل الأخير من سوره الحج التى تركز حول موضوع التقوى نجد- فى هذه الآيات- اىحاءات تدل على علم اللّٰه بالكون، و ان المسؤليه ليست امام الرسول و لا امام المؤمنين بقدر ما هى امام اللّٰه رب العالمين، فاللّٰه هو الذى يشرع لكل امه مناسكها، و هو الذى يطالبها بأدائها، و يحاسب على تركها، فلما ذا اذن يجادل هؤلاء الكفار الرسول؟ ان مسؤليه الرسول هى الدعوه الى اللّٰه عبر الصراط المستقيم و مسؤليه الرسول لا تتجاوز هذا الحد، أما حساب الناس فهو على ربه و ربهم.

ان الله محيط علما بما فى السموات و الأرض، و ان كل شىء عنده مكتوب فى كتاب لا يضل ربي و لا ينسى، و ذلك على الله يسير. لان تسجيل حوادث الدنيا و متغيراتها و إدراجها فى كتاب أمر بسيط، فاذا حانت ساعه الحساب فان يدك كتاب، و جلدك كتاب، و عينك كتاب، و كل ما فى كتاب شاهد عليك، فما تفعله لا يذهب هباء، و مع كل ذلك، فانك تجد أناسا يعبدون من دون الله أناسا عاجزين مثلهم و يخضعون لاصنام بشريه أو حجرية.

ان الإنسان ينبغى له ان يتبع أحد أمرين: اما ان يتبع شريعه الله و يخضع لأوامره، و نواهيه، و اما ان يتبع العلم، فمن لم يتبع أحد هذين الأمرين فهو ظالم لنفسه، و من يظلم نفسه، أ يحسب آثما ان الأصنام الحجرية أو البشرية ستشفع له؟! انها ستكون عليه ضدا، و سيحشر معها فى جهنم كما قال تعالى:

إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ .

و انك لترى مدى التعصب للباطل عند عبد الطاغوت، حيث تتبين فى وجوههم المنكر.. فاذا بها تظلم و تعبس، كلما تليت عليهم آيات الله، البالغه الوضوح، حتى ان اعصابهم تتحفز و كأنهم يستعدون لمعركه، و يكادون يرفعون أيديهم للسطو على من يتلوا عليهم الآيات، و دون النظر الى محتوى الآيات، و ان التالين لها ليسوا سوى مبلغين و ان قول الحق إذا كان مرا لان فيه تهديدا و إنذارا بالعقاب الواقعى، فان ذات العقاب و هو النار التى وعداها الله الذين كفروا انه أشد حراره و أسوأ مصيرا.

و بمناسبة الحديث عن الأصنام التى تعبد من دون الله، يتحدى الله الأصنام البشريه موجهها إليها المقال بان ليس فى إمكانها خلق ذبابة واحده حتى لو احتشدت كل القوى العظمى اليوم مثلا(امريكا، روسيا، أوروبا، اليابان و أذناهم) ما

استطاعوا اليه سيلا.

انهم يعجزون عن صنع حشره صغيره كالذبابه، و ان تسلبهم الذبابه شيئا، فأنهم أعجز من ان يستنقذوه منها، بالرغم من ضعف قوتها «ضَعْفَ الطَّالِبِ وَ الْمَطْلُوبِ» اذن فلما ذا الطغيان، و لماذا عباده هؤلاء الضعفاء؟!

بينات من الآيات:

اختلاف الشريعة و وحده المشرع:

[٦٧] لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسِيًّا كَأَنَّهُمْ نَاسِيًّا كَوْهٌ ذَكَرَ الْمَفْسُرُونَ: ان لكل امه مناسك و طقوسا خاصه، تختلف من امه الى أخرى، و هذه الاختلافات لا تدل على اختلاف المشرع، أو على اختلاف الشريعة الاسلاميه التي أتى بها كل الأنبياء و غايه ما فى الأمر هو ان الله الذى أوحى بشريعه نوح قد نسخ هذه الشريعة بشريعه إبراهيم، ثم نسخ هذه الشريعة بشريعه موسى، ثم بشريعه عيسى، ثم نسخها بشريعه محمد صلى الله عليه و آله .

هذا التفسير صحيح لكنه ليس كافيا، فهناك أحكام المختلفه بالرغم من وحده الرساله و وحده النبوه، و هناك واجبات تختلف من فرد لآخر حسب أحواله و ظروفه المكانية و الزمانيه و المعاشيه و غيرها، و من باب اولى ان تنسحب هذه المسأله على الشعوب و الأمم، و المقياس الوحيد لتقدير هذه الظروف المختلفه هو وحى الله سبحانه، و ما على الإنسان الا الانصياع لمن له الخلق و الأمر، و ما دام الله هو رب الشرائع جميعا، فلما ذا الاختلاف اذن؟! التوجه اذن لاصلاح ما بيننا حتى يعم السّلام و الأمن ربوع المعموره.

و لعل الآيه توحى بأن البحث عن جزئيات المناسك العباديه لا يجدى نفعاً، بل

ص: ١٢٠

لا بد ان يكون الحديث حول أصل صدق الرساله،فمتى ما أيقن المرء ان الرسول يدعو الى الله عبر طريق مستقيم.فلا يجوز ان يجادل فى الفروع.

وانه لماذا الصلاه الى الكعبه،و ليس الى المسجد الأقصى،ولماذا الصوم فى شهر رمضان،و ليس فى أيام عيد الفطر،ولماذا لا يحرم الإسلام ما نهت عنه شريعته موسى،و ما الى ذلك مما كان الكفار يجادلون فيه،و يتخذونه ذريعه لجحودهم،و مما لا يزال بعض انصاف المثقفين يتخذونه ماده للجدل العقيم،و يبررون به فسقهم عن الدين و كفرهم به.

و أساسا كلما منعت البشر العصبية عن منهج سليم،و لم تفلح أدلته فى رده، أخذ يناقش فى الجزئيات التى لا علم له بها و التى لا يستطيع أحد اقناع أحد فيها.

و لعننا نستوحى من الآيه:ان الامه الواحده مهما اختلفت طرائق و شيعا فانها تقوم على أساس منسك واحد،فالمنسك هو رمز مبدئيه الامه و وحدتها،فالمسلمون قد يختلفون فى اى شىء الا فى الصلاه الى الكعبه و الحج إليها و الصوم و..و.

و المسيحيون يختلفون كذلك فى كل شىء الا فى بيت المقدس و مجموعه مناسك يتفقون عليها مثلا.

فَلَا يَنَازِعُكَ فِي الْأَمْرِ أَنْتَ لَا تَمْلِكُ أَيُّهَا الرَّسُولُ سِوَى الْبَلَاغِ وَ لَيْسَ لِهَؤُلَاءِ حَقٌّ فِي أَنْ يَنَازِعُوكَ أَوْ يَنَاقِشُوكَ فِيمَا أَمَرَكَ بِهِ اللَّهُ،خصوصا فى المناسك،و فى هذا نهى حتمى عن الخوض فى مثل هذا الجدل.

وَ ادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ انك على هدى،تعرف الغايه و تعرف أيضا الطريق المستقيم إليها،فلا تلتفت

الى جدلهم و نزاعهم، و أمعن فى طريقك داعيا الى الله سبحانه.

[٦٨] وَإِنْ جَادَلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ لَا تَحَاوِلْ أَنْ تُتَوَكَّلَ عَلَى نَفْسِكَ فِي الْجِدَالِ الْعَقِيمِ مَعَهُمْ، بَلْ أَتْرِكْهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ فَهُمْ مَسْئُولُونَ أَمَامَهُ، وَ لَيْسُوا أَمَامَكَ إِلَّا بِمِقْدَارِ الدَّعْوَةِ وَ الْبَلَاغِ.

[٦٩] اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ إِذَا وَضَعَ الْإِنْسَانُ اللَّهَ مِقْيَاسًا لَهُ وَ أَنَّهُ رَقِيبٌ عَلَيْهِ، فَانِ الْخِلَافَاتِ سَوْفَ تَتَبَدَّدُ وَ تَنْتَهَى وَ لَعَلَّ الْآيَةَ تَدُلُّ أَيْضًا عَلَىٰ أَنَّ هُنَاكَ اخْتِلَافَاتٌ لَا تَسْتَدْعِي الصَّرَاحَ، بَلْ أَنَّ الْإِنْسَانَ هُوَ الَّذِي يَسْبِغُ عَلَىٰ هَذِهِ الْاِخْتِلَافَاتِ الطَّبِيعِيَّةِ لَوْنِ الْعِدَاءِ.

[٧٠] أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَ الْأَرْضِ إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَابٍ إِنْ اللَّهَ يَعْلَمُ كُلَّ مَا يَجْرِي فِي السَّمَاءِ وَ الْأَرْضِ، وَ كُلَّ شَيْءٍ عِنْدَهُ مَكْتُوبٌ فِي اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ الَّذِي يَسْمِيهِ الْقُرْآنَ هُنَا بِالْكِتَابِ، وَ هَذَانِ الْأَمْرَانِ -عِلْمُ اللَّهِ وَ تَسْجِيلُهُ لِلْأَحْدَاثِ- يُمَثِّلَانِ مَوْعِظَةً بَلِيغَةً لِلْإِنْسَانِ إِذَا التَفَّتْ إِلَيْهِمَا جِيدًا، حَيْثُ يَر_اقِبُ جَمِيعَ أَقْوَالِهِ وَ أَعْمَالِهِ، وَ مَعْتَقِدَاتِهِ، فَيَعْمَلُ عَلَىٰ إِصْلَاحِ شُؤُونِهِ، وَ يَتَّعَدُّ عَنْ كُلِّ انْحِرَافٍ يَجْرَحُ فِطْرَتَهُ.

إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَىٰ اللَّهِ يَسِيرٌ بِالرَّغْمِ مِنْ أَنَّ الْإِحْصَاءَ الدَّقِيقَ فِي اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ فَوْقَ تَصَوُّرَاتِ الْبَشَرِ إِلَّا أَنَّهُ بِالرَّغْمِ مِنْ ذَلِكَ عَلَىٰ اللَّهِ سَهْلٌ يَسِيرٌ.

ان الأفعال تطبع اثارا لا تمحى فى صحائف شتى، لا يقرأها الا أصحاب

العلم..و كلما زاد العلم تقدما كلما توغل فى معرفه الآثار التى تخلفها الظواهر..

و أبرز مثل لذلك المرض فانه يخلف آثاره على كل جوارح الفرد.و على نظام دورته الدمويه،و شبكه غدده،و افرازاتها،و مختلف انسجه جسمه.الا ان علماء الطب يختلفون من عصر لعصر فى قدرتهم على اكتشاف المرض من خلال تلك الآثار، فمنهم من يكتشفها من النبض و دقات القلب،أو من لون بشره أو من خطوط الكف،و منهم من يكتشفها بالموجات الكهربائيه المنبعثه من حركه القلب أو الدماغ أو من تحليل الدم و الافرازات.و هكذا تجد ان التأثيرات مكتوبه على لوحه الطبيعه،و انما الاختلاف فى القدره على قراءتها.

و هكذا كل أعمالنا تكتب على عشرات الألواح،و تتجلى يوم القيامه أمامنا فتعقل ألسنتنا عن الإنكار..الا فلتستعد لذلك اليوم الرهيب الذى تبلى فيه السرائر.

صَغْفَ الطَّالِبِ وَ الْمَطْلُوبِ :

[٧١] وَ يَعْتِيدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا إِيَّاهُمْ يَعْتَقِدُونَ ان بامكانهم ان يفلتوا من قبضه الحق،و من نطاق المسؤوليه عبر عباده غير الله التى ما انزل بها من سلطان،فلم يعط إذنا صريحا بينا لهم بعبادتهم.

وَ مَا لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ ان تتعبد بعلم هذه حجه قطعيه و فى غير هذه الحاله لا بد ان تتعبد باتباع من تعرف يقينا ان الله جعله وليا عليك،اما ان تتعبد بلا علم و لا شريعته،فعبادتك باطله،و عملك هباء.

وَ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ

ص: ١٢٣

اي ان هذه الأصنام لن تكون المنتصره لهم من الله سبحانه إذا أخذهم،فهذه الأصنام التي تعبد لن تخلص نفسها فكيف تخلص الآخرين.

[٧٢] وَإِذَا تُلِيٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ يَكَادُونَ يَسْمُطُونَ بِالَّذِينَ يَتُلَوْنَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا حِينَ مَا يَسْمَعُونَ آيَاتِ اللَّهِ تَبَدُّو عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ آثَارُ الِاسْتِنكَارِ وَ الرَّفْضِ،عميقه و شديده الى درجه يظن فيها الناظر انهم يهمون بالبطش بمن يتلون عليهم تلك الآيات،و كأن هؤلاء لو لم تتلى عليهم هذه الآيات سيكونون في حل من القيام بمسؤولياتها.

قُلْ أَ فَأُتْبِئُكُمْ بِشَرٍّ مِّنْ ذَلِكُمْ الذَّارُ وَ عَيْدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ بئس المصير ان انحرافكم هذا يؤدي الى النار،و إذا كان مجرد إنذارهم بالنار لا يعجبهم و لا يستطيعون تحمله فيا ترى هل ان النار نفسها تعجبهم،و يمكنهم احتمال حرها؟! [٧٣] يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضَرِبَ مَثَلًا فَاشْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَ لَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَ إِنْ يَسْئَلُهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَ الْمَطْلُوبُ كما هو ثابت علميا ان الذباب إذا أكل شيئا فإنه يتحول بسرعه عبر عده تفاعلات كيميائويه الى مواد أخرى تستفيد منها هذه الحشره،و يستحيل آتئذ إعادتها من جديد،و هكذا يكون عجز البشر ظاهرا إذ انهم لا يقدرّون على استعادته ما يأخذه الذباب عنهم،اضافه الى ان حجم الذبابه صغير،بحيث لا-تستطيع أدق الآلات ان تستخلص المواد من جوفها،علما بأن المواد السكريه،و الكربوهيدراتيه و البروتينيه تتكون من مادتين رئيسيتين هي:الاو كسجين و الكربون فاذا تحللت هذه

المواد فى بطن الذبابه الى موادها الاوليه، آتئذ يستحيل على البشر ان يعيد العناصر الاوليه الى ماده.

و أخيرا فالقرآن يؤكد-المره تلو الاخرى-على ان الطاغوت لا-قوه له الا فى النفوس المريضه، فقد يضخمه اتباعه حتى يصير عندهم ربهم الأعلى، و قد يقزمونه حتى يصيرا حقر من الذبابه.

ص: ١٢٥

اشاره

مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ (٧٤) اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (٧٥) يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (٧٦) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا وَأَسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٧٧) وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ (٧٨)

هدى من الآيات:

فى سياق الآيات التى جاءت فى سورة الحج يذكرنا ربنا تعالى بأسمائه الحسنى التى لما عرفنا اسما جديدا منها كلما ازددنا ايمانا بالله و معرفه به و بما خلق، و كلما ازداد الإنسان معرفه بالخالق و المخلوق كلما كان أكثر استقامه و هدى.

ان المحور الاساسى الذى تلتقى فيه كل الخطوط، هو توحيد الله و معرفه أسمائه الحسنى، لذلك فان الآيات الاولى من هذا الدرس تؤكد مجددا على أسماء الله تبارك و تعالى، ان من الواجب على العباد ان يعرفوا خالق هذا الكون، و موجد هذه الحياه، و لكنهم لم يقدروا الله حق قدره إذ عدلوه بخلقه.

ان الله ليس لا يقاس فقط بالأنداد، بل لا يقاس حتى بتلك القوى التى هى أعظم من الأنداد كالملائكه و الرسل الا ان من الناس من جهل الله و لم يقدره حق قدره، فقاسه بالطغاه فعبدهم، و منهم من أشرك معه الملائكه فتوجه إليها، و منهم من عدله برسله.

ان الله هو الذى يصطفى من الملائكه رسلا و من الناس لينقلوا شريعته الله و رسالته الى الناس، و يقوموا فيهم بأمره فى الوقت الذى يحيط بهم سمعا و بصرا دون ان يستطيعوا التقول عليه سبحانه و إذا عرفنا الله معرفه حقيقه فان جوارحنا و جوانحنا تهفو الى عبادته قربه له، لان من يعرف الله سبحانه يتصل بنوره، و من يتصل بنوره ينعكس ذلك على كيانه كله، فيندفع الى مرضاه ربه بصوره عفويه.

فجوهر العباده إذا المعرفه، و إذا تمت المعرفه اتصلت روح الإنسان بنور الله، و تحركت جوارحه فى طاعه الله بصوره عفويه، لذلك يأمرنا الله بالركوع و السجود و فعل الخير، ثم يأمرنا بحمل رساله السماء الى الحياه.

ان الإنسان الذى يجد حلاوه الايمان فى قلبه و يعرف حقيقته و فوائده الجليله، ينبغى له ان يندفع فى توجيه الآخرين الى الايمان، و بيان فوائده و منافعه لهم، و كذلك يأمرنا سبحانه بالجهاد فيه حق الجهاد، انك بقدر معرفتك بالله يكون جهادك و تضحياتك فى سبيله، لأنك كلما ضحيت فى سبيله و أنت عارف به كلما شعرت بان تضحياتك أقل و احقر من مقام ربك الأعلى.

ثم يعدد ربنا سبحانه بعد ذلك نعمه علينا كمجتمع فيقول: ايها المسلمون أنتم مجتمع فاضل، اختاركم الله لتحملوا رسالته الى الناس جميعا، فيجب ان تكونوا كذلك «ان الدين يسر لا عسر»، «وَمَا جَعَلْ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ» و من ثم فأنتم مجتمع قائد لسائر المجتمعات مثلما كان الرسول قائدكم و أخيرا فان مجتمعكم يحمل تجربه جهاديه منذ عهد إبراهيم عليه السلام قبل خمسه آلاف عام أو أكثر حيث ابتدأ المسيره التوحيديه الجديده فى العالم، فعليكم ان تقيموا الصلاه و تؤتوا الزكاه و تعتصموا بالله و تمسكوا بحبله. (كتاب الله و رسوله خلفائه بمعنى آخر شريعته الله و امام مؤيد من تلك الشريعه) و آنئذ تكونون قد اخلصتم عبادتكم لله، مولاكم و نصيركم «نِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَ نِعْمَ النَّصِيرُ».

ما قدروا الله:

[٧٤] مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ بَانَ قَاسُوهُ بِعِبَادِهِ، وَ لَمْ يَعْبُدُوهُ حَقَّ عِبَادَتِهِ، وَ كَلَّ الْفَسَادَ وَ الضَّلَالَاتِ وَ الْوَيْلَاتِ انْمَا نَشَأَتْ بِسَبَبِ عَدَمِ مَعْرِفَةِ اللَّهِ حَقًّا.

ما هو الفرق بين القوه و العزه؟ يبدو ان الفرق بين القوى و العزيم هو ان القوى يستخدم-بسبب أو آخر- قوته فى السيطرة على الآخرين، و لكنه ليس بعزيم، اما إذا كان قويا و استخدم قوته و قدرته فى الساحة الاجتماعيه، فأنشد يسمى عزيم اي مرهوب الجانب، و الله سبحانه كذلك الا انه لا يقاس بخلقه فهو قوى مطلق القوه، و عزيم يستخدم هذه القوه فى تدبير شؤون الخلق، فلا يتصور أحد انه قادر على تحدى الله أو ان باستطاعته بعد ذلك ان يفلت من عقابه، و عموما فان القوه و العزه توحيان بضروره التقوى حيث يعاقب الله من لا يقدره حق قدره.

رسل المسؤليه:

[٧٥] اللَّهُ يَصِفُ طَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَ مِنَ النَّاسِ ان اللَّهَ سبحانه و كما جرت سنته لا يعذب قوما من دون ان يرسل إليهم رسولا حتى و لو لم يقدره حق قدره، «وَ مَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا»، فالله و قبل كل شىء يصطفى رسلا من الملائكه و من أهل الأرض، فيرسل بالوحى هؤلاء الى هؤلاء، فرسل الله فى الأرض هم رسل المسؤليه، و هذه الآيه توحى بان رسل الله سواء كانوا ملائكه أو بشرًا هم على درجات.

إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ و عند ما يصطفى سبحانه من الملائكة و من الناس رسلاً فإنه لا يتخلى عن عبادته، بل هو سميع بهم و بصير بما يعملون، يدبر أمورهم، و يسجل أعمالهم، و يعلم ما فى سرائرهم و ضمائرهم، و ان اصطفاه للرسل انما يتم بعلمه، و بسمعه و بصره فلا يكون عبثاً، و لعلنا نستوحى من قوله سبحانه: «وَمِنَ النَّاسِ» ان الله يصطفى من المؤمنين من يحمل الرسالة، فهناك الرسول، و رسول الرسول، و هكذا و دللنا على هذه الفكرة قوله تعالى فى آخر آيه من هذا الدرس، حين يتحدث عن المجتمع الاسلامى: «وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَ مَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ» و آيه اخرى يقول فيها سبحانه: «وَ إِنْ تَوَلَّوْا يَسْتَبَدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أُمَّةً لَّكُمْ فَاَللَّهُ سَبْحَانَهُ يَخْتَارُ مِنْ سَائِرِ عِبِيدِهِ، مَنْ يَحْمِلُ الْكِفَاءَ الْعِلْمِيَّ وَ الْعَمَلِيَّ وَ الْقِيَادَةَ، وَ يَحْمِلُهُ مَسْئُولِيَهُ نَقْلَ رِسَالَتِهِ.

[٧٦] و الله سبحانه يحيط علماً بمن يصطفاه من الرسل فلا يقدر على مخالفته و معصيته، و نقل ما لا يرضى من القول الى الناس و انه لضلال مبين ان نقيس ربنا بمن يجتبيهم من رسله الذين:

يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَ مَا خَلْفَهُمْ ان علم الله شامل لرسله أيضاً، فهو معهم و يعلم ما بين أيديهم و ما خلفهم.

وَ إِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ الْأَنْبِيَاءُ وَ أُمُورُ النَّاسِ، و حينها يأخذ للمحسن من المسىء، و يجازى المحسن بإحسانه، و السىء بإساءته.

[٧٧] يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَ اسْجُدُوا وَ اعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَ افْعَلُوا

الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ من هذه الآيه و ما بعدها يلخص الله السوره مجمله كما انه يذكر الخلاصه التي يريد طرحها.

هذه الآيه تبين مراحل الايمان و هي:

١- الخضوع، و دليله الركوع لله.

٢- الخشوع بكل الجوارح، و الشعور بالحقاره امام الله، و دليلها السجود.

٣- استمرار الخضوع و الخشوع و الاستقامه عليهما، و هذا هو معنى العباده.

٤- العطاء المستمر سواء بالإنفاق أو العلاقات الحسنه أو.. أو..، و هذا معنى قوله: وَ أَفْعَلُوا الْخَيْرَ .

و نتيجة هذه السلسله من الأوامر هي سعادته الإنسان، و وصوله الى غاياته و تطلعاته، و هو قوله: لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ .

و هكذا

جاء في الحديث المأثور عن الامام أمير المؤمنين في وصيته لابنه محمد بن الحنفية رضي الله عنه :

«يا بني لا تقل ما لا تعلم، بل لا تقل كلما تعلم، فان الله تبارك و تعالى قد فرض على جوارحك كلها فرائض، و أضاف بعد ذكر

هذه الآيه المباركه: فهذه فريضه جامعه واجبه على الجوارح». (١)

و عن الخير الذي أمرنا به في خاتمه الآيه

جاء في الحديث النبوي :

ص: ١٣١

«رأس العقل بعد الايمان التودد الى الناس و اصطناع الخير الى كل بر و فاجر.» (١)

الاجتباء و حق الجهاد:

[٧٨] وَ جَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُنَالِكَ عَلاَقَهُ بَيْنَ الْأَمْرِ بِالْجِهَادِ وَقَوْلِهِ سُبْحَانَهُ: مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ، وَ هَذِهِ الْعَلاَقَةُ هِيَ أَنَّهُ بِمَقْدَارِ مَعْرِفَتِكَ بِاللَّهِ يَكُونُ جِهَادُكَ فِي سَبِيلِهِ.

هُوَ اجْتِبَاءُكُمْ أَي اخْتَارَكُمْ، وَيَبْدُو هُنَا أَنَّ اجْتِبَاءَهُ هُوَ دَرَجَةٌ أَقْلَ مِنَ الْاصْطِفَاءِ، لِأَنَّ اللَّهَ قَالَ عَنِ الرَّسْلِ بِأَنَّهُ يَصْطَفِيهِمْ، أَمَّا الْمُؤْمِنِينَ فَيَجْتَبِيهِمْ، وَرَبَّمَا السَّبَبُ أَنَّ اللَّهَ يَصْطَفِي رَسَلَهُ بِالْغَيْبِ أَمَّا الْمُؤْمِنِينَ فَانَّهُ يَجْتَبِيهِمْ إِذَا مَا تَوَافَرَتْ فِيهِمُ الشَّرُوطُ الْمَطْلُوبَةُ وَحَسَبُ السَّنَنِ الْجَارِيَةِ.

ان الايمان مستوى رفيع لا يصل اليه كل إنسان، فاذا ما وصل اليه فلا بد ان يعرف ان الله قد وضع على عاتقه المسؤولية بعد ان اجتباها، و الاجتباء لا يكون بالإخبار المباشر و لكن بالقذف في القلوب و الإلهام.

من هنا

جاء الحديث المأثور عن الامام الرضا عليه السلام حين سأله المأمون العباسي عن زيد بن علي عليه السلام فقال: كان زيد و الله ممن خوطب بهذه الآية: «وَ جَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتِبَاءُكُمْ.» (٢)

ص: ١٣٢

١-١) المصدر ص ٥٢١.

٢-٢) المصدر ص ٥٢٢.

وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ احكام الإسلام احكام سهله، فالذين لا يصلون يتصورون ان الصلاه صعبه، و لكن الذين يؤدون الصلاه بخشوع لله فإنهم ليس فقط يرونها سهله، بل يجدون فيها اللذه أيضا، وقد يسر الإسلام كل العبادات فلم يجعل من الصلاه حركات رياضيه صعبه مرهقه كتسلق الجبال انما جعلها خفيفه، و كذلك فانه لم يجعل الصيام عمليه تجويع متعبه، و انما هى سويعات صبر و بعدها نعود الى ما كلنا و مشاربنا، هذا من ناحيه و من ناحيه ثانيه فان الإسلام يخفف بعض الأحكام فى الحرج، حيث لا يستطيع الإنسان ان يؤدي الفرض كاملا.

جاء رجل الى الامام الصادق عليه السلام و قال: جرح اصبعى فوضعت عليه مراره حتى يندمل الجرح، فكيف أتوضأ؟ فقال الامام عليه السلام: هذا و أمثاله يعرف من القرآن، ان الله سبحانه و تعالى يقول: «وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ» امسح عليه.

صفات القائد:

مَلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمْ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ ان هذا الدين له جذور تاريخيه و مجد تليد، ابتدأه أبوكم إبراهيم عليه السلام .
وَ فِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَ تَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ اى فى هذا الدين الاسلامى تكون مسئوليه الرسول، حيث من مهمه الرسول ان يصنع منكم قاده للاجيال و شهداء على تطبيق رساله، و هذا المقطع من الآيه يجسد لنا الطموحات التى يجب ان نسعى إليها، فلا تجعل هدفك ان تكون فردا كسائر

الناس، بل اجعل هدفك ان تكون قائدا، و شاهدا عليهم.

قد يسمى القائد فى الإسلام إماما، لأنه أول من يجب عليه تطبيق الدين فى مؤمه الناس، و اما سبب تسميه القائد بالشهيد فلأنه يكون شاهدا على الناس فى تطبيقهم للرسالة.

فَأَقِمْوَا الصَّلَاةَ وَ آتُوا الزَّكَاةَ وَ اعْتَصِمُوا بِاللَّهِ إِنَّ أَهْمَ صِفَاتِ الْقِيَادَى:

١- إقامة الصلاة.

٢- إيتاء الزكاة.

٣- الاعتصام بالله و التمسك بحبله.

هذه الكلمات الثلاث هى احكام اجتماعيه، حتى الصلاة بالرغم من أنها علاقة بين الفرد و ربه الا أنها و خاصه الجمعه و الجماعة تركز الروح الاجتماعيه، و عموما فان أهم شرط يلتزم به القيادى هو تقويه ارتباطه بالله، عبر إقامته لفرائضه، اما الزكاة فواضح مردودها الاجتماعى، من سد فقر المعوزين، و الاحساس بالامهم و..و..و الاعتصام بالله اى التمسك بحبله الذى مدّه لخلقه، و هم أئمه الهدى و قاده أهل التقى..و بتلخيص شديد فان صفات الإنسان القيادى: اتصال روحى بالله، و علاقته حسنه مع الناس، و خط سليم.

هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَ نِعْمَ النَّصِيرُ هذا المقطع يفسر آيه فى سوره محمّد صلى الله عليه و آله و هى « ذَلِكُمْ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَ أَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ ».

ص: ١٣٤

ان الله هو مولانا الذى نتلقى منه الأوامر باعتزاز، فنعم المولى هو الله إذ لم يكلفنا فوق طاقتنا و لم يتركنا بدون هدى، و نعم النصير ينصرنا على أعدائه و أعدائنا.

ص: ١٣٥

سوره المؤمنون

اشاره

ص: ۱۳۷

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

فضل السوره:

عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ أَنَّهُ قَالَ :

من قرأ سورة المؤمنين بشرته الملائكة بالروح وريحان، و ما تقربه عينه عند نزول ملك الموت (١).

و عن الامام الحسين عليه السلام أنه قال :

من قرأ سورة المؤمنين ختم الله له بالسعادة، إذا كان يدمن قراءتها في كل جمعه، و كان منزله في الفردوس الأعلى مع النبيين و المرسلين (٢).

ص: ١٣٩

١-١) مجمع البيان ص ٩٨، ج ٧

٢-٢) نور الثقلين ص ٥٢٧، ج ٣

ما هو الإطار العام للسوره؟ قد نجيب بسرعه:الإطار العام لسوره المؤمنون هو الايمان، أو صفات هذه الطائفه المتميزه من البشر و هم المؤمنون.

بلى و لكن يبقى السؤال عن علاقته موضوعات هذه السوره بهذا الإطار العام؟ دعنا نذكر أولا موجزا منها:

١-مراحل خلق الإنسان(الآيات:١٢/١٦).

٢-ان حركه الشمس،و القمر و وجود المطر،و الزرع،و الثمرات،و الانعام.

كل ذلك يخدم حياه البشر(الآيات ١٧/٢٢).

٣-كذب قوم نوح بالرسل،و كذلك قرون بعدهم كثيرون،فاهلكهم الله

باستكبارهم. كما أهلك فرعون و ملأه حين كذبوا برسولهم موسى بن عمران (الآيات: ٢٣/٤٨).

٤- ولقد أوى الرب مريم الصديقه و ابنها الكريم ربوه، و أمر الرسل بأكل الطيبات، و القيام بالأعمال الصالحه (الآيات: ٤٩/٥٢).

٥- لقد اغتر الكفار بالنعم الالهيه فكانت عاقبتهم النار (الآيات:

٥٣/٥٦).

٦- الصفات المتلى للمؤمنين (الآيات: ٥٧/٦٢).

٧- جزاء الكفار فى الدنيا (الآيات: ٦٣/٩١).

٨- موقف النبى من ذلك الجزاء (الآيات: ٩٢/٩٨).

٩- عقاب الكفار فى الآخره (الآيات: ٩٩/١١٥).

١٠- مشاهد من يوم القيامه، و ثواب المؤمنين فيها (الآيات: ١١٦/١١٨).

و لعلنا نجد فى الجواب التالى على هذا السؤال، ليس فقط الرابط بين هذه الموضوعات و بين الإطار العام فيها، بل و أيضا الرابط بين موضوعات سائر السور القرآنيه الكريمه و بين الاطر العامه فيها، و الجواب هو التالى: ان القرآن ليس مجرد دعوه للإصلاح، بل هو الإصلاح ذاته، و ليس وصفه طيب، بل دواء للمريض، و شفاء عاجل، انه ضياء و نور و هدى.

أو ليست حقائق الايمان ظاهره، و شديده الظهور، أو ليس الله خالق السموات و الأرض أكبر شهاده من كل شىء؟!!

ص: ١٤١

فلما ذا-إذا-لا- يؤمن به أكثر الناس بالرغم من حرص أصحاب الرسالات على هدايتهم؟! لأن القلوب مريضه، و العيون مصابه، و فى الأذان وقر، إن ركام العقده، و حجب الغفله، و سحب الكبر، و الغرور، و السخرية لا تدع أنوار الحق تغمر القلوب.

و بالقرآن يعالج المؤمنون كل هذه الأمراض، و موضوعات السوره هذه تصب فى هذا المجرى.. كيف؟ بعد ان حدد الذكر ملامح التجمع المؤمن، و بين انهم هم المفلحون، ذكرنا بنفسه، من خلال آياته فى خلق الإنسان، أو ليس أساس الايمان معرفه الرب؟! ثم عدد نعمه علينا، و كيف أنها تحيط بالإنسان، و تهدينا الى ذلك التدبير الرشيد فى الخلق، و لكن أو ليست هذه الآيات ظاهره، و تشهد على وحدانيه الرب، من خلال وحده التدبير؟! بلى. إذا لماذا يكفر أكثر الناس بربهم؟ لأنهم مستكبرون، و كيف نعالج الاستكبار؟ انما بمعرفه عاقبه من استكبروا من قبل، و قوم نوح أبرز شاهد، حيث أغرقهم الله بالطوفان العظيم، و حمل المؤمنين و حدهم فى الفلك المشحون، و هكذا عاد و ثمود، و قرون متماديه، حيث أتبع الرب بعضهم بعضا، و جعلهم أحاديث.

و هكذا استكبر الملاء من قوم فرعون لما ذكرهم موسى -عليه السلام- بربهم، فأغرقهم الله فى النيل، و نجى بنى إسرائيل من الغرق، و انزل على موسى الكتاب فرقانا و ضياء.

ان إنقاذ المؤمنين دليل رحمه الهيه تخصصهم، بينما الشيطان يريد ان يغرينا بوساوسه التى منها ان الايمان يضر البشر. كلا.. فهذه مريم و ابنها البار، يؤويهما الرب الى ربوه ذات قرار معين، و يأمر الأنبياء بان يأكلوا من الطيبات، و يعملوا صالحا، و يعبدوا ربهم الواحد، و لا يتفرقوا شيعا. الا ان موقف الكفار من النعم،

بل و من رسالات الله كان خاطئا. حيث تقطعوا أمرهم بينهم زيرا. لماذا؟ لأنهم اغتروا بالنعم و فرحوا بها و زعموا ان ذلك دليل سلامه خطهم و هم لا يشعرون.

و من أبرز صفات المؤمنين: انهم لا يغترون بالنعم، و لا بما يؤتون من الصدقات، فما جزاء أولئك الا العذاب المبالغ الذى ينزل بمترفيهم، فاذا هم يجأرون، و ذلك جزاء استكبارهم.

و يعالج القرآن الحكيم فى هذا السياق (٧٧/٥١) سلسله من الأمراض التى تصيب القلب بسبب تواتر النعم، و يعطى بصائر ينظر من خلالها المؤمنون الى الحياه، و من نعم الله فيها، فلا يزدادون بها الا ايمانا و تسليما.

ثم يعود و يذكرنا بنعم الله علينا (٨٠/٧٨) و يخص السياق جانبا هاما من دروس آخر السوره بالايمان بالآخره، لأنه بذاته جزء من الايمان، و فى ذات الوقت، مكمل للايمان بالله، و شرط للايمان بالرسالات.

فالله يحيى و يميت، و يدبر الحياه، و هو بالتالى قادر على أن يعيد الإنسان بعد ما كان ترابا و عظاما.

و يساعدنا الذكر الحكيم على تجاوز عقبات فى طريق الايمان كالجهل، و الغفله، و الفسق، و التأثير بضلالات الغواه (٩٠٤).

و من تلك العقبات الزعم بان الله شريكا- سبحانه و تعالى- و القرآن يذكرنا بسخافه هذا الزعم (٩٢/٩١).

و لكى يتميز المؤمنون عن الكفار يأمر الله رسوله بان يستعيد بالله من العذاب الذى ينزل على الظالمين، و يأمره بالسيره الحسنه، و بالاستعاذه بالله من همزات الشياطين، بل و حتى من مجرد حضورهم (٩٨/٩٣).

و لعل كل ذلك يخدم حاله التميّز المطلوبه بين المؤمن،و المغوين الذين يسحرون الناس،و لا يدعونهم يؤمنون بربهم الكريم.

و لا بد ان نحذر عاقبه هؤلاء الذين يندمون عند نزول الموت بهم،و يطلبون العوده الى الحياه حتى يصححوا مسيرتهم،و يأتيهم الجواب: كلا..بل سوف يقون فى البرزخ حتى ينفخ فى الصور،و انثذ لا أنساب بينهم،و لا هم يتساءلون عنها،و لعل الاعتماد على الأنساب عقبه فى طريق الايمان(١٠٠/٩٩).

و يحذرنا الرب من الموازين.حيث يخسر الذين خفت موازينهم،بينما يفلح المؤمنون الذين تثقل موازينهم،و يبدو ان ذلك أعظم وسيله لتربيه النفس.حيث يسعى المؤمن للتخلص من النار التى تصيب أولئك الذين كذبوا بآيات الله، و اعترفوا بشقائهم،و طلبوا العوده الى الدنيا،فرفض طلبهم و أسكتوا، أو ليسوا كانوا يسحرون من عباد الله حين يدعون ربهم،فنسوا ذكر الله(بتلك السخرية)؟! فأولئك المؤمنون هم الفائزون بصبرهم(١١١/١٠٢).

و يبدو ان السياق يعالج-بعدئذ-حاله التسوية فى النفس و التى هى الاخرى عقبه فى طريق الايمان.

فاذا بسائل يقول:كم لبثتم فى الدنيا؟فلا- يعرفون حساب بقائهم،و لكنهم يعتبرونه يوما أو بعض يوم،بلى.لقد لبثوا قليلا- فى الدنيا(بالقياس الى زمن الآخرة)و لكنهم لم يعلموا ذلك و الا لما استهانوا بحياتهم الآخرة(١١٤/١١٢).

و يعالج العبثيه التى يزعم أصحابها ان الحياه بلا هدف،و يذكرهم بأنهم سيرجعون الى ربهم للحساب،و انه تعالى الرب الملك الحق،فلا عبث و لا لعب و لا لهو فى الخلق.

و يذكرنا الرب بالتوحيد، و ان حساب المشركين عسير عند ربهم، و انهم لا يفلحون، و تنتهى السوره بفتح باب التوبه و الدعاء، الى الله و هو ارحم الراحمين.

ص: ١٤٥

[سوره المؤمنون (٢٣): الآيات ١ الى ١١]

اشاره

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ (١) الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ (٢) وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ (٣) وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ (٤) وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ (٥) إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (٦) فَمَنْ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ (٧) وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ (٨) وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ (٩) أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ (١٠) الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (١١)

تبين هذه الآيات ابرز صفات المؤمنين و التي تمتاز بأنها سلوك متأصل في شخصيتهم، و ليست مجرد اعمال عارضه، و الفرق بين السلوك و العمل هو:

١- ان العمل يمارس حيناً، و يترك حيناً، بينما السلوك يبقى مستمرا مع اختلاف الظروف و الأحوال.

٢- ان السلوك نابع عن قناعه فكرية، بينما العمل قد لا يكون كذلك، فانه يخضع لمختلف التيات و العوامل النفسية، فربما يصدر من شخص عمل ما في وقتين، و لكن بنيتين متناقضتين، فالصلاه تكون مره عباده لله و مره اخرى رثاء الناس.

اما الصفات المثلى التي يتحلى بها المؤمنون فهي:

١- الخشوع و هو الايمان حقا.

٢- الاعراض عن اللغو.

٣- العطاء (الزكاة).

٤- تحديد الشهوات.

٥- رعايه الأمانات و العهود.

٦- المحافظه على الفرائض و الحدود.

و لا شك ان هذه الصفات سوف تنتهى بصاحبها الى جنه الفردوس بفضل الله.

بينات من الآيات:

اشاره

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ان فلاح المؤمنين و وصولهم الى سعادتهم يكون (ببسم الله) لا بذاتهم.

صفات المؤمنين:

١- الخشوع لله:

[٢/١] و الخشوع هو جذوه الايمان التى تلتهب فى القلب، و ينتشر شعاعها الى سائر أنحاء السلوك، فالإيمان حقيقه هو الخشوع الذى يعنى تسليم النفس الى اراده الله من خلال الالتزام برسالته، و اطاعه أوليائه، فقد يصبح الإنسان عالما بشىء و لكنه لا يؤمن به. إذ الايمان ليس مجرد العلم، بل المؤمن هو الذى تسلم نفسه للمعرفه، و تخشع للحق.

و النفس الخاشعه لا- تتكبر، لأنه لو وجد فى قلب الإنسان و لو بمقدار حبه الخردل فانه سيمنع الخشوع، كما ان النفس الخاشعه ابعد ما تكون عن المساوه، لأن

القساوه تجعل النفس كالصخره، لا يثبت عليها الزرع، ولا تستقبل أمواج النور.

اذن الخشوع هي الصّفه الاساسيه التي يتحلّى بها المؤمنون، بل هو الايمان ذاته.

فَقَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ۝ ان فلاح المؤمنين، و نيلهم سعادتهم يكون بتأديتهم الصلاه بخشوع، لان الخشوع يتجلى عند الصلاه أكثر من أى وقت آخر، ولهذا

كان الامام الحسن عليه السلام إذا توضأ لها اصفر لونه، و تغيرت ملامحه حتى ينكره الذى يعرفه، و قد أمر الدين بالخشوع القلبي دون الظاهري في الصلاه ،

فقد جاء في الأثر عن رسول الله صلى الله عليه و آله انه قال :

«ما زاد خشوع الجسد على ما في القلب فهو عندنا نفاق» و نهى الدين عن العبث أثناء الصلاه لأنه يتنافى و خشوع القلب.

قال أمير المؤمنين عليه السلام :

«ليخشع الرجل في صلاته، فانه من خشع قلبه لله عز و جل خشعت جوارحه، فلا يعبث بشيء» (١)

٢- الاعراض عن اللغو:

[٣] لان القلب المؤمن خاشع فهو يعي مسؤوليته، أو ليس يسلم للحق، و يعرف أنه سيسأل عن كل صغيره و كبيره، و يحاسب عليها، و يعلم أن الحياه جدّ، لا عبث فيها، و لا لغوا بينما الذى لا يعرف ان وراء حياته جزاء، و انه يجب ان يكيف حياته على هدى ذلك الجزاء، فانه يتخذ الحياه لهوا و لعبا.

ص: ١٤٩

وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ الَّذِي يَكُونُ لَدَيْهِ مَرِيضٌ فِي حَالِهِ خَطِيرُهُ لَوْ مَرَّ عَلَى جَمَاعَةٍ يَلْعَبُونَ فَهَلْ سَيَقِفُ مَعَهُمْ؟ كَلَّا... وَ هَكَذَا حَالُ الْمُؤْمِنِ فَإِنَّ قَلْبَهُ مَهْمُومٌ بِأَهْدَافِهِ وَ مَسْئُولِيَّاتِهِ فِي الْحَيَاةِ، مِمَّا يَجْعَلُهُ يَتَرَفَعُ عَنْ صِغَائِرِهَا وَ تَوَافِقِهَا. وَ حَتَّى لَوْ جَاءَهُ اللَّغْوُ يَسْعَى فَإِنَّهُ لَا يَعْيرُهُ أَىْ اِهْتِمَامًا، وَ لَا يَقُولُ الْقُرْآنُ عَنْهُمْ: إِنَّهُمْ لَا يَفْتَشُونَ عَنِ اللَّغْوِ، بَلْ قَالَ «عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ» أَىْ لَوْ حَاوَلَ أَحَدٌ أَنْ يُوَثِّرَ عَلَيْهِمْ، فَهَمَّ لَا يَتَأَثَّرُونَ بِهِ وَ بَلْغَوْهُ.

وَ قَدْ فَسَّرَ اللَّغْوُ فِي كَلِمَاتِ أَئِمَّةِ أَهْلِ الْبَيْتِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ بِالْإِصْغَاءِ إِلَى مَا لَا يَحِلُّ الْإِصْغَاءَ لَهُ، مِمَّا يَشْمَلُ الْفَحْشَ، وَ الْغَيْبَةَ، وَ الْخَوْضَ فِي آيَاتِ اللَّهِ.

وَ جَاءَ فِي حَدِيثٍ مَأْثُورٍ عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ الصَّادِقِ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي تَفْسِيرِ الْآيَةِ :

«أَنْ يَقُولَ الرَّجُلُ عَلَيْكَ بِالْبَاطِلِ، أَوْ يَأْتِيكَ بِمَا لَيْسَ فِيكَ فَتَعْرِضُ عَنْهُ اللَّهُ» وَ جَاءَ فِي حَدِيثٍ آخَرَ تَفْسِيرَ اللَّغْوِ بِالْغِنَاءِ، وَ الْمَلَاهِي، وَ فَسَّرَ فِي حَدِيثٍ آخَرَ بِالِاسْتِمَاعِ إِلَى الْقِصَاصِ، أَمَا

الْإِمَامُ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَقُولُ :

«كُلُّ قَوْلٍ لَيْسَ فِيهِ لِلَّهِ ذِكْرٌ فَهُوَ لَغْوٌ» (١)

٣- العطاء:

[٤] وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ وَ الزَّكَاةُ الَّتِي يَذْكُرُهَا الْقُرْآنُ هُنَا، لَيْسَتْ مَجْرَدُ الْعَشْرِ الَّذِي يُعْطِيهِ الْمُسْلِمُ عَلَى تِسْعَةِ أَشْيَاءٍ هِيَ الْغَلَاءُ الْأَرْبَعُ، وَ الْإِنْعَامُ الثَّلَاثُ، وَ النَّقْدِينَ، وَ أَمَّا كُلُّ زَكَاةٍ،

ص: ١٥٠

و زكاه كل شيء بحسبه، فزكاه العلم نشره، و زكاه الجاه بذله، و زكاه المال إنفاقه، و زكاه الصحه النشاط.

ان نظره المؤمنين الى الحياه تنبع من خشوعهم للحق المتمثل فى رسالات ربهم، فلأنهم خاشعون لله يعملون بشرائعه، و يشكرون ربهم على نعمائه بالإنفاق، لأنهم يرون كل نعمه منه، و كلمه «فاعلون» تختلف عن معطون. إذ توحى باستمرار الإنفاق، و انه سلوك لا حاله طارئه، اى ان فعلهم و عملهم هو الزكاه، و الواقع ان الزكاه قرينه الصلاه فى القرآن دائما، و لا تقبل الصلاه الا بها، و قد أكد الإسلام عليها، و

جاء فى الحديث عن الامام الصادق عليه السلام :

«من منع قيراطا من الزكاه فليس هو بمؤمن، و لا مسلم، و لا كرامه» (١)

٤- تحديد و توجيه الشهوات:

[٥] لقد خلق الله الإنسان مزودا بشتى الغرائز، و ليس ذلك الا ليستفيد منها، و لكن بالشكل المناسب، و المؤمنون وحدهم الذين يستثمرونها لصالحهم، لأنهم يهيمنون على أنفسهم، و يكبحون جماح الشهوات بالخشوع و التسليم للحق.

وَ الَّذِينَ هُمْ لِقُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ و قد يعنى الحفظ هنا بالاضافه للالتزام بالشريعه، و توجيه الغريزه وفقها، الحفظ على فرج الإنسان من الناحيه الصحيه أيضا، و ذلك بعدم الإفراط فى الشهوه، و الالتزام بالمنافذ الشرعيه لها.

[٦] إِلَّا عَلَىٰ أَرْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ

ص: ١٥١

من الإمام.

فَأِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ أَي غير مؤاخذين عند الله، لأنهم يصرفون شهواتهم في محلها المناسب، ولعل في الآية اشاره الى خطأ الابتعاد كثيرا عن الشهوات، وان وساوس الشيطان هي التي تزرع اللوم في افئده البعض إذا ما رسوا الشهوات بقدرها، و على المؤمن الا يأبه بها.

[٧] فَمَنْ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذٰلِكَ فَأُوْلٰٓئِكَ هُمُ الْعٰدُوْنَ الذين يستحقون الجزاء في الدنيا بالحدود الشرعيه، و في الآخره بالعذاب المهين، و العادى أو المعتدى: الذى يتجاوز الحدود.

و في الآية بيان فساد كل استغلال للشهوه فى غير موردها مثل استثاره الشهوه بالنظر الى الاجنبيه، و الصوره الخليعه، و الأفلام الجنسيه، أو باستماع قصص الغرام.

اما الشذوذ الجنسي، و العاده السريه (الاستمناء)، و نكاح البهائم، فان الآية تنطق بحرمتها صراحه.

و جاء فى الحديث: عن أمير المؤمنين عليه السلام -:

«ابعد ما يكون العبد من الله إذا كان همه فرجه و بطنه»

و عنه أيضا :

«تحل الفروج بثلاثه وجوه: نكاح بميراث، و نكاح بلا ميراث، و نكاح بملك يمين» (١)

ص: ١٥٢

[٨] وعلاقات المؤمنين مع الناس قائمه على أساس الالتزام والمسؤوليه، وليس اللامبالاه، فاذا أخذوا شيئاً من أحد تحول في نظرهم الى كرامه، تتضرر شخصيتهم لو لم يردوه إليهم، وأكثر من هذا الوازع يدفعهم لرده الخشوع و الايمان خوفاً من الله.

دافع انساني و دافع ديني، لذلك يرعون الامانه و العهد.

و العهد و الامانه هما شيء واحد، فالإنسان مسئول امام الآخرين فيما يأخذ و فيما يقول.

وَ الَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ وَ التّعبير في هذه الآيه دقيق جدا حيث استخدم القرآن كلمه «راعون» فلم يقل: ردوا الامانه و ذلك لسببين:

الاول: حتى تشمل الكلمتين العهد و الامانه، فالعهد لا يرد لأنه شيء معنوي لا مادي.

الثاني: كلمه «راعون» أدق حتى في موضوع الأمانه من كلمه (الرد) إذ تبين حرص المؤمنين على أموال الآخرين، فليس همهم ان ترد الامانه بأيه صوره، و انما يظنون يرعونها و يحافظون عليها ربما أكثر من ممتلكاتهم الشخصيه حتى تسلم الى صاحبها، بينما نجد ان أكثر الناس يكون حفاظهم على ممتلكاتهم الشخصيه أشد من ممتلكات غيرهم.

و هكذا يرعون العهد بالثبات عليه، و تأكيد الالتزام به، و من أعظم العهود التي يراها المؤمنون حق رعايتها، عهد الولايه. حيث يؤدونها الى أهلها، و قد جاء في أحاديث آل البيت -عليهم السلام- تفسير العهد بالولايه.

٦-المحافظة على الفرائض و الحدود:

[٩] بعد تبيان هذه المجموعه من الصفات يذكرنا القرآن باهميه المحافظه على الصلاه، و ربما تختلف الصلاه التي يذكرها في أول الصفات عن هذه التي في آخرها، فبينما الخشوع في الصلاه يعنى في ذات الصلاه، و هو أصل الايمان و حقيقته، اما المحافظه على الصلاه فهى المحافظه على حدودها، و هذا يوضح ما للصلاه من انعكاس على جميع أبعاد الحياه لدى الفرد، فأى انحراف فى اى بعد يؤثر على صلاته، و هكذا تعنى المحافظه عليها الالتزام بسائر الحدود الشرعيه، و المؤمنون لا يتهاونون فى الأحكام الشرعيه بحدودها، و شرائطها، باسم جوهرها. فلا- يتركون الصلاه مثلا- بحجه ان الخشوع هو الأصل فيها، فاذا تحقق فلا أهميه للركوع و السجود، كما يتصور ذلك بعض المتصوفه، إذ تراهم لا- يحترمون الحدود الشرعيه بزعم انها وسائل للوصول الى الحق، و انهم يصلون اليه عبر وسائل اخرى، و انهم إذا بلغوا الحق و اتصلوا به سقطت عنهم التكاليف لان الله يقول: « وَ اعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ » و هم- فى زعمهم- قد أتوا اليقين.

كلا- المؤمنون حقا هم المحافظون على حدود الصلاه، و لكنهم لا- يلتزمون بالحدود فقط بعيدا عن جوهر الصلاه، و سائر العبادات، فهم من جهه فى صلاتهم خاشعون مراعون لجوهرها، و هم من جهه اخرى على صلواتهم يحافظون، و يراعون حدودها.

وَ الَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ

ورائه الفردوس:

[١١/١٠] لماذا يؤمن الإنسان؟

ص: ١٥٤

لأنه يعرف ان ايمانه سينتهى به الى جنه عرضها كعرض السماوات و الأرض، و لهذا يأتى الحديث بعد هذه الصفات عن الجنه.

أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ وَ لَهُذِهِ الْآيَةُ مَعْنِيَان:

الأول: ما جاء فى الأحاديث من ان لكل إنسان بيتين. أحدهما فى الجنه، و الآخر فى النار، فمن أصبح من أهل النار ورث المتقون بيته فى الجنه،

فقد روى عن النبى صلى الله عليه و آله :

«ما منكم من أحد الا له منزلان، منزل فى الجنه، و منزل فى النار، فان مات و دخل النار، ورث أهل الجنه منزله « (1) الثانى: انهم يرثون الفردوس و هى أعلى مراتب الجنه من دون عمل يذكر، الا انتسابه للجنه، كالذى يرث مال أبيه لا بعمله و كده، بل لانتسابه اليه.

و الله سبحانه و تعالى يريد من الإنسان ان يتصل بسبب الى الجنه، حتى إذا مات ورثها.

الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ

ص: ١٥٥

إشاره

وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ (١٢) ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ (١٣) ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَبَارَكُ اللَّهُ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ (١٤) ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعِيدٌ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ (١٥) ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامِ تَبْعَتُونَ (١٦) وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ (١٧) وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَاهُ فِي الْوَادِعِ وَالْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَى دَهَابٍ بِهِ لِقَادِرُونَ (١٨) فَأَنْشَأْنَا لَكُمْ بِهِ جَنَاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْدَابٍ لَكُمْ فِيهَا فَوَاكِهِ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (١٩) وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورٍ سَيْنَاءَ تَنْبُتُ بِالذَّهْنِ وَصَبِغٍ لِللَّكْلِينَ (٢٠) وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (٢١) وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ (٢٢)

اللغه

١٢]سلاله:السلاله اسم لما يسيل من الشىء و تسمى النطفه سلاله و الولد كذلك و الجمع سلالات و سلال،فالسلاله صفوه الشىء التى يخرج منها.

هدى من الآيات:

السبيل الى الايمان معرفه الله، معرفه تغمر أرجاء النفس و تبلغ أعماقها، ولكن كيف يتسنى للإنسان و هو المخلوق الضعيف، المحدود في عمله و قدراته، ان يعرف الخالق القوي العزيز؟! اننا لا نستطيع ان نتعرف على الله الا إذا عرّفنا نفسه، و

قد ورد في الدعاء (الهي بك عرفتك، و أنت دللتني عليك، و لو لا أنت لم أدر ما أنت) و لقد عرّف الله سبحانه نفسه إلينا حينما تجلى في آيات الكون بما فيها الإنسان نفسه تاره، و في آيات القرآن تاره أخرى، بما في تلك الآيات، و هذه من إثارة للعقول نحو أهم المعارف و أجلّها، و هي معرفه الله.

ان التفكير في أطوار خلق الإنسان من طينه، الى نطفه، الى علقه، فمضغّه، حتى يصير بشرا سويا. بعد ان ينفخ الله فيه الروح، و يزوده بالعقل و الاراده، و سائر الجوارح و هو يسير الى الموت، و إنّ نظره عميقه الى الكون و ما فيه من آيات الله تهدينا

الى معرفه الله و هي -بدورها- تهدي الى وعى حقيقه الحياه، اما حين نفصل معرفه الله عن معرفه الأشياء فانها تظل ألغازا حائره.

فاذا نظرنا الى حاجه الجسم الى قدر من المواد، ثم وجدناها جاهزه فى دهن الزيتون، اولا يهدينا ذلك الى ان هناك مدبرا لهذا الكون.

الا- ان جهل البشر و تكبره و رجعيته تحجبه عن معرفه الخالق، كمثل قوم نوح إذ دعاهم رسولهم الى عباده الله وحده، فحجبه عن عبادته و معرفته، التكبر. حيث قالوا: « مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ، يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ »، كما حجبه التقليد فقالوا: « مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأُولَى »، ثم اتهموه فقالوا: « إِنَّ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ »، و لكنه توكل على ربه، و طلب منه النصر على تكذيبهم إياه.

بينات من الآيات:

اشاره

[١٢] إذا عرف الإنسان ربه حينئذ يكون اتصاله به أسمى من ذلك الذى يؤمن خوفا من النار أو رغبه فى الجنة، فالإيمان الحق انما هو الذى يكون منطلقه المعرفه

و القناعه كإيمان على عليه السلام و الذى كان يقول عنه :

«الهي ما عبدتك حين عبدتك خوفا من نارك، و لا- طمعا فى جنتك، و انما وجدتك أهلا للعباده فعبدتك » و السبيل الى المعرفه بالله هو:

١- التفكر فى النفس:

و من هذا المنطلق يعرف الله الإنسان حقيقته:

»

و من عرف نفسه فقد عرف ربه «

ص: ١٥٩

فيقول:

وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ فَالإنسان ينسل من طين الأرض انسلا لا، و من الطين يحوله الله الى نطفه.

[١٣] ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ فِي صلب الأب أولا، و في رحم الام ثانيا، و النطفه هي الماء القليل.

ان التفكير في خلق الإنسان يهديننا الى معرفه بعض أسماء الله الحسنی، كيف خلق الله من الطين الميِّت نطفه حيه، و كيف أودعها من صلب الى رحم في ذلك الموقع الآمن، و آمن له النمو حتى أصبح بشرا سويا، ثم ألهمه العقل، و سخر له الأشياء سبحانه.

و يزعمون انها الصدفة، و هل يمكن ان تتبثق خليه واحده بالصدفه؟! يقول بعضهم: ان هذا الزعم يشبه القول، بان انفجارا في المطبوعه، سبب (صدفه) صدور الموسوعه البريطانيه، بكل ما فيها من علوم! و يقول عالم غربي آخر ان تطور الخليه الحيه بالصدفه يشبه القصة الخياليه التاليه:

(ان رجلا- كان يعيش على كوكب الأرض، ضمن المجموعه الشمسيه، ضمن مجرتنا، و كان بجانب مجرتنا مجره اخرى، و في احدى المجموعات الشمسيه، في احدى الكواكب، و في أحد الأقاليم نهر به سمكه، فحدث صدفه ان أطلق هذا الرجل طلقه، فطارت من كوكبنا متخطيه مجموعتنا الشمسيه، متخطيه مجرتنا، لتدخل في المجره التاليه، من المجموعه الشمسيه المعينه، في ذلك الكوكب، لذلك الإقليم، في ذلك النهر، لتصيب الطلقه رأس السمكه)!! [١٤] ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً

ص: ١٦٠

اي ان النطفه صارت نطفتين من الأب و الام،فتعلقتا ببعضهما و أصبحتا علقه.

فَخَلَقْنَا الْعُلُقَةَ مُضَعَّةً و المضغه هي مقدار ما يمزغ من اللحم.

فَخَلَقْنَا الْمُضَغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ و يلاحظ ان فى الآيات (١٢)- (١٤) سبعة افعال تبين دور الارادة الالهيه فى التحولات التى يمر بها الإنسان من كونه طينا حتى يصير بشرا سويا، و هى (خلقنا، جعلناه، خلقنا، فخلقنا، فخلقنا، فكسونا، أنشأنا) و ذلك حتى لا يتصور الإنسان ان القانون الطبيعى هو الذى يخلق، كلا.. بل الله هو المهيمن و المدبر من فوق القانون « وَ مَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ ».

و من هنا نقول بان أمور الإنسان بيد الله، فهو يخضع لتدبيره تكوينيا، فكيف لا يخضع لتدبيره تشريعي و سلوكيا؟! و ثمة ملاحظه هامه هى: ان الله فى كل مراحل الخلق لم يقل «تبارك الله» الا فى المرحلة الاخير، إذ اعطى فيها الإنسان العقل، و هنا يجب ان نجل صاحب هذا الفضل و نقول «تَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ».

[١٥-١٦] ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعِيدٌ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ هكذا ينلقنا القرآن من معرفه النفس، و تطورات الخلق الى قدره الله التى لا يعجزها شىء، و من قدره الله الى البعث بعد النشور، و بالتالى الى المسؤولى، و هكذا نرى ان منهج القرآن هو التذكرة بالحقائق العلميه من أجل إغناء و عى الإنسان

بالحقائق لكي يحس بدوره في هذا الكون.

٢- التفكير في الكون:

[١٧] وَ لَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ سَمَوَاتٍ لِكُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْهَا طَرِيقَةٌ، وَ طَبِيعَهُ الْخَلْقِ عَلَيْهَا، وَ حَوْلَهَا.

ماذا تعنى الطرائق هذه؟ هل هي السموات السبع، أم طرقها؟ و ما هي السموات السبع هل هي سبعة أغلفه لهذا الكوكب تحافظ عليه؟ أم هي سبع كرات؟ أم سبع مجرات؟ أم سبعة عوالم؟ تقع كل المجرات التي عرفها أو سوف يعرفها البشر في المستقبل ضمن عالم واحد منها فقط، و لا يعلم الا الله و من ارتضاه لسره ماذا في العوالم الاخرى؟ المهم ان دقه خلق الله، ترى في النطفه كما في السموات، و تناغم الخلق بين النطفه و السموات، دليل فطرى على وحده التقدير و التدبير- سبحان الله-! وَ مَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ فالله خلق السموات، و هو يدبرها، و يهيمن عليها، و هذه سنته في الخلق جميعا، لا- كما يدعى اليهود: انه خلق الكون ثم تركه هكذا، فهو- تعالى- و ان جعل للحياه سننا، و لكنه هو الذى يجريها كما يشاء كيف يشاء.

[١٨] وَ تَتَجَلَّى هَيْمَنَتُهُ عَلَى السَّنَنِ الْجَارِيَةِ، فِي حِكْمَتِهِ الْبَالِغَةِ، فَالْمَطَرُ لَا يَنْزِلُ صَدْفَهُ وَ بَدُونَ حِسَابٍ، إِنَّمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ لِمَصْلَحَةِ الْأَرْضِ وَ إِحْيَائِهَا.

وَ أَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَاهُ فِي الْأَرْضِ

ص: ١٦٢

المطر الذى ينزل من السماء يكون بقدر حاجه الأرض حالا و مستقبلا،فلو ان البحار تبخرت جميعا،و تحولت الى سحاب،ثم الى مطر لحدثت الفيضانات و أهلكت الزرع و الضرع،كما فعل طوفان نوح عليه السلام ،و على العكس من ذلك لو صارت الأمطار شحيحة،و لا- تكفى الناس لماتوا عطشا،و لكن الذى خلق حاجات الإنسان خلق الى جانبها أشياء بقدرها،فأودع فى الأرض مخازن تحفظ مياه الشتاء للصيف.

و الذى شاهد المخازن تحت الجبال(كمغاره جعيتا فى لبنان)يعرف كيف ان الله جعل فى رحم هذه الجبال مخازن،تستقبل مطر الشتاء،ليتفجر نهرا طوال الصيف.

و لكن هل تعنى هذه الحقيقه العلميه ان المطر بعيد عن اراده الله؟ كلا..

وَ إِنَّا عَلَيَّ ذَهَابٍ بِهِ لِقَادِرُونَ وَ كَمِثَالِ عَلَى ذَهَابِ اللَّهِ بِالْأَمْطَارِ، مَا يَقُولُهُ الْخَبْرَاءُ عَنِ الصَّحْرَاءِ الْكُبْرَى فِي افْرِيقِيَا، مِنْ أَنَّهَا كَانَتْ فِي يَوْمٍ مَا مَزْرُوعَهُ وَ مَعْمُورَهُ، بِسَبَبِ هَطُولِ الْأَمْطَارِ عَلَيْهَا، أَمَا الْآنَ فَنَادِرًا مَا تَتَلَبَّدُ سَمَاوُهَا بِالْغَيُومِ، وَ يَدَاعِبُ الْمَطْرُ حَبَاتِ الرَّمَالِ فِيهَا.

[١٩]بعد ان ذكر الله بان المطر تحت إرادته،ينزله،و يذهب به متى يشاء، عاد السياق يوضح بعض منافع الماء و التى من أهمها و أكبرها أثره فى الزراعة،و ذلك حتى لا يصاب الإنسان بالغرور،فيتكبر عن الحمد حين يرى الخيرات.

فَأَنْشَأْنَا لَكُمْ بِهِ جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَ أَعْنَابٍ لَكُمْ فِيهَا فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ وَ مِنْهَا تَأْكُلُونَ فبالاضافه الى الأكل الذى يحصل عليه الإنسان من الجنات و البساتين،هناك

نعم اخرى فى الأشجار، أو ليست الغابات و المزارع تستمطر السماء، و تزيد من قدره الأرض على تخزين المياه بسبب تكوّن الأحواض تحتها، و توفر لحوم الطيور و غذاء الانعام، و تمنع زحف الصحراء برمالها الخطيره على المدن، كما تحجز الرياح السامه، و تلطّف الهواء فى الصيف و الشتاء و هى -بالإضافة الى كل ذلك- تعتبر المواد الاوليّه للصناعات المختلفه. و كان الإنسان يعتمد عليها فى بناء المساكن، و تهيئه الملابس، و تعبيد الطرق، و بناء الجسور، و ما أشبه؟! و بعد كل ذلك تزرع المساحات الخضراء البهجه فى افئده الصغار و الكبار.

هذا خلق الله، فكيف ترانا نشكره؟! [٢٠] وَ شَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ تَنْبُتُ بِالذُّهْنِ وَ صَبِغٍ لِلآكِلِينَ الشجره هى الزيتون، و الطور الجبل الصغير، و سيناء اسم للجبل الذى فيه حقل الزيتون، و كل مكان تزرع فيه أشجار الزيتون يسمى فى اللغه العربيه (سيناء)، و هى شجره نافعه، من فوائدها: انها تعطى الدهن، و تشكل غذاء جيداً «صبغ للآكلين».

و فى هذه الآيات يذكر الله بثلاث ثمار هى (التمر، و العنب، و الزيتون) و هى فى الواقع أنفع الثمار للإنسان و فيها حاجاته المختلفه. [٢١] و كما الفواكه نجد ان الحيوانات أيضاً خلقت بشكل يمكننا الاستفادة منها، و تسخيرها.

وَ إِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً وَ الْعِبْرَةُ كَلِمَةٌ مَأخُودَةٌ مِنَ الْعُبُورِ، و يعنى ان لا نقف على حدود الأشياء، بل

نتحول منها الى دلالاتها،فاذا رأينا الإبل يتحمل العطش و الجوع مده طويله، يساعده ذلك على حملنا فى المفاوز المتراميه الأطراف،و ان له من المنافع الشىء الكثير،فلا يجب علينا ان نقف إجلالا لهذا الإبل أو نعبده،بل يجب علينا ان نكبر خالقه.

نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهَا مِنْ حَلِيِّهَا وَ مَشْتَقَاتِهِ.

وَ لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعٌ كَثِيرَةٌ مِنْ وَبَرِهَا، وَ صَوْفِهَا، وَ جِلْدُهَا وَ..و..

وَ مِنْهَا تَأْكُلُونَ لَحْمَهَا وَ شَحْمَهَا.

[٢٢]و بعضها كالجمال،و الحمير،و البغال،و الخيول تصلح ان تكون وسيله للتنقل عليها.

وَ عَلَيْنَا وَ عَلَى الْفُلُكِ تَحْمَلُونَ وَ هَكَذَا نَجِدُ الْحَيَاءَ مَلِيئُهُ بِنِعْمِ اللَّهِ،فالدواب تحملنا فى البر،حتى إذا وصلنا الى البحر وجدنا السفينه تحملنا فى عرضه.

و كلمه اخيره:

ان القلب الطاهر،و الاذن الواعيه،و العين البصيره،شرط لاستقبال نور المعرفه الالهيه،المنبتق من آياته الظاهره،فأنى نظرت،رأيت تناسقا،و تنظيما،و تدبيراً،

ص:١٦٥

و رأيت عمق الصله بين المخلوقات، و بالذات بين الإنسان، و سائر ما خلق له.

انه يخلق من سلاله من طين، و تقيده يد الرب فى تطوراته، ثم إذا خرج الى الدنيا وجد امامه كل حاجاته. وجد السماء سقفا محفوظا، و وجد الماء يهبط له منها، و هو أصل كل خير، و وجد الزراعه تناسب و حاجاته المختلفه، و وجد الحيوانات مسخره له. أ فلا يدعوه ذلك الى الخضوع و التسليم لرب العالمين!؟

ص: ١٦٦

إشاره

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ (٢٣) فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ (٢٤) إِنَّ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جَنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّىٰ حِينٍ (٢٥) قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبْتَنِي (٢٦) فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنْ اصْنَعْ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحَيْنَا فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ فَاسْلِكْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تُخَاطِبُنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ (٢٧) فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلِكِ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٢٨) وَقُلْ رَبِّ أُنزِلْنِي مُنْزَلًا مُبَارَكًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ (٢٩) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ (٣٠) ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَوْمًا آخَرِينَ (٣١) فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ (٣٢) وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الْآخِرَةِ وَآتَرْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ (٣٣) وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَرًا مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذَا لَخَاسِرُونَ (٣٤) أَلَيْسَ لَكُمْ أَنْتُمْ وَإِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنْتُمْ مُخْرَجُونَ (٣٥) هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ (٣٦) إِنَّ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ (٣٧) إِنَّ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ (٣٨) قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبْتَنِي (٣٩)

اللغه

٢٥ [جنه]: جنون.

ص: ١٦٧

هدى من الآيات:

في سياق الحديث عن الايمان في هذه السوره يحدثنا هذا الدرس عن عاقبه الذين استكبروا على الله، و لم يؤمنوا بالرساله الإلهيه أو من يمثلها، و يأتي هذا الدرس بعد تذكير القرآن بآيات الله، بهدف تذليل العقبات التي تعترض طريق الايمان بالله، و أبرزها الاستكبار، و كان يمثل الولايه في الأرض آنئذ رسول الله نوح عليه السلام حيث استكبر قومه فلم يسمعوا له، زاعمين بأنه ما دام بشرا، فلا يمكن الخضوع له، و علوا في الأرض، فماذا كانت عاقبتهم؟ لقد أمر الله نوحا ان يصنع الفلك، فلما اكتملت جرى الطوفان، فأنجى الله من في السفينه، و أغرق الباقين، و قد تجلى علم الله، و قدرته على يد نوح في الأرض، و هذا يكفي دليلا على انه يمثل ولايه الله الحق.

اذن لا- داعى للاستكبار على من يمثل هذه الولايه، و لا- نعتقد يوما ان رفضنا له سيغير من الواقع شيئا، إذ سيبقى وليا قبلنا أم رفضنا، و إذا لم نقبل بولايته تشريعا

بالطوع. فسنقبلها تكوينيا بالإكراه، و لنا فى الماضين عبره.

ان ولايه نوح لم تكن ذاتيه، و انما كانت بأمر الله و قدرته، و لذلك دعا ربه ان ينزله منزلا مباركا. فيه الخير و الامان.

و تكررت قصه قوم نوح مع آخرين بعدهم، إذ لم يتعظوا بمن قبلهم - و هذه سنه الهيئه عامه - فقد اهلكهم الله لأنهم كذبوا بالرسول، و استكبروا على رساله، و الأسباب هى:

١- انهم كانوا ينظرون للرسول نظره ماديه. حيث أرادوه صاحب مال و منصب، أما ان يكون مثلهم، فقد زعموا انهم سوف يخسرون لو أطاعوه، و غاب عنهم ان القيمه الحقيقيه للإنسان هى بما يملك من قيم و سلوك صالح، و بالتالى اذن الله.

٢- كانت تلك عقبه الاستكبار، و عقبه الثانيه فى طريق الايمان بالرسالات:

الريب فى البعث، فقالوا: انه يعدكم بالنشور بعد ان تموتوا، و تصبحوا ترابا، و عظاما. انه وعد بعيد، ثم قالوا: بل هو وعد كاذب، و انما هى الحياه الدنيا نموت و نحيا فيها.

و تمادوا فى غيهم، فكذبوه، و قالوا: انه مفتر على الله، و عقدوا العزم على عدم الايمان به أبدا.

لقد كان التكذيب عظيما على قلب نوح عليه السلام ذلك العبد الصالح، الذى غمرت معرفه الرب أرجاء قلبه الخاشع، و لم يجد لنفسه من نفسه قوه، فدعا ربه قائلا:

« رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ ».

بينات من الآيات:

[٢٣] فى آيات آنفه رأينا نعم الله على البشر، و لكن لماذا نجد الإنسان بالرغم

من تجلى الله له فى كل شىء، يكفر به، و يجعل بينه و بين معرفته حجبا زائغه، معرضا عن آياته تعالى.

وَ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ ۚ ان خضوع الإنسان لقوى اخرى هو الذى يبعده عن معرفه الله، و الطاعه له، و الآيه تبين مشكله قوم نوح انهم كانوا يخضعون لقوى أخرى، و تتعرض الآيه التاليه الى اثنتين منها:

[٢٤]الاولى:تقديس الذات الذى يقودهم الى التكبر على الحق.

فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً وَ لَوْ كَانَ الْإِنْسَانُ يَجْعَلُ الْحَقَّ هُوَ الْمَقْيَاسَ لَا ذَاتَهُ،لما همه لمن يخضع ما دام يمثل الحق رساله و سلوكا.

الثانيه:تقليد الاباء.

مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ [٢٥]و هذان السببان هما اللذان حملاهم على اتهام نبى الله نوح عليه السلام بالجنون.

إِنَّ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّىٰ حِينٍ ان المعرفه قريبه من الإنسان، و ميسره له، و لكنه قد يبتلى بالكبر أو التقليد الأعمى، فيكون ابعده ما يكون عن الايمان و المعرفه، و حتى نخلق الايمان فى نفوسنا يلزم ان ننبذ الكبر، و ان نغير طائفه من عاداتنا و تقاليدنا السلبيه التى درج عليها

الأولون، بل و حتى بعض العادات الجيده قد لا- يكون الأنسب توارثها تباعا لاختلاف الظروف بل الأنسب تطويرها أو تقديم غيرها عليها.

و بقى شىء لا بد من ذكره من خلال قصه نوح و قومه هو: انهم حينما أرادوا انكار القيادة الالهيه العادله أنكروا الله من الأصل، و لكى يكتمل الايمان لا بد من الالتزام بقياده الهيه، و لذلك

قال رسول الله صلى الله عليه و آله :

«من مات و لم يعرف امام زمانه، فقد مات ميتة جاهليه» و

صدق الامام على عليه السلام إذ قال:

«هلك من لم يكن له حكيم يرشده» و الذين ينكرون القيادة الالهيه منحرفون، و عليهم ان يشككوا فى ايمانهم، لأنهم لو كانوا مؤمنين حقا لخضعوا لمن وضعه الله عليهم، و لبرمجوا حياتهم حسب ما أمر الله، لا حسب الالتزام بالماضى، فالاصاله جيده و لكن ليس على حساب الإبداع فى حدود موضوعيته حقه.

[٢٦] قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ ان اطمئنان الرسول بحتميه نصره، و تأييده من قبل الله هو الذى يدفعه نحو هذا الدعاء، و ان دل هذا على شىء فانما يدل على الايمان المطلق بالله لدى الرسل و الأنبياء و الأولياء.

[٢٧] حينما أحس نوح من قومه الكفر و الجحود، طلب من الله النصر ليتبين لهم انه بالفعل يمثل الولايه الالهيه، فجاءه النصر، و هذا يدل على انه كلما ازدادت الضغوط على الرسالى و هو يؤدى مسئوليته فى الإصلاح كلما قرب النصر، و نصر الله قريب ممن لم تنصره العوامل الذاتيه، و الماديه شرط ان يبذل قصارى جهده.

ان نصر الله لا يأتى دائما على هيئه صيحات و زلازل، بل يجرى قسم منه على يد المؤمنين، أو لم يكن الرب الذى أمر السماء و الأرض ان تتفجر طوفانا هائلا فى لحظات بقادر على ان يخلق لنوح سفينه، ثم يأمره بالصعود؟ بلى. و لكنه أراد ان يشارك هو فى نجاه نفسه و من آمن معه.

و فى الأحاديث انه بعد ان دعا نوح ربه جاءه جبرائيل بنواه تمر، و قال له:

نجاتك فى هذه، ازرعها، فزرعها حتى صارت نخلا، و بعد ثلاثين سنه أمره ان يأكل الثمر و يزرع النوى، و هكذا مره ثانيه، ثم أمره ان يقطع جذوع النخل و يصنع السفينه، و عند ما بدأ بصنعها كان الله يرعاه بعلمه، و قدرته، و كان قومه يستهزءون به عند ما يمرون عليه، لأنه كان يصنع السفينه فى بلاد لا بحر فيها.

فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنْ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا ۖ وَوَحَيْنَا نَحْنُ قَرِيبُونَ مِنْكَ نَنْظُرُ إِلَيْكَ، و نساعدك.

و أما قولنا: تحت عين الله فيعنى تحت رعايته و ظله، أما الوحي: فإشاره الى العلم و المعرفه التى زود الله بها نوحا عليه السلام .

فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ رَوَى فِي نَوْرِ الثَّقَلَيْنِ «انه قيل لنوح: إذا رأيت الماء يفور من التنور، فاركب أنت و من معك فى السفينه، فلما نبع الماء أخبرته امرأته فركب». (١)

و لعل التنور كان يوضع فى مكان مرتفع، فاذا فار ماء دل على أن أمرا خارقا للقوانين الطبيعیه قد وقع، و لذلك جعل ذلك علامه لنوح عليه السلام ببدء الطوفان.

فَأَسْلُكُ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ

ص: ١٧٣

فإنهم سيغرقون.

وَلَا تُخَاطِبُنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُعْرَقُونَ وَ هَذِهِ آيَاتُ نوحٍ لِحُبِّ نوحٍ إِلَى قَوْمِهِ، وَ كَيْفَ أَنَّهُ كَانَ يَأْمَلُ هِدَايَتَهُمْ، وَ لَكِنَّ اللَّهَ نَهَاهُ أَنْ يَخَاطِبَهُ فِي الظَّالِمِينَ.

[٢٨] فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَ مَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلِّكِ أَى السَّفِينَةِ.

فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ حِينَمَا يَأْتِي نَصْرُ اللَّهِ يَجِبُ أَنْ نَشْكُرَهُ، وَ نَذْكُرَ أَنْ النِّصْرَ لَيْسَ مِنْ ذَوَاتِنَا، وَ ذَلِكَ حَتَّى لَا نَصَابَ بِالغُرُورِ، وَ قَدْ أَمَرَ اللَّهُ نوحًا أَنْ يَحْمَدَهُ حَتَّى لَا يَتَصَوَّرَ قَوْمَهُ أَنَّهُ إِلَهٌ، وَ أَنَّهُ هُوَ الَّذِي أَنْقَذَهُمْ.

[٢٩] وَقُلْ رَبِّ أَنْزِلْنِي مُنْزَلًا مُبَارَكًا وَ أَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ فَلَا تَفَكَّرْ أَنْ حَاجَتَكَ إِلَى اللَّهِ قَدْ انْتَهَتْ، فَأَنْتَ تَحْتَاجُهُ فِي كُلِّ لِحْظَةٍ، فَقَدْ تَرَسُوا هَذِهِ السَّفِينَةَ فِي مَنْطِقِهِ قَاحِلَهُ، لَا زَرْعَ فِيهَا، وَ لَا ضَرْعَ، وَ كَلِمَةُ الْبَرَكَةِ تَدُلُّ عَلَى مَا تَدُلُّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ التَّكَامُلِ وَ التَّنَامِي بِإِضَافَةِ مَفَاهِيمِ وَ إِحْيَاءَاتٍ أُخْرَى، وَ حِينَمَا نَدَعُوا اللَّهَ أَنْ يَبَارِكَ لَنَا فِي شَيْءٍ، وَ يَكْمَلُ حَيَاتِنَا بِهِ، فَلْنَدْعُهُ أَنْ يَعْطِينَا التَّكَامُلَ فِي أَبْعَادِ الْحَيَاةِ.

وَ سَأَلِ نوحَ رَبَّهُ بِالْمَنْزِلِ الْمُبَارَكِ دَعَاءً بَانَ لَا يَجْعَلُ نَزُولَهُ عَلَى الْأَرْضِ نَهَايَةَ لِنَعْمِ اللَّهِ عَلَيْهِ، بَلْ بَدَايَةَ لَذَلِكَ، وَ بِالْفِعْلِ حِينَمَا نَزَلُوا إِلَى الْأَرْضِ شَرَعُوا فِي بِنَاءِ حَضَارَتِهِ،

ص: ١٧٤

لا ليأكلوا على حساب ميراث السابقين، و المؤمنون حينما ينتصرون، و يسقطون الطاغوت يعرفون بأنها نقطه البدايه، و آتشد تبدأ مسئوليتهم الأصعب فى البناء الحضارى و التكامل.

[٣٠] إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ وَ إِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ الدنيا ليست على شاكلة واحده، فهى مليئه بالمصاعب و المشاكل، و مسئوليتنا الاستعداد لهذه الحياه، لا ان نفقد عزيمتنا، أو تخور ارادتنا امام الشدائد.

و قوله « وَ إِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ » فيه تأكيدات على البلاء.

[٣١] ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَوْمًا آخَرِينَ القرن فى تعبير القرآن هو الجيل أو الامه. إذ يعاصر بعضهم بعضا، و يقرن اليه، و لا ندرى من هم هؤلاء، فلعلهم كانوا قوم ثمود، فهم الذين اهلكوا بالصيحه، و لعلهم قوم عاد، إذ هم أقرب تاريخيا الى عصر نوح.

و لعل إخفاء اسمهم كان بهدف جعلهم أقرب الى واقعنا، و ان عذاب المكذبين سنه الهيه، لا تختص بقوم دون قوم، و لا عصر دون عصر، لذلك

قال أمير المؤمنين - عليه السلام - و هو ينصح قومه :

« ايها الناس: ان الله قد أعادكم من ان يجور عليكم، و لم يعدكم من ان يتليكم، و قد قال جل من قائل: إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ وَ إِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ . » (١) فالله لا يجور علينا، و لكنه يتلينا، و علينا ان نخشاه أبدا، لأنه لا يخص قوما دون قوم فى الابتلاء.

ص: ١٧٥

[٣٢] فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ وَ نُوَكِّدُ مَرَّةً بَعْدَ مَرَّةٍ: ان دعوه الأنبياء لم تكن مجردة أو ناقصة، بل كانت دعوه ذات وجهين: الاول: إسقاط الطغاه، والثاني: اقامه حكم الله، تحت ولايه أوليائه، ويدل على ذلك جواب قومهم..

[٣٣] وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الْإِشْرَافِ الَّذِينَ كَانَتْ سُلْطَتُهُمْ عَلَى النَّاسِ مَهْدَدَةً، وَالَّذِينَ يَسْمِيهِمُ الْقُرْآنُ بِالْمَلَإِ، هُمُ الَّذِينَ كَانُوا يِعَارِضُونَ الرِّسَالَ قَبْلَ غَيْرِهِمْ، وَلِمَاذَا كَانُوا يِعَارِضُونَ؟ يَقُولُ الْقُرْآنُ:

الَّذِينَ كَفَرُوا وَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ الْآخِرَةِ وَ أَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَلِأَسْبَابِ ثَلَاثَةٍ:

١- كفرهم، و حجبهم أنفسهم عن الحقيقة.

٢- تكذيبهم بالآخره.

٣- ترفهم في الحياه الدنيا، و بطرهم، و غرورهم بنعمها. حيث كان ترفهم مهدداً بهذه الدعوه، لأنه قائم على الظلم، و الابتزاز، و الاستغلال، و الرسالات تعارض كل ذلك.

مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَ يَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ

ص: ١٧٦

ای ان هذا من طبقتکم، و طبعتکم، فلا- تطيعوه، و إذا عرفنا ان أكثر الطغاه كانوا يضللون الناس البسطاء بأن عنصرهم أفضل من عنصر الناس، و أنهم متميزون عنهم ذاتياً، و وراثياً، و لأنهم الأقوى و الأغنى. إذن عرفنا بعدا من أبعاد مثل هذه الآيه، و كان الملاء يقولون للناس: بأنهم اولى بالطاعه من الأنبياء، لان الأنبياء من طبقه المحرومين، يأكلون مثلهم، و يشربون مثلهم، فهم لا يستحقون القياده، بينما هم-ای الطغاه- يتميزون عن الناس فى مآكلهم و مشربهم.

[٣٤] وَ لَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذَا لَخَاسِرُونَ عند ما ندرس حياه الأنبياء قد نتصور أنهم رجال ضخام، و نتخيلهم ضمن هاله من القيم الماديه، اما إذا تصورناهم رعاہ للغنم، ثيابهم خلقه.. و يأتى أحدهم الى فرعون و هو جالس فى قصره، تحيط به الجنود، و شهرته طبقت الافاق، و يطلب منه ان يطيعه، و يسلم الأمر اليه، فاننا نعرف مدى صعوبه الايمان بهم.

[٣٥] أَيْعِدْكُمْ أَنْكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَ كُنْتُمْ تُرَابًا وَ عِظَامًا أَنْكُمْ مُخْرَجُونَ هل من الممكن ان يعود الرميم، و تصير العظام الباليه بشرا؟! [٣٦] هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ اى بعيد ان يتحقق ما يعده الرسل، و ان يعود الإنسان ثانيه بعد الموت، و هنا احتمال آخر لهذه الكلمه هو: ان الكفار كانوا يسوفون، فحتى لو كان البعث حقا، فانه سيكون فى زمان بعيد جدا، و هكذا يسوف أهل المعاصى، و

جاء فى الدعاء:

«فاعنى بالبكاء على نفسى، فقد أفنيت بالتسويق و الآمال عمرى» و

جاء فى الحديث ان أكثر ما يشكو منه أهل النار «سوف». [٣٧] إِنَّ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَ نَحْيَا وَ مَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ

ص: ١٧٧

و هذه الفكره منبعها الكفر بالله و التشكيك فى قدرته تعالى.

[٣٨] ثم وجهوا التهمه لشخص الرسول، ففى البدايه قالوا انه رجل مثلكم، ثم ادعوا ان أفكاره خاطئه، و الآن ينسبون اليه الافتراء.

إِنَّ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ الْايمان حق، و يوم الآخره حق، و لكن ماذا ينفع كل هذا، و من دون ان يتجسد عملا صالحا، و نظاما اجتماعيا فى الحياه الدنيا؟! هؤلاء بخبثهم، و مكرهم شأنهم شأن كل المضللين عبر التاريخ، حاولوا أن يفصلوا الدين عن الدنيا. بين الايمان بالله من جهه، و بين تطبيق نظام دينى قائم على الأرض من جهه ثانيه، فقالوا: ان الله حق، و لكن هذا الرجل لا يمثله فى الأرض، و لا يملك ولايته.

[٣٩] و عند ما يئس منهم نبيهم دعا ربه:

قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبْتَنِي وَ هى نفس الكلمه التى قالها نوح عليه السلام و قد تركت من الآثار ما هو آيه للناس على مرّ الزمان، و هكذا ينصر الله كل من يجسد قيمه على نفسه.

ص: ١٧٨

قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ (۴۰) فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ غَنَاءً فَبَعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (۴۱) ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قُرُونًا
آخَرِينَ (۴۲) مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّهٍ أَجْلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ (۴۳) ثُمَّ أَرْسَلْنَا رَسُولَنَا تَتْرًا كُلَّ مَا جَاءَ أُمَّهَ رَسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُمْ بَعْضًا
وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبَعِيدًا لِقَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ (۴۴) ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ (۴۵) إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ
فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ (۴۶) فَقَالُوا أُنُومٌ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ (۴۷) فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ (۴۸) وَ
لَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ الْكِتَابَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ (۴۹)

هدى من الآيات:

لأن القرآن بذاته شفاء، و لأن سوره (المؤمنون) تعالج النفوس المريضة، بذكر عبر الماضين لتصفى القلوب، و تتصل بنور الايمان البهى، و لان أمر التوحيد لا يخص قوما دون آخر، فان السياق القرآنى هنا يذكر بعاقبه أولئك الذين كذبوا الرسول، فأندرهم بأنهم سيصبحون نادمين حين ينزل الله بهم العقاب، و يعرفون انه جزاء أفعالهم، و هكذا أخذتهم الصيحه، جزاء عادلا لغفلتهم، و جحودهم، فاذا بهم غناء كغناء السيل، تلاحقهم اللعنه، فبعدا لهم لأنهم كانوا ظالمين.

و خلق الله قوما غيرهم، و مضت سنته تعالى فيهم، كلما كذبوا امهلهم حتى ينتهى أجلهم، أما إذا جاء أجلهم، فلا- يتقدم و لا يتأخر، و الرسل يتعاقبون رسولا بعد رسول، و لكنهم كانوا يكذبونهم، فجعل الله بعضهم يتبع بعضا فى الهلاك.

حتى أصبحوا جميعا أحاديث تروى، و لا- أثر لهم فى الحياه الا- ما تحمله ذاكره التاريخ من عبرهم، و أمثالهم، و لعنات الله لهم، فبعدا لهم لأنهم لم يؤمنوا.

و يبدو أن حياه هؤلاء كانت متشابهه،و لكنها تطورت عند فرعون و ملأه و لذلك أفرد بالذكر،فهذا موسى و أخوه هارون،يرسلهما الرب إليهم،فيستكبرون و يعلون فى الأرض طغيانا و يقولون:عجبا!كيف يأمرنا بالايان،و الطاعه لهما،و قومهما يعبدوننا؟!و هذا التكبر أرداهم،حيث أنهم كذبوهما،فجرت عليهم سنه الله فى هلاك المكذبين.

و لكن الله لم يرد هلاكهم انما أراد هدايتهم. إذ بعث فيهم رسولا،و آتاه كتابا.

بينات من الآيات:

[٤٠] بعد ان دعا أحدهما(هودا أو صالحا)قومه،و استكبروا عليه،سأل الله ان ينصره عليهم،فجاء الخطاب الالهى:

□ قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لِيُضِـبَ بِحُجَّنَ نَادِمِينَ فَنهائيتهم قريبه،و سيعرفون انها نتيجه لعملهم،و سيندمون،و قال الله«عما قليل»لأنهم استبعدوا الجزاء بقولهم«هيهات هيهات».

[٤١] فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ كثيرا ما تتكرر كلمه«بالحق»فى القرآن،قال تعالى:

«انا أرسلنا رسلنا بالحق».

□ «إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَ نَذِيرًا».

و هكذا.و توحى كلمه«بالحق»بعده أفكار:

١- ان الحياه قائمه على أساس سنن، و قوانين لا تحيد عنها، و ان علينا ان نكيف أنفسنا معها، و الا فان اراده الله اقتضت ان نتكيف معها، كالكافر الذى لا يسجد الله، و لكن ظلاله رغما عنه يسجد له.

٢- ان هذه القوانين و الانظمه ليست عبثا، و بلا حكمه، و أنها لن تتساهل، فاذا خالفها الإنسان هلك.

٣- ان قدره الله و تدبيره غير محدودين، و لكنه-تعالى-لا- يعمل شيئا دون تلك القوانين و السنن التى وضعها الا فى حالات خاصه لأنه فوق كل ذلك، فمن الناحيه النظرية قدره الله فوق كل قدره، و لكنه عمليا أبى أن يجرى العداله فى الكون الا برحمته و حكمته، فاذا أراد العذاب لإنسان ما أنزله بقدر ذنبه، و بالطريقه المتناسبه معه.

فالذى كان يعبد الماء يغرقه بالنيل، و الذى كان يفتخر بالقوه تقتلعه الرياح، و المتكبر تأتيه الصيحه من فوقه، و الصيحه التى يتحدث عنها هذا الدرس كانت حقاً، و جاءت لتطبق الحق.

فَجَعَلَهُمْ غُثَاءً ۖ الْغُثَاءُ هُوَ مَا يَجْتَمِعُ حِينَ السِّيُولِ، أَوْ وَرَاءَ حَوَاجِزِ الْأَنْهَارِ. مِنْ أَوْسَاخٍ لَا يَنْتَفِعُ بِهَا الْإِنْسَانُ، وَ هَكَذَا تَكُونُ نَهَائِهِ الْمَتَكَبِّرِينَ، وَ لَنْ يَقْرَرُ هَلَاكُهُمْ عَطْفَ أَحَدٍ، لِأَنَّهُمْ ظَالِمُونَ، بَلْ تَلَا حَقَّهُمُ اللَّعْنَةُ لَيْلَ نَهَارٍ.

فَبُعِيداً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ [٤٢] وَ اللَّهُ حِينَ يَهْلِكُ هَوْلَاءَ فَانْه لَا يَعْجَبُ بِهِمْ، لِأَنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا يَزِيدُونَ فِي مَلِكِهِ شَيْئاً، وَ لَمْ يَحْدِثُوا فِرَاغاً بِهِلَاكِهِمْ، لِأَنَّ «أَمْرَهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ»

لذلك فقد خلق غيرهم.

ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قُرُونًا آخَرِينَ [٤٣] ولكل امه من هذه القرون أجل محدود.

مَّا تَشِيقُ مِنْ أُمَّهِ أَجْلُهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ ان يقين الإنسان بأن فرصته في الدنيا محدوده و انه حين يأتى أجله لا- يقدر على تأخيره، يجعله يخشى ربه و يتقيه، علما بأن نهايه الأجل غير معروفه له، فقد يعاجله العذاب فى أيه لحظه.

و الآيات القرآنيه عاده ما تشير الى الجماعه (الامه-الشعوب-الطائفه،...) لان الإنسان يتحمل مسئوليته امام الآخرين. شاء أم رفض.

[٤٤] و سنه الله فى الحياه انه يرسل الى كل أمه هاديا و رسولا.

ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرًا يُؤَيِّد بَعْضُهُمْ بَعْضًا فِى ذَاتِ النَّهْجِ، و لذات الهدف.

كُلًّا مَّا جَاءَ أُمَّةً رَسُولٌهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُمْ بَعْضًا كَمَا ان الله يرسل الرسل واحدا بعد الآخر، كذلك يهلك الأمم المكذبه الواحده تلو الأخرى.

وَ جَعَلْنَا لَهُمُ أَحَادِيثَ و الأحاديث جمع أحداثه، و ليس جمع حديث، و الاحدوثة هى الحادثة النكراء التى تتناقلها الألسن، و هى عبره لهم.

ص: ١٨٣

فَبَعْدًا لِقَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ تَعَسَا لَهُمْ وَابْعَادًا عَنِ الرَّحْمَةِ وَالْحَقِّ.

[٤٥] و من الأمم التي بعث الله إليها الرسل فكذبوهم امه فرعون:

ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ الْآيَاتِ هِيَ التَّوْرَةُ، أَمَا سُلْطَانُ اللَّهِ عِنْدَ مُوسَىٰ فَهُوَ الثَّعْبَانُ، وَ سَائِرُ الْآيَاتِ.

[٤٦] إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ وَ هُنَا مَقَابِلُهُ، فَفِي طَرَفٍ يَقِفُ مُوسَىٰ وَ هَارُونَ، وَ فِي الطَّرَفِ الْآخِرِ فِرْعَوْنَ وَ مَلَائِهِ، وَ هَكَذَا أُرْسِلَ كُلُّ الْأَنْبِيَاءِ إِلَىٰ طَوَائِفِ زَمَانِهِمْ، وَ مِنْ يَلْفُ لِقَوْمِهِمْ مِنَ الْمُرْتَزِقَةِ وَ أَصْحَابِ الْمَصَالِحِ.

و الذي يتدبر في قصه موسى و فرعون يهتدى الى ان القضية كانت كبيرة جدا.

حيث يرسل الله اثنين (موسى و هارون) و ذلك لعظم المسؤولية. حيث انها نقله حضاريه من ذلك المستنقع الآسن الذي تردى اليه فرعون و جماعته، الى القمه السامقه من التوحيد و الايمان، و موسى من أعظم أنبياء الله، و قصص موسى قريبه من واقع الامه الاسلاميه، فلا تزال البشريه تعيش ظروفًا مشابهه لتلك التي عاشها قوم موسى، حيث لا يزال المستكبرون من ملأ فراعنه الأرض يستضعفون سائر الناس، و يجعلونهم شيعة، و يعلون في الأرض بغير الحق، فنحن بحاجة الى التدبر في هذه القصة لتزداد وعيا، و عزيمة، و جهادا حتى يأذن الله لنا بالنصر، و لذلك يذكر القرآن هذه القصص زهاء سبعين مره.

و لكن هل استجاب فرعون و ملأه لرسول الله موسى و لأخيه هارون عليه السلام؟ كلا..

فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ الْإِنْسَانَ رَبِّمَا يَسْتَكْبِرُ وَ لَكِنه لَا يَمْلِكُ شَيْئًا مِنْ مَقُومَاتِ الْاِسْتِكْبَارِ، فَنَرَاهُ فَقِيرًا، وَ ذَلِيلًا...إِلخ، وَ حِينَا آخِرِ يَسْتَكْبِرُ الْإِنْسَانُ وَ هُوَ يَمْتَلِكُ الْمَقُومَاتِ الظَّاهِرِيهَ لِذَلِكَ، كَفَرَعُونَ الَّذِي كَانَتْ تَجْرِي الْأَنْهَارُ مِنْ تَحْتِ قَصْرِهِ، وَ الَّذِي يَسِيْطُرُ عَلٰى شَعْبِ مِصْرَ.

[٤٧]لذلك لما جاءهم موسى و اخوه كذبوهما:

فَقَالُوا أَوْ تَزْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ وَ لَمْ يَقُلْ وَ هُمَا لَنَا عَابِدَانِ؟ لَعَلَّهُ لَأَنْهُمَا فِي الْوَاقِعِ مَا عَبَدُوا، وَ مَا خَضَعُوا لِلطَّاغُوتِ، وَ اِنَّمَا قَوْمُهُمَا (بَنُو إِسْرَائِيلَ) هُمُ الَّذِيْنَ خَضَعُوا لِفِرْعَوْنَ وَ مَلَأَهُ.

[٤٨] فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ بِالْاَغْرَاقِ.

[٤٩] وَ لَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ الْكِتَابَ الَّذِي أَرْسَلَ إِلَيْهِمْ عَبْرَ مُوسَى كَانَ يَهْدَفُ هِدَايَتَهُمْ إِلَى الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ، وَ لَكِنْهُمْ لَمْ يَنْتَفِعُوا بِهَذَا الْكِتَابِ.

اِنَّ اللّٰهَ لَمْ يَخْلُقِ النَّاسَ، لِيُهْلِكَهُمْ، بَلْ لِيُرْحِمَهُمْ بِالْفَلَاحِ، وَ الْهُدٰى فِي الدُّنْيَا، وَ الْجَنَّةِ فِي الْآخِرَةِ، وَ لَكِنِ النَّاسَ هُمُ الَّذِيْنَ يَرْفُضُونَ ذَلِكَ.

وَ كُلُّ هَذِهِ الْآيَاتِ دَعْوَةٌ لَنَا لِلتَّفَكِيرِ فِيهَا وَ تَطْبِيقِهَا عَلَى أَنْفُسِنَا وَ مَجْتَمَعَاتِنَا.

فَبِمَا كَانُوا أَنْ نَصِيرَ مُوسَى، وَ بِمَا كَانُوا أَنْ نَصِيرَ فِرْعَوْنَ، وَ ذَلِكَ إِذَا حَمَلْنَا رِسَالَهُ مُوسَى

فى الحياه، أو سلكننا مسلك فرعون.

جاء فى الحديث :

«طوبى لمن عصى فرعون هواه، و أطاع موسى تقواه» و مهما اختلفت طرق العذاب، و الانتقام الالهى فان الحقيقه واحده، و يجب أن لا نستبعد العذاب عن أنفسنا إذا انحرفنا عن هدى الله.

ص: ١٨٦

اشاره

وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ (٥٠) يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ (٥١) وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ (٥٢) فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَمْ دَلَيْهِمْ فَرِحُونَ (٥٣) فَذَرَهُمْ فِي غَمَرَتِهِمْ حَتَّى حِينٍ (٥٤) أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَّالٍ وَبَيْنَ (٥٥) نَسَارِعَ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ (٥٦) إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ (٥٧) وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ (٥٨) وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ (٥٩) وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مِمَّا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجَلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ (٦٠) أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ (٦١) وَلَا تَكَلَّفْ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَلَا دَيْنًا كِتَابًا يَنْطِقُ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (٦٢)

اللغه

٥٣[زبرا]:كتبا.

ص:١٨٧

هدى من الآيات:

لأن سورة (المؤمنون) تذكرنا بواقع الايمان، فان هذا الدرس فيها- كما يبدو - قد خصص لبيان المقياس الحق للمؤمن. بعد ان ذكّرت الدروس الماضيه بعاقبه الإنكار و الجحود.

فهذه مريم و ابنها آيتان، حيث آواهما الرب الى مرتفع من الأرض فيه القرار و الماء، و هذا دليل على ان لله- سبحانه- انما أرسل الأنبياء لراحه البشر، لذلك أمرهم بان يأكلوا من الطيبات و يعملوا صالحا.

و منهج الرسل واحد، و انما اختلف أهل الكتاب، و تفرقوا أحزابا لفرحهم بما أوتوا من أموال و بنين، و زعموا أن الله يسارع لهم فى الخيرات، و هم لا يشعرون، فلعله استدراج لهم حتى يأخذهم عند ما يحين أجلهم.

أما قدره الايمان فنجدها فى الذين يشفقون، و جلين من خشيه الله، و يستجيون لآياته، و لا يشركون بربهم، و حتى عطاؤهم فى الله لا يطمنون اليه، بل لا يزالون

وجلين لإيمانهم بأنهم الى ربهم راجعون. فهم لذلك يسارعون فى الخيرات، و يتسابقون إليها.

ولا- يعنى ذلك ان الله ينهكهم بالمسؤوليات، بل ربنا الرحيم لا- يكلف نفسا الا- ما تقدر عليه، و تطيقه، و ان الله يكتب لهم أعمالهم كلها و هم لا يظلمون.

هذا هدى المؤمنين. دعنا نقتدى به.

و نجد فى آيات هذا الدرس: مقاييس لا تخطئ للإيمان.

بينات من الآيات:

[٥٠] ان الهدف من التجمع المؤمن ليس اشقاء الناس، بل تركيتهم، و جعلهم صالحين لينتفعوا أكثر، بنعم الله، و بالتالى ليرحمهم الله، و ذلك بأن يجسد افراده حياه عيسى و امه مريم عليها السلام، اللذين جعل الله ربوه تحتضنهم، و تسقيهم من معين سائغ شرابه، و كذلك يريد الله للرسول و من يشكل امتدادا لخطهم من المؤمنين، ان يأكلوا الطيبات، و يعملوا الصالحات، و يشكروا الله.

و حرام على إنسان يأكل نعم الله ان يعصيه بعمل الخباثت، كما لا يستطيع آكل الحرام ان يعمل الصالحات بصورة كامله، أو لم يقل ربنا سبحانه:

« وَ الَّذِي خَبَثَ لَّا يُخْرِجُ إِلَّا نَكِدًا؟! وَ جَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَ أُمَّهُ آيَةً فَمَرِيَمَ وَ لَدت عيسى من غير زوج، كما ان عيسى كلم الناس و هو فى المهد صبيا.

وَ آوَيْنَاهُمَا إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَ مَعِينٍ

بعد ان كانا يفتقران الى المسكن، و فر الله لهما الربوه، و هى المرتفع من الأرض، و لها ميزات: انها بعيدة عن الهوام و الأسقام، و هكذا عند ما يأمر ربنا بالتيتم يقول:

« فَتَيَّمُوا صَعِيداً طَيِّباً ».

و من معانى الصعيد المرتفع من الأرض، و فى علم طبقات الأرض ان المرتفعات التى فيها الماء هى أفضل المواقع. أمنيا و زراعيا و صحيا.

و يتساءل المفسرون: اين كانت هذه الربوه؟ هل كانت مدينة الناصره فى فلسطين. حيث التجأت إليها مريم -عليها السّلام- خشيه أعداء ابنها عيسى - عليه السّلام- من اليهود؟ أم كانت منطقه خاصه فى مصر. حيث عاشت مريم و ابنها هناك ردحا من الزمن؟ أم انها كانت فى (دمشق) أم مدينه (رملة) حيث عاشا فيهما أيضا فتره من الوقت؟ أم انها لم تكن سوى ذلك الموقع الذى وضعت مريم ابنها فيه، فى أطراف بيت المقدس ذاته. (١)

و فى روايه مأثوره عن الإمامين الباقر و الصادق -عليهما السّلام- :

«ان الربوه: حيره الكوفه، و سوادها، و القرار مسجد الكوفه، و المعين الفرات. » (٢)

ص: ١٩٠

١- (١) راجع تفسير (نمونه) ص ٢٥٢ ج ١٤.

٢- (٢) نور الثقلين ج ٣ ص ٥٤٤.

و على اى حال:فان فى الآيه درسا فى اختيار الموقع المناسب للمسكن، كما ان الآيه التاليه تذكرنا:بضروره اختيار الطيبات للطعام.

[٥١]و لم تكن هذه النعم الا- لكى تقيم أود الإنسان،و لكن الهدف الأبعد منها ان يستخدم جسده فى خير نفسه و الناس،من خلال الصالحات.

و قد كان هذا نداء الله لكل الرسل،و من بعدهم للمؤمنين،ان يأكلوا لا ليعيشوا أو يتلذذوا بالنعم-فحسب-بل ليعملوا الصالحات.

﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحاً إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ كما ان المهم فى العمل ان يكون خالصا لوجه الله حتى يأتى بثماره-دنيا و آخره-و هل يخلص لله الا الذين يتحسسون برقابته،و علمه بهم؟! و يجب على المؤمنين ان يعملوا بما يمليه عليهم الشرع و العقل دون ان ينتظروا رضى الناس.

و يبدو ان الإسلام يرجع الناس الى عقولهم.البعيده عن الهوى و الضغوط، و التى جعلها الله حجه بينه و بين العباد،فتكون الطيبات التى تدعونا إليها هذه الآيه هى التى يحكم بها العقل،و هكذا العمل الصالح،و انما الشرع يثير العقل و يبلوره.

جاء فى الحديث:

«العقل رسول باطن و الرسول عقل ظاهر» [٥٢]ان المقاييس الايمانيه التى وضعها الله سبحانه،هى التى تكشف حقيقه الكثير ممن يدعون الايمان،إذ ان مقياس الايمان و حقيقته ليس ما يدّعيه البشر أو يعتقد به،بل ما يضعه الله سنّه،و ما يعلمه من واقع كل إنسان و مجتمع.

ص:١٩١

و المشكله ان الإنسان الذى يغمره احساس ساذج بالايمان الصادق لا يكتشف خطأ ادعائه الا بعد فوات الأوان. حيث ينقله الموت من دار البلاء و العمل،الى دار الحساب و الجزاء،فلا يستطيع ان يغير من أمره شيئاً.

اذن لا بد ان نضع مقاييسنا الذاتيه جانباً،و نبحث عن الموازين الحق الالهيه لتكون حجه بيننا و بين الله سبحانه،عند الحساب و الجزاء.لا- لكى نقنع الآخرين باننا مؤمنون،لأنهم يقتنعون منا،بما يقتنعون من أنفسهم من ممارسه الشعائر الظاهره،ثم ماذا تجدى الإنسان قناعه الناس سوى بعض المصالح المحدوده فى الدنيا؟و لعله يظهر على حقيقته يوماً عند الناس أيضا ان المهم هو ان يكون الله راضيا عنا.

و فى هذه الآيه يضع القرآن الحكيم المقياس الاجتماعى الذى يميز المنافق عن المؤمن،و هو مقياس الوحده الايمانيه،فلو ادعى جماعه انهم مؤمنون،ثم تفرقوا أحزابا و شيعا.انطلاقاً من أهوائهم و مصالحهم،فان ادعاء هم سيكون باطلا و سخيفاً،لان المؤمنين تجمعهم كلمه واحده هى كلمه التوحيد،و ان التقوى هى محور نشاطهم، و صبغه أعمالهم و حياتهم.

وَإِنْ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ [٥٣] فَتَقَطُّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُرًا لِكَيْ نَعْرِفَ الْمُؤْمِنِينَ،لا- بد ان نعرف المنافقين الذين يتناقضون معهم،فبينما يتجه المؤمنون للوحده على أساس القيم و القياده الرساليه.نرى هؤلاء فى سعى حثيث للنيل من الوحده بتمام معنى الكلمه،و كلمه«فتقطعوا»مبالغه فى التقطيع،فهؤلاء يسيرون فى نفق التقسيم،و الفرقه.بحيث تنقسم كل جماعه على نفسها باستمرار.

كُلَّ حِزْبٍ بِمَا لَمْ دَلَيْهِمْ فَرِحُونَ ان الأساس فى هذه الفرقة، و هذا الانقسام هو اغترار كل بما لديه من رجال، و مال، و أفكار، بينما نجد المؤمنين مشفقين من خشية ربهم، و الفرح هو آية الغرور، و يبدو انه يعكس حاله الرضا عن النفس.

و ان الفرح هو السبب المباشر للتحزب. حيث ان قصر نظر الفرد، و حرج صدره، و ضيقه، و تفاهه اهدافه، و تحقيره لنفسه، و لقدراتها. كل ذلك يجعله معجبا بنفسه، و بما يملك، و يزعم انه و ما يتصل به أفضل مما سواه، فيتوقع على ذاته، و لا يعترف للآخرين بفضل، و لا يرى الأهداف العظيمة التى تحتاج الى الوحدة، و تراكم الجهود.

[٥٤] و يشبه القرآن هؤلاء حينما يطغى عليهم الاعجاب، و الفرح بالغريق الذى يغمره الماء من كل ناحية.

فَذَرَهُمْ فِي غَمَرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ فَلَا تَوْقَظَهُمْ إِلَّا صَاعِقَةُ الْعَذَابِ. تأتيهم بغته.

[٥٥-٥٦] و السؤال لماذا يفرح هؤلاء؟ لأن غايه ما يطمحون له ان يصبحوا أصحاب مال و بنين، و لفرط حبههم لذاتهم، و لما يتعلق بهم خاصه من مال و بنين تراهم يجعلونهما مقياسا للخير و الصلاح، و يزعمون بأنه لو لم تكن أفكارهم صائبه، و لم يكن الله راضيا عنهم إذا لم يكونوا يحصلون على المال و البنين، و بالتالى ان حصولهم عليهما فى الدنيا دليل صلاحهم، و حصولهم على الفلاح فى الآخرة، كما قال قائل منهم:

« وَ لَئِنْ رُدِدْتُمْ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنْقَلَبًا ».

ولا- يزال العالم المادى اليوم يعتبر ميزان التقدم الدخلى القومى، ويزعم بعضهم ان الله معه، لأنه أصبح أشد بطشا و ارهابا فى الأرض، و يكتب على دولاراته- بالاعتماد على الله، ثم يتلاعب بمصير الشعوب بتلك الأموال- حاشا الله- انه لا يسلط الظالمين على البشريه، و يرضى عنهم.

أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَّالٍ وَ بَيْنَ * نَسَارِعَ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ هَلْ يَتَصَوَّرُونَ هَؤُلَاءِ ان الخير و الكمال هو المال و الرجال؟ و اننا حين نعطيهم ذلك يعتبر حبا منا لهم أو رضى بهم؟! بل لا يَشْعُرُونَ لان الخير الحقيقى هو فيما يقوله القرآن، لا ما يملكون، و هو أيضا ما يجسده الذين تتحدث عنهم الآيات التاليه:

[٥٧] إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ فَاَلْمُؤْمِنُونَ يَعْمَلُونَ، و لكنهم لا- يغترون بعطائهم، بل يشفقون على أنفسهم، لأنهم يعرفون أن هذه الأجساد لا تحتل لهب النار، فيبقى همهم و شغلهم الشاغل هو إنقاذ أنفسهم من جهنم، و تتكرر فى الدعاء هذه العبارة: « وَ فَنَّا عَذَابَ النَّارِ » و فى الآيه القرآنيه:

« فَمَنْ زُجِرَ عَنِ النَّارِ وَ أُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ».

و تؤكد هذه الآيه و ما بعدها على الفروق بين التجمع المؤمن، و الآخر المصلحى

القائم على أساس المال و الرجال، و هي:

الف/الإشفاق من العمل، فدائماً ما يستقل المؤمنون أعمالهم، و يساورهم هاجس التقصير، بما يحسبهم انها قد لا تبلغ مرضاه الله، مما يزيدهم عزيمة و إصراراً على العطاء الأ-كثر، و الإخلاص الأنقى، أما المنافقون فإنهم يفرحون بأعمالهم و يكبرونها، فلا يقبلون الانتقاد بما يرونه في ذواتهم من كمال و عصمه، بينما يرحب أولئك بكل انتقاد بناء. حيث أنهم يهتمون أنفسهم بالتقصير، فلعلهم اخطأوا أو غفلوا، و محور هذه المقارنه هو الخشيه عند فريق دون الفريق الآخر، فكلما عمل المؤمنون لا تزال فيهم بقيه اراده، و عزيمة خشيه التقصير، و انهم لما يفكوا رقابهم من النار.

جاء في نهج البلاغه عن الامام على -عليه السلام- و هو يصف المؤمنين :

«فلو رخص الله في الكبر لأحد، لرخص فيه لخاصه أنبيائه، و أوليائه، و رسله، و لكنه سبحانه كره لهم التكابر، و رضى لهم التواضع، فالصقوا بالأرض خدودهم، و عفروا في التراب و جوههم، و خفضوا أجنحتهم للمؤمنين و كانوا قوماً مستضعفين قد اختبرهم الله بالمخمصه، و ابتلاهم بالمجهده، و امتحنهم بالمخاوف، و محصهم بالمكاره، فلا- تعتبروا الرضا و السخط بالمال و الولد. جهلاً بمواقع الفتنة، و الاختبار في موضع الغنى و الاقتصار». (١)

و قد نصح لقمان ابنه فقال له فيما قال:

«خف الله-جل و عز-خيفه لو جئته ببرّ الثقلين لعذبك، و ارج الله رجاء لو جئته بذنوب الثقلين لرحمك». (٢)

ص: ١٩٥

١-١) المصدر ص ٥٤٥.

٢-٢) المصدر ص ٥٤٧.

و نحن نقرأ فى سيره أولياء الله ما يجعلنا نتصاغر فى أنفسنا. اين نحن من واجبنا، و الى متى نغفل عن مصيرنا، و نحن لا نعلم هل خلقنا للجنة، أم ان عاقبتنا النار؟! فهذا زيد بن على بن الحسين - عليه السلام - يقص علينا سيرته سعيد بن جبير قال:

قلت لمحمد بن خالد: كيف زيد بن على فى قلوب أهل العراق؟ فقال: لا أحدثك عن أهل العراق، و لكن أحدثك عن رجل يقال له النازلى بالمدينه قال:

صحبت زيدا ما بين مكه و المدينه، و كان يصلى الفريضة ثم يصلى ما بين الصلاه الى الصلاه، و يصلى الليل كله، و يكشر التسبيح، و يردد:

« وَ لَجَاءَتْ سَيِّكْرُهُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ » (١) فصلى بنا ليله، ثم ردد هذه الآيه الى قريب من نصف الليل، فانتبهت و هو رافع يده الى السماء و يقول: الهى عذاب الدنيا أيسر من عذاب الآخرة، ثم انتحب، فقامت اليه، و قلت: يا ابن رسول الله لقد جزعت فى ليلتك هذه جزعا ما كنت أعرفه؟ قال: ويحك يا نازلى انى رأيت الليله و انا فى سجودى إذ رفع لى زمره من الناس عليهم ثياب ما رأته الأبصار، حتى أحاطوا بى و انا ساجد، فقال كبيرهم الذى يسمعون منه: اهو ذلك؟ قالوا: نعم، قال: أبشر يا زيد فانك مقتول فى الله، و مصلوب و محروق بالنار، و لا - تمسك النار بعدها أبدا فانتبهت و انا فرع، و الله يا نازلى لوددت انى أحرقت بالنار، ثم أحرقت بالنار، و ان الله أصلح لهذه الامه أمرها. (٢)

ص: ١٩٦

١- ١) سورة (ق) - آيه (١٩).

٢- ٢) بحار الأنوار - ج ٤٦ - ص ٣٠٨.

باء/الاستجابة للحق،فلو كانوا على خطأ سرعان ما يتذكرون و يعودون عنه، لأنهم يجعلون الحق-و ليس ذواتهم-محور حياتهم،لأنهم يعرفون خشوع الايمان، و التسليم للحق فى الدنيا خير من خشوع الذل فى نار جهنم.

[٥٨] وَ الَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ فهُمْ مَنفَتِحُونَ عَلَى الْحَقَائِقِ الَّتِي يَجِدُونَهَا فِي آيَاتِ اللَّهِ، وَ لَا يَمْنَعُونَ أَنْفُسَهُمْ خَيْرَاتِ الْحَقِّ بِالعصبيات و التقاليد و التحزب،بل يبحثون عن الحق أنى كان، حتى لو خالف مصالحهم أو تقاليدهم أو عزه أنفسهم.

[٥٩] وَ الَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ جيم/و توحيدهم لله يتجلى فى سائر جوانب الحياه،السياسيه و الاجتماعيه و..

و..فاذا اختاروا قياده فانما يختارونها بدافع ايمانهم لا- بعامل الهوى،فليس لادن فلان من بلده،أو حزبه،أو طائفته فاذن هو قائده،كلا..انما المقياس الوحيد عندهم هو ما يقوله الله و ما يرتضيه.

خوف التقصير:

[٦٠] وَ الَّذِينَ يُؤْتُونَ مِمَّا آتَوْا وَ قُلُوبُهُمْ وَجَلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ دال/و بينما المنافقون يفرحون بقليل ما يصدر عنهم،تجد هؤلاء فى حاله عطاء دائم مصحوب بوجل،و خوف من التقصير،لان المسأله لو كانت متوقفه على رضى الناس عنهم لنالوه بعطائهم الظاهر،و لكنهم يبحثون عن رضى الله،الذى لا ينال الا بالاخلاص،و انى لهم اليقين بقبول الله لأعمالهم و هو القائل عز و جل:

« إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ».

و يدفعهم خوف التقصير الى المزيد من العطاء، ذلك ان الشعور بالكمال يمنع مسيره التقدم، والاستمرار في العطاء، و

حينما يسأل رجل الامام الصادق عن سبب خوف هؤلاء، و جلهم يجيبه «انهم يخشون ان لا تقبل حسناتهم، و ان لا تغفر سيئاتهم
» و ما أكثر الثغرات في الحسنات التي نعملها، و قد يكون بعضها سبب في عدم قبولها.

فنحن لا نستطيع ان نتأكد من أننا قد فزنا. اذن دعنا لا نقف عند حدّ في عطائنا و إنفاقنا، و لا نفرح، لان الفرحة من جنود الشيطان.

[٦١] ان خوف هؤلاء من التقصير يدفعهم نحو العمل، بل المبادرة اليه.

هاء / أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ التَّسَابِقِ بَيْنَ هَؤُلَاءِ لَيْسَ فِي الشَّهْرِ، بَلْ فِي عَمَلِ الْخَيْرِ، وَ هَذِهِ صِفَةٌ نَقِيضَةٌ لِمَا يَعِيشُهُ التَّجَمُّعُ
الْمَنَافِقِ، فَبَيْنَمَا يَلْهَى أَوْلَئِكَ التَّكَاتُرَ فِي الْأَمْوَالِ وَ الْأَوْلَادِ، تَرَى هَؤُلَاءِ يَتَسَابِقُونَ إِلَى الْخَيْرَاتِ.

وَ هُمْ لَهَا سَابِقُونَ وَ هَذِهِ الْآيَةُ تَحْتَمِلُ مَعْنَيْنِ:

الاول: ان أنفسهم مجبولة على الخير، و العطاء، و العمل، و هذه الصِّفَاتُ لَيْسَتْ وَلِيْدَهُ ظَرْفٌ مَعِينٌ، بَلْ وَلِيْدُهُ صِفَةٌ رَاسِخَةٌ فِي
النَّفْسِ، فَمَعَ أَنَّهُمْ يَتَصَدَّقُونَ الْآنَ مِثْلًا، وَ لَكِنْ أَنفُسُهُمْ قَبْلَ هَذِهِ الصَّدَقَةِ كَانَتْ تَحْمِلُ هَذَا الْمَعْنَى الْخَيْرِ (مُسَاعِدَةُ الضَّعِيفِ).

الثاني: المبادرة فهم دائما يسبقون غيرهم للخير، إذ يكتشفون مجالات و وسائل جديدة للعمل الرسالي، و هذا ناتج عن الهَمِّ الَّذِي
يَحْمِلُونَهُ لِتَطْوِيرِ مَسِيرَتِهِمْ

و تحرّكهم، مما يدفعهم باتجاه البحث عن المجالات و الابعاد الجديده للتقدم بمسيره العمل، أو لمواجهة العقبات و المشاكل التي تعترضه.

ان هؤلاء يسعون دائما لنيل رضى الله، فيفكرون فى أساليب جديده للعمل و يطبقونها.

[٦٢] وَ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۗ اللَّهُ هُوَ الَّذِي خَلَقَ الْإِنْسَانَ، وَ هُوَ أَعْرَفُ بِقَدْرَتِهِ وَ طاقته، فلا يكلفه إلاّ بقدرها، و على الإنسان أن يسعى فى طريق الخير قدر جهده و تمكنه، فإذا فعل ذلك سقط عنه التكليف، و إلاّ فما دامت به بقيه مقدره فهو مسئول.

فما دام الإنسان قادرا يجب ان يعمل، و بقدر الاستطاعه يجب ان يعطى، و بقدر وسعه يجب ان يسعى، فلا يقل أحدنا: انى عملت، و أنجزت المهمه الكذائيه و كفى، و انما ينجز مهمه ليتقل الى غيرها، كما قال الله تعالى:

﴿ فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ﴾.

فاذا انتهيت من عمل فانصب الى غيره، و لا يقل أحدنا انه انتهى الواجب فقد قال تعالى:

﴿ وَ اعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴾.

فالعمل واجب حتى الموت.

و نستفيد من الآيه الكريمة ان مسئوليته كل إنسان حسب قدرته، فالقوى تختلف مسئوليته عن الضعيف، و العالم عن الجاهل، و المسئول عن الفرد العادى و..و.

و لعل الآيه تشير أيضا الى الرفق بالنفس فى العمل، فلا يهلكن أحدنا نفسه، و لا

يحملها فوق طاقتها،

فقد قال أمير المؤمنين لولده الحسن -عليهما السلام- وقد وجده يجتهد في العبادة :

«يا بني! ان هذا الدين متين، فأوغل فيه برفق» و البعد الآخر للآية: الواقعيه في الطموحات الرساليه. إذ ينبغي ان تكون اهداف المسلم بقدر طاقاته، فلا يتكلف ما لم يكلفه الرب به.

وَلَمَدَيْنَا كِتَابًا يَنْطِقُ بِالْحَقِّ فَلَوْ ادعى شخص انه تعب، فان الله يحتج عليه: بأنه أعطاه القدره التي لم يستغلها كلها حتى يدعى ذلك، ويحتج عليه بالآخرين الذين يمتلكون مثله من القدرات، و لكنهم لا يزالون يعطون و يعملون دون تراجع، و في مقابل هذا التشدد في المسؤوليه هناك رحمه الهيه تتمثل في عدل الله، و فضله.

وَهُمْ لَا يُظَلِّمُونَ فَاللَّهُ يَجْزِي الْإِنْسَانَ عَلَىٰ كُلِّ خَيْرٍ صَغِيرًا كَانَ أَوْ كَبِيرًا، جزاء مضاعفا. حيث تتحول الحسنه الى عشر أمثالها.

ص: ٢٠٠

إشاره

بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِنْ هَذَا وَ لَهُمْ أَعْمَالٌ مِنْ دُونِ ذَلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ (٦٣) حَتَّى إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِمْ بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ (٦٤) لَا تَجْأَرُوا الْيَوْمَ إِنَّكُمْ مِنْنا لَا تُنصِرُونَ (٦٥) قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُثَلَّى عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ عَلَىٰ آعْقَابِكُمْ تَنْكِصُونَ (٦٦) مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَامِرًا تَهْجُرُونَ (٦٧) أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأُولِينَ (٦٨) أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ (٦٩) أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءَهُم بِالْحَقِّ وَ أَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ (٧٠) وَ لَوْ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَ الْأَرْضُ وَ مَنْ فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ (٧١)

اللغه

٦٧[سامرا]:السمر الحديث ليلا.

ص:٢٠١

هدى من الآيات:

فى سياق حديث سورة (المؤمنون) عن محوریه الحق فى الحیاة، یذكرنا القرآن بأن أولئك الكفار یعیشون فى غمرات الشهوات و الضلاله، یعیدین عن الحق، یمارسون أعمالا- إجرامیه، و یستمرون علیها حتى یأخذ الله مترفیهم (و هم قیاداتهم المفسدون) بالعذاب، فإذ بهم یضرعون من هول العذاب، و لكن من الذى یعذب فى الدنیا؟ انهم المترفون، الذین یأتیهم الخطاب: لا- تتضرعوا، فإن الضّراعه عند نزول العذاب لا تنفع، و لا ینصرهم الله. أ فلم یكونوا یتولون هار بین كلما تلیت علیهم آیات الله و هم یتكبرون بها، و عند ما یسهرون باللیالی یقولون: کلاما تافها ضدها؟! و لماذا الاستكبار على الحق، و لماذا لا یتدبرون فى القرآن لیجدوا انه یهدیهم الى الحق الذى دعا الیه كل الرسل و الصالحین (ممن تعترف البشر بفضلهم) و هذا الرسول یعرفونه بإخلاصه، و صدقه، و أمانته، فلما ذا ینكرونه، و هل یعقل ان یتولون

به جنه؟! كلا.. إنما سبب جحودهم له دعوته الى الحق، و الحق يكرهه أكثر الناس (بجهالتهم و اتباعهم للشهوات).

ثم إنّ الكون قد خلق وفق سنن و أنظمه، بعضها نعرفها نسميها القوانين الطبيعية. كجاذبيه الأرض، و انسياب النور، و انفلاق الحبه من التربه الصالحه، و بعضها الآخر قوانين غيبية مثل غفران الله للمذنبين التائبين، أو تعذيبه للمجرمين.

و سواء هذا أو ذاك، فان هذه القوانين هي الحق. الذى خلق الله وفقه السماوات و الأرض، و الذى لو زال و حلّ مكانه الهوى و الباطل لفسد الكون فى لحظه.

و على الإنسان أن يستجيب للحق الذى قامت به السموات و الأرض، و يكفينا دليلا على ذلك حياه الإنسان، فهو يعيش ضمن سنن لا يحيد عنها كالجوع، و العطش، و النوم، الا سنه واحده اعطى الاختيار فيها بين آلاف السنن و القوانين، بعد أن بيّن الله له أبعادها، و مع ذلك فانه قد يحطم نفسه و الأرض بهذا الاختيار.

و أنت أيها الإنسان اعتبر بهذه الحقيقه، فإنك لو أعرضت عن الحق، و اتبعت الباطل و الهوى فإنّ حياتك ستفسد، و ستفسد الآخرين.

بينات من الآيات:

[٦٣] بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِنْ هَذَا تَلْفَهَا الشَّهَوَاتِ، مِنْ كُلِّ جَانِبٍ، كَمَا لَوْ أَنَّهَا رَسَبَتْ فِي لُجَّةِ آسَنِهِ.

وَ لَهُمْ أَعْمَالٌ مِنْ دُونِ ذَلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ أَعْمَالِ الْإِنْسَانِ تَنْطَلِقُ مِنْ فِكْرِهِ وَ قَلْبِهِ، وَ مَا دَامَتْ قُلُوبٌ هَؤُلَاءِ مَغْمُورَةً فِي

الشهوات فإنها لا يصدر عنها الا السيئات، و لعل كلمه « مِنْ دُونِ ذَلِكَ » تشير الى هذه الحقيقه، أو الى ان الأعمال الاجراميه التي يمارسونها على فضاعتها تعتبر دون أفكارهم الضالّه، فإن خيث العقائد الفاسده أشد من خيث الأفعال المنكره.

[٦٤] حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ و لم يقل الله (حتى إذا أخذنا هم بالعذاب) وهذا التحويل فى لحن السياق القرآنى لعلّه يدل على فكره معينه هى أن الله لا يأخذ كل المغموره قلوبهم بالعذاب، بل يأخذ المترفين منهم، والآيات التى تلى هذه الآيه تفسرها، و هذه من خصائص السياق القرآنى أنه يفسر بعضه بعضا.

و الجأر هو: نهايه حاله الضراعه، و الطلب الملح.

[٦٥] و لكن ليس ينفع المترف دعاؤه حين يحل به العذاب.

لا- تَجَازُوا الْيَوْمَ إِنَّكُمْ مِنَّا لَا تُنصِرُونَ [٦٦] و الآيه التاليه، جواب على سؤال يفترض أنه يصدر عن المترفين، حين يجدون أنفسهم بين يدي العذاب، إذ يتساءلون عن سبب رد الله لاستجارتهم و تضرعهم، فيأتيهم الجواب:

قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ تَنْكِبُونَ ان الآيات القرآنيه و هى وقود الانطلاق و التقدم، يفترض انها تدفع الإنسان نحو الأمام، أما إذا كان قلبه مطبوعا بالتخلف و الانحراف فهى لا تنفع معه أبدا، بل تزيد طغيانا و كفرا، و النكوص على الأعقاب، كناية عن المشى القهقرى.

[٦٧] لذلك يقول القرآن:

مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ اى بالقرآن.

لِسَامِرًا تَهْجُرُونَ ان تكبر الإنسان على القرآن شىء، و تكبره بالقرآن شىء آخر- و هو أعظم- حيث تتحول هذه الرساله الإلهيه العظيمه إلى أداه للاستكبار، و هذا نقيض أهداف القرآن فى تحرير الإنسان من عبوديه الجبت و الطاغوت، و قد فسر بعضهم كلمه «به» هنا بالكعبه، حيث ان المشركين اتخذوها وسيله استكبارهم فى الأرض، بينما فسره البعض بالقرآن الذى تشير اليه كلمه «آيات» و تدل عليه كلمه «القول» فى هذا السياق.

و كانوا إذا جن عليهم الليل و اختلط ظلامه بنور القمر الهادئ، و هيئت لهم ظروف السمر، تحلقوا حول الكعبه، و أخذوا يتداولون كلاما هجرا، كأنه هذيان المرضى، لا يقصدون به معنى حقيقيا.

ذلك الكلام الفارغ الذى كان يكشف عن مدى غفلتهم و خوضهم فى غمرات -اللهو، و الهوى، و اللاهديه- أرداهم الى هذا الحضيض السافل من العذاب، الذى لا خلاص لهم منه. تدبروا فى حالتى -الجأر و الهجر..

[٦٨] أ فَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ فى مقابل هؤلاء نرى المؤمنين الذين يتدبرون القرآن، و التدبر من كلمه التدبر، أى النهايه فمن القرآن يبدأ المؤمن فيسير بعقله، و على ضوء الآيه، الى الحقائق، فيرى ماذا تريد الآيه و أين هو واقعها الخارجى، و تطبيقها الحى.

إن القرآن لم يكن بدعه، فهو امتداد لرسالات الله لبنى البشر. عبر الزمان و لا

حجّه لأولئك الذين يتصلون عن تطبيقه أو يتكبرون عليه، و يفرغونه من معانيه.

أمّ جاءهم ما لم يأت آباءهم الأولين ان البشر يقدر-عاده-السلف الصالح، و تزخر ذاكرته بقصص الأتقياء و المصلحين و فى طليعتهم الرسل و لكنّه-فى ذات الوقت-يكفر بالرسول الذى يأتیه بآيات الله، و يتساءل عن صحه رسالته، و انما هى تكميل للرسالات السابقه.

[٦٩] أمّ لم يعرفوا رسولهم فهم له منكرون كلاً..فالناس كانوا يعرفون رسول الله بصدقه و أمانته و أخلاقه، و الرساله التى جاءهم بها هى عينها التى تدعوا إليها عقولهم، و الله الذى يبعث بقرآن من السماء قد انشأ عقلاً فى داخل الإنسان يصدقه، فيعرف الإنسان أن الذى جاء به هو الحق، و هكذا يستطيع كلّ إنسان بشىء من التعقل ان يهتدى الى رسول الله، و ان الذى ينصحه هل هو رسول الله أم داعى الشيطان؟ و لكن بشرط أن يخرج من سجن الشهوات التى تغمره، و عند ذلك فقط سوف يرى الحقائق بوضوح.

[٧٠] أمّ يقولون به جنّه و هل هذا قول مجنون، و فيه من ينابيع الحكمه، و خزائن المعرفه، و برامج الحياه، ما يعجز عن اكتناحه أولو الألباب؟! و هل المجنون يفعل ما قام به الرسول من تنظيم الحياه الناس، ثم قياده المجتمع على أفضل وجه؟! بلّ جاءهم بالحقّ و أكثرهم للحقّ كارهُون كلاً..انهم يكرهون الحق و لذلك يجادلون فيه، و ينكرون الرسول الداعى

اليه، ولا يتدبرون فى القول الذى يحتويه و لماذا يكره الحق أكثرهم؟ لأنهم يعيشون فى غمره منه تحيط بهم شهواتهم، و هذا هو الفرق بين المؤمنين و الكافرين.

[٧١] وَ لَوْ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَ الْأَرْضُ وَ مَنْ فِيهِنَّ لَيْسَ فَقَطْ مِنَ النَّاحِيَةِ الْغَيْبِيَةِ الْإِلَهِيَةِ فَقَطْ، بل من الناحية الواقعية أيضا لأن الحق الذى تنزل به القرآن تعبير عن حقائق الإنسان و الحياه، فالعدل يقيم الحياه، بينما الظلم يؤدى بها إلى الدمار، و الصدق يعود على الناس بالنفع بينما الكذب يعود عليهم بالضرر، و هكذا سائر القيم السلبيه و الإيجابيه.

يَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ البعض يفسر هذه الآيه بان:القرآن جاء شرفا للناس، و لكنهم معرضون عن شرفهم، و هذا صحيح، اما التفسير الآخر-حسبما ارى انه أقرب-فهو ان القرآن جاء مذكرا لهم بما نسوه، و غفلوا عنه، و لكى ينورهم فلما ذا يعرضون عنه؟! و هذا التفسير تأكيد للفكره السابقه و هى: ان الله الذى يرسل رساله على يد رسول، أو دعه رساله اخرى فى قلب الإنسان، و انطباق هاتين الرسالتين دليل على صدق الرسول.

إشاره

أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَجَ رَبُّكَ خَيْرٌ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (٧٢) وَإِنَّكَ لَتَدْعُهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٧٣) وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْمَآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَكَاكِبُونَ (٧٤) وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ لَلْجُوعِ فِي طُعْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (٧٥) وَلَقَدْ أَخَذْنَاَهُمْ بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ (٧٦) حَتَّى إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْسُوتُونَ (٧٧) وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ لَكُمْ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ (٧٨) وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٧٩) وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٨٠) يَلِ لَّيْلٌ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ (٨١) قَالُوا أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ (٨٢) لَقَدْ وَعَدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَذَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (٨٣)

اللغه

٧٤[لناكبون]:أى عادلون و مائلون عن الحق.

٧٧[مبلسون]:آيسون من كل خير.

هدى من الآيات:

جاءت سوره (المؤمنون) لبت روح الايمان فى القلوب، و لكن القلوب المريضة لا تستقبل هذه الروح، إذ لا بد من شفائها اولاً، فى الدرس الماضى قرأنا كيف أن كراهه الحق الناشئه من غمرات الضلاله، أفرزت الجحود بالرساله، و هنا يساعدنا السياق لتجاوز العقبات التى تعترض طريق الايمان، و بالتالى يحجب إلينا (الحق) و يطهر القلب من وساوس الشيطان التى تصدنا عنه.

الأول: الخوف على الثروه، و يقول القرآن: انك لا تسألهم خرجاً، بل الله خير الرازقين، و انه سوف يبارك لهم فى ثروتهم لو اتبعوا الحق الذى جاء به الرسول.

الثانى: المحافظه على التقاليد، و يقول الذكر: أن سبيلهم ضال، و انك - يا رسول الله - تدعوهم الى الصراط المستقيم، و سبب ضلالتهم أنهم لا يؤمنون بالآخره، و فى آخر الدرس نقرأ تأكيداً على هذا السبب.

الثالث: لو كانت الرسالة حقًا، لكشف الله بها الضرّ، و لكن مقداراً من الضر يحافظ على توازن البشر الذى يطغى لو كشف الله عنه ضره، و بالرغم من العذاب الذى أخذهم الله به تراهم لا يسلمون لربهم، و لا يتضرعون اليه. حتى ينزل عليهم عذاباً شديداً، فإذا بهم فى ورطه و إبلاس.

بعد تطهير القلب من هذه الوسوس، يذكرنا الرب بنعمه التى لا تحصى.

أ و ليس قد أنشأ لنا السمع، و الأبصار، و الأفئدة. أ فلا نشكره؟! و هو الذى جعل البشر يتناسل فى الأرض، و بعد الموت يحشر من جديد، و بيده الحياه و الموت، و تدبير الليل و النهار، أ فلا- يكفى ذلك حجه لو انتفعنا بعقولنا؟! كلاً.. إنهم يقولون- كما قال آباؤهم الضالون- كيف يبعث الله من يموت و يصبح تراباً و عظاماً؟! انها أساطير الأولين. حيث قد وعدوا كما وعدنا نحن أيضاً بذلك! هكذا أصبح إنكارهم للبعث سبباً لجحودهم برسالات الله، و هكذا الإنكار- بدوره- نشأ من حاله الجهل، و استبعاد حياه الإنسان من بعد الموت. و كلمه أخيره: اننا نجد السياق ينتقل من الحديث عن العقبات فى طريق الايمان، و كيفية التغلب عليها، إلى الحديث عن آيات الله التى تهدينا اليه، و هذه هى الطريقه القرآنيه فى توجيه الإنسان الى ربه، و هى تختلف عن الطرق البشريه، فالطريقه القرآنيه تعتمد على مرتكزات من بينها و أهمها الأسلوب الوجدانى، فالإنسان خلق على فطره الايمان، و الله هو أجلى و أظهر حقيقه فى هذا الكون، و فطره الإنسان تدعوه إلى الله:

« فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ ».

و لكن لماذا لا يؤمن البشر؟ لأن بينهم و بين الله حجبا. كحجاب الغفله، و حجاب الشهوه، و حجاب التقليد، و حجاب الخوف، أو الرجاء فى الأمور الدنيويه، و حجاب الشك فى الآخره. و يجب على الإنسان أن يتحدى هذه الحجب بإرادته، و بتذكير الله-عبر رسله-لكى يصل الى معدن الايمان، و نور الله البهى.

و هذه النظرة القرآنيه نجدها موزعه فى كتاب الله، و المتدبر فى القرآن يجد هذا الأسلوب فى توجيه الإنسان إلى الله واضحا فى آيات الذكر الحكيم، و الذى أسميه بالاسلوب الوجدانى الذى يبدأ بتزكيه القلب، و إجلاء الدرن و الصدأ عنه، و يكشف عن الحجب ليتصل بنور معرفه الله بصوره مباشره، و آتئذ نعرف معنى

قول الامام على عليه السلام :حين يسأله رجل قائلا:يا أمير المؤمنين أو رأيت ربك؟قال:

«ويحك! و كيف أعبد ربًا لا أراه؟!» قال السائل: كيف رأيت؟ قال: «لا تدركه الأبصار بملاحظه العيون، و إنما تدركه القلوب بحقيقه الايمان».

بينات من الآيات:

[٧٢] من العقبات التى تعترض طريق البشر إلى الإيمان هو زعمه: بأن ايمانه سيكلفه التضحيه بالمال، دون ان يعلم بأن الايمان يدفع المجتمع لانتهاج شريعته متكامله توفر له التعاون، و العداله، و النشاط، و فى مثل هذا المجتمع يستطيع الإنسان كسب المزيد من الثروه، و المزيد من السعاده، و لو أنه حسب ما ينفقه فى سبيل الله خمسا، أو زكاه، أو نشاطا، خساره و مغرما، فلأنه لا يعلم بأن تدوير الثروه و توزيعها بالعدل يساعد على نشاط المجتمع، و بالتالى على نموه الاقتصادى.

إن نظره الإنسان للحياه من خلال معرفته بربه، تعرفه بأن عطاءه و إنفاقه فى سبيل الله لا ينقصه شيئا، بل يزيده مالا و سعاده، ذلك انه سيكتشف عبر هذه

المعرفة بأن الله لا يحتاج الى ماله ولا نشاطه، و انما ينفق ذلك لنفسه، و لتدوير الثروه، و توزيعها العادل، و لتطهير قلبه من درن البخل، و المجتمع من آفه الطبيه.

أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجًا شَيْئًا يَنْفِقُونَهُ وَ كَأَنَّهُ يَخْرُجُ مِنْ أَمْوَالِهِمْ، وَ هُوَ يَقَابِلُ (الدخل).

فَخَرَّاجٌ رَبِّكَ خَيْرٌ كَيْفَ يَطْلُبُ النَّبِيُّ الْمَشْمُولُ بِرِكَهَ اللَّهِ، وَ فِيضُ عَطَائِهِ مِنَ الْبَشَرِ الضَّعِيفِ الْفَقِيرِ شَيْئًا، بَلْ مَاذَا تَعْنَى ثَرَوَهُ الدُّنْيَا عِنْدَ نَبِيِّ تَضَاءَلَتِ الشَّمْسُ وَ الْقَمَرُ أَمَامَهُ.

وَ هُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ فَاللَّهُ الرَّزَاقُ، الَّذِي لَا حُدَّ لِعَطَائِهِ، وَ لَا ذَلَّةَ، وَ هُوَ الْغَنَى الْحَمِيدُ.

[٧٣] وَ إِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ انك ايها الرسول تدعوهم الى انتهاج برامج صائبه لحياتهم. تتمثل فى الصراط المستقيم الذى يصل بهم لو اتبعوه الى أهدافهم، و مشكله الإنسان فى كثير من الأحيان انه يعرف هدفه، و لكنه يفتقر الى الطريق و الوسيله الصائبه فى بلوغه، و رسالات الله تهديه الى السبيل الأقوم إلى أهدافه الفاضله.

و أظهر مصاديق-الصراط المستقيم-بل و ميزان الصراط المستقيم.القيادة الرشيده، و الامام العادل الذى نصبه الله للناس علما، يميزون الحق به عن الباطل، و هو متمثل فى شخص الرسول، و الائمة المعصومين من بعده عليه السلام و العلماء بالله.

الأمناء على حلاله و حرامه من بعدهم،

و قد جاء فى حديث مأثور عن النبى -صلى الله عليه و آله- انه قال لعلى -عليه السلام -:

«من أحبك لدينك، وأخذ بسبيلك، فهو ممن هدى إلى صراط مستقيم، ومن رغب عن هداك، وأبغضك و انجلاك، لقي الله يوم القيامة لا- خلاق له.» (١) [٧٤] وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنُكَيِّبُونَ ذَلِكَ أَنْ الْإِيمَانَ بِالْآخِرَةِ يَشْكَلُ حَجْرَ الزَّوْأِيهِ فِي كِيَانِ الْإِنْسَانِ الْعِلْمِي، أَوْ لَيْسَتْ مَعْرِفَةُ النِّهَايَةِ تَسَاهِمُ فِي مَعْرِفَةِ حَقَائِقِ الْحَيَاةِ، وَمَنْ لَا يَعْرِفُ حَقِيقَةَ الدُّنْيَا، يَزْعَمُ أَنَّهَا دَارُ رَاحَةٍ، وَجِزَاءٍ، وَحِينَ لَا يَجِدُهُمَا فِيهَا يَزْدَادُ شَقَاءً، وَمَنْ لَا يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ لَا يَعْرِفُ هَدْفَ الْحَيَاةِ، فِيهِمَا مَا يَضُرُّهُ وَلَا يَنْفَعُهُ، أَوْ يَهْبِطُ إِلَى مَسْتَوَى الْعَتْوِ، وَقَدْ يَنْتَحِرُ، لِأَنَّهُ لَا يَجِدُ طَعْمًا لِحَيَاتِهِ، وَمَنْ لَا يَعْتَقِدُ بِالْآخِرَةِ يَتَوَغَّلُ فِي عِبَادَةِ الشَّهْوَاتِ، وَيَحْتَجِبُ بِهَا عَنِ مَعْرِفَةِ اللَّهِ، وَلَا يَلْتَزِمُ بِشَرَائِعِهِ وَلَا يَهْتَدِي بِرِسَالَاتِهِ، فَهُوَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ، وَلَعَلَّهُ لِذَلِكَ لَمْ يَقُلِ الرَّبُّ: إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ، بَلْ قَالَ: «وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ».

[٧٥] وَمَاذَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِالْإِنْسَانِ حِينَ يَتَنَكَّبُ عَنِ الصِّرَاطِ؟ هَلْ يَرْزُقُهُ النِّعْمَ وَيَرْحَمُهُ، فَإِذَا بِهِ يَتَوَغَّلُ فِي الطُّغْيَانِ؟! أَمْ يَنْزِلُ عَلَيْهِ النِّقْمَةَ فَإِذَا بِهِ لَا يَرْتَدِعُ وَلَا يَتَضَرَّعُ إِلَى اللَّهِ؟! وَ لَوْ رَحِمْنَا هُمْ وَ كَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِنْ ضُرِّ كَالْفَقْرِ، وَ الْمَرَضِ، وَ الْخَوْفِ.

لَلْجُؤِ فِي طُّغْيَانِهِمْ يَعْْمَهُونَ

ص: ٢١٤

لَجُوا بمعنى: دخلوا و توغلوا، و الله يشبه الطغيان في هذه الآية كما النفق الموحش، و هؤلاء بدل أن يرجعوا عن المسير فيه، كلما رحمهم الله تراهم يتوغلون فيه أكثر فأكثر، فيفقدون بصرهم و بصيرتهم.

و الواقع ان من العقبات التي تعترض طريق الايمان هو موقف الإنسان من النعم، فاذا رزقه الله نعمه طغى، و زعم: أن طغيانه هو السبب فيها، كما تزعم الدول الاشتراكية المتقدمة: ان نظامها الاقتصادي، و إيديولوجيتها المنحرفة هي السبب في تقدمها، أو كما تزعم الأخرى الرأسمالية: ان نظامها سبب تقدمها و حضارتها، و قد ملأوا الدنيا ضجيجا بأن الاقتصاد الحر هو سبب التقدم.

بينما نجد الرأسمالية حين زرعوها في العالم الثالث، لم تثبت الا مزيدا من التخلف، و كذلك الاشتراكية حين حقنوا بها العالم النامي، لم تلد سوى الدمار، و هكذا عرفنا بأنه لا الاشتراكية و لا الرأسمالية هما سببا تقدم هذه الدوله أو تلك.

و العمه هو: العمى الذي يصيب الشخص منذ ولادته، فلا يستطيع ان يميز شيئا أبدا، بينما الذي يدركه العمى بعد أن يكون بصيرا مده من الزمن، فانه قد يستطيع ان يميز بعض الأشياء، اعتمادا على ذاكرته و حواسه.

[٧٦-٧٧] و كذلك لو أخذهم الله بألوان العذاب، فإنهم لا يرجعون عن انحرافهم، و لا يتضرعون اليه، بل تجدهم يعتمدون على هذا و ذاك من دون الله، فالمجاعة يكون حلها عندهم بالاعتماد على معونات الانظمة الكافره. بدل ان يكون علاجها بالعودة الى الله، و التضرع اليه، و تغيير الذات، و السعى، و التعاون، و العلم، و العدالة.

وَ لَقَدْ أَخَذْنَاَهُمْ بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَ مَا يَتَضَرَّعُونَ

جاء فى روايه عن الامام الباقر عليه السلام :-

«الاستكانه هو الخضوع، و التضرع هو رفع اليدين، و التضرع بهما. » (١) هناك نوعان من العذاب:

١-عذاب الابتلاء: و هدفه تغيير الإنسان « فَأَخَذْنَا هُمْ بِالْبُتَّةِ وَأَصْرَاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ » و عاده لا- ينتفع البشر بهذا النوع من العذاب.

٢-عذاب الانتقام: و هو إذا انزل فلا مردّ له، كالعذاب الذى حل بفرعون و قومه، لأنه آمن متأخراً، و من دون فائده. و هذا النوع من العذاب يهز الإنسان من الأعماق الى درجه انه يبلس، اى تختلط مشاعره، و يبقى فى حيره، و لا يعرف كيف يتصرف.

حَتَّىٰ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ [٧٨] و بعد ان ذكرنا القرآن بالعقبات التى تعترض طريق الايمان، يذكرنا الآن بالله و آياته، فالإنسان إذا عرف العقبات و الحجب التى تمنعه من الايمان، و تحداها بقوه الإراده، و بتذكرة الله، فانه يكون آنئذ مستعداً للتذكرة بالله، و يفهم القرآن، و يزداد به إيماناً.

وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ لَكُمْ السَّمْعَ وَ الْأَبْصَارَ وَ هُمَا نَافَذَتَا الْعَقْلَ عَلَى الْمَعْرِفَةِ.

وَ الْأَفْئِدَةَ

ص: ٢١٦

و هي أهم من السمع و الأبصار، لأنه لو عطب عن العمل فلن ينفعا أبدا، إلا أننا قلما نشكر الله على هذه النعم.

قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ [٧٩] وَ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ذرأ بمعنى: خلق و أظهر، و لعل كلمة «في الأرض» للدلالة على أن التراب كان أصل خلقه البشر، و أن اليه يعود، و منه ينتشر، و يحشر تاره أخرى.

[٨٠] وَ هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ ان العالم مع ما فيه من تقدم تكنولوجيا، عاجز بأسره ان يضيف إلى الإنسان لحظه واحده من الحياه، لأن هذا الأمر بيد الله وحده، و هو الذى يميت أيضا، و ليس الإنسان وحده الذى يخضع لإرادته الله، بل لا تجد ظاهره فى هذا الكون إلا و هي تنتهى اليه.

و لَهٗ اٰخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَ النَّهَارِ أَ فَلَا تَعْقِلُونَ فالليل و النهار يتعاقبان، ليس فقط فى التناوب الزمنى، و انما أيضا فى القصر و الطول، و من أوتى البصيره، و نظر بعين قلبه الى إتقان تدبير الله فى الليل و النهار تبصر أيضا بمعنى الحياه و الموت، و قدره الله المهيمنه عليهما.

[٨١] الإنسان يهتدى لهذه الحقائق حينما يستفيد من عقله، اما حين يعطله بالأسباب المختلفه، كتقليد الآباء، فانه أبعد ما يكون عن استيعاب هذه الحقائق الواضحه و القريبه منه.

بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ

[٨٢]ماذا قال الأولون؟ يرجعنا القرآن هنا الى السبب الجذرى لعدم إيمان هؤلاء، و هو الكفر بالآخره، و الذى سببه التشكيك أو الكفر بقدره الله، و إرادته اللامحدوده.

قَالُوا إِذَا مَا كُنَّا تُرَابًا وَ عِظَامًا أَ إِنَّا لَمَبْعُوثُونَ يَتعجبون كيف أن العظام الرميم تصير بشرا سويا؟! [٨٣] لَقَدْ وَعَدْنَا نَحْنُ وَ آبَاؤُنَا هَذَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ لقد زعموا بأن هذه الحقيقه أفكار رجعيه متخلفه، و نسوا أن مبدأهم كان من التراب، و ان الذى خلقهم أول مره لقادر على بعثهم من التراب مره اخرى.

ص: ٢١٨

أشاره

قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٨٤) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (٨٥) قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (٨٦) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ (٨٧) قُلْ مَنْ يَبْدِئُ مَلَكُوتَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٨٨) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ (٨٩) بَلْ أَتَيْنَاهُم بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (٩٠) مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ (٩١) عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ (٩٢) قُلْ رَبِّ إِمَّا تُرِيئِنِي مَا يُوعَدُونَ (٩٣) رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٩٤) وَإِنَّا عَلَىٰ أَنْ نُرِيكَ مَا نَعِدُهُمْ لِقَادِرُونَ (٩٥) اذْفَعِ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةِ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ (٩٦) وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ (٩٧) وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ (٩٨) حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ (٩٩) لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ (١٠٠)

اللغة

٩٨ [يٰٓحٰضِرُونَ]: اٰى يٰشٰهَدُونَ و يٰقَارِبُونَ و يٰصَدِّقُونَ عَن طَاعَتِكَ.

ص: ٢٢٠

هدى من الآيات:

لقد مهد السياق القرآن في سورة (المؤمنون) للتذكير بالله سبحانه ببيان العقبات النفسية التي تعترض سبيل الإيمان، وبعدها جاءت الآيات تستثير أعظم مشاعر الإنسان الفطرية. تلك التي تهديه لربه وخالقه. عبر تساؤلات فطرية.

تفرض نفسها على وجدان الإنسان فرضاً، فمن الذى خلق السموات والأرض؟ ومن بيده حاكمية هذه السماء المترامية الأطراف، والكون الذى لا نعلم حدوده؟ ومن هو صاحب القدره العليا علينا، فإنه يلتجئ الناس عند الشدائد؟ وتجب الآيات على هذه التساؤلات بوضوح: انه (الله) القاهر فوق كل شىء، وليس كمثل شىء، وتوجه اليه قلوب الناس بفطرتهم التى خلقهم الله عليها، وكما

قال الرضا عليه السلام:

«بالفطرة تثبت حجته». (١)

ص: ٢٢١

اذن فما العائق امام ذكر الله؟ وما هي العقبه التي تقف أمام التقوى، و تجعلنا غافلين مره، و مسحورين أخرى، قد فقدنا الإراده نتيجة لضغوط مختلفه داخلية و خارجيه، بل قد نهوى الى حضيض التكذيب و الشرك.

هذا التسلسل الباطل يتدرج عبره الإنسان خلال مراحل هي:

١- الغفله: فعند ما يغفل الإنسان فإنه يضع لبنه الأساس للحاجز الذي يحول بينه و بين كنه الحقيقه المنشوده، فينسيه أبرز حقيقه في هذا الكون الواسع، التي يقول عنها تبارك و تعالى:

« قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَ فِي اللَّهِ شَكٌّ فَأَطِرِ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ !؟ ». (١)

مما يمهد للهوى و الشهوه ان يسدلا ستارهما امام نور العقل، و ضياء الفطره.

٢- و الذي يجعلنا لا نتقى عذاب الله و سخطه بالتقوى، هي حجب الغفله و الشهوه التي تجعل الإنسان يتخبط في ظلام الجهل و العناد مخالفا أوامر عقله، و وخزات ضميره، و صرخات وجدانه.

٣- السحر: و هي مرحله فقدان الإراده الانسانيه، و الوعي البشري، حيث أن الضالين يحاولون تضليل الآخرين، فيؤثرون على فئه من الناس بمعتقداتهم، التي ضلوا بها عن الله، فيجعلونهم يرتكسون في بؤره الغفله و الشهوه، لتسلب عنهم مشاعرهم، فالأعين عمياء لا تبصر الحقيقه، و الأذان صماء لا تسمع وحي الله- سبحانه- و حقائق الحياه، و الألسن بكفاء لا تتكلم، الا في مجال اللهو و العبث، و الاهتمامات الشخصيه، و المشاعر الأنانيه، فيدفعهم كل ذلك للمرحله الاخيره من مسيره التسافل و السقوط.

ص: ٢٢٢

١- ١) سورة إبراهيم ١٠.

٤-التكذيب:و نسال أنفسنا لماذا نكذب بهذه الحقيقه الواضحه،و نكفر، و نسخر بهذه العقيده الراسخه فى اعماق النفس البشريه و نحن على وعى و ادراك بهذه المسأله؟! و لكن الخالق البارئ يرجع المسأله لعواملها الأوليه،و يلقى بمسؤوليه الانحراف على نفس الإنسان فيقول:

« قَدْ جَاءَكُمْ بِصَائِرٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَ مَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَ مَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ » . (١)

٥-و تبقى هناك عقبه كأداء و هى عقبه الاعتماد على الآلهه المزيفه،التي خلقتها شهوات النفس،و ظلام الجهل لتبرير واقعها المعاش،و الإعتقاد بان لله ولدا،أو وسائل أخرى توصل اليه-سبحانه-غير التي بينها لهم،و بأن هناك آلهه صغارا يمكن ان يشفعا للإنسان من دون الله،و يحجهم-سبحانه-بقوله:انه لا يتخذ ولدا،و أنتم تعلمون أيها البشر بفطرتكم،و بهدى عقولكم بأن الله هو مالك السموات و الأرض،و صاحب العرض العظيم،و عالم الغيب و الشهاده،و الظاهر، و الباطن.فكيف لا يعلم بوجود ولد له أو شريك؟!و انكم انما تخذعون أنفسكم، و تتوهمون،و تزعمون بوجود شركاء الله أو أولاد،لتخلصوا أنفسكم،و تنقذوها من غضب الله.

هذه هى الحجب الخمس و المتدرجه التي لا بد ان يخرقها المؤمن بإرادته-بعد ذكر الله-ذلك مما نستوجبه من السياق فى هذا الدرس حيث يقول ربنا:« أَفَلَا تَدَّكَّرُونَ »اشاره الى حجاب الغفله،و يشير الى حجاب الشهوات بقوله:« أَفَلَا تَتَّقُونَ »و الى حجاب التضليل و الإسحار بقوله:« فَأَنَّى تُسْحَرُونَ »و حجاب

ص:٢٢٣

التكذيب: «وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ» و بالتالى الى أكبر الحجب و اخطرها و هو الشرك فيقول سبحانه: «فَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ».

ان هذه الوسواس من همزات الشياطين، و الهمزه مفرد همزات، و هى: الدفعه القويه، و الشيطان يدفع بالإنسان نحو الكفر، و الشرك بالله دفعا قويا، فعلى الإنسان-الضعيف، الغافل، الظلوم، الكفار- ان يتوسل بقوه الله و قدرته، ليقيه شر هذه الهمزات لأنه لا حول له و لا- قوه الا- بالله العلى العظيم، و من دون التوكل على الله، و الاعتماد عليه و الاستعاذه بقوته و الاعتصام بكلمته العليا، فإنه سينهار أمام هذه الدفعات النفسيه الشهوانيه للشيطان- و صدق الله العلى العظيم- حينما يقول:

وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ * وَ أَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ . (١)

و يلعب الشيطان دورين فى حياه الإنسان:

الاول: دفعه نحو الاعتقادات الخاطئه، و الممارسات المنحرفه، و لو بشكل تدريجى.

الثانى: الحضور الدائم له فى النفس البشريه، و دور المراقبه و المرافقه. حيثما تحرك و تفكر، و على الإنسان ان يستعيذ دائما بالله من الشيطان، و الوسواس الخناس، و اللجوء الى حصن الله، و التمسك بحبله، و عروته الوثقى.

و لكن كيف يستعيذ الإنسان بالله من الشيطان؟ و كيف يتجاوز عقبه الشرك و الاعتقاد بأن هناك قوه أخرى فى هذا الكون تطاول

ص: ٢٢٤

قدره الله سبحانه و تعالى؟ ان العلاج النفسى لهذه العقبه هو تذكر الآخره،و عذاب القبر و البرزخ.

و من كلام لأمير المؤمنين-عليه السلام-لمحمد بن أبى بكر(رض)عن الموت و عذاب القبر :

«يا عباد الله ما بعد الموت-لمن لا يغفر له-أشد من الموت و القبر،فاحذروا ضيقه،و ضنكه،و ظلمته،و غربته،فأن القبر يقول كل يوم:انا بيت الغربه.انا بيت التراب.انا بيت الدود و الهوام،و القبر روضه من رياض الجنه،أو حفره من حفر النار.»

و فى مقطع آخر يقول :

«يا عباد الله إن أنفسكم الضعيفه،و أجسادكم الناعمه الرقيقه.التي يكفيها اليسير تضعف عن هذا،فان استطعتم ان تجزعوا لأجسادكم و أنفسكم بما لا طاقه لكم به،و لا صبر لكم عليه فاعلموا بما أحب الله،و اتركوا ما كره الله.»

و يصور لنا القرآن مشاهد كثيره من مشاهد الآخره،إذ يصور الإنسان عند ما تحضره الملائكه لقبض روحه،فيصيح و يقول:

« رَبِّ ارْجِعُونِ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ .»

فهو يتمنى ان يعود للدنيا أياما معدودات،يصرف فيها جميع طاقاته، و ممتلكاته،و قدراته فى سبيل الله،فيصرف أمواله صدقه،و قوه جسمه للعمل الصالح،و فصاحه لسانه للدعوه و ذكر الله،و عينه للاعتبار بخلق الله،و البكاء على ذنوبه التى اقترفها،لكن الجواب صارم،صاعق.لو نزل على جبل لهده.انها كلمه كلا..و ان الفرصه قد انتهت،و سنين حياتك قد انصرفت.دون عوده.

اما كم يعيش الإنسان؟ و متى تكون الساعه؟ فالله وحده هو العالم و لا- عالم غيره، و هذه الحقيقه تكشف لنا أن هذه الآلهه المزيفه التي يعتقد الإنسان بأنها شريكه، و امتداد لقدره الله و قوته، يجب ان تسقط من أعيننا، و تتحطم فى داخل نفوسنا، لنعبد الله مخلصين، له الدين، و لو كره المشركون.

بينات من الآيات:

[٨٤] قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ان كنتم تستفيدون من علمكم-و الاستفاده هى معيار الجهل و العلم-فالعلم يعطيه الله لمعظم الناس-و لو بقدر محدود-و لكن متى يكون الإنسان عالما فقط؟ عند ما يستفيد من علمه و إلا فهو جاهل، و لو سألتهم من خالقكم و مالكم-و ما تحويه هذه السموات و الأرضون-و من بيده الحاكميه العليا؟ انه الله حيث يقول:

إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ يَقْضُ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ . (١)

و الذى عنده القدره التنفيذيه المطلقه فى الكون الواسع، لا يملك الإنسان امامه الا التسليم و الخضوع.

[٨٥] سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ اذن فلما ذا يحجزكم حجاب الغفله عن هذا الرب العظيم، الذى يملك الأرض و من فيها؟! و هذه الكلمه لا تختص بالآخرين، بل بنا جميعا، لأننا لا نزال نخلد إلى أرض

ص: ٢٢٤

الغفله، و قد نتذكر ما دنا في أجواء التذكرة، و لكن عند ما تواجهنا شهوة أو يصادفنا غضب أين يصبح ذكر الله؟! حينها تلتجئ النفس البشرية في خلق الأعذار و التبريرات لتلقى عن كاهلها نبعه المسئولية، و لذلك جعل الله سبحانه ذكره مستحبا شرعا، و جعل من ذكره- من المؤمنين- حين قال:

الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ . (١)

ففي جميع الحالات المادية، و الظروف النفسية، يجعل الله ذكره ضرورياً.

و نسأل: ما هو الذكر الذي تعنيه الآيات؟ ان الذكر هو تذكر الله حين تهتم بالمعصية، أو تشرع في ارتكاب الخطيئة. حينما تجد من يعاتبك داخل وجدانك على ما تفعل، فلا بد ان تذكر الله لتحسم صراع النفس لصالحها، اما حين تفقد الذكر يموت الوجدان، و ينتهي الإحساس، فتميل الكفة لصالح الارادة الشريره في نفس الإنسان.

[٨٦] قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ اللَّهُ رَبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ، لأنه خلقها، و أكمل خلقها، طورا فطورا، و اجرى الخلق كما الطفل عند ما ينمو، و يكبر، فهو الذى خلقها، و هو المسيطر عليها، و المهيمن الذى يجرى عليها سلطانه، و قوانينه، و انظمتها، و العرش يعنى: السلطه الفعلية على الكون، و بهذا التساؤل تكمل مسيره الاستدلال المنطقيه على وجود الله مخاطبا بها العقل البشرى، و الفطره الانسانيه.

ص: ٢٢٧

[٨٧] سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ يجب ان يخشى الإنسان من بيده السلطه، فلما ذا لا تخلع حجب التحدى و العناد و التكبر؟! و الخشيه هي الحجاب الفاصل بين التقوى و الانحراف، و الايمان و الكفر.

[٨٨] قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ الْمَلَكُوتِ مَبَالِغُهُ فِي الْمَلِكِ، كَمَا الْجَبْرُوتُ مَبَالِغُهُ فِي التَّجْبِيرِ، وَ الطَّاغُوتُ مَبَالِغُهُ فِي الطَّغْيَانِ، وَ مَلِكِ اللَّهِ يَشْمَلُ مَا يَظْهَرُ وَ مَا يَخْفَى، لَا كَسَائِرِ الْمُلُوكِ وَ السَّلَاطِينِ الَّذِينَ يَهَيِّمُونَ عَلَى ظَاهِرِ النَّاسِ دُونَ بَاطِنِهِمْ.

وَ هُوَ يُجِيرُ وَ لَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ان الله قادر ان يمنع الآخرين عنك فيجبرك، و لكن لا يستطيع أحد ان يمنع عذاب الله و انتقامه عنك. لو أراد ذلك، و هناك فكره تنقل عن أفلاطون و هي: إذا كانت السماء قوساً، و البلاء سهماً، و الرامى هو الله فأين المفر؟! و قد نقلت هذه الفكره الى رسول الله صلى الله عليه و آله فنزلت الآيه «فَقَرُّوا إِلَى اللَّهِ» و فرق بين الفكره الاولى السلبيه، و الثانيه الايجابيه التي تدعونا ان لا نقف مكتوفى الأيدى حين نرى البلاء، بل نلجأ الى الله، فنفر من الرامى اليه، و من غضبه الى رحمته. فنقرأ

فى الدعاء المأثور: «من أين لى الخير و لا- يوجد إلا- من عندك؟! و من أين لى النجاه و لا تستطاع الا بك؟! الا الذى أحسن استغنى عن عونك و رحمتك، و لا الذى أساء و اجترأ عليك خرج عن قدرتك.»

[٨٩] انك لو سألتهم عن كل ذلك:

سَيَقُولُونَ لِلَّهِ

ص: ٢٢٨

بفطر تهم.

قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ تُخَدَعُونَ مِنْ قِبَلِ الْآخِرِينَ، وَ تَسْلُبُ مِنْكُمْ مَشَاعِرَكُمْ، وَ إِرَادَتَكُمْ.

[٩٠] بَلْ أَتَيْنَاهُم بِالْحَقِّ وَ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ وَ الكذب مرحله خطيره من الكفر و الجحود، حيث ينكر البشر الحق لا عن جهل به، و انما عن وعى بأنه الحق.

[٩١] و من أكبر كذبهم ادعائهم بأن لله ولدا أو شريكا، و القرآن ينفي هذه الكذبه إذ يقول:

مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَ مَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ «من» تفيد الحصر، و الآيه ردّ على الذين يزعمون بان: الله منح قدرته و سلطانه لبعض الناس دون بعض، و لو افترضنا أن مع الله آلهه أخرى:

إِذَا لَمَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَ جَعَلَ لَخَلْقِهِ نِظَامًا خَاصًا بِهِ، وَ لَكِنَّا نَجِدُ أَنَّ النِّظَامَ الَّذِي يَحْكُمُ الذَّرَّةَ هُوَ الَّذِي يَحْكُمُ المَجْرَةَ، وَ لو صح ما يزعمون لحدث التناقض بين هذه الآلهه.

وَ لَعَلَّا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَ مَا دَمْنَا نَلْمَسُ وَ حِدَةَ النِّظَامِ وَ الخلق. اذن فالاله واحد لا شريك له، و نجد فكره تعدد الآلهه منتشره فى الأساطير اليونانية بكثره، و الكفره العميقه فى هذا المقطع من الآيه هى: انه لو كانت توجد الهه غير الله لكان لكل إله قدره ذاتيه،

و لسعى لمد قدرته و سيطرته من أجل الهيمنه على غيره، و لاستحالت الحياه، و لأدى ذلك الى فساد الكون.

« لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا. »

سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ وَ هُوَ أَنزَهُ وَ أَقْدَسُ مِمَّا يَصِفُهُ هَؤُلَاءِ.

[٩٢] عَالِمِ الْغَيْبِ وَ الشَّهَادَةِ فَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ وَ لَوْ كَانَ ثَمَّ آلِهَةٌ غَيْرُهُ لَكَانَ أَدْرَى بِهَا، لِأَنَّهُ ذُو الْعِلْمِ بِمَا غَابَ وَ مَا حَضَرَ.

[٩٣] قُلْ رَبِّ إِمَّا تُرِيدُنِي مَا يُوعَدُونَ حَيْثُ وَعَدَ الْكُفَّارُ وَ الْمُشْرِكِينَ بِالْهَزِيمَةِ وَ الدَّمَارِ.

[٩٤] رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ فَالْبَلَاءُ إِذَا نَزَلَ عَمَّ، وَ لَا سَبِيلَ لِلتَّخْلِصِ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ النَّازِلِ عَلَى الظَّالِمِينَ وَ الْمُشْرِكِينَ، إِلَّا الْإِنْفِصَالَ عَنْهُمْ، وَ نَكَرَانَ أَعْمَالَهُمْ. لَا السَّكُوتَ عَنْهَا لِأَنَّ اللَّهَ يَقُولُ:

« وَ اتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً. »

[٩٥] وَ إِنَّا عَلِيمٌ أَنْ نُرِيكَ مَا نَعِدُهُمْ مِنَ الْعَذَابِ وَ الْإِنْتِقَامِ.

لِقَادِرُونَ

ص: ٢٣٠

[٩٦] و لكي تتخلص من العذاب، و لا تشرك مع الظالمين، يجب ان تواجه انحرافهم بالاستقامه على الحق، و ذنوبهم بالطاعه لله. و لعل الآيه تعتبر صوره جليه للتحدى، و آيه واضحه لعزه الله و قدرته، و عزه المؤمنين به، و قدرتهم فى مواجهه أعداء الدين.

إِذْفَعِ بِأَلْتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةِ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ صَاحِبِ ان الله قادر على دفع عاديه الكفار، و صحيح انه يفعل ذلك متى ما اقتضت حكمته البالغه، و لكن ينبغى الا يسبب ذلك فى إساءه خلق المؤمنين، و تجبرهم فى الأرض، بل لا بد ان يتمتعوا بأخلاقه ساميه فى التعامل مع الآخرين، و الصبر على أذاهم و تحمل الصعاب الشخصيه دون تبليغ الدعوه.

[٩٧] وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ وَ الهمزات هى الدفعات، التى يقوم بها الشيطان لتضليل الناس و اغوائهم، و ليس ضروريا ان يكون الشيطان ذلك الموجود الخفى الذى نتصوره، بل قد يتجسد فى صوره شهوه عارضه، أو إنسان منحرف يحاول التأثير عليك سلبيا.

[٩٨] وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ يَجِبُ عَلَى الْمُؤْمِنِ ان يفر من مجالس الشياطين-الانس، و الجن- كمجالس المعصيه، و الحديث على الناس.

[٩٩] ان الإنسان الذى لا يستعيد بالله من الشيطان فى الدنيا، و لا يتقى الله.

يدركه الندم حين لا ينفذ الندم، لذلك بعد ان حذر الله من الشيطان يتعرض لحال الإنسان المنحرف حين الموت قائلا:

حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ بِصِيغَةِ الْجَمْعِ تَعْظِيمًا لِلَّهِ لَعَلَّهُ يَعيدُهُ مَرَّةً أُخْرَىٰ لِكَيْ يَبْنِي لَهُ مُسْتَقْبَلًا جَدِيدًا بِمَا يَمْلِكُ مِنْ طَاقَاتٍ.

[١٠٠] لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ و لكن يا للحسرة و الندامة، إذ يأتيه الجواب:

كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا و لو أُعيد لما تغير، و كان حري به ان ينتفع برسالة الله، و بفرصة الدنيا لينقذ نفسه.

وَمِنْ ورائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ

ص: ٢٣٢

إشارة

فَإِذَا نَفَخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ (١٠١) فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٠٢) وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ (١٠٣) تَلْفَحُ وُجُوهُهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالْحِونِ (١٠٤) أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتلى عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ (١٠٥) قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ (١٠٦) رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ (١٠٧) قَالُوا إِخْسُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ (١٠٨) إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَإِرْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ (١٠٩) فَاتَّخَذُوا تُمُوهُمْ سِحْرِيًّا حَتَّى أَنْسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ (١١٠) إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ (١١١) قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ (١١٢) قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسئَلُ الْعَادِّينَ (١١٣) قَالَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (١١٤) أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ (١١٥) فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ (١١٦) وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ (١١٧) وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ (١١٨)

اللغة

١٠٤ [كالحون]: الكلوح تقلص الشفتين عن الأسنان حتى تبدو.

١٠٨ [إخسوا]: خسأت فلانا إذا زجرته ليتباعد و معناها تباعد تباعد.

هدى من الآيات:

موقف السخريه من رسل الله أشد المواقف خطوره، و هو نابع من حاله اللامبالاه و الزعم بان الخلق عبث لا هدف له، و يبدو ان هذا المدرس الأخير من سوره المؤمنون، يعالج هذا الموقف، بتذكير البشر بالحساب الدقيق ثم الجزء الأوفى الذى ينتظره بعد الموت.

و يبين السياق:

أولاً: ان تلك العلاقات التى كانت سببا للجحود و الابتعاد عن الله، سوف تنتهى يوم القيامه (فلا أنساب بينهم)، اذن يجب على الإنسان ان لا توقفه هذه العقبه عن الايمان.

ثانياً: ان المقياس الحق لتقييم الإنسان نفسه، هو الميزان الذى يجسد القيم الحقيقه التى فطرت عليها العقول، و تذكر بها رسالات الله، و هو الذى نعرف عن

طريقه هل أننا بخير أم على شر، فإذا ثقلت موازين الإنسان، وكانت صالحاته أكثر من سيئاته كان من أصحاب الجنة، وإلا فإنه من أصحاب النار، والآية التي تحمل هذا المضمون (١٠٢-١٠٣) هي أكثر الآيات تحذيراً في القرآن كما يبدو لي، إذ من الذي يستطيع أن يطمئن ولو نسيها إلى أن حسناته أكثر من سيئاته؟! لهذا فإن المؤمنين لا يتركون وقتاً واحداً واستغلوه للعمل الصالح.

ثم يصف لنا القرآن بعض المشاهد من يوم القيامة، يوم تفتح النار وجوه الكافرين والظالمين، حتى تنكمش أسنانهم وتحترق وجوههم فتظهر أسنانهم كلها، وعند ما يطلبون من الله العوده لاستئناف العمل يأتيهم الجواب أن احسأوا، وهي كلمة لا تقال إلا للكلب، فقد كنتم تهزؤون و تسخرون من عبادي يوم كانوا يدعونكم إلى عبادتي، وها قد جزيتهم بالجنة وأنتم في النار.

و يستمر السياق يبين لهؤلاء اخطاءهم، والتي من أهمها انهم اعتقدوا بان لا رجعه بعد الموت، وبالتالي لا مسؤوليه، فتمادوا في غيهم و انحرافهم، وفاتت عليهم فرصه الدنيا التي يفترض ان يزرعها الإنسان عملاً صالحاً ينفعه في الآخرة، وذلك لن يكون دونما ايمان خالص بالله.

و حتى لا تكون هذه الشده سبباً لليأس يفتح الله بآخر آية من هذه السوره باباً للامل، حينما يذكرنا بأنه أرحم الراحمين، وكم هو شقى ذلك الإنسان الذي يسد على نفسه أبواب رحمة الله التي وسعت كل شيء.

بينات من الآيات:

[١٠١] فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ حَيْثُ تَتَلَاشَى الْعَلَاqَاتِ النَّسَبِيَّةِ، فَلَا يَعْرِفُ أَحَدٌ أَحَدًا، وَكُلٌّ ينادى نَفْسِي نَفْسِي
إلا المؤمنين قال تعالى:

الْأَخْلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ. (٤٧/ الزخرف) وَلَا يَتَسَاءَلُونَ عَنْ أَنْسَابِ بَعْضِهِمْ، لهول الموقف، و لعدم فائده ذلك، إذ يكون لكل منهم شأن يغنيه عن شؤون الآخرين.

لقد كان أئمة الهدى عليهم السلام يجهدون أنفسهم بالعبادة بالرغم من صلتهم القريبه الى رسول الله صلى الله عليه وآله، و إذا سألهم أحد عن ذلك تلو عليه هذه الآية،

يقول طاووس الفقيه: رأيتـهـ أـى زين العابدين عليه السلام يطوف من العشاء الى سحر و يتعبد، فلما لم ير أحدا رمق السماء بطرفه، و قال: الهى غارت نجوم سماواتك، و هجعت عيون أنامك، و أبوابك مفتحات للسائلين، جئتك لتغفر لى و ترحمنى و ترينى وجه جدى محمد صلى الله عليه و آله فى عرصات القيامة، ثم بكى و قال: و عزتك و جلالك ما أردت بمعصيتى مخالفتك، و ما عصيتك إذ عصيتك و انا بك شاك، و لا بنكالك جاهل، و لا لعقوبتك متعرض، و لكن سؤلت لى نفسى، و اعاننى على ذلك سترك المرخى به على، فالآن من عذابك من يستنقذنى؟! و بحبل من اعتصم ان قطعت حبلك عنى؟! افوا سوأتاه غدا من الوقوف بين يديك، إذا قيل للمخفين جوزوا و للمثقلين حطوا، أ مع المخفين أجوز؟! أم مع المثقلين أخط؟! و يلى كلما طال عمرى كثرت خطاياى و لم أتب، اما آن لى ان استحى من ربى؟! ثم بكى و انشأ يقول:

أ تحرقنى بالنار يا غايه المنى فأين رجائى ثم أين محبتى

أتيت باعمال قباح رزيه و ما فى الورى خلق جنى كجنايتى

ثم بكى و قال: سبحانك تعصى كأنك لا ترى، و تحلم كأنك لم تعص، تتودد

الى خلقك بحسن الصنيع كأن بك الحاجه إليهم، و أنت يا سيدى الغنى عنهم، ثم خر الى الأرض ساجدا، قال: فدنوت منه، و شلت برأسه و وضعته على ركبتى، و بكيت حتى جرت دموعى على خده، فاستوى جالسا، و قال: من الذى اشغلنى عن ذكر ربي؟! فقلت: انا طاووس يا ابن رسول الله. ما هذا الجزع و الفزع؟! و نحن يلزمننا ان نفعل مثل هذا و نحن عاصون جانون، أبوك الحسين بن على و أمك فاطمه الزهراء، و جدك رسول الله صلى الله عليه و آله؟! قال: فالتفت اليه و قال: هيهات هيهات يا طاووس دع عنى حديث أبى و أمى و جدى، خلق الله الجنة لمن أطاعه و أحسن، و لو كان عبدا حبشيا، و خلق النار لمن عصاه و لو كان ولدا قرشيا، أما سمعت قوله تعالى: «فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ»؟! و الله لا ينفعك غدا إلا تقدمه تقدمها من عمل صالح. (١)

[١٠٢] الجميع يقف امام الميزان و يده على قلبه ينتظر النتيجة، إما إلى الجنة و إما إلى النار، و لعل أصدق الموازين و أنفذها حجج الله على خلقه، الذين يجسدون فى الدنيا قيم الرساله و هم الرسل و الائمه.

فَمَنْ تَقَلَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ إِذْ يُصِيرُونَ إِلَى نَعِيمِ الْجَنَّةِ، وَ أَهَمُّ مِنْ ذَلِكَ يُصِيرُونَ إِلَى رِضْوَانِ اللَّهِ.

[١٠٣] وَ مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ وَ لعل معنى خسروا أنفسهم انهم خسروا فرصتهم الوحيدة فى الدنيا.

[١٠٤] و أى عذاب يناله هؤلاء؟

ص: ٢٣٨

تَلْفَحُ وُجُوهُهُمْ النَّارُ وَاللَّفْحُ هُوَ ضَرْبُهُ السِّيفِ الشَّدِيدِ، فِي الْآخِرِ تَضْرِبُ النَّارُ وَجُوهُهُمْ كَأَنَّهَا حَدَّ السِّيفِ.

وَهُمْ فِيهَا كَالْحُونَ أَي مَكْشَرِينَ عَنِ أَسْنَانِهِمْ بِسَبَبِ احْتِرَاقِ شَفَاهِهِمْ وَانْكَمَاشِهَا بِاللَّفْحِ.

[١٠٥] وَ يَأْتِي النَّدَاءُ لِأَصْحَابِ النَّارِ حِينَمَا يَسْتَعِيثُونَ مِنَ النَّارِ:

أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ [١٠٦] قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ لَقَدْ شَقُوا بِأَعْمَالِهِمْ وَلَا يَخْلُقُ اللَّهُ شَخْصًا شَقِيًّا بِطَبْعِهِ.

[١٠٧] وَيُضِيفُونَ:

رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ اعطنا فرصه أخرى، وجرنا مره ثانيه، فاذا عدنا فاننا ظالمون فعلا.

[١٠٨] قَالَ اخْسِئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُوا أَحْسَاءُ: بِمَعْنَى عَوْدُوا، وَهِيَ كَلِمَةٌ يَقُولُهَا لِلْكَلبِ صَاحِبُهُ، حِينَمَا يَتَّبِعُ أَحَدًا لِيُؤْذِيَهُ أَوْ غَيْرَ ذَلِكَ، وَيَقُولُهَا اللَّهُ لَهُمْ إِهَانَهُ وَتَحْقِيرَهُ، وَالْوَاقِعُ إِنْ تَحْقِيرَهُمْ أَنْفُسَهُمْ فِي الدُّنْيَا هُوَ الَّذِي أَهَانَهُمْ فِي الْآخِرَةِ، إِذْ لَمْ يَرْتَفِعُوا إِلَى مَسْتَوَى تَطْبِيقِ آيَاتِ اللَّهِ، وَهَبَطُوا إِلَى حَضِيضِ اتِّبَاعِ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ الْمَطْرُودِ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ.

ص: ٢٣٩

[١٠٩] إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ لقد كانت جماعه منكم، و بين ظهرانيكم، يدعون ربهم و يؤمنون به، لقد آمنوا ثم اعترفوا بالتقصير، و سعوا نحو مرضاه الرب.

[١١٠] فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰ أَنْسَوْكُمْ ذِكْرِي وَ كُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ ان الاستهزاء من المؤمنين يحمل في طياته السخرية من مبادئهم، و لكنه يحوّل الصراع الى صراع شخصي، حيث يعادى الكفار اشخاص المؤمنين و يسقطون هيبتهم من أنفسهم، و يحقرون كل أفعالهم و تصرفاتهم، و بالتالي، يصبح حاجزا نفسيا دون التفكير في المبادئ التي يدعون إليها، و لعل ذلك هو ما أشار اليه القرآن هنا بقوله: «حَتَّىٰ أَنْسَوْكُمْ ذِكْرِي».

اما قوله: «و كُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ» فهو الجانب السلوكي و العملي لحالتهم النفسيه حيث كانوا يتخذونهم سخريا.

[١١١] لقد كان المؤمنون في الدنيا عرضه لالوان البلاء و المشاكل، من السخرية و الضحك و.. و لكنهم استقاموا و صبروا فكان جزاؤهم الجنة.

إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ و يبدو من الآيه ان من أعظم الصبر الصبر على تجريح الشخصيه، و لذلك نجد أبرز صفات المؤمنين حقا انهم لا يابهون باللوم و لا يخافونه.

[١١٢] ثم يسألهم الله:

قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ لَنرى كىف كانت الدنيا التى بعتم الآخرة بها؟! [١١٣] فىأتى الجواب:

قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسَأَلِ الْعَادِينَ وَ هذا التقدير يأتى نتيجة الفرق بين الآخرة و الدنيا من زاوية الزمان.

[١١٤] قَالَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ لو كنتم تعرفون بأن الحياه الحقيقيه و الخالده تبدأ بعد الدنيا.

إن وعى الزمن و امتداد نظر الإنسان الى أبعد نقطه فى المستقبل شرط أساسى للتكامل، و لأن أسمى التكامل الايمان فإن المؤمن يقدر الزمن فى الدنيا بميزان الخلود الأبدى فى الآخرة، و لذلك يفوز بالصبر لأنه سبق و أن أحسن التقدير.

و يبدو ان النظر الى الزمن و مقدار وعيه يشكل أساس الايمان بالآخرة، و القرآن الحكيم يعالج هذه الناحيه من نفسيه البشر، فلو كانوا يعلمون لعرفوا ان كل الفتره التى يقضونها فى الدنيا قليله فى حساب الآخرة، فلما ذا خساره الآخرة بهذه الفتره القليله؟! [١١٥] أَ فَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ هل كانت حياتكم الدنيا بلا هدف؟! أم هل من الحكمه ان يخلق الإنسان للأكل و الشرب ثم يموت؟!

[١١٦] فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ ان الله أنزه من أن يخلق الإنسان بلا- هدف. ثم إذا كان كل جزء في الإنسان يؤدي هدفا معينا فالعين تبصر، والاذن تسمع، والجوارح تقوم بأدوارها المحددة، والأعضاء الداخليه تقوم بمهامها، والغدد والاجهزه و كل خليه تؤدي وظيفه خلقت لها، وحتى الزائده الدوديه التي سماها كذلك الطب في أيام طفولتهم تقوم بدور محدد، فهل من المعقول ان يكون خلق الإنسان عبثا و بلا- هدف محدد؟! ونحن حين ننظر الى ما حولنا من اشعه الشمس وضوء القمر و حركه الأرض و نشاط الأحياء فيها، و انظمه سائر الموجودات نجدها جميعا تخدم وجود البشر، و كذلك خلقت بهدف محدد، فهل خلق الإنسان نفسه لغير هدف؟! سبحان الله!! و من هنا

يسأل أحدهم الامام الصادق عليه السلام: لم خلق الله الخلق؟ فيقول: «ان الله تبارك و تعالى لم يخلق خلقه عبثا، و لم يتركهم سدى، بل خلقهم لاختبار قدرته و ليكلفهم طاعته.»

□ □ □
لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ فالله هو رب السلطه، و لكنه السلطه الكريمه و الحكيمه و ليست العبيثه حتى يخلقنا بلا هدف.
[١١٧] وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ فحتى لو عبد غير الله فانه لن يخرج بذلك عن سلطته و هيمنته و سيكون حسابه و جزاؤه عنده.

□ □
إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ

ذلك الجزء من الآيه يتحدث عن الحساب، بينما يتحدث هذا المقطع عن الجزاء، و هنا نجد المعادله بين أول السوره الذى يقول (قد أفلح المؤمنون) و بين آخرها الذى ينفى الفلاح عن الكافرين.

و الشرك ليس بالضروره ان يتصور الإنسان وجود خالق غير الله، بل قد يكون بطاعه الأشخاص، من أصحاب المال و السلطه من دون حجه من الله.

[١١٨] ان الإنسان بطبيعته الترابيه، ينجذب الى أرض الشرك، و التفكير بأن من يرزقه هو أبوه و أمه، و بأن من يحكمه هو السلطه السياسيه القائمه فى بلده، و بأن من يهديه هو الإذاعه و التلفزيون، و لكن الإنسان بعقله و إرادته و إيمانه يستطيع ان يقتلع نفسه عن هذه الطبيعه اقتلاعاً، و يخلق بها عالياً فى سماء التوحيد، حتى يرى كل الأمور بيد الله الذى يسلم هو له.

و من مشاكل الإنسان ان هذه الطبيعه تبقى معه حتى إذا صار مؤمناً، فتاره يستجيب لها و تاره أخرى يتحداها و يتغلب عليها، و الشرك الذى يصيب البشر قد يكون خفياً فلا يخلو قلب من الشرك، و لكن الله يعطى الإنسان المؤمن برنامجاً لمواجهة هذه المشكله فيقول:

وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ان وقود الإنسان المؤمن هو الاستغفار و قرن الاستغفار بالرحمه فى الآيه -لكى لا نياس فترك الاستغفار و التوبه حين الذنب كبيراً كان أو صغيراً.

و نحن بدورنا نسأله ان يرحمنا و يجعلنا من المؤمنين الفائزين بالفلاح.

سوره النور

اشاره

ص: ۲۴۵

فضل السوره:

جاء فى روايه عن أبى عبد الله الصادق عليه السلام :

«حصنوا أموالكم و فروجكم بتلاوه سوره النور، و حصنوا نساءكم، فان من أدمن قراءتها فى كل يوم أو فى كل ليله، لم يزن أحد من أهل بيته أبدا حتى يموت، فاذا مات شيعه الى قبره سبعون الف ملك، كلهم يدعون و يستغفرون له حتى يدخل فى قبره» (١)

ص: ٢٤٧

١-١) نور الثقلين ج ٣/ ص ٥٧٠.

كما السور الرفيع يصون بيت الإنسان، شرفه و قيمه و شرائع الرب فى المجتمع.

و الاسره كمشكاه، تحفظ ضياء الفطره و نور الوحى عن عواصف الشهوه و أدران الهوى.

و نور الله الذى هبط من السماء أستقر فى بيوت رفعها الرب بذكره.

حول هذا المحور تدور موضوعات سوره النور المباركه، و لكن كيف؟ نقرأ فى فاتحه السوره اشاره الى السوره التى فرضها الرب، و انزل فيها آيات بينات، بهدف تذكّر الناس و تلك السوره التى فرضها الرب، تصون بآياتها التى تفيض حزما فطره البشر، و ذلك:

أولا: بفرض حد الزانيه و الزانى، و تهديد مبطن بان المؤمنه و المؤمن لا يمارسان الزنا.

ثانياً:بتحصين البيت من عبث الفاسقين،و فرض حد القذف على من رمى محصنا بالزنا،من دون ان يأتي بأربعة شهداء.

ثالثاً:بتشريع حكم اللعان بين الزوجه و الزوج،الذى يرميها بالفاحشه، فعليهما القسم أربعا،ثم التلاعن فى الخامسة.

و يعالج القرآن مرض الشائعه،التي تدور تاريخيا حول قصه الافكك بينما تجرى فى كل اشاعه باطله.

و هكذا يزكى القرآن الأجواء،فلا قذف و لا شائعه(و هى قذف جماعى).

و يشير الى التطابق الاجتماعى،بين الخبيثات و الخبيثين كما بين الطبيات و الطيبين(٢٦).

و بعد ان تزكى الدروس الاولى اجواء المجتمع من لوث الزنا و القذف و الاشاعه،ينتقل السياق الى تقرير«حرمه البيت»و«حريه الإنسان فى بيته» فينهى عن دخول البيت الا بعد الاستيناس و السلام على أهله، و الرجوع عنه عند افتقاد الإذن لأنه الأزكى،الا البيوت العامه و غير المسكونه.

و فى اطار صيانه الاسره يأمر القرآن بتنظيف الطرق و المراكز العامه من سهام إبليس،حيث يأمر الرجال،بغض الأبصار،كما يأمر النساء بذلك و أيضا بالحجاب(٣١).

و حين يسد الشرع الحنيف أبواب الفساد،يفتح باب النكاح و يشجع عليه، و يأمر بالعفه لمن لا يجد سييلا الى النكاح،و يعالج وضع العبيد و الإمامه فيأمر بمكاتبه من علم منه الخير من العبيد و عدم إكراه الفتيات على البغاء ان أردن تحصنا (٣٣).

على اى أساس متين، ترتفع قواعد البيت الطاهر؟ أو ليس على الوحي الذى يهبط اليه، و ذكر الله الذى يصعد منه؟! بلى. و لذلك كانت سوره القرآن هى سور الاسره، و من نور الوحي ضياء البيت، و كانت الاسره مشكاه، فيها من نور الوحي مصباح تحيط به زجاجه شفافه، من اولى الأبصار-الرجال الأتقياء حفظه الاسره -يتقد شعاعا من شجره المعرفه.. و كانت تلك البيوت التى أذن الله لها ان ترفع حصونا منيعه للوحي على مستوى الامه، كما البيت حصن القيم على مستوى الاسره (٣٨).

و الامه التى لا تكرم بيت النبوه، كما الاسره التى لا تأبه بالقيم تتساقط أطرافها و تغدو قيمها شديده الظلام (٤٠).

و نور المجتمع من بيت النبوه، و نور الاسره من ضياء القيم، و يشرق هذا النور و ذاك بنور الله.

و أشرقت السموات و الأرض بنور ربها، ألم ترى ان الله يسبح له من فى السموات و الأرض، و له الملك، و هو الذى يزجى السحاب و يبعث بالبرق، و يقلب الليل و النهار، و انه خلق كل دابه من ماء؟! بلى. انه الرب الذى أنزل آيات مبینات، و هو يهدى من يشاء الى صراط مستقيم (٤٤).

و هكذا يحيط السياق بالنواحي المعنويه للبيت الرفيع، ثم يعالج موضوع الطاعه التى تعتبر من أهم ركائز التربيه، و يقول: لا بد من التسليم لحكم الله و الرسول، و الرضا بالحق كان له أم عليه، و بعد ان ينعت المؤمنین بفضيله الطاعه، يلوم البعض ممن يدعونها و يحلفون عليها، و لكنهم حين يجد الجد يخشون (٥٣).

و يأمرهم بالطاعه لله و للرسول، ليهدوا. و يذكر بان الله قد وعد المؤمنین الصالحین أعمالا باستخلافهم فى الأرض، و يأمرهم بإقامه الصلاه و إيتاء الزكاه

و طاعه الرسول، و عدم اليأس من روح الله، و الا يحسبوا الكفار معجزين فى الأرض (٥٧).

و يعود القرآن الى حرمة البيت، و يأمرنا بالاحتشام امام الأطفال و الخدم، فلا يدخلوا البيت-الذى هو عوره-أوقات الراحة الا بعد الاستئذان(٥٩).

و يضع عن القواعد من النساء فريضه الحجاب، كما يرفع عن الأعمى و الأعرج و المريض الحرج(لعله للتساهل معهم)، كما يرفع الحرج عن الاكل فى بيوت الأقارب و الأصدقاء، و يأمر بالسلم عند دخول البيوت. و بعد ان يبين بعض آداب المجتمع، و عدم التسلل الى البيت عند وجود الاستنفار للحرب أو ما أشبهه، الا بعد اذن القياده، ينهى عن دعاء الرسول كدعاء بعضهم بعضاً، و يحذر المتسللين لو اذا من فتنه أو عذاب أليم. و يختم القرآن الحديث مذكراً بأن الله محيط علماً بالناس و انه ينبئهم بما عملوا.

ص: ٢٥١

[سوره النور (٢٤): الآيات ١ الى ٥]

اشاره

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . سُورَةٌ أَنْزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنْزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (١) الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَيْشَهَّدَ عَلَيْكُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢) الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرْمٌ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ (٣) وَالَّذِينَ يُزْمَنُ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (٤) إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٥)

هدى من الآيات:

تبدأ هذه السوره المباركه بكلمتين:

الأولى: كلمه (سوره) وهى ما يعبر بها، عن المجموعه المتكامله، من الآيات القرآنيه.

فالسوره من جهه تشبه السور الذى يحيط بالبيت، فيجعله مستقلا عن غيره، و من جهه أخرى تشبه السوار الذى يحيط بالمعصم فيعطيه زينه و جمالا، و كما ان لكل مجموعه بشريه سورا يحيط بهم، و هو الاسره التى تمثل الحجر الأساس فى بناء المجتمع.

الثانيه: كلمه (فرضناها) فالسوره القرآنيه جاءت لتكون ثابتة و مستقره و مفروضه فى المجتمع البشرى، و ليكون الأخذ بها و تطبيق آياتها فرضا على جميع عباد الله.

عند ما ينزل الماء من السماء تذهب كل قطره منه، في اتجاه يختلف عما ذهبت اليه القطرات الاخرى، اما الآيات القرآنيه فلم تنزل لكي تتناثر هنا و هناك، بل قدر الله لها ان تكون وحده متراصه، ضمن سور واحد هو القرآن الكريم، تطبق كمجموع فلا تتبعض، بل لا يمكن الأخذ بقسم منها و ترك الآخر جانبا. هكذا فرض الله السوره.

و كما فرض الله السوره القرآنيه، فانه فرض الاسره التي هي بمثابة سور الإنسان و حصنه، الذي يلجأ اليه في الحياه الاجتماعيه، و هذا ما تؤكد آيات هذا الدرس من سوره النور.

و حيث انه لا يمكن فرض شيء الا بالقوه، فقد فرض الله حرمة الاسره بقوه العقوبات، التي أوجبها بحق من يعتدى على نظامها في المجتمع الاسلامي، حتى أننا لنلاحظ شدة العقوبه عليه، إذ يجلد كل من الزانيه و الزاني مائه جلده دونما رأفه.

و كما يفرض الإسلام عقوبه صارمه على الناحك بفاحشه، كذلك يفرض على من يزني بلسانه، فيرمى الأبرياء و البريئات بتهمه الزنا. إذ يعتبر ذلك نوعا من الاعتداء على سلامه البيت الاسرى، الذي يرتبط ارتباطا وثيقا بسمعته النظيفه، فالبيت الذي تلوكه الالسنه ليس محلا آمنا للحياه المستقيمه.

و بقدر ما يؤكد القرآن الحكيم على حرمة الزنا، فهو يؤكد على حرمة الاتهام، إذ يطالب المتهم بإثباتات كافيه، لان الاتهام ذاته قد يكون وسيله لاشاعه الفاحشه، و المجتمع الذي تسقط فيه قيمه الشرف العائلي يسهل عليه الهبوط الى حضيض الفواحش.

و بالرغم من الغلظه التي لا بد ان نقضى بها على الانحرافات الخلقية في

المجتمع، يؤكد القرآن على ان للتوبه بابا واسعا فتحه الله أمام الناس كى يصلحوا ما أفسدوه، لان الله سبحانه و تعالى- و هو خالق الإنسان- يعلم بما أودعه فى هذا الكائن من شحنت غريزيه تبرر الزلل و السقوط لديه، فلو لا فتح أبواب التوبه له، فانه لن يتمكن من النهوض بعد السقوط.

بينات من الآيات:

اشاره

[١] سُورَةُ أَنْزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنْزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ أَنْزَلَ اللَّهُ السُّورَةَ فَأَوْجِبَهَا، وَحَافِظٌ عَلَيْهَا، بَرغمَ كُلِّ الْأَهْوَاءِ، وَ الشَّهَوَاتِ وَ الضَّغْوَطِ، الَّتِي تَحَاوَلُ سَلْبَ الْقُرْآنِ قَدْسِيَّتِهِ وَ مَحْتَوَاهُ. وَ الْآيَاتِ الْوَاضِحَةِ الَّتِي جَاءَتْ فِي السُّورَةِ، هِيَ الَّتِي تَذَكَّرُ الْإِنْسَانَ. لِأَنَّ قَلْبَهُ مَفْطُورٌ عَلَى الْحَقَائِقِ، وَ إِنَّمَا يَحْتَاجُ إِلَى مَذَكَّرٍ يَثِيرُ فِيهِ كَوَامِنَ الْفِطْرَةِ وَ دِفَائِنَ الْعَقْلِ.

الحدود الشرعية حصانه المجتمع:

[٢] بالرغم من ان الاسره تبدأ عمليا بالزواج، الا ان القرآن لا يبدأ بذكره، بل يذكر عقوبه الزنا أولاً، و السبب أنه من دون قانون يحصن الاسره و يحفظها من الانحراف و الاعتداء، تسقط كل القوانين الاخرى، فما فائده الحصن الذى لا يحميه جدار رفيع؟ و ما هى فائده الزواج فى البلاد الغربيه، التى يجد فيها قطبا الاسره الطريق مفتوحا لإشباع الغريزه الجنسيه خارج البيت؟ إذن تبدأ الاسره فى الواقع عند ما تعطى لها حصانه، بفرض العقوبه على من يخترقها.

الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةً جَلْدَةٍ الْجِلْدَةُ هِيَ الضَّرْبَةُ الَّتِي تَلَامَسُ جِلْدَ الْإِنْسَانِ، وَ لَانِ مَا تَلْدُذُ بِهِ الزَّانِي كَانَ عَنْ طَرِيقِ جِلْدِهِ، الَّذِي لَامَسَ جِلْدَ الْجِنْسِ الْآخَرَ، فَعَلِيهِ أَنْ يَتَذَوَّقَ الْأَلْمَ عِقَابًا لَهُ عَلَى هَذِهِ اللَّذَّةِ الْمَحْرَمَةِ. صَحِيحٌ أَنْ النَّفْسَ الْبَشَرِيَّةَ تَتَأَلَمُ لِمَنْظَرِ إِنْسَانٍ عَارٍ يَجْلُدُ مِائَةَ جِلْدِهِ وَ لَكِنْ يَجِبُ أَنْ لَا نَنْسَى أَنَّهُ انْتَهَكَ حَرَمَهُ دِينَ اللَّهِ. فَإِذَا سَمَحْنَا لَهُ بِالْهَرَبِ مِنْ طَائِلِهِ الْعَقُوبَةِ، فَذَلِكَ يَعْنِي أَنْ نَعْرِضَ الْمَجْتَمَعَ كُلَّهُ لِلْفُسَادِ، لِذَا يَنْهَانَا الْقُرْآنُ أَنْ نَرَأْفَ بِالزَّانِيَةِ لِأَنَّ التَّشْدِيدَ عَلَيْهِمْ يَصْلِحُهُمْ مِنْ جِهَةٍ، وَ يَكُونُ رَادِعًا لِلآخَرِينَ عَنِ التَّوَرُّطِ فِي هَذِهِ الْجَرِيمَةِ الْبَشْعَةِ مِنْ جِهَةٍ أُخْرَى.

وَ لَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ وَ لَعَلَّهُ لَذَلِكَ أَكَّدَ الْقُرْآنُ هَذَا الْحُكْمَ بِقَوْلِهِ سَبْحَانَهُ:

إِنَّ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ الْحُدُودَ الشَّرْعِيَّةَ ذَاتَ قِيَمَةٍ أُسَاسِيَّةٍ فِي الْمَجْتَمَعِ، وَ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ تَأْخُذُهُمُ الرَّأْفَةُ حِينَمَا يَعْذَمُ قَاتِلُ أَمَامٍ أَعْيُنُهُمْ، أَوْ يَجْلُدُ الزَّانِي، أَوْ تَقَطَّعَ يَدُ السَّارِقِ، دُونَ أَنْ يَعْرِفُوا خَلْفِيَّةَ هَذَا الْعَمَلِ الْعَظِيمِ، فَاعْدَامُ الْقَاتِلِ -مَثَلًا- يَمْنَعُ الْقَتْلَ عَنِ الْكَثِيرِينَ، وَ بِالْتَّالِيِ يَمْنَحُ الْحَيَاةَ لِلْمَجْتَمَعِ، وَ هَكَذَا جِلْدُ الزَّانِي يَحْصِنُ الْأَسْرَةَ، وَ قَطْعُ يَدِ السَّارِقِ يَحْفَظُ عَلَى ثَرَوَاتِ النَّاسِ.

وَ هَكَذَا إِذَا أَنْتَشَرَ الزَّانِي فِي الْمَجْتَمَعِ فَانْ بَيُوتًا وَ أُسْرًا سَتَتَدَمَّرُ، وَ أَنْ أَطْفَالًا -ابْرِيَاءَ سِيْضِيْعُونَ، أَوْ سَوْفَ يَتْرَبُونَ عَلَى الْعَقْدِ الْمَتْرَاكِمَةِ، الَّتِي تَتَحَوَّلُ إِلَى جَرَائِمٍ بَشْعَةٍ.

أَوْ لَيْسَ أَكْثَرَ الَّذِينَ دَمَرُوا الْحَضَارَاتِ كَانُوا مِنْ أَبْنَاءِ الْبُيُوتِ الْفَاسِدَةِ الَّتِي لَمْ تَعْرِفْ شَرَفًا لِلْأَسْرَةِ؟

و لأن هذا القسم من الناس لا يعرفون كل هذه الحقائق، تأخذهم الرأفة السليبه على حساب الدين، فقد يعطلون الحدود. و لكن من يؤمن بالله، و يعلم بأنه أرأف بعباده منه، و انه عند ما يأمر بجلد الزانى، فان فى ذلك مصلحه لكل الناس بل للزانى نفسه، لا تأخذه هذه الرأفه.

ثم يقول ربنا:

وَ لَيْشْهَدُ عِيَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ لَا - بد ان يكون الجلد فى محضر من المؤمنين، لان قيمه العقوبه لا تكمن فى أثرها على الجانى فحسب، بل لا - بد ان تنعكس على المجتمع. و الواقع ان حد الزنا ليس واحدا، بل هناك ظروف مختلفه، تختلف العقوبه بموجبها، و فيما يلى حديث شريف يجمع بين مختلف الحدود:

جاء فى تفسير على بن إبراهيم: «انه احضر عمر بن الخطاب، سته نفر أخذوا بالزنا، فأمر ان يقام على كل واحد منهم الحد، و كان أمير المؤمنين - صلوات الله عليه - جالسا عند عمر، فقال: يا عمر ليس هذا حكمهم، قال: فأقم أنت عليهم الحد، فقدم واحدا منهم فضرب عنقه، و قدم الثانى فرجمه، و قدم الثالث فضربه الحد، و قدم الرابع فضربه نصف الحد، و قدم الخامس فعزره، و أطلق السادس، فتعجب عمر و تحير الناس. فقال عمر: يا أبا الحسن سته نفر فى قضيه واحده أقمت عليهم خمس عقوبات و أطلقت واحدا ليس منها حكم يشبه الآخر؟! فقال: نعم اما الاول فكان ذميا زنى بمسلمه فخرج عن ذمته فالحكم فيه بالسيف، و اما الثانى فرجل محصن زنى فرجمناه، و اما الثالث، فغير محصن حددناه، و اما الرابع، فرق زنى ضربناه نصف الحد، و اما الخامس فكان منه ذلك الفعل بالشبهه فعزرناه و أدبناه، و اما السادس مجنون مغلوب على عقله سقط

ص: ٢٥٧

العفة سور المجتمع:

[٣] أَلزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ مِنْ طَبِيعَةِ الْحَيَاةِ الْاجْتِمَاعِيَةِ إِنَّ الشَّرْفَاءَ مِنَ الرِّجَالِ أَوْ النِّسَاءِ - لَا فَرْقَ - لَا يَبْحَثُونَ إِلَّا عَنْ نِظَائِهِمْ، بَيْنَمَا نَجِدُ عَكْسَ ذَلِكَ لَدَى الْهَابِطِينَ خَلْقِيًّا مِنَ النَّاسِ، الَّذِينَ يَبْحَثُونَ عَنْ أَمْثَالِهِمْ، لِذَا وَ لَخَطُورُهُ الْاِخْتِلَاطُ، فَإِنَّ اللَّهَ يُرِيدُ فَصْلَ مَجْمُوعَةِ الزَّانَاهِ وَالزَّانِيَاتِ عَنِ الْمَجْتَمَعِ، لِيُحَصِّنَهُ بِسُورِ الْعِفَّةِ وَالشَّرْفِ. وَ لَعَلَّ فِي رِبْطِ كَلِمَةِ الشَّرِكِ بِالزَّانَا، إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّ الزَّانَا نَوْعٌ مِنَ الشَّرِكِ الْخَفِيِّ، أَوْ لَيْسَ يَنْطَوِي عَلَى عِبَادَةِ الشَّهَوَاتِ وَالْهَوَى؟ وَ حُرْمٌ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ

لقد جاءت في هذه العبارة القرآنية روايه مأثوره عن الائمة عليه السلام ، في أنه يحرم نكاح الزانية أو الزانى و لذلك يجب على المؤمنين الابتعاد عن مجاميع الزناه، نعم إذا تاب الزانى أو تابت الزانية جاز نكاحهما.

فقد روى محمد ابن مسلم عن الامام أبى جعفر عليه السلام فى قول الله عز و جل: «الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً» قال: هم رجال و النساء كانوا على عهد رسول الله، مشهورين بالزنا، فنهى الله عن أولئك الرجال و النساء، و الناس اليوم على تلك المنزله، من شهر شيئاً من ذلك أو أقيم عليه الحد فلا تزوجه حتى

ص: ٢٥٨

و لعل معنى كلامه عليه السلام و الناس اليوم على تلك المنزله، ان سيره الرسول تجرى على الناس اليوم أيضا.

القذف بين الحد و التوبه:

[٤] وَالَّذِينَ يَزُمُونَ الْمُدْحَفَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ هنا يفرض الله عقوبه شديده على من يرمى المحصنات، بتهمة الزنا دون أن يأتي بأربعة شهداء عدول على ذلك، ممن شهدوا الحادثه بأمر أعينهم.

و لا يكتفى بذكر هذه العقوبه الشرعيه، بل يذكر عقوبه قضائيه رديفه لها، إذ يجب نبذ مثل هذا الإنسان بعد اجراء حد القذف عليه، بإسقاط اعتباره فى المجتمع، لأنه بعمله هذا يكون قد فقد عدلته، فلا شهاده له بعد ذلك، ليس فقط فى قضيه الزنا، بل و أيضا فى سائر القضايا الاجتماعيه، كالعقود المالىه، و إثبات الهلال، و سائر الموضوعات. و فى ذلك تأديب معنوى له، بالاضافه الى التأديب البدنى بالجلد.

و لا نجد كالقذف، عقوبه صارمه على اللسان فى التشريعات الاسلاميه، فلو قال شخص: ان فلانه زنت. عليه ان يحضر العدد الشرعى من الشهود العدول، و لو شهد اثنان بالزنا ثم قالوا ان هناك شخصين آخرين رأيا ما رأينا، و هما فى الطريق لا يمهلان، انما يجلد كل منهما ثمانين جلده على الفور، إذ لا تثبت شهادتهما الا إذا

ص: ٢٥٩

دخل أربعتهم دفعه واحده،ليشهدوا لدى الحاكم على عمليه الزنا،و الإسلام الذى فرض عقوبه الجلد أو الرجم على مرتكب الزنا،هو الذى منع قبول الشهاده لأقل من أربعة،و هل تقع عمليه الزنا علانيه حتى يتمكن هذا العدد من الشهاده عليها؟ ان الجرائم الاخرى كالقتل و السطو يمكن ان تحدث أمام الناس،أما الزنا فان الحياء البشرى الذى أودعه الله فى فطره كل إنسان يمنع وقوع هذه العمليه جهارا أمام الآخرين،فكيف يرى هذه العمليه أربعة و بكل وضوح؟انه لا يقع الا فى حالات نادره جدا مما يدل على ان هذه العقوبه الشديده سوف تختص واقعا بالذين يستهترون بالحدود الشرعيه،و بآداب العرف العام، دعنا نقرأ النصوص التى تبين أحكام الشهاده على الزنا:

عن أبي بصير عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام :

«لا- يرجم الرجل و المرأة حتى يشهد عليهما أربعة شهداء على الجماع و الإيلاج و الإدخال كالميل فى المكحله. » (١)و عن حكمه اشتراط الشهود الاربعه،

يروى ابو حنيفه امام المذهب الحنفى عن الامام الصادق عليه السلام،فيقول قلت له:أيهما أشد الزنا أو القتل،قال فقال:

«القتل»،قال(ابو حنيفه)فقلت:فما بال القتل جاز فيه شاهدان،و لا- يجوز فى الزنا الا- أربعة؟فقال لى:«ما عندكم فيه يا أبا حنيفه؟»قال:قلت،ما عندنا فيه الا حديث عمر:ان الله اجرى فى الشهاده كلمتين على العباد،قال:«ليس كذلك يا أبا حنيفه،و لكن الزنا فيه حدان و لا يجوز ان يشهد كل اثنين على واحد.

لأن الرجل و المرأة جميعا عليهما الحد،و القتل انما يقام الحد على القاتل،و يدفع عن المقتول. » (٢)

ص: ٢٦٠

١- ١) المصدر/ص ٥٦٩.

٢- ٢) المصدر/ص ٥٧٤.

و انما يقصد الإسلام من هذا التشدد فى مسأله الشهاده على الزنا،المحافظه على الحياه الاسريه فى المجتمع من التفتت،و الانهيار.و كما ان الزنا من أشد عوامل انهيار الاسره فان الاتهام به يؤدى الى ذات النتيجة تقريبا،إذ أنه من الجرائم التى يمكن الاتهام بها سريعا،و هى تدغدغ غرائز الناس خصوصا المعقدين جنسيا، و ليست مثل جريمه القتل و غيرها،لذلك شدد الإسلام على العقوبه من جهه،و على الشهاده من جهه أخرى، و كلا الأمرين يهدفان الى شىء واحد هو صيانه الاسره، و المحافظه على العفه و الشرف فى الحياه الاجتماعيه.

و قد اعتبر القرآن من يقذفون المحصنات بالزنا،دون الإتيان بأربعة شهود بأنهم فاسقون،لأنهم بعملهم هذا يوجهون أكبر ضربه لشرف المجتمع،الذى جاءت الأديان السماويه لإصلاحه،و احكام بنائه.

[٥] إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَ أَضَلُّوا فَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ليس جديدا على من يقرأ القرآن،ان يلحظ لحوق كلمه الإصلاح بالتوبه، فكثيرا ما تكرر ذلك فى مواضع مختلفه من القرآن الكريم ذاته،ذلك لان شرط قبول التوبه ان يصلح الإنسان ما أفسده بذنوبه،و الله سبحانه يؤكد لفئه التائبين،بأن مغفرته و رحمته سوف تشملهم ان هم رجعوا الى طريق الحق بعد الانحراف، و تداركوا ما فاتهم بالجهد المخلص و العمل البناء،و إصلاح ما أفسدوه بذنوبهم، فاذا اتهموا المحصنات بالفاحشه و سقط شرفهن بذلك،وجب عليهم الإعلان عن كذبهم،و الاستعداد لإجراء الحد عليهم،لإعادة الاعتبار إليهن،

فقد قال سماعه :

سألته عن شهود الزور؟قال:فقال:يجلدون حدا ليس له وقت،و ذلك الى الامام،و يطاف بهم حتى يعرفهم الناس،و اما قول الله عز و جل: وَ لَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا قَالَ:قلت:كيف تعرف توبته؟قال:يكذب نفسه

ص:٢٤١

على رؤوس الخلائق حتى يضرب و يستغفر ربه،و إذا فعل ذلك فقد ظهرت توبته. (١)

فمن يتوب بعد الزنا يوفّر الله له أسباب الزواج، كما يرزق من تاب عن السرقة و أعاد الحقوق للناس رزقا حلالا،و كذلك من تاب بعد ان استسلم لضغوط السلطه التي تعرض لها،يوفر له مكانا آمنا يأوى اليه و يرفع عنه الضغوط.

و هكذا يشجع الله عباده على التوبه،و الرجوع اليه،حينما يعدهم بالمغفره و الرحمه إذا ما تابوا و أصلحوا.

ص: ٢٤٢

١-١) المصدر/ص ٥٧٥.

اشاره

وَالَّذِينَ يَزُمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ (٦) وَالْخَامِسَهُ
 أَنْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٧) وَيَذَرُوا عَنْهَا الْعَذَابَ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ (٨) وَالْخَامِسَهُ
 أَنْ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٩) وَ لَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَ رَحْمَتُهُ وَ أَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ (١٠) إِنْ الَّذِينَ جَاءُوا
 بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَ الَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ
 عَظِيمٌ (١١) لَوْ لَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَ الْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا وَ قَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُبِينٌ (١٢) لَوْ لَا جَاءُ عَلَيْهِ بِأَرْبَعِهِ شُهَدَاءَ
 فَمَاذُ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ (١٣) وَ لَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَ رَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَ الْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِيمَا
 أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٤) إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَ تَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَ تَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَ هُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ
 (١٥)

اللغة

٨ [يدرأ عنها] أى يدفع عنها.

١١ [الافك]: الكذب العظيم.

[تولى كبره]: الذى يتحمل معظمه.

هدى من الآيات:

فى اطار فرض قانون الاسره فى المجتمع-و هو ما بينه القرآن فى الدرس السابق -بعد ما مرّ من بيان للعلاقة بين الروح الايمانيه،و بين الاسره المؤمنه فى جانب عقوبه الزنا،و عقوبه القذف به،تبين الآيات الكريمة العلاقة السليمه بين الزوج و زوجته فى هذه المسأله الحساسه،حيث شرع الإسلام اللعان حلا للذين يقذفون أزواجهم بتهمه الزنا، كبديل للشهود،و اللعان هو ان يشهد الزوج اربع شهادات بزنا زوجته،تحتسب كل واحده منها بمثابة شاهد،ثم يستنزل فى المره الخامسه لعنه الله عليه ان كان كاذبا هذا من ناحيه،و من ناحيه أخرى تشهد الزوجه أربع شهادات بالبراءه،و فى المره الخامسه تقول ان غضب الله عليها ان كان زوجها صادقا فى اتهامه لها بالزنا.

و لماذا تختلف تهمة الزوجه بالزنا عن تهمة غيرها؟انما للعلاقه الخاصه بين الزوج و زوجته.فقد يكتشف الزوج من زوجته ما لا يمكن اكتشافه من قبل الآخرين،و لو

لم يضع الإسلام قانونا خاصا لهذه العلاقة، لانهارت أسر بكاملها، لعدم وجود ما ينظم علاقته الزوج بزوجه في حاله التهمه و القذف.

بعدئذ يتعرض السياق القرآنى لقضيه هامه و هى مسأله (الافك) و مع ان مورد النزول فى هذا المقطع القرآنى، يختص بتهمه الزنا التى ألصقتها البعض بزوجه الرسول صلى الله عليه و آله (ماريه القبطيه) على أحد الأقوال، الا ان السياق يؤكد على ضروره وقف أمثال هذه التهمه، التى تشيع فى المجتمع، و الوقوف فى وجه من يخلقونها أو يروجون لها، و توحى الآيات هذه، بالحقائق التاليه:

أولاً: ان انطلاق التهم، عاده ما يكون، من مجموعه يلتفون حول بعضهم، و يسمى القرآن هؤلاء (بالعصبه).

و تشكل هذه العصبه تجمعا طاغوتيا، لا يعتمد على القيم الاسلاميه فى علاقاتهم، لأنهم يخلقون التهم الباطله، و يفترون الاخبار الكاذبه، و يبثونها فى المجتمع، كما تنفث الأفعى السم فى ضحيتها.

ثانياً: ان المجتمع الصالح هو المجتمع المحصن ضد التهم و القادر على اكتشاف كذب التهمه، و ردها الى صاحبها بسرعه فائقه، اما المجتمع الهزيل الذى تتلاقف أبناءه التهم الباطله، لنشرها دون العلم بما ورائها من هدف خبيث، يهدد سلامه المجتمع فانه يتحطم سريعا. إن حرمات أبناء المجتمع و اعراضهم مهدده بعث المعتدين.

و هكذا يعرف المجتمع الفاضل الرشيد منذ البدء خطوره التهم الباطله، فيسعى لردها حفاظا على سلامه كل فرد من ابناؤه.

ثالثاً: يؤكد القرآن الحكيم على نفع هذه الشائعات بالنسبه الى المجتمع المؤمن

لأنها تكشف طبيعه بعض افراد المجتمع، إذ يكشف مثيرى التهم، و مدى ضحاله انتمائهم للمجتمع الايماني، كما يكشف المسرعين لاستماعها منهم، مما يعطى فرصه كبيره لإصلاحهم من قبل الموجهين.

بينات من الآيات:

حكمه اللعان فى الإسلام:

[٦] وَالَّذِينَ يَزُمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ مِنَ الصَّعْبِ جِدًا ان يعيش شخص يتهم زوجته بتهمه كالزنا بسعاده و اطمئنان، و لكى لا تكون الاسره محلا للصراع بين الزوجين فتفرز أبناء معقدين، حاقدين على المجتمع، لنشأتهم فى جو موبوء، بل تكون الاسره بيتا للوداعه، و دارا للأمان، لذلك شرع الإسلام اللعان الذى ينهى العلاقه بين الزوجين ابديا و يذكر الرواه قصه طريقه لتزول هذه الآيه تبين بعض أحكام اللعان.

كما تعكس كيفيه معالجه الإسلام للمشاكل الاجتماعيه.

تقول الروايه التى ينقلها المفسر المعروف على بن إبراهيم ان الآيه نزلت فى اللعان، و كان سبب ذلك أنه لما رجع رسول الله صلى الله عليه و آله من غزوه تبوك جاء اليه عويمر بن ساعده العجلانى و كان من الأنصار، فقال: يا رسول الله ان امرأتى زنى بها شريك بن السمحاء و هى منه حامل، فأعرض عنه رسول الله صلى الله عليه و آله فأعاد عليه القول، فأعرض عنه، حتى فعل ذلك أربع مرات، فدخل رسول الله صلى الله عليه و آله منزله، فنزل عليه آيه اللعان، فخرج رسول الله صلى الله عليه و آله بالناس العصر و قال لعويمر: ايتنى بأهلك فقد أنزل الله عز و جل فيكما قرآنا، فجاء إليها فقال لها: رسول الله يدعوك، و كانت فى شرف من قومها فجاء معها جماعه، فلما دخلت المسجد قال رسول الله صلى الله عليه و آله لعويمر: تقدم الى المنبر و التعنا فقال: كيف اصنع؟ فقال: تقدم و قل: اشهد بالله انى لمن الصادقين فيما

رميتها به، فتقدم وقالها، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: أعدها، فأعادها حتى فعل ذلك أربع مرات، فقال له في الخامسة: عليك لعنة الله ان كنت من الكاذبين فيما رميتها به، فقال له في الخامسة: أَنْ لَعَنْتَ اللَّهَ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ فيما رماها به (١) ثم قال رسول الله صلى الله عليه وآله: ان اللعنة موجهه ان كنت كاذبا.

ثم قال له: تنح، ثم قال لزوجته: تشهدين كما شهد و إلا أقمت عليك حد الله، فنظرت في وجوه قومها فقالت: لا اسود هذه الوجوه في هذه العشي، فتقدمت الى المنبر وقالت: اشهد بالله ان عويمر بن ساعده من الكاذبين فيما رمانى: فقال لها رسول الله: أعيديها، فأعادتها حتى إعادتها أربع مرات فقال لها رسول الله صلى الله عليه وآله :

العنى نفسك فى الخامسة ان كان من الصادقين فيما رماك به. فقالت فى الخامسة أَنْ غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهَا إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ فيما رمانى به، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله :

ويلك انها موجهه ان كنت كاذبه، ثم قال رسول الله صلى الله عليه وآله لزوجها: اذهب فلا تحل لك أبدا. قال: يا رسول الله فمالى الذى أعطيتها؟ قال: ان كنت كاذبا فهو أبعد لك منه، وان كنت صادقا فهو لها بما استحلتت من فرجها. (٢)

و معنى الآيه ان من يتهم زوجته و لم يستطيع إحضار الشهود الشرعيين فى مثل هذا المورد، فعليه ان يحلف بالله أربعه أيمان، بأنه صادق فى نسبه الزنا الى زوجته.

فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ [٧] وَالْخَامِسَةُ أَنْ لَعَنْتَ اللَّهَ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ عند اللعان يقول الشخص: لعنة الله على ان كنت من الكاذبين، و لكن الله

ص: ٢٤٨

١-١ (١) المصدر/ص ٥٨٠.

٢-٢ (٢) المصدر/ص ٥٨٠.

سبحانه و تعالى يقول: أَنْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَيْهِ بضمير هو لكى لا تظهر و كأن اللعنه على من يقرأ القرآن.

[٨] وَيَدْرُؤُا عَنْهَا الْعَذَابَ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ فَإِذَا أَقْسَمْتَ بِاللَّهِ أَرْبَعِ مَرَاتٍ عَلَى كَذِبٍ زَوْجَهَا أَرْتَفَعِ عَنْهَا الْحَدَّ، فَلَا جُلْدَ وَلَا رَجْمَ، وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ ذَلِكَ فَكَأَنَّمَا صَادَقْتَ عَلَى تَهْمِهِ زَوْجَهَا لَهَا بِالزَّانَا.

[٩] وَالْخَامِسَةَ أَنْ غَضَبَ اللَّهُ عَلَيْهَا إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ فِي الَّذِي يَدْعِيهِ فِي حَقِّهَا، وَهَكَذَا تَلْعَنُ نَفْسُهَا إِنْ هِيَ ارْتَكَبَتِ الزَّانَا، وَكَانَ بِالتَّالِيِ اتِّهَامِ زَوْجِهَا لَهَا صَحِيحًا.

[١٠] وَلَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ إِذْ لَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ وَتَوْبَتُهُ لَعَذِبَ مَنْ يَقْدِفُونَ أَزْوَاجَهُمْ، لِأَنَّ الْقَدْفَ تَهْمُهُ عَظِيمَةٌ عِنْدَ اللَّهِ، وَلا يَجُوزُ لِأَحَدٍ اتِّهَامُ الْآخَرِينَ لِمَجْرَدِ الظَّنِّ أَوْ حُبِّ الْإِنْتِقَامِ، وَجَوَابُ «لَوْ لَا» مَعْرُوفٌ مِنْ خِلَالِ السِّيَاقِ، وَلَعَلَّ الْآيَةَ (١٤) تُشِيرُ إِلَيْهِ أَيْضًا حَيْثُ يَقُولُ رَبَّنَا سَبِّحَانَهُ: «وَلَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ».

الحلف في القانون الاسلامي:

و مما يثير التفكير هنا، مدى اعتماد الإسلام على روح «الايمان» في الانظمه الاجتماعيه التي يشرعها، إذ يشكل الحلف مثلا أحد أعمده النظام الاسلامي في القضاء، و عند ما يفقد المجتمع روح الايمان، و يفقد الالتزام بما يقول، و ما يحلف به

اذن لا يقدر على تنفيذ قيم الرساله، ولا يمكن ان يكون بالتالى نظامه نظاما اسلاميا باى حال.

و بالرغم من ان المجتمعات البشريه اليوم، وصلت الى حد من التقدم التكنولوجى يبهر الإنسان، الا انها ما زالت فاشله فى الانظمه الاجتماعيه و الانسانيه، فلا يجد الفرد فى المجتمع غير المؤمن وازعا من الحلف بالله كذبا من أجل بضع دنانير، بينما ميزه المجتمع المؤمن تخرج أبناءه من الحلف كاذبا.

و لو راجعنا تاريخ الرعيل الأول من المسلمين، لعرفنا الى اى حد كان النظام القضائى ناجحا آنذاك، فلقد كان المجتمع الاسلامى يسيّر من قبل الحكومه الاسلاميه، و تحل جميع مشاكله دونما اى صعوبه، و ذلك لان المؤمنين يتخرجون من جعل الله عرضه لايمانهم حتى و لو كانوا صادقين، و كان البعض منهم مستعدا للتنازل عن حقه، و دفع مبلغ كبير من المال، و لم يكن مستعدا للحلف بالله العظيم.

و ننقل قصه الامام زين العابدين، كشاهد على ذلك، فلقد رفعت احدى مطلقاته دعوى ضده عند القاضى، مطالبه إياه بالمهر الذى كان يبلغ اربعمائه دينار ذهبا، فلما ترافعا عند القاضى، و أنكر الامام انها تطلبه شيئا، طالبه القاضى بالحلف فرفض فحكم عليه، و دفع الامام المهر كاملا فلما خرج من عند القاضى سأله ابنه الامام الباقر عليه السلام قائلا: لماذا لم تحلف بالله يا أبتاه؟ أو لم تكن على الحق؟! فقال الامام عليه السلام بلى. و لكن الله أكبر من ان احلف به على اربعمائه دينار.

هكذا كانوا يتخرجون، و على هذا قامت قواعد المجتمع الاسلامى.

[١١] إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ مِنْ الَّذِينَ اتهموا زوجه الرسول؟ سؤال لا- تهمننا الاجابه عليه بالأسماء، بل تهمننا طبيعه هذه العصبه و هدفهم من التهمه، فقد كان هدفها التنقيص من كرامه الرسول صلى الله عليه و آله و العصبه هم الذين يتعصبون لبعضهم، على أساس المصالح الماديه، لا- على أساس القيم، و لاحتمال ان يعتري المؤمنين تصور خاطئ حول الأمر، فان القرآن يوجههم قائلا:

لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ لَانَ الْعَاقِبَةُ سَوْفَ تَنْتَهِي إِلَى خَيْرٍ، باعتبارها امتحان للمجتمع المؤمن، فاذا تغلب المؤمنون على هذا الأمر و أمثاله، فانه سيكون مجتمعهم فاضلا و قادرا على مقاومه الضغوط و المشاكل المختلفه.

لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ كَمَا يَكُونُ الْإِنْسَانُ مَسْئُولًا عَنْ سُلُوكِيَّاتِهِ وَ تَصَرُّفَاتِهِ، فان مختلعي التهمه ضد الرسول صلى الله عليه و آله سوف يتحملون مسئوليته كلامهم فى الدار الدنيا، بكشفهم و تعريه اشاعتهم الباطله، و فى الآخره بالعذاب الأليم.

وَ الَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ و يبدو ان السياق يشير الى امام هذه العصبه، الذى يتحمل وزرها، بان له عذابا عظيما، فالعاده تقضى بوجود كبير لهذه العصبه، يكون مصدر تلفيق التهمه، أو لا أقل يعطى الشرعيه لها، و يبدو ان كبار السن الذين تنزوى عنهم الحياه،

و يشعرون بان شمس عمرهم تجنح للأفول،هم المبادرون لبث هذه التهم،لأنهم أكثر سلبيه و حسدا،و لعل المراد منه هنا هو شيخ المنافقين فى عهد الرسول صلى الله عليه و آله .

الى هنا يكون الأمر مقتصر على (التهمه) اما الحديث الآتى فانه ينتقل الى جانب آخر،حيث يحدد الله فيه المسؤوليه،التي تقع على كاهل المجتمع،تجاه مثل هذا الأمر فيقول:

[١٢] لَوْ لَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ يجب على المجتمع المؤمن قبل اتخاذ اى موقف،ان يعرف خلفيات التهمه بالإفك،حيث انها لا تقتصر على شخص الرسول فحسب،بل تعنيهم أيضا،و تهدد سلامه مجتمعهم،فهؤلاء لا يهدفون التنقيص من كرامه الرسول فحسب،بل يريدون أيضا التنقيص من شرف الامه الاسلاميه،عن طريق بث التهم الباطله ضد قيادتها،و عند ما يتجاوب المؤمنون مع ما يصبو اليه هؤلاء،فيظنون بزوجه الرسول صلى الله عليه و آله سوء.فهل يبقى بعد ذلك شرف سليم فى الامه،لا تناله ألسنه هؤلاء المنافقين؟! اذن لا بد للذين يستمعون هذه التهم من التعرف على طبيعتها،و كشف الدوائر التي تقف وراءها،و على المجتمع ان يكون رشيدا فاضلا،يقيم الأفكار و الشخصيات.

فما يدور من صراع جاد اليوم بين الاستعمار و الحركات الرساليه-التي تهدف تقويض الكيان الاستعماري الجاهلي،و اقامه حكومه اسلاميه عادله-صوره حيه لما دار بالأمس بين المنافقين الذين كانوا يختلقون التهم،و بين المجتمع المؤمن بقياده الرسول.

إذ يسعى الاستعمار بكل ما يملك من قوى شيطانية، للمس من كرامه الامه الاسلاميه عبر بث التهم ضد الحركات الرساليه، و واجب الامه الاسلاميه اليوم هو بالذات مسئوليه المؤمنين بالأمس، بأن تعتبر نفسها طرفا فى الصراع، و ان تكشف الدوائر الاستعماريه الواقفه خلف الأباطيل و التهم المختلفه ضد البرهه من ابنائهما.

فالله سبحانه و تعالى يقول: ان هذه التهم تستهدف قبل كل شىء سلامه المجتمع المعنويه، و على المجتمع ان يظن بنفسه خيرا، و يتوجه جديا لمواجهه هذه التهم « لَوْ لَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ » و يطالب المتهمين بالأدله الدامغه، فلو اتهم شخص آخر بأنه جاسوس دون أدله، فان المتهم هو الجاسوس حقا، لأن الجاسوس هو الذى يخدم المصالح الاستعماريه التى تستهدف الحركات التحرريه الرساليه، و الإسلام يأمرنا بمواجهه هؤلاء الأشخاص أمرا وجوبيا معتبرا كفر يرضه إسلاميه حيث يقول:

[١٣] لَوْ لَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ لِاثبات ما اختلقوه ضد سلامه المجتمع و قيادته.

فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ لأن كلامهم فى الواقع عار عن أى دليل حتى و لو كانوا صادقين، و ان نشر الفكره التى لا دليل عليها و لو كان عن سذاجه أو حسن ظن خطأ كبير.

»

و كفى بالمرء جهلا ان يقول مالا يعلم، بل كفى به جهلا ان يقول كل ما يعلم « (١)

ص: ٢٧٣

(١ - ١) هذا محتوى حديث مأثور عن الامام الحسن بن على عليهما السلام.

فنشر تهمة لا دليل عليها يؤدي الى نفس العاقبه التي يسعى إليها الكاذب.

ان الدوائر الاستعماريه اليوم تختلق التهم المختلفه، و تقذف بها في المجتمع لتتلفها الألسن، و تنتشر كما ينتشر الوباء، و ان المجتمع الفاضل هو الذى يتهم المتهمين، و يعتقد انهم كاذبون و لو كانوا صادقين، لان الكذب كله في مجمل نقل القضية، فالخط من قيمه الإنسان الفاضل-الذى خلقه الله كريما، و أراد له العيش بكرامه، و أن يخلف وراءه سمعه حسنه-هو الكذب بعينه.

فقد يكون الإنسان صادقا فيما يقول، و لكنه يصبح كاذبا، حينما يخطئ في تحديد موقع الكلمه التي يلفظها،

و قد جاء في محتوى حديث مأثور :

«الكذب في الإصلاح صدق عند الله» و كلمه «عند الله» في الآيه تدل على انهم و لو كانوا صادقين في قراره أنفسهم، فأنهم كاذبون عند الله ينالون جزاء الكاذب، و لعل ذلك لأنهم لم يراعوا الظروف المحيطه بكلامهم.

[١٤] و يؤكد القرآن ضخامه هذا الخطأ، فالكلمه البسيطة التي تطلقها أفواه الكثير من الناس دون علم أو تثبت تكون وراءها مخاطر كبيره جدا، و لو لا ان الله رحيم بهم لآخذهم بعذاب عظيم.

و لَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَ رَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَ الآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ بِسَبَبِ مَا تَوَرَّطْتُمْ فِيهِ مِنَ الْكَلَامِ السَّيِّئِ.

[١٥] إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَ تَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ

وَ تَحْسِبُونَهُ هَيِّنًا وَ هُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ لَأَن الْإِنْسَانَ يَصِيحُ خَادِمًا وَ بَوقًا لِلْإِسْتِعْمَارِ دُونَ مَا شَعُورُ، وَ كَمْ تَمَسَّنَا هَذِهِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ فِي الصَّمِيمِ، فَأَكْثَرْنَا يَقُولُ مَا يَسْمَعُ، وَ لَا يَعْلَمُ أَنَّهُ ضِدُّ نَفْسِهِ أَوْ دِينِهِ أَوْ مَجْتَمَعِهِ أَمْ لَا، فَيَجِبُ أَنْ يَكُونَ الْإِنْسَانُ نَاطِقًا عَنِ عِلْمِهِ وَ تَثْبِئَةً، لَا عَنْ نَقْلِهِ مِنَ الْآخَرِينَ كُلِّ مَا يَقُولُونَ.

وَ إِذَا اتَّخَذْنَا مَقْيَاسَ التَّجْمَعِ الْإِيمَانِيَّ مِنْ طَبِيعِهِ تَعَامَلَهُمْ مَعَ التَّهْمِ، فَانْ كَثِيرًا مِنَ الْمَجْتَمَعَاتِ الْقَائِمَةِ الْيَوْمَ تَخْرُجُ عَنْ حُدُودِ التَّجْمَعِ الْإِيمَانِيِّ، لِأَنَّهَا تَتَلَقَّفُ التَّهْمَ كَمَا يَتَلَقَّفُ الصَّبِيَانُ الْكُرْهَ، وَ يَنْشُرُونَهَا بَيْنَهُمْ، كَمَا يَنْشُرُ الْمَجْدُومُ وَ بَاءَ الْمَرَضِ.

ص: ٢٧٥

وَلَوْ لَا إِذْ سَجَعْتُمْوه قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ (١٦) يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١٧) وَبَيَّنُّ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١٨) إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (١٩) وَلَوْ لَا فَضَّلُ اللَّهُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رَوْفٌ رَحِيمٌ (٢٠) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُواتِ الشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُواتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَوْ لَا فَضَّلُ اللَّهُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢١) وَلَا يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولَى الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَيُعْفُوا وَيُطْفَحُوا أَلَّا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٢٢)

هدى من الآيات:

اشاره

ان من خصائص القرآن الكريم فى تناول الموضوعات المختلفه انه لا ينكفى عن أحدها دونما بيان لشتى أبعاده، و ما يرتبط به من قضايا أخرى.

فبالرغم من ان مناسبه الحديث عن الافك و الاشاعه الباطله فى المجتمع كانت موضوع الاسره، التى يجب ان تحاط بسور منيع من السلامه المعنويه، فان القرآن الحكيم يشبع هذا الحديث بحثا ليعطينا علما بأكثر أبعاده، و من بين الأبعاد المختلفه الذى تبحثه السوره فى هذا الدرس البعد الاجتماعى للاشاعه الباطله، و كيف يجب ان يكون موقف المجتمع الفاضل من الاشاعات، و ممن يبيثها.

نقاط مضيئه:

أولاً: من الضرورى ان يمتلك المجتمع مواقف ثابتة و محدوده سلفا من الشائعات، فقد أودع الله فى كل إنسان عقلا يستطيع من خلاله التعرف على صحه

أو خطأ الأفكار التي تنتشر في المجتمع، إذ لكل صواب نورا، فيدرك اهداف الشائعه و مصدرها.

ثانيا: على المؤمنين الصادقين الالتفاف أكثر فأكثر حول القيادة الرشيدة، ليعرفوا الاساليب الصحيحه و الصالحه، لمقاومه الشائعات حينما تنتشر في المجتمع.

ثالثا: على أبناء المجتمع المؤمن ان لا- يتبعوا خطوات الشيطان، لان الخطوه الاولى تجرهم الى آخر خطوه حتى ينهار المجتمع تماما.

و كمثال على ذلك عند ما يسمع الفرد كلاما باطلا و ينشره، فانه يدافع عنه بسبب العزه بالإثم، مما يدفعه الى الانتماء للمجموعه التي اشاعت هذا الكلام، و هكذا يقع في شرك العدو، من هنا يؤكد الإسلام بأنّ على الإنسان المؤمن ان لا- يتبع خطوات الشيطان، و ان يكون واعيا، فيتجنب الخطوه الاولى الخاطئه حتى لا يصل الى آخر خطوه.

رابعا: ان الغايه لا تبرر الوسيله في منطق الإسلام، فليس سليما ان يتبع المؤمنون السبل الملتوبه في الوصول الى اهدافهم، لأنها ليس لا تؤدي الى الاهداف فحسب، بل تصل بصاحبها الى الفحشاء و المنكر أيضا.

فلا- يمكن ان يكون الباطل طريق الحق، كما لا- يمكن ان تنتصر الحركه الايمانيه عن طريق بث الأكاذيب، و محاوله التأثير على الناس بالخداع و التضليل و ليس ذلك من صفات الحركه الرساليه، لان الدجل لا يولد الا دجلا مثله، و الفحشاء انما هي وليده مجموعه انحرافات بسيطه تتكاثر عند الإنسان و في واقع المجتمع.

خامسا: ان الهدف من وراء الافك و بث الشائعات الكاذبه هو النيل من وحده المجتمع المؤمن، لذا فان على افراده ان لا يسمحوا للشخص الذي يسبب نشر

الشائعات بالتوسع، و ذلك عن طريق الصفح و الإحسان، و بالتالى المبادره للملمه أطراف المجتمع التى تناثرت بسبب الافك و الافتراء.

بينات من الآيات:

اشاره

[١٦] وَ لَوْ لَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا كَمَوْقِفٍ ثَابِتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ، يوجب الله عليهم ان لا يتناقلوا الشائعات، أو يساعدوا على انتشارها بين صفوف المجتمع، و ان لا يصدقوا اى كلام دونما ثبت، و من دون توفر الاثبات و الشواهد الكافيه، و قوله تعالى: « وَ لَوْ لَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ » يعنى: فهلا انكم حين تسمعون كلاما فيه طعن و اتهام للآخرين تواجهونه بالصمت؟ ثم يبين القرآن ضروره تقييم الشائعات تقييما نابعا من العقل لا الهوى.

سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ ليس بسيطا ان ينسب الإنسان للآخرين تهمة الافك، فهذا بهتان ما لم يقم عليه دليل، بلى. ان المتهم برىء حتى تثبت ادانته، و كذلك القذف متهم حتى تثبت صحته.

و نتوقف قليلا عند كلمه «سبحانك» فاننا لا نطقها الا حينما نرى شيئا كبيرا يبهرنا، فلأئنا نخشى الخضوع لشيء من دون الله، يسلبنا فكرنا و استقلالنا و ارادتنا نقول: سبحان الله، لكى نقاوم حاله الانبهار التى قد تؤدى الى الشرك الخفى، فالله هو المنزه و هو الكبير... إلخ، لا ما نراه أو من نراه انى بدى عظيما فى أعيننا، فلما ذا التسبيح هنا؟

الواقع ان الآيه الكريمه تشير الى ضروره التوجه الى الله فى حاله الخوف من التأثير بالاعلام المضاد، لان النفس نزاعه الى تصديق كل كلام يشيع فى المجتمع، خصوصا إذا صدر من الكبار فى العمر أو فى الرتب الاجتماعيه، وعلينا ان نقاوم هذه النزعه بذكر الله، ذلك أن ذكر الله يزيد من مناعه المؤمن عن التأثير بالضغوط، و الانبهار بالآخرين، والخضوع للتضليل، أو بالتالى يعيد الإنسان الى عقله، و يعطيه فرصه للتفكر المنهجى، و هو بالتالى يعطى الإنسان استقلالاً و قوه و اطمئناناً، كما المرساه التى تبقى على استقرار السفينه بين يدي الموج.

□
[١٧] يَعْظُكُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَداً إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ اى لا تعودوا تتأثروا بالاعلام ان كنتم مؤمنين حقاً، و كأنه يخاطب الجميع مع ان الذى جاء بالإفك مجموعه صغيره منهم، و هذا ما يدل عليه قوله تعالى: إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنْكُمْ و ذلك ليشعر المجتمع المؤمن بأكمله انه المسؤول، لأنه سمح لهذه العصبه، بالانتشار فى وسطه و لم يردّها من حيث أتت.

□
[١٨] وَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ انه يعلم بمصالحكم، فيرشدكم لما فيه سعادتكم بحكمته البالغه.

[١٩] و يبين السياق جزاء من ينشر الشائعات فى المجتمع، و هم عاده من ذوى النفوس المريضه، كما تؤكد هذا البحوث العلميه الحديثه، ذلك أن المبطلين بالعقد الجنسيه، هم الذين يسعون لبث الشائعات المختلفه عنها، فلأنهم يعانون من الإحباط الجنسي مثلا يثيرون الشائعات لينتقموا من المجتمع، و كأنه المتسبب فى إحباط هذه الغريزه فى ذواتهم، أو لا- أقل يتسلون بهذه الكلمات ليعوضوا بها عما فقدوه، و عما يشعرون به من عقده الجنس، قال تعالى:

إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ إِنَّ الْفَاحِشَةَ هِيَ تَبْعُثُ مِنَ الْحَيَاءِ وَ الشرف البشرى، جبل عليها ضمير الإنسان و عند ما تشيع الفاحشه فى المجتمع تسقط هيبتها من أعين الناس، فيتورطون فيها، بل لا يتورعون عن ممارستها باستمرار.

و اشاعه الفاحشه تتحقق بمجرد نقل الإنسان ما يسمعه من كلام خبيث الى الآخرين، و هذا ما يحطم جدار الشرف و الحياء لدى أبناء المجتمع، فلا- هو يدعو الإنسان المريض القلب للعمل الصالح، و لا هو ينصح الناس لما فيه خيرهم، بل يبحث عن الشائعه الباطله لينشرها، و عن الفكره الخبيثه الميته ليحييها و يذيعها، لأنه من أهل الفاحشه و ان أنكرها بلسانه أو تظاهر بكراهته لها، فلو بحثت عميقا فى نفسه لوجدته يعبر بكلامه عن واقعه، لا عن واقع الآخرين، و يبدو ان التعبير القرآنى بـ «يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ» يدل على انعطاف نفسى عند هذا الفريق نحو اشاعه الفاحشه، أما بسبب كراهيه المجتمع، أو كراهيه الفريق المتهم منه، أو لأنهم يرتكبون فعلا الفاحشه، و يريدون ان تنتشر بين الناس جميعا حتى يرتاحوا من لوم الناس و وخز الضمير.

و على الإنسان ان يقاوم هذا الحب فى نفسه، و لا يفيض فى نقل التهم بدافع هذا الحب الشيطانى.

ثم يختم القرآن حديثه الصادق بان الله عليم بالحقائق.

وَ اللَّهُ يَعْلَمُ وَ أَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ فَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ طبعه الناس، و الدوافع التى تدعوهم الى خلق الافتراءات ضد

هذا و ذاك، فلا يجوز ان تثقوا باى فرد، بل عليكم التثبت عما إذا كان نقيا عن حب اشاعه الفاحشه.

[٢٠] وَ لَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَ رَحْمَتُهُ بَانَ بَعَثَ لَكُمْ رَسُولًا - و وفر لكم فرصه الهدايه - لولا - ذلك - لما زكى أحد منكم، اى تخلص من ورطه اتهام الآخرين بالزور و البهتان.

و يبدو ان المراد من الفضل هو الهدى (القرآن و الرساله) و من الرحمه النعم الماديه (الأمن و السلامه و كل ما يمنع الإنسان من التورط فى الجرائم المختلفه).

فلو لم تتوفر للإنسان وسائل الهدايه من جهه، و الوسائل الماديه كالحياه الاسريه الفاضله، و المكسب الحلال، و ما الى ذلك من النعم من جهه أخرى، لما تخلص من التورط فى الجرائم.

وَ أَنَّ اللَّهَ رَوْفٌ رَحِيمٌ و يبدو ان جواب لولا ما يشار اليه فى الآيات التاليه من قوله تعالى: مَا زَكَّى مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا .

[٢١] الشيطان سواء الجنى الذى يجرى من ابن آدم مجرى الدم، أو الانسى الذى تملأ أبواقه و شبكاته حياتنا اليوم، انه لا يدعونا الى الفواحش الظاهره مره واحده، و انما يستدرجنا إليها خطوه فخطوه، و علينا الحذر من اتباعه فى الخطوات الاولى حتى لا يطمع فينا أكثر فأكثر.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ و ما دام الله و فر للإنسان فضله و رحمته فلما ذا يتبع الشيطان؟!

ان الذى يتبع خطوات الشيطان لا يحقق سعادته الناس و هدايتهم، فكثير أولئك الذين حدثوا أنفسهم بالوصول الى الحكم، و من ثم العدل و الحرية للمستضعفين، و لكنهم تورطوا فى جرائم الإرهاب و الذبح و اشاعه الفاحشه، فما أفلحوا بل أصبحوا أفسد ممن سبقهم، فقد خدع الشيطان من انتموا الى حزب البعث فى العراق بذلك، و لكنهم بعد ما وصلوا الى الحكم دمروا العراق و أصبحوا لعنه على الشعب.

ان السلطه التى تبنى على أساس الكذب و الافتراء، لا و لن تكون فى سبيل الله و المستضعفين لذا يقول القرآن:

وَ مَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَ الْمُنْكَرِ فَلَا يَفْكَرُ الْإِنْسَانُ أَنَّهُ سَيُنصَحُهُ يَوْمَئِذٍ لَعَلَّ الْمَقْصُودَ مِنْ «لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ» و سائله و سبله، فالغايه لا تبرر الوسيله، بل تحدد الغايه الوسيله المناسبه لها.

وَ لَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَ رَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا «لولا» حرف امتناع لامتناع، و هى اداه شرط فى هذا المقطع من الآيه الكريمة «و فضل» مصدر ناب عن فعل الشرط، اما جواب الشرط فقوله تعالى: «ما زكى».

و لعل هذا الجواب هو نفسه جواب لولا- فى الآيه السابقه «وَ لَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَ رَحْمَتُهُ وَ أَنَّ اللَّهَ رَوْفٌ رَحِيمٌ» و الآيه تشير الى مدى صعوبه التخلص من شبكات الشيطان، و علينا إذا الا نرتاح الى ظل الغرور، و نغفل عن خطر الاستدراج بل نتوكل على الله، و نكون دائمي الحذر، شديدي اليقظه.

وَ لَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ

و ذلك عن طريق الرسل و الهدايه و التوفيق، و بما يوفر لهم من نعم، تغنيهم عن تمنيات الشيطان.

□
وَ اللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ

الموقف السليم:

□ [٢٢] وَ لَا يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَ السَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولَى الْقُرْبَى وَ الْمَسَاكِينَ وَ الْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قِيلَ: بعد ما وقعت حادثه الافك، قرر المسلمون ان يقاطعوا كل المشتركين فيها مقاطعه شامله، فلا يزوجهونهم، و لا يعطونهم من المال شيئاً، و لا يدعونهم يحضرون مساجدهم... إلخ، و هذا ما يطمح اليه الأعداء ان يروا المجتمع المؤمن و قد تمزق كل ممزق، فيجب ان ينتبه الواعون في المجتمع الاسلامى الى هذه الخطوه الشيطانيه، و يقفون قبالها، لذلك نهى الله المؤمنين عن تطبيق قرار الجفاء و المقاطعه، و معنى الآيه الكريمه: انه لا يحلف أولوا الفضل بعدم العطاء وصله الرحم.

و كما قلنا: ان المقصود «بالفضل» الدين و الهدى، و «السعه» المال و النعم الماديه، فيصبح معنى الآيه بهذا التفسير: انه على من أنعم الله عليهم بالهدايه و المال، ان يؤتوا أولى القربى و المساكين و المهاجرين من ذلك، و لو كانوا متورطين في جريمه الافك.

وَ يُعْفُوا وَ يُصْفَحُوا عَلَى مَا مَضَى، و لعل المراد من العفو هو عدم المعاقبه على ما مضى اما الصفح فهو ما يسبب اعاده اللحمه الى المجتمع.

ووظيفه الامه الاسلاميه بعد حوادث الافك و ما تسببه من فرقه و خلاف هو السعى نحو الوحده لبناء كيان جديد يقوم على أساسها.

أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ □ □
الخالصه من ذلك، و الكل معرض لارتكاب الخطأ بحق الآخرين؟! لذا ينبغي الصفح عن الآخرين حتى يغفر الله لمن يصفح، و فعلا بادر المسلمون فور نزول هذه الآيه الكريمة قائلين عفونا و صفحنا، أملا في غفران الله.

ص: ٢٨٥

اشاره

إِنَّ الَّذِينَ يَزْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعُنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٢٣) يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنُهُمْ وَ
أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٤) يَوْمَئِذٍ يُوفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ (٢٥) الْحَيِّثَاتُ لِلْحَيِّثِينَ
وَالْحَيِّثُونَ لِلْحَيِّثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (٢٦) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ
آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَتَسْتَأْذِنُوا عَلَى أَهْلِهَا ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (٢٧) فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا
أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِنْ قِيلَ لَكُمْ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ (٢٨) لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ
أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ (٢٩)

اللغة

٢٦ [مبْرأون]: منزّهون.

ص: ٢٨٦

٢٩ [جناح]: حرج و اثم.

ص: ٢٨٧

هدى من الآيات:

يركز السياق هنا حول قضيتين رئيسيتين:

الاولى: إنذار شديد اللهجه، يوجهه الله تعالى للذين يرمون المحصنات الغافلات، و يحذرهم من نار جهنم، يوم لا يمكنهم انكار افتراءاتهم، و ذلك ليحيى الوازع الدينى فى ضمير الناس، ليرتفع المجتمع عن حضيض المهاترات الرخيصة الى ذرى الآداب الرفيعة.

الثانية: بعد ان حدثتنا الآيات السابقه، عن ضروره تحصين بيوت المسلمين معنويا، تحدثنا آيات هذا الدرس، عن ضروره تحصينها ظاهرا عن دخول الغرباء، لأنه حرم الإنسان، (كما يقول الرسول صلى الله عليه و آله) فلا يدخله من ليس بصاحبه، الا ان يستأذن و يحصل على الموافقه من أهله، و قبل الدخول لا بد ان يذكر الله مستأنسا، رافعا صوته بذلك، حتى يكون معروفا عند أهل البيت، و بعد ذلك يبدأ

بالسلام، فان لم يكن رد منهم فليعد من حيث أتى و لا يدخله عنوه، مدفوعا بالكبر، و مأخوذا بعزه الإثم، لان دخوله سيكون اعتداء ليس على هذا البيت فقط، بل على المجتمع بأكمله.

بينات من الآيات:

اشاره

[٢٣] إِنَّ الَّذِينَ يَزُمُونَ الْمُحْصِنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعُنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ قد تكون المرأه فى أحضان الفساد و مظان الفاحشه، فلو اتهمت فانها تتحمل مسئوليته ذلك، كما المتبرجه الخليعه، التى تتنقل من بيت لآخر، و تقوم بحركات مائعه مشبوهاه، فهى تضع نفسها فى دائره الاتهام، و تستجلب كلام الناس عليها.

أما المرأه الغافله عن التهمه، البعيده عن مظانها فينبغى ان تحترم أشد الاحترام، و من يتهمها فانه ملعون فى الدنيا، اى مبعده عن الخير، و منبوذ لدى المؤمنين، و ملعون فى الآخره حيث يبعده الله عن رضوانه، و يعذبه عذابا عظيما.

الشهاده:

[٢٤] يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ كل عضو من الأعضاء يشهد على الإنسان يوم القيامة، و فى مقدمه من يشهد على الذين يرمون المحصنات، ألسنتهم التى ستنتطق بفضحهم دون إرادتهم، ثم أيديهم و هى التى يشيرون بها الى مواضع التهمه (فعاده ما يستخدم المتحدث لسانه و يده للتعبير عن مقاصده)، ثم أرجلهم الساعيه بالتهمه لتوزيعها على أكبر رقعته اجتماعيه ممكنه، كما المشاء بنميم، ليفسد ما بين الناس و يقوض صرح العلاقات

الاجتماعيه، وقد وقف قدامى المفسرين على هذه الآيه مستغربين، ليس من شهاده اللسان-فلذلك أمر طبيعي-و انما من شهاده الأرجل و الايدى.

فقال بعضهم: ان الله يخلق ألسنه فى كل جارحه تنطق بما عمله الإنسان، وقال البعض الآخر: ان الله هو الذى ينطق عن الجوارح كما كلم موسى تكليما، و لكننا اليوم و مع وجود الالهيه المتطوره، لا نحتاج الى مزيد من التفكير، لنعرف كيف تشهد الايدى و الأرجل، فقد أثبت العلم الحديث بالتجربه العمليه، ان اى كلام أو تصرف يصدر من الإنسان، ترتسم آثاره على الأشياء الموجوده حوله، كالجدار و السقف و الهواء... إلخ.

إذا شعر الإنسان بالرقابه الالهيه عليه، و نَمَى لديه الوازع الدينى، فانه لن يرتكب معصيه عن علم.

□
[٢٥] يَوْمَئِذٍ يُوفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ عِنْدَ مَا تُنكَشَفُ لَهُمُ الْحَقِيقَةُ، وَ يُتَّضَحُّ بِطَلَانِ مَا يَدْعُونَ، وَ يَعْلَمُونَ بِأَنَّ اللَّهَ كَانَ يَحْصِي عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ حَتَّى مَشَاعِرِهِمْ، وَ نَوَايَا قُلُوبِهِمْ، ثُمَّ يُعْطَى جِزَاءَ كُلِّ ذَرَّةٍ بِذَرَّةٍ جِزَاءً وَفَاوًا. وَ دِينُ الْإِنْسَانِ هُوَ مَا يَلْتَزِمُ بِهِ، فَانِ التَّزَمَ بِالْإِسْلَامِ أَعَادَهُ اللَّهُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَ كَذَلِكَ لَوْ التَّزَمَ بِالْجَرِيمَةِ فَانَهَا تَأْتِي لَهُ تَسْعَى يَوْمَ الْحِسَابِ فَيَجْزَى عَلَيْهَا.

□
وَ يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ لِأَنَّهُ أَنْصَحَ الْحَقَائِقَ وَ أَوْضَحَهَا، إِذْ تَجَلَّى هَذِهِ الْحَقِيقَةُ لِفِطْرَةِ الْإِنْسَانِ السَّلِيمَةِ بِكُلِّ سَهْوَةٍ وَ يَسْرٍ، وَ نَمَّا حَاجَهُ لِلْبَحْثِ الْفَلْسَفِيِّ أَوْ الْبِرَاهِينِ الْمَعْقَدَةِ، وَ لَكِنِ النَّاسَ بِأَعْمَالِهِمُ الْخَاطِئَةَ، يَسْدُلُونَ عَلَى قُلُوبِهِمْ أَسْتَارَ الْغَفْلَةِ، فَيَجْهَلُونَ رَبَّهُمْ وَ أَسْمَاءَهُ

الحسنى، عن اراده لا- جبر، و عند ما تراح عنهم هذه الأستار فى يوم القيامه، تتجلى لهم الحقيقه العظمى (الله) كمن يهتدى الى حقيقه لاول مره.

[٢٦] الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ تعددت وجهات النظر فى هذه الآيه من قبل المفسرين، فقال قسم: ان هذه الآيه تشير الى ان الأقوال و الأفعال الخبيثه للخبثاء، و على العكس بالنسبه للأقوال و الأفعال الطيبه، و قال قسم آخر: ان الخبيثات من النساء للرجال الخبيثين، و على العكس بالنسبه للنساء الطيبات.

و لكن يبدو أن الآيه تؤكد حقيقه اجتماعيه مبدئيه هى: ان الإنسان لا- يمكنه تسجيل اسمه فى قائمه المجرمين ثم يعيش مع الصالحين، بل لا بد ان تنتهى الحياه به الى من سجل اسمه فى قائمتهم عمليا.

اما فى شطرها الثانى، فانها تؤكد قدره المجتمع الفاضل على بناء كيان مستقل، بعيدا عن اللسنه البذيئه، و الافتراءات الكاذبه، و هذا ما يمهد له الحصول على غفران الله و رزقه الكريم.

حرمة البيت:

[٢٧] يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ تطرح لنا هذه الآيه و ما يليها مجموعه تعاليم تتصل بحرمة البيت، حيث ينبغى ان يحس المرء بالأمن داخل منزله، حيث يضع ثيابه و يتخلص من العادات الاجتماعيه المرهقه، و يستريح الى طبيعته، و يتنفس عن مشاعره المكبوتة، و حيث

زوجته التي يجب ان يخلو بها، و ييث إليها اسراره و عواطفه، و لعله يريد ان يقضى منها وطرا. فقبل ان تطأ قدماك بيتا غير بيتك، لا- بد ان تراعى آداب الدخول و التي منها: الاستيناس و إعطاء اشاره لقصد الدخول أولا، و فى التعبير القرآنى روعه و لطف، فالاستيناس المتخذ من لفظه (الانس) يوحى بضروره رعايه الجوانب العاطفيه فلا كلمات نايبه، أو صياح عال أو طرق شديد للباب، بل رقه و محبه و تلطف و تودد.

و جاء فى الأثر ان «الاستيناس هو وقع النعل و التسليم» (١)

و عن أبى أيوب الانصارى قال: قلنا يا رسول الله ما الاستيناس؟ قال: يتكلم الرجل بالتسبيحه و التحييده و التكبيره يتنحى على أهل البيت (٢) و التسليم ثانيا اشعارا بحسن النيه و سلامه القصد. و ليس هذا النظام شادا عن الفطره البشريه، بل متوافقا معها، و هكذا سائر الأحكام و الآداب فى الإسلام تتوافق مع فطره البشر و عقله، و هذا ما تشير له الآيه التي تحت الإنسان على التذكره فكثير من الحقائق، معروفه لدى الناس، و لكنهم نسوها فاحتاجوا الى التفكير ليتذكروها.

[٢٨] فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِنْ قِيلَ لَكُمْ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ ان لم يكن فى البيت من يملك صلاحيه الاذن بالدخول، أو وجد من يملكها، و لكنه لم يعط إذنا بذلك فليرجع، ففى ذلك زكاه للمجتمع، اى نمو للاخلاقيات و العلاقات الطيبه فيه، و لقد شددت النصوص الاسلاميه على الاستينان و آدابه قبل دخول البيوت.

فهذا الرجل يستأذن على رسول الله صلى الله عليه و آله بالتنحى،

فيقول الرسول لامرأه يقال لها روضه: قومى الى هذا فعلميه و قولى له قل: السلام عليكم أ أدخل؟ فسمعها

ص: ٢٩٢

١- ١) نور الثقلين/ ج ٣/ ص ٥٨٥.

٢- ٢) المصدر.

الرجل فقالها فقال: ادخل. (١)

و يسأله رجل عما إذا كان من الضروري الاستئذان على الام و يقول: انها ليس لها خادم غيرى أ فاستأذن عليها كلما دخلت؟ قال: أ تحب أن تراها عريانه؟ قال الرجل لا.. قال: فاستأذن عليها. (٢)

و هكذا كانت سيره النبي صلى الله عليه و آله

فقد روى جابر بن عبد الله الانصارى قال :

«خرج رسول الله يريد فاطمه عليها السلام، وانا معه، فلما انتهيت الى الباب وضع يده فدفعه ثم قال: السّلام عليكم فقالت فاطمه عليها السلام: عليك السلام يا رسول الله، قال: أدخل؟ قالت ادخل يا رسول الله، قال أدخل و من معى؟ قالت يا رسول الله ليس على قناع، فقال يا فاطمه خذى فضل ملحفتك ففنعى به رأسك، ففعلت ثم قال: السّلام عليكم فقالت و عليك السلام يا رسول الله قال أدخل قالت نعم يا رسول الله قال انا و من معى؟ قالت و من معك. « (٣) بهذه الرقه و التودد، أدبنا الإسلام.

و يحسن بنا الانتباه الى نهايه الآيات، فعاده ما تكون نهايتها مفاتيحها، كما تكون الآيات الاخيره فى السوره مفاتيح لها، و هنا يقول تعالى:

وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ بَعْدَ ان يَطْرَحَ مَجْمُوعَهُ مِنَ الْقَوَانِينِ وَ الْاَنْظُمَةِ لِمَاذَا؟ الْجَوَابُ:

ص: ٢٩٣

١-١) المصدر/ص ٥٨٦.

٢-٢) المصدر.

٣-٣) المصدر ص ٥٨٧.

لعله لا ين للإنسان قدره التفاض هائله على القانون، و تحويله الى قشره دون اى محتوى، و لكى يحذر الله سبحانه الناس، من الالتفاف حول النظام الاسلامى يحثهم على الالتزام به بدقه و إخلاص، و يذكرهم بأنه يعلم حقيقه أعمالهم، فلا مناص لهم من النصح فى تطبيق الأحكام، فقد يخادع الإنسان أصحاب البيت فيوهمهم حين دخوله انه يقصد هدفا شريفا، و واقعه خلاف ذلك، و لكنه لا يستطيع ان يخدع الله لأنه أعلم بما يعمل الناس.

و دخول كهذا، هو كما لو دخل بدون إذن لا فرق إذ لو علم أصحاب البيت بقصده السىء لما أذنوا له بالدخول.

و كثيرا ما يمتهن بعض المجرمين المهن التى تساعدهم على دخول البيوت، بحجه القيام بخدمات معينه كاصلاح الكهرباء و الهاتفف أو تركيب الستائر و الأثاث، فيجدون بذلك فرصه سانحه للاطلاع على اعراض الناس، و التجسس على المؤمنين، و لا يعلمون انهم بذلك قد ارتكبوا جريمتين:

الاولى: جريمه الدخول بدون إذن، لأن هدفه سىء.

الثانيه: جريمه الإفساد فى الأرض.

و لئن أفلت هؤلاء من علم أهل البيت أو السلطات الشرعيه، فلن يفلتوا من علم الله.

[٢٩] لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَكُمْ لَأَنَّهَا وَضَعَتْ لِمَنْفَعَةٍ عَامَةٍ، كَالْفَنَاقِ، وَ الْحَمَامَاتِ الْعَامَةِ، أَوْ الْمَحَالِّ التِّجَارِيَةِ، وَ مَكَاتِبِ الْخِدْمَاتِ الْمَخْتَلِفَةِ، وَ مَا إِلَى ذَلِكَ، وَ لَكِنْ لَا يَجُوزُ الدُّخُولُ فِيهَا

لغير الهدف المحدد، و ان جاز الدخول فيها بدون إذن.

□
وَ اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ □ مَا تَكْتُمُونَ □ من النوايا و الاهداف، و هذه دعوه لتنميه الوازع الدينى فى ضمير الإنسان، انطلاقا من تحسيسه بالرقابه الالهيه عليه.

فأولئك الذين يدخلون المحال التجاريه مثلا لا ليشتروا مما يعرض فيها، بل لكى يستريحوا من تعب المشى و زحام السوق، أو ليستفيدوا من تكييف المحل فى صيف حار أو شتاء بارد، أو يدخلوا فى دائره ما، لا لكى ينجزوا معامله لهم فيها، و انما ليتحدثوا فى شؤون خاصه مع زملائهم العاملين فيها.. و ما الى ذلك من الحالات الاخرى. ليعلم هؤلاء ان الإسلام لا يجوز لهم ذلك لما فيه من مضار اجتماعيه، قد لا- يظهر أثرها الا- مع مرور الزمن، كما انها تناقض الأخلاق الفاضله، و السجايا العالیه، و لو وضع هؤلاء أنفسهم موضع أهل هذه المحلات و البيوت، لما رضوا من غيرهم هذه الأعمال المخالفه.

ص: ٢٩٥

اشاره

قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ (٣٠) وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلَا يَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٣١) وَ أَنْكِحُوا الْأَيَامَى مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٣٢) وَ لَيْسَ تَعْفِيفُ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَ الَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَ أَوْهَمُ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ وَ لَا تَكْرَهُوا قِيلَانِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِيَبْتِغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَ مَنْ يُكْرِهْنَهُنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٣٣)

اللغة

٣٠ [يغض]: الغض أصله النقصان يقال غض من صفته و من بصره أى نقص منه.

هدى من الآيات:

استمرارا للحديث الماضى عن الحدود الشرعية للغريزه الجنسيه، و بعد ان بين القرآن حرمه الزنا و القتل، و حرمه دخول البيوت الا بعد الاستئناس و السلام، يبين هذا الدرس حدا آخر لها هو حرمه النظر، و ضروره الحجاب، و ما يحويه هذا العنوان، من موضوعات هامه.

و انما فرض الإسلام الحجاب ليحدد الاثاره الجنسيه فى القنوات الشرعيه النافعه لها، و ليحافظ على عفه المرأه و كرامتها، و ليهبها موقعا مناسباً فى المجتمع..

و يسمح الإسلام للمرأه بالحرية فى أسرتها الصغيره أو العائله الكبيره.. أى لدى زوجها أو الأب و الابن و الأخ و أبناء الأخ و الاخت و آباء الزوج، و بالتالى كل من يحرم عليها بالنسب أو السبب الزواج منها.

و لكن هل يجوز للمرأه باعتبارها (امرأه) التبرج أمام كل النساء؟

كلا.. فقد حدد الإسلام بقوله «أو نسائهن» النساء اللاتي يجوز للمرأة التبرج امامهن، فلا يجوز لها التبرج امام غير المؤمنات و هذا ما نصت عليه النصوص الاسلاميه.

اما بالنسبه لغير ذوى الاربه من الرجال كالبله، و المجانين، فمن حق المرأه الا تلتزم بالحجاب امامهم، لان الهدف منه كما تقدم تحديد (الاثاره الجنسيه) فى المجتمع، و بما ان هؤلاء قد ماتت الغريزه فيهم تقريبا، فلا بأس بالتبرج امامهم، و كذلك بالنسبه للأطفال الذين لم يبلغوا مبلغ الرجال و لَمَّا يميزوا.

و بعد ان حدد الإسلام الغريزه الجنسيه، صار يشجع على الزواج، و لو لا- ان الغريزه الجنسيه هى من أقوى الغرائز الدافعه للإنسان، لما تحمل أحد مسؤوليات الزواج، اننا نرى الكثيرين يتحملون الكبت الجنسي هربا من القيام بمسؤوليه الزواج، فلو وجدت فى المجتمع قنوات أخرى لتفريغ هذه الغريزه لم يقدم الكثير على تحمل مسؤولياته.

و حينما دعا الإسلام الى الزواج عالج المشاكل النفسيه التى تعترضه، و أهمها الخوف من المسؤوليات التى من أبرزها مسؤوليه الإنفاق، و تأمين العيش للأسره، حيث يعد الله المتزوجين بان يبارك لهم، و يبعث لهم بالرزق على قدر الحاجه، و هذا ما تقتضيه سنته سبحانه و تعالى، ذلك لأنه انما يتكاسل الإنسان حينما لا يشعر بالحاجه. و لكنه عند الحاجه يفجر طاقاته، و يرزقه الله تعالى.

بينات من الآيات:

اشاره

[٣٠] قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَعْضُوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَ يَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ بِمَطْلَقِ الْحِفْظِ وَ فِي كُلِّ مَجَالٍ، فَلَا يَجُوزُ لِلْإِنْسَانِ أَنْ يَسْتَشِيرَ شَهْوَتَهُ بِأَيِّ وَسِيلَةٍ مَرِيْبَةٍ - كما يسميها الفقهاء - فالنظر الى وجه المرأه الاجنبيه أو حتى القريبه، أو

النظر برييه و بهدف الآثار الى الصور و الافلام كله حرام لأنه يستثير الغريزه الجنسيه،و قد أمر الله بحفظها.

ذَلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ من ان يضعوا أيديهم فى مستنقعات الفساد المليئه بالميكروبات الخطيره التى يخشى ان تتسرب الى جسم الإنسان،و هل تتسرب الى جسم الإنسان إذا حفظ نفسه منها،و ابتعد عن مواضعها؟! ان الغريزه الجنسيه من أقوى غرائز البشر،فاذا أثرت جرفت السدود أمامها، و اندفعت فى كل اتجاه،و لربما حملت صاحبها على جرائم بشعه،و عند ما نطلع على أرقام الجرائم الجنسيه فى البلاد الغريبه حيث الميوعه و الخلاءه نصاب بالذهول، و إذا فتشنا فى أوراق المحاكم الجنائيه عن خلفيه الجرائم الكبيره،وجدنا الغريزه الجنسيه وراء كثير منها.

و إذا ملأنا الأجواء اثاره،و أشبعنا الغرائز ثوره و هياجاً،فان التوتر الجنسى العالى يضغظ باستمرار على الاعصاب،و يسبب أمراضا خطيره للرجال،و التشبيهه منهم بالذات،ذلك لان تفرغ الغريزه لا- يكون مقدورا دائما،ثم لا يقتنع الفتى الذى يستمر هيجان الغريزه فى كيانه بشريكه حياته،بل و لا- بالجنس الثانى مهما كان فاتنا،بل يهبط الى درك الشذوذ،ثم يتجاوزه الى المخدرات،ذلك المهوى السافل الذى يهدد مستقبل الحضاره البشريه.

و لا تتوقف آثار التهييج الجنسى عند مفاستها المباشره. إذ هناك آثار اخطر..

أو ليست الاثاره الجنسيه أعظم معول يهدم الشيطان به صرح الاسره،و يسبب فى شيوع الخلافات العائليه،بل و انتشار الطلاق و الزنا،و تكاثر أولاد الحرام و بالتالى ضياع الجيل الناشئ؟

فأى نعمه كبيره أسبغها الإسلام على البشر بحرمه النظر، و نظافه الأجواء العامه من سهام إبليس؟!

جاء فى حديث مأثور عن الامام أمير المؤمنين عليه السلام :

«ليس فى البدن شىء أقل شكرا من العين، فلا تعطوها سؤالها، فتشغلکم عن ذکر الله، ثم قال لكم أول نظره الى المرأه، فلا تتبعوها بنظره أخرى، و احذروا الفتنة. إذا رأى أحدكم امرأه تعجبه فليأت أهله، فان عند أهله مثل ما رأى. » (١) و قد استخدم الله كلمه «من أبصارهم» فى التعبير القرآنى دلالة على التبويض، فليس كل نظره حرام، و انما يحرم منها المريب، و النظر الى مالا يحله الله.

و الغض فى اللغة، بمعنى الخفض، و مقصود الآيه ان يحفظوا من أبصارهم، فالإنسان لا- يمكنه ان يغير العالم، و لكنه يستطيع ان يكيف نفسه حسب حكم الشرع، فاذا لحظ منظرا حراما يستطيع اجتنابه عبر طريقين: فأما أن يزيل هذا الواقع الفاسد، و أما ان يشيح ببصره عنه، و لم يأمر الله بإغماض العين لما فى ذلك من احتمال للضرر كالسقوط فى حفرة.

□
إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ فإذا التف أحد على القانون، أو عجز الحاكم عن متابعته، فانه لن يلتف على الله الخبير الذى يعلم المطبق للقانون من المخالف له، ظاهرا أو باطنا، فمن الأصلاح للإنسان ان يجعل ضميره حارسا عليه، و مراقبا لأعماله، حتى لا يسخط الله،

ص: ٣٠١

فيستحق العذاب.

[٣١] وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ لِأَنَّ الْمَسْئُولِيَةَ مَشْرُوكَةً بَيْنَ الرَّجُلِ وَالْمَرْأَةِ، وَلَكِنَّا نَلَاظِحُ أَنَّ اللَّهَ حِينَمَا فَرَضَ الْحِجَابَ فَرَضَهُ عَلَى الْمَرْأَةِ، وَحِينَمَا أَمَرَ بِغَضِّ النَّظَرِ أَمَرَ الرَّجُلَ أَوَّلًا، لِأَنَّ نَظَرَ الرَّجُلِ لِلْمَرْأَةِ أَكْثَرَ إِثَارَةً لِلْفِتْنَةِ مِنْ نَظَرِ الْمَرْأَةِ لَهُ. وَلَعَلَّ عَيُونَ الْمَرْأَةِ، وَنَظَرَاتِهَا الْفَاتِنَةَ، تَفْسِدُ الرِّجَالَ قَبْلَ أَنْ تَفْسِدَهَا. وَذَلِكَ يَعُودُ لِاخْتِلَافِ التَّرَكِيبِ الْفِئْسِيُولُوجِيِّ، فَاحْتِمَالُ تَجَاوُبِهِ مَعَهَا لَوْ نَظَرَ لَهَا أَكْبَرَ مِنْ إِحْتِمَالِ تَجَاوُبِهَا مَعَهُ لَوْ نَظَرَتْ إِلَيْهِ.

و يربط القرآن بين غض البصر و حفظ الفرج، ذلك لأن هذين الأمرين يتظافران معا في حفظ الرجل أو المرأة عن الفاحشه، أو ليست بدايه الفاحشه نظره خائنه؟!

الحدود الشرعيه للحجاب:

وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَ لِيُضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ يبين هذا المقطع من الآيه الحجاب الشرعي الذي يجب أن تأخذ به المرأة المسلمه. و هو كما فسره بعض الفقهاء، و جاء في الأحاديث ان تستر المرأة كامل بدنها وجوبا عدا الوجه، و الكفين و القدمين و كحل العين و الحناء و لبس الخاتم، فان إظهارها جائز، ثم ان على المرأة ان تلبس خمارا يستر الصدر و العنق.

جاء في الحديث عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام: و قد سأله بعض أصحابه، قال: قلت له: ما للرجل ان يرى من المرأة إذا لم تكن له بمحرم؟ قال:

«الوجه و الكفين و القدمين.» (١)

ص: ٣٠٢

و لقد كانت المرأة في الجاهلية تختمر، الا انها تبدى زينتها للرجال، حيث تجعل خمارها خلف اذنها، لتبدو اقراطها و كانت تحسر عن نحرها و بعض من صدرها، و تكشف بالتالي عن مفاتها، فجاءت الآية تأمر نساء المؤمنين بشد الخمار، بحيث لا يبدو شعرهن و لا آذانهن و لا نحورهن و صدورهن،

و قد جاء في روايه مأثوره عن الامام أبى جعفر الباقر عليه السلام .. انّ سبب نزول هذه الآية كالتالى:

استقبل شاب من الأنصار امرأه بالمدينه، و كان النساء يتقنعن خلف آذانهن، فنظر إليها و هى مقبله، فلما جازت نظر إليها و دخل فى زقاق قد سمّاه -يعنى فلان- فجعل ينظر خلفها، و اعترض وجهه عظم فى الحائط أو زجاجه فشق وجهه، فلما مضت المرأة نظر فاذا الدماء تسيل على ثوبه و صدره، فقال و الله لآتين رسول الله، و لأخبرنه، قال: فأتاه فلما رآه رسول الله قال له: ما هذا؟ فأخبره، فهبط جبرئيل بهذه الآية: «قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ» (١).

اما الزينه فظاهره: فلا يجب سترها،

و جاء فى الحديث المأثور عن الامام الصادق عليه السلام: «انها الكحل و الخاتم» (٢).

و لا يُؤيدن زينتهن إلا -بِعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ و يستوحى من هذه الآية انه لا يجوز إظهار المفاتن لغير النساء المؤمنات،

و قد

ص: ٣٠٣

١-١) المصدر/ص ٥٨٨.

٢-٢) المصدر/ص ٥٩٢.

جاء في الحديث الشريف عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام :

« لا ينبغي للمرأة ان تنكشف بين يدي اليهوديه و النصرانيه فإنهن يصفن ذلك لأزواجهن » (1).

أو مَلَكْتَ أَيَّمَانَهُنَّ أَوْ التَّابِعِينَ غَيْرِ أَوْلَى الْإِزْبَةِ مِنَ الرَّجَالِ و هم البله، و المجانين و المصابين بموت الغريزه الجنسيه كالشيوخ الطاعنين فى السن و غيرهم، ممن فقدوا الشهوه الجنسيه، أما ما يدعيه البعض من جواز إظهار المرأة زينتها للخادم و الحارس، سواء فى البيت أو المدرسه أو الدائره خطأ كبير يخالف التعاليم القرآنيه. اذن فلا يجوز للمرأة ان تظهر زينتها الا لمن ذكرته الآيه آنفا.

أَوِ الطُّفْلِ الَّذِي لَمْ يَظْهَرُوا عَلَيْهِ عَوْرَاتِ النِّسَاءِ فاذا بلغ الطفل مبلغ الرجال أو صار مميزا فى هذا الجانب، حرم على النساء إظهار زينتهن امامه.

و لا يَضْرِبَنَّ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ فتستثير شهوه الرجل الجنسيه، لذلك لا ينبغي للمرأة الخروج بعطر فواح بين الرجال الأجانب، مما يدل على ان الإسلام يلتفت للجوهر لا للقشور. إذ يفرض على المرأة الحجاب الباطنى أيضا.

من هنا حرم بعض الفقهاء الاستماع لصوت المرأة الاجنبيه، أو ان تخضع المرأة فى حديثها فان ذلك مما يستثير الرجل، و لعله من مضامين الآيه أن تلبس المرأة حذاء

ص: ٣٠٤

أو نعلًا، يفتعل صوتًا عند مشيها، مما يلفت الانتباه لها، بينما لولاه لم يعلم بها أحد أو يلتفت إليها وهي تمر.

□
وَ تَوْبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ فلم يخلق الإنسان معصوما، اذن لا غرابه ان يسقط سقطات عصيان، و لكن الغريب هو ان لا يعالجها بالتوبه. و لقد كان الرسول صلى الله عليه و آله يستغفر ربه كل يوم مائه مره.

[٣٢] و حرّض الإسلام على الزواج ليكون القناه النظيفه لأقوى غريزه عند البشر، فقال سبحانه:

□
وَ أَنْكِحُوا الْأَيَامَىٰ مِنْكُمْ وَ الصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَ إِمَائِكُمْ لأنهم بشر يمتلكون نفس الغرائز و لديهم نفس الحاجات، و الايم مفرد أيامى و هى كلمه تطلق على غير المتزوج، مرأه كان أو رجلا، اما توفير الوسائل و التسهيلات اللازمه للزواج فهى مسئوليته اجتماعيه كسائر المسؤوليات الأخرى.

و هذه الآيه تشمل الشاب الأعزب رقا كان أم حرا، إذ يجب على المجتمع تزويجهم جميعا.

و لأن أكبر العقبات النفسيه امام الزواج هى خشيه العيله، فان ربنا سبحانه يزيح هذه العقبه بقوله:

□
□
إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَ اللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ فقدرته واسعه، و فضله واسع، و علمه محيط بكل شىء فلا يعجزه شىء، و إذا تدبرنا فى هذه الآيه، و من خلالها فى سنن الله فى الحياه، عرفنا ان عجله الحياه لم

نكن لتدور من دون الزواج،الذى هو أبرز مظاهر التعاون عند الجنس البشرى أ و ليست الحاجه أم الاختراع،أو ليس الاحساس بالمسؤوليه صاعق القوى الكامنه عند الإنسان؟!ان رزق الله كامن فى الأرض،وقدرات الإنسان كامنه فى نفسه، انما تتفجر تلك القدرات فتستخرج رزق الله بالأمل و الحاجه و السعى.

و من هنا

جاء فى روايه مأثوره عن النبى صَلَّى الله عليه و آله :

«من ترك التزويج مخافه العيله فقد أساء ظنه بالله عز و جل،ان الله عز و جل يقول: إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ .»
(1)بل ان النبى كان يوصى الفقراء بالزواج لكى يوسع الله عليهم.

يروى الامام الصادق عليه السلام انه أتى رسول الله شاب من الأنصار،فشكا اليه الحاجه،فقال له:«تزوج»فقال الشاب:انى لأستحي ان أعود الى رسول الله، فلحقه رجل من الأنصار فقال:ان لى بنتا وسيمه،فزوجها إياه،فقال:فوسع عليه،فأتى الشاب النبى فأخبره،فقال رسول الله:يا معشر الشباب عليكم بالباه (اى بالنكاح). (2)

و لقد بلغ من تحريض الإسلام على الزواج:

ان يقول الامام الصادق عليه السلام :

«ركعتان يصليهما المتزوج أفضل من سبعين ركعه يصليهما الأعزب.» (3)

و يروى عن رسول الله قوله :

ص: ٣٠٦

١-١) المصدر/ص ٥٩٥.

٢-٢) المصدر/ص ٥٩٦.

٣-٣) المصدر.

«من تزوج أحرز نصف دينه.» (١)

وقال :

«رذال موتاكم العزاب.» [٣٣]٢ عند ما لا يوفق الإنسان للزواج، أو يكون عاجزاً عن ذلك فعليه ان يتعفف، و يتحصن بالايمان، لا ان يفسد فى الأرض أو يكون سبباً لانتشار الفاحشه فى المجتمع.

وَ لِيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ

قال الرسول صلى الله عليه و آله :

«من استطاع منكم الباءه فليتزوج، و من لم يستطع فعليه بالصوم، فان الصوم له وجاء.».

و بمناسبة الحديث عن مسئوليته الزواج، أخذ السياق يعالج مشكله اجتماعيه كانت حاده ذات يوم، هى مشكله الرقيق، حيث كان الذكور منهم يبقون بلا زواج، و يعيشون عناء العزوبه، و يشكلون بؤره الفساد، فأمر الله بمكاتبتهم، ليتحرروا، و لينكحوا مثل غيرهم.

وَ الَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا الْمَكَاتِبَةُ هِيَ ان يأتى العبد الى سيده ليشتري نفسه منه بمقدار مقسط من المال،

ص: ٣٠٧

١-٢، (١) المصدر.

و ينبغي لكل من يملك عبدا ان يطرح عليه هذا المشروع، فان تجاوب معه، و استطاع كان حرا، و هذه ما تسمى بالمكاتبه المشروطه، و هناك مكاتبه اخرى تسمى بالمطلقه: يدفع فيها العبد حسب استطاعته المبلغ الذى يفك رقبته به.

وَ آتَوْهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ مِنْ سَهْمٍ «و فى الرقاب» الذين هم أحد مستحقي الزكاه. و فى الأحاديث يضع عنهم المولى الخمس أو الربع.

أما الإمام فكن فى الجاهليه يتاجر بأجسادهن، و جاء النهى الصريح عن ذلك.

وَ لَا تَكْرَهُوا فَيَلْبَسُوا عَلَيْكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِيَبْتِغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا و لهذه الآيه تفسيراً ظاهراً و باطناً، أما الظاهر فهو ان عبد الله بن أبى كان يجبر فتياته على الزنا، ليكسب مالا من وراء بغائهن، فاشتكى امره لدى الرسول صلى الله عليه و آله فنزلت الآيه الكريمة «و لا تكرهوا...»، و لهذا فانه لا يجوز ان يفسح المجتمع لمثل هؤلاء ان يمارسوا أبشع أنواع التجاره و هى (التجاره بأجساد النساء).

وَ مَنْ يُكْرِهِنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ ان المجتمع الفاسد، و الاقتصاد المنحرف، و بالتالى الفقر المدقع، كانت عوامل ألجأت النساء الشريفات بفطرتهن لممارسه الانحراف، و امتهان البغاء، و لذلك فان الله يقبل توبتهن اليه.

جاء فى الحديث فى تفسير هذه الآيه الكريمة :

« كانت العرب و قریش يشترون الإمام، و يضعون عليهم الضريبه الثقيله

و يقولون: اذهبوا و ازنوا و اكتسبوا، فنهاهم الله عز و جل عن ذلك. « (١) و لعل الآيه تشير أيضا الى ضروره رفع العقبات الاجتماعيه التي تكره الفتيات على البغاء، مثل غلاء المهور، و وضع شروط للتزويج - مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ - و لقد واجه الإسلام هذه العقبات بقوه،

فقد جاء فى السيره: ان رسول الله صلى الله عليه و آله زوج المقداد بن الأسود ضباعه بنت الزبير بن عبد المطلب، و انما زوجه لتضع المناكح، و ليتأسوا برسول الله، و ليعلموا ان أكرمهم عند الله أتقاهم. (٢)

و شجع الإسلام على المساعدة فى أمر الزواج لتسهيل أمر هذا المشروع الحضارى،

فقد جاء فى الحديث المأثور عن الامام الباقر عليه السلام :

«ثلاثه يستظلون بظل عرش الله يوم القيامة، يوم لا ظل الا ظله، رجل زوج أخاه المسلم أو أخدمه، أو كتم له سرا. « (٣)

ص: ٣٠٩

١-١) المصدر/ص ٦٠٢.

٢-٢) المصدر/ص ٥٩٧.

٣-٣) المصدر/ص ٥٩٩.

اشاره

وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُبِينَاتٍ وَمَثَلًا مِّنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ (٣٤) اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ
 كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ
 زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٣٥)
 فِي بُيُوتٍ أُذِنَ لِلَّهِ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ (٣٦) رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَ
 إِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ (٣٧) لِيَجْزِيَ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ وَاللَّهُ
 يَنْزِقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٣٨) وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيَعِهِ يَتَّخِذُهَا الظَّمَانُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ
 اللَّهَ عِنْدَهُ فَوْقَهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٣٩) أَوْ كظلماتٍ في بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ
 بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ (٤٠)

اللغة

٣٩]بقيعه[:القيعه جمع قاع و هي الواسع من الأرض المنبسطة و فيه يكون السراب.

٤٠]بحر لَجِي[:لجه البحر معظمه الذي يتراكب أمواجه فلا يرى ساحله.

ص: ٣١١

هدى من الآيات:

ان النور الذى يتجلى فى طبيعه هو النور الذى يشع فى قلب البشر، لان ينبوع واحد، وهو الله الذى يمسك السماء و الأرض بيد من قدره، و لو لا هيمنته تعالى لما استقر حجر على حجر، و لو لا فيض رحمته لم يبق شىء من الوجود، فهو ليس قائما بذاته و انما بما يمد به الله من نور البقاء.

و كمثل على ذلك- و تعالى الله عن الأمثال- لو توقف المصباح عن اشعاع النور لحل الظلام على الفور، و لا يعنى ذلك ان خلق الله للأشياء هو كما يفيض النور من المصباح، كلا.. و انما بالإرادة التى لا تحتاج الى زمان، أو شىء من المعاناه، انما هى لحظه الاراده المخلوقه و نفحه الرحمه المعطاه.

و ما الإسلام الا- حكمه قائمه على أساس هذه الفكرة: «وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا» و لعلنا نسميها ببصائر النور، و لا مجال للحديث عن أبعادها الاسلاميه العميقه، و انما يتنا ذلك، لكى نعرف الجانب الآخر و هو: ان النور فى القلب

والمجتمع هو نفس النور في حياه الإنسان التشريعيه-و هو نفس النور في الحياه التكوينيّه،فلو أمسك الله تعالى فيض نوره عن السماوات و الأرض لانعدمتا في أقل من لحظه،كذلك لو أمسك فيض نور رسالته عن البشر في حياتهم التشريعيه و الاجتماعيه لساد الظلم و الظلام.

لذا فان نور الله في التشريع كمصباح في مشكاه(و المشكاه حفره شق في الجدار يضعون المصباح فيها بعد ان يحيطوه بزجاجه تزيد من اضائته)و وظيفه المشكاه هي العمل على تركيز النور،و أفضل الزيوت التي كانت تستخدم للاضاءه في ذلك الوقت هو زيت الزيتون الذي يزرع فوق الجبال،فلا يظلها يسار الجبل عن الشمس حين الشروق،و لا يمينه حين الغروب،فهى لا شرقيه و لا غربيه،و كلما كان الزيت أصفى كان ضوءه أبهى..و كم تكون الاضاءه نيره حينما يكون وقودها زيت الزيتون،و يكون المصباح في مشكاه عبر زجاجه؟! كذلك نور الله الذى يهبط و حيا فيستقر في قلب الرسول صلى الله عليه و آله الزكى،الطاهر كما المصباح يشع نورا من زيت نقى، و رسول الله يحيط هذا المصباح بزجاجه السنه الشريفه،ليضع الجميع في اطار أهل بيته الطاهرين-عليهم الصلاه و السلام-الذين هم أشبه شىء بمشكاه نظيفه تحفظ النور و تنميه نورا على نور.

ان بيوتهم التي أذن الله ان ترفع،كانت مشكاه للرساله لأنها ضمت ذكر الله،المنبعث من قلوب أولياء الله،المتقد بوقود مبارك هو الصلاه و الزكاه و خشيه المنقلب،و هذا البيت هو المثل الأعلى للاسره المباركه حيث يجرى السياق في سوره النور لبيان صفاتها المثلى.

و هكذا نستوحى من هذه الآيه ضروره جعل نور الايمان في مشكاه الاسره، و ذلك من أجل تربيته النفس البشريه و تنميه العوامل الخيره فيها لتضاعف خيراتها

و برکاتها، کالزیتونه اللاشرقیه و اللاغریبه، تمتص من اشعه شمس الرساله أزکاهها، و أنماها، و هكذا نتذکر بالآیات ان هناك سورین للاسره الفاضله: سور مادی و هو البيت الذی یحرم على الاجنبی اقتحامه، و سور معنوی یعلو بالقیم السامیه، و البيت الذی اذن الله له ان یرفع انما هو الذی یحصیه ذکر الله و تسیحه، و الذی یشغل أبناءه بمعایشهم و لكن دون ان تشغلهم عن ذکر ربهم، و هكذا تحافظ الاسره على مهمه الإنسان، الذی خلقه الله مصباحا للحیاه، یتفجر من جوانبه النور - اراده و عقلا و عواطف - فلو ترک هذا النور تلفحه ریح الشهوه لانطفأ أو لا - أقل لقلت اضاءته، و لكنک تجد من الناس من لا نور لهم أساسا، و هم یجعلون أنفسهم فی قبور من ظلمات الکفر و الجحود، کاللیل المظلم تلقه أمواج الشهوه، و تکتفه سحب الغفله، فلا یجد السبیل الی فهم الحقیقه أبدا.

بینات من الآیات:

الله نور السموات و الأرض:

[۳۴] وَ لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُّبِينَاتٍ ان الآیات المبینات هی التى توضح الطریق للناس، و تجعلهم قریبین من الحقائق، و أسلوب القرآن فی تفهیم الحقیقه هو أسلوب التذکره، و اثاره العقل، بتوجیحه لها، فالحقائق موجوده و الإنسان یمتلك ما یکشفها، و لكنه بحاجه الی من یدله علیها، و یدکره بها، و ذلك عن طریق الآیات التى تشير إليها، کالعبر التاريخیه.

وَ مَثَلًا مِّنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ لَتتعطوا بتجارب الآخرین، و تزدادوا معرفه و رشدا.

وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ الَّذِينَ يَخَافُونَ عِقَابَ اللَّهِ، أما من لا يخاف عقابه، فإنه لا يستفيد من القرآن، فهو كالأعمى لا يستفيد من نور الشمس، وهكذا القرآن علم و حكمه و موعظه، ففيه آيات تبيّن سنن الله، مما يزيد البشر علما، ثم يضرب الأمثال من الأعمم الغاير، مما يزيد البشر حكمه، ثم يوصل ذلك العلم و تلك الحكمه بحياه القارئ مباشره فيكون موعظه لمن يتعظ.

[٣٥] اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ يَفِيضُ مِنْ نُورِهِ بِمِشِيئَتِهِ الْمَظْلُوقَةُ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ خَلْقًا بَعْدَ خَلْقٍ، و لحظه بلحظه، و كما يفعل ذلك في عالم التكوين (الطبيعه) فإنه يفعل ذلك في عالم التشريع (الأحكام) إذ يفيض علينا برسله و رسالاته، فيعطى الإنسان النور (العقل) لحظه بلحظه، ليفهم رساله به.

ان نور الله يتجلى في الطبيعه كما يتجلى في التشريع. و ربما تبين هذه الآيه المثل الثانى، فلقد جاء فى بعض التفاسير ان المقصود من المشكاه هو قلب الرسول صلى الله عليه و آله اما المصباح فإنه رسالات الله التى أنزلها على ذلك القلب الطاهر.

الْمِصْبَاحُ فِي زُجْاجِهِ يَمَكْنُنَا تَأْوِيلُ الزُّجَاجِ بِالْعَقْلِ الَّذِي يَسْتَقْبِلُ نُورَ الرِّسَالَةِ، أو ليس هو الرسول الباطن، أو ليس هو الحجه الباطنه، و عنده تصديق ما أنزل الله؟! كما يمكن تأويله بالرجال الصالحين ممن يحفظون رسالات الله، و هذا هو المأثور.

الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ فِي نِقَائِهَا وَ تَلَأُلُئْهَا، فعند ما تتلوث هذه الزجاجه فان النور يخبو، و هكذا الأمر

بالنسبه للعقل عند ما يتلوث بالأهواء. لا يرى الحقيقه بعينه، و لا يسمعها بأذنه، و لذا فان مصباح الوحي لا ينفعه الا قليلا، و انما يؤيد الرساله من ذكر نفسه، و تالأ لأ عقله، و لم يلهه عن رسالات ربه شىء.

يُوقَدُ مِنْ شَجَرِهِ مُبَارَكِهِ زَيْتُونَهُ لِأَنَّهُ يَحْتَاجُ إِلَى زَيْتٍ يَتَّقِدُ بِهِ، وَإِذَا أُرْدْنَا أَنْ نَوُولَ الشَّجَرَةَ الْمُبَارَكَةَ نَقُولُ أَنَّهَا شَجَرَةُ الْعِلْمِ أَوْ التَّقْوَى. إِذْ إِنَّ الْمَعْرِفَةَ تَمُدُّ مَصْبَاحَ الْوَحْيِ بِالْوَقُودِ فَيَزِدُّهُ بَهَاءً وَ نُورًا فِي مَشْكَاهِ الْقَلْبِ، وَ بِهَذَا جَاءَتْ الرَّوَايَةُ الْمَأْثُورَةُ.

لَا شَرْقِيَّةَ وَلَا غَرْبِيَّةَ بَلْ فِي مَكَانٍ تَنْشُرُ بِرِكَاتِهَا عَلَى الْعَالَمِ أَجْمَعِ، دُونَ أَنْ تَخْتَصَّ بِهَا أَرْضٌ دُونَ أُخْرَى، وَ لَعَلَّ هَذِهِ الْكَلِمَةُ تَشِيرُ إِلَى الْإِسْتِقَامَةِ فِي التَّقْوَى، حَيْثُ أَنَّ الْمُتَّقِينَ لَا تَمِيلُ بِهِمْ ضُغُوطُ الْحَيَاةِ يَمِينًا أَوْ شِمَالًا، وَ قَدْ تَعَدَّدَتْ النُّصُوصُ الَّتِي فَسَّرَتْ هَذِهِ الْآيَةَ الْكَرِيمَةَ، وَ نَذَكَرُ فِيهَا يَلَى

ما جاء عن الامام على بن الحسين عليه السلام فى تفسيرها :

فى قوله عز و جل « كَمِشْكَاهٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ » قال: المشكاه نور العلم فى صدر النبى صلى الله عليه و آله .

« الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجِهِ » : الزجاجة صدر على، صار علم النبى الى صدر على، علم النبى عليا.

« الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرِهِ مُبَارَكِهِ » قال: نور العلم.

« لَا شَرْقِيَّةَ وَلَا غَرْبِيَّةَ » قال: لا يهوديه و لا نصرانيه.

« يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَ لَوْ لَمْ تَمَسَّهُ نَارٌ » قال: يكاد العالم من آل محمد

يتكلم بالعلم قبل ان يسأل.

« نُورٌ عَلِيٌّ نُورٌ »:يعنى إماما مؤيدا بنور العلم و الحكمة فى أثر إمام من آل محمد صلى الله عليه و آله و ذلك من لدن آدم إلى أن تقوم الساعة،فهؤلاء الأوصياء الذين جعلهم الله عز و جل خلفاء فى أرضه،و حججه على خلقه،لا تخلو الأرض فى كل عصر من واحد منهم. (١)

يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَ لَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ فَالإنسان السوى-صاحب العقل النظيف-يمتلك علما نقيًا،بعيدا عن الأهواء و الخرافات،فنفسه الشفافه تنتظر ادنى اشاره لتستوعب الحقائق،و الآية تشير -فيما يبدو لى-الى ان التقوى-و هى زيت مصباح الوحي الزلال النظيف- هى طريق الهدى و سبيل المعرفة،و مهد الحكمة و السداد،فانها تكاد تضيء الحقائق للبشر و لو لم تمسه نار الوحي و نوره،لذلك قال ربنا بعدئذ:

نُورٌ عَلِيٌّ نُورٌ فنور الوحي يتقد بنور التقوى،و الوحي يتألق بنور العقل،الا ان التوفيق للهدايه لا بد ان يأتى من الله سبحانه.

يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ فالله هو الذى يهدى من يشاء من عباده للنور الذى أرسله،و هو نور الوحي و نور محمد صلى الله عليه و آله و سنته الرشيده،و نور أهل بيته الطاهرين (عليهم السلام).

وَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ

ص: ٣١٧

فيعلمه أضاف نور الرساله الى نور العقل، و لا يمكن لأحد ان يستفيد من هذا النور دون مشيئته، فلا بد من التوجه له حتى يفيض على الإنسان من نوره، و لا يكون ذلك الا عند ما يخلص الإنسان العبوديه له.

و لعله انما قال تعالى: «لنوره» و لم يقل: (بنوره) لأنه يهدى الإنسان بنور رسالته، لنور رحمته.

بيوت الله:

[٣٦] ان نور الرساله لا بد ان يوضع فى البيت الرفيع و الاسره الفاضله كى يزداد اتقادا، أما الاسره المليئه بالعقد النفسيه، و الصفات الرذيله، فان النور ليس لا يتقد فيها فحسب، بل و يخفت حتى ينتهى الى الظلام.

ففى تلك البيوت الرفيعه تنمو النفوس الطيبه، ينمو العقل التير، لأنها البيوت التى يذكر فيها اسم الله كثيرا، فيأذن الله لها بالارتفاع الى سماء الوحي، فهى محل للعباده و التسبيح فى بدايات النهار و اخرياته، من رجال جعلوا ذكر الله فوق كل ذكر، و فوق التجاره التى لا تمنعهم عن ربهم، و لا تلهيهم عن اقام الصلاه، و إيتاء الزكاه.

ففى بُيُوتِ أَذْنِ اللَّهِ أَنْ تُزْفَعَ تَلْكَ هِى بِيُوتِ الْأَنْبِيَاءِ وَ الصَّادِقِينَ وَ الصَّالِحِينَ، و لو لا ان الله أذن لها ان ترفع، و يكون رجالها خير الرجال، و نساؤها خير النساء، منهم الاثمه و الولاه، و فيهم سيده النساء، و قدوه الصالحات و هم أهل بيت الرساله.. لو لا هذا لما حق لها ذلك، ان الناس عبيد الله، و هو الذى يختار لهم الاثمه و الساده، و لا ينبغى ان تكون للناس الخيره من أمرهم، و حتى طاعه الناس لرسول الله لا تكون الا بإذن الله، فقد قال ربنا عز و جل « وَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ »

و جاء فى حديث مأثور

ص: ٣١٨

عن الامام الباقر عليه السلام فى تفسير البيوت هنا :

«انها بيوت الأنبياء و الرسل و الحكماء و أئمة الهدى.» (1) و لكن لماذا رفعت هذه البيوت؟ انما بذكر الله.

وَ يُذَكَّرُ فِيهَا اسْمُهُ ان ذكر الله ينبعث من قلوب طاهره هى المشكاه لنور الله.

يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ فعند ما يستقبلون النهار يسبحون ربهم، و يحيون صباحهم بتقديسه حتى لا يقدسوا ما سواه، و إذا مالت الشمس الى المغرب، و استقبلوا سواد الليل سبحوا ربهم ليغسلوا عن قلوبهم أدران الحياه و يأووا الى فراشهم بأفئده طاهره.

[37] ان نور الله يتجلى فى ضمير هؤلاء المسبِّحين لأنهم تعالوا عن ملهيات الحياه، فلا- خشيه الخساره فى التجاره، و لا تبادل المصالح بالبيع يمكن لهما ان يلهياهم عن ذكر الله، و أداء واجباتهم.

رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ فَلذلك تراهم يبصرون الحياه من خلال نافذه الوحي، و يجرون عليها شرائع الدين، فلا تمنعهم ضغوط المعيشه عن تنفيذ الأحكام.

وَ إِقَامِ الصَّلَاةِ وَ إِيْتَاءِ الزَّكَاةِ لان خشيه المعاد تفوق عندهم خشيه الخساره فى التجاره و البيع.

ص: ٣١٩

يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ فَهُمْ حَذِرُونَ أَبَدًا لِأَنَّهُمْ يَخْشَوْنَ أَنْ يَبْعَثُوا عَلَى غَيْرِ دِينِ اللَّهِ، وَأَلَّا تَقْبَلَ حَسَنَاتِهِمْ وَلَا تَغْفِرَ سَيِّئَاتِهِمْ.

[٣٨] لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ فَلَا يَكْتَفِي بِأَنْ يَجْزِيَهُمْ عَلَى أَحْسَنِ أَعْمَالِهِمْ، بَلْ يَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ لِأَنَّهُ الْغَنَى الَّذِي لَا تَزِيدُهُ كَثْرَةُ الْعَطَاءِ إِلَّا جُودًا وَكِرَامًا.

[٣٩] وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيَعِهِ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فُوفَاءً حِسَابُهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ فَبَعْضُ النَّظَرِ عَنِ إِيْمَانِ الْإِنْسَانِ أَوْ كُفْرِهِ، وَاسْتِقَامَتِهِ أَوْ انْحِرَافِهِ، فَإِنَّهُ يَسْعَى دُؤُوبًا لِتَكُونَ أَعْمَالُهُ مَثْمَرَةً تَصِلُ بِهِ إِلَى أَهْدَافِهِ وَطُمُوحَاتِهِ، وَلَكِنَّ الْإِنْسَانَ الْمُؤْمِنَ الَّذِي يَتَّبِعُ تَعَالِيمَ السَّمَاءِ هُوَ وَحْدَهُ الَّذِي يَصِلُ إِلَى نَهَائِهِ سَعِيدَةً، أَمَّا الْكَافِرُ فَإِنَّهُ لَا يَحْقُقُ مِنْ أَهْدَافِهِ شَيْئًا بِالرَّغْمِ مِنْ إِجْهَادِهِ لِنَفْسِهِ.

وَلَيْتَ الْأَمْرَ يَقِفُ عِنْدَ هَذَا الْحَدِّ، فَبِالْإِضَافَةِ إِلَى الْفِشْلِ فِي الْوَصُولِ إِلَى السَّعَادَةِ، فَإِنَّهُ يَجِدُ نَفْسَهُ أَمَامَ رَبِّ رَقِيبٌ قَدْ أَحْصَى أَعْمَالَهُ، وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا شَدِيدًا جَزَاءً كُفْرِهِ.

وَلَا يَظُنُّ الْمَرْءُ أَنَّ حِسَابَ اللَّهِ مَخْتَصٌ بِيَوْمِ الْآخِرَةِ فَقَطْ، بَلْ قَدْ يَرَى نَتِيجَةَ عَمَلِهِ فِي حَيَاتِهِ الدُّنْيَوِيَّةِ أَنْ خَيْرًا فَخَيْرًا، وَأَنْ شَرًّا فَشَرًّا، وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ.

[٤٠] أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرِ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكِدْ يَرَاهَا

وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ كَمَنْ يَغْرُقُ فِي ظِلْمَاتِ أَعْمَالِهِ الْمُنْحَرَفَةِ، فَلَمْ يَعِدْ يَرَى شَيْئًا مِنْ طَرِيقِهِ فِي الْحَيَاةِ، بَلْ يَبْلُغُ حَدًّا لَا يَرَى فِيهِ يَدَهُ لَوْ قَرِبَهَا مِنْ عَيْنِهِ، وَذَلِكَ بِسَبَبِ عَصْيَانِهِ لِرَبِّهِ، مِمَّا سَبَبَ فِي سَلْبِ النُّورِ مِنْ عَقْلِهِ، وَسَمْعِهِ، وَبَصَرِهِ، فَضَلَّ يَتَخَبَطُ فِي دِيَابِجِ الظُّلَامِ الدَّامِسِ، وَالْآيَةِ الْكَرِيمَةِ تَبِينُ أَنَّ أَعْمَالَ الْكَافِرِ هِيَ بِنْدَاتُهَا ظُلَامٌ، وَهَلْ يَهْتَدِي مَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فِي الْحَيَاةِ؟!.

و كلمه أخيره: نجد في آيات هذا الدرس غره الجمال و غايه الروعه، فبعد ان ذكرتنا الآيه الاولى بان القرآن آيات مبینات، و مثل و موعظه، بصرتنا الآيه الثانيه تجليات نور الله في السماوات و الأرض.. و مثلاً منها تجلى بالوحى في مشكاه قلب الرسول فاذا به نور على نور، و بعد ان ذكرتنا آيه النور- التي سميت السوره بها- بتفاصيل هذا النور فسرتها بالمثل الواقعى لتجسيد هذا النور:

الف- فهذه بيوت النبوه سمت بذكر الله، انه مثل للمشكاه تستقبل المصباح، « مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاهٍ ».

باء- و يزهر فيها ذكر الله كما المصباح يشع في المشكاه «فيها مصباح».

جيم- و الصالحون في هذه البيوت هم سور ذكر الله، كما الزجاجه للمصباح، و هم في ذات الوقت حصون الدين، و أوتاد العلم و الفضيله « الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجِهِ ».

لذلك هم يسبحون ربهم بالغدو و الآصال لا تلهيهم تجاره و لا بيع.

دال- و تعلق شعائر الله على أكتافهم من اقام الصلاه و إيتاء الزكاه، و تلك الشعائر و قود مسيره التوحيد، و زيت اتقاد نور الوحى في الآفاق « يُوقَدُ مِنْ شَجَرِهِ مُبَارَكِهِ ».

هاء- ثم يبصّرنا السياق بجزء هؤلاء و ان الله يزيدهم من فضله « نُورٌ عَلَى نُورٍ ».

و يبين القرآن صفات الكفر في الطرف الآخر من الصورة ليرينا مدى اتساع الهوة بين الطرفين:

الف- فبينما نجد هنا المشكاه أو البيوت الرفيعه، لا نجد هنالك الا سرايا لا حقيقه له في قيعة، لا سور و لا حدود واضحة، و لا موانع طبيعيه.

باء- و هنا يتسع النور، اما هنالك فظلمات فوقها ظلمات. أمواج البحر تغشاها سحب الليل.

جيم- و هنالك بيوت رفيعه، يجللها نور الرساله، و يسمو بها ذكر الرب على شفاه رجال متعالين عن الدنيا، يجب على العباد احترامها، و تعظيم أهلها، و طاعتهم، أما هنا فظلمات بعضها فوق بعض، لا تأوى من شر و لا تحمى من خطر، و هم الطغاه و لاتهم الظلمه الذين يجب البراءه منهم، و

قد جاء في تفسير أئمه الهدى ان الظلمات «فتن بنى أميه» (1)، و يجرى فيمن يتبع النهج الأموى الجاهلى من الطغاه و الظلمه.

ص: ٣٢٢

١-١) المصدر/ص ٦١١.

اشاره

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرِ صَافَاتٍ كُلِّ قَدْ عَلِمَ صِيَغَاتِهِ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ (٤١) وَ لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ (٤٢) أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُرْجِي سَاحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيَهْبِطُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنِ مَنْ يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقُهُ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ (٤٣) يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لَأُولِي الْأَبْصَارِ (٤٤)

اللغة

٤٣[يرجى]:الإرجاء و الترجيه الدفع و السوق.

[ركاما]:أى متراكما على بعضه.

[سنا]:الضوء و اللمعان.

ص:٣٢٣

هدى من الآيات:

كيف نعى الحقيقه الهامه التى ختمت بها آيات الدرس الآنف: « وَ مَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ »؟ و كيف نسمو بأنفسنا الى شأو الرجال الذين يسبحون الله بالغدو و الآصال، دون ان يلهيهم عنه شىء؟ يجيب السياق فى هذا الدرس: بالاستماع الى سبحات الخلائق، « أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ .. ».

تعال و انظر الى الطير صافات، تسبح ربها بألحان مختلفه، و الله قد علم صلاتها و تسبيحها، و علم ماذا تفعل.

و قد بسط الله ملكه و سلطانه على السموات و الأرض، و هو إذ يشأ يقبضهما اليه، و اليه المصير.

و هو الذى يسوق السحاب ثم يؤلفه ثم يركزه و يكتفه فاذا بالمطر ينبعث من

خلاله، فيسقى به الرب من يشاء من عباده و يمنعه عن يشاء، و إذا التقى السحابان يولدان البرق الذى يكاد ضياؤه يذهب بالأبصار.

و هكذا يدبر الله الليل و النهار، يختلفاه، و فى ذلك عبره لأولى الأبصار.

و هكذا يهديك الله الى ذاته ببالحجته:

فأولاً: يريك الحقيقه التى تتجلى فى كل شىء، و على لسان كل حى الا و هى تسبيح الله و تقديسه.

و ثانياً: يذكرك بملكه و سلطانه.

و ثالثاً: يبصرك بطائف نظمه و حسن تدبيره.

فإن صرت من ذوى الأبصار فان العبره هذه تكفيك هدى.

بينات من الآيات:

تدبير الله آيه ملكه:

[٤١] يتجلى ملك الله و سلطانه الشامل فى تدبيره لشؤون الوجود، و التقلبات المستمره التى نشاهدها فيه، فالكون ليس ثابتاً، بل هو فى حركه دائمه، الليل يخلف النهار، و النهار يغشاها الليل، و السحب تأتي و تذهب و الأمطار تتراوح بين الهطول و الانقطاع.

و هذه الحركه بذاتها دليل على من يحركها، و النظام فيها دليل حكمته و واسع قدرته، فمن الذى يسيّر السحاب فى هذا الاتجاه أو ذاك؟

ص: ٣٢٥

ولماذا يتراكم على ارتفاعات ثابتة ولا يذهب الى اعماق الفضاء؟ ولماذا لا تعود السحب الى المحيطات التي انطلقت منها فتمطر فيها بدل ان تتوجه الى الأرض اليابسه فترويها؟ ولماذا لا يحصل اضطراب فى تعاقب الليل و النهار؟ ولماذا..

ولماذا...؟ إلخ.

ان هذه الظواهر الطبيعيه (و كثير غيرها) دليل الحكمة البالغه للخالق المبدع سبحانه، و لعل فى قوله تعالى: «يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ» اشارة الى ضروره ملاحظه تحولات الحياه، و تقلباتها، فلاحظه الشروق.. لخطه الأصيل.. لخطات حلول الربيع و الخريف.. لخطات المطر.. و ما الى ذلك تهدى الإنسان الى سر الحياه.

و هكذا التحولات الاجتماعيه و السياسيه الكبيره، كغروب الحروب و سقوط دول و قيام أخرى، تعكس سنن الله فى المجتمع، لأن قوانين الحياه و انظمتها انما تكتشف فى هذه اللحظات، فهل يعرف المنظرون السياسيون القوانين التى تحكم عالم السياسه الا من خلال الاحداث و التحولات الهامه؟ ينزل المطر، و تدب الحياه الى الأرض الجرداء فتخضر، و تغنى الطبيعه على أديمها و تنشط فيها الدواب و الطيور. إن هذه التحولات تفيض معانى جديده، على القلوب الطاهره. فتسبح ربها و تكبره.

و حين يعلم الإنسان زخارف الحياه و مباحجها تتغير باستمرار، فلا ملك يدوم و لا ثروه تبقى و لا جاه يستمر فيها، آنئذ لا يطمئن إليها، بل يطمئن الى الحى الذى لا يموت، فلو عقل الملك زوال الحكم، و الغنى زوال الثروه، لما استبد أو بخل، و لما استكانت نفسه أو اطمأنت الا الى خالقه، الحق الذى لا يتغير.

و هكذا يذكرنا الرب بسبحات الخلائق فيقول:

ص: ٣٢٤

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرِ صَافَاتٍ تَسْبِيحًا بِحَمْدِ اللَّهِ، وَهَذِهِ آيَةٌ تَدُلُّ عَلَى أَنَّ كُلَّ مَخْلُوقٍ قَادِرٌ عَلَى التَّسْبِيحِ، وَانَّمَا وَصَفَ اللَّهُ غَيْرَ ذَوِي الْعُقُولِ بِوَصْفِ ذَوِي الْعُقُولِ، لِيَدُلَّنَا عَلَى أَنَّ لِكُلِّ حَيٍّ شَعُورًا بِقُدْرَةِ يُسَبِّحُ بِهِ رَبَّهُ قَالَ تَعَالَى: «وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ».

ان رهافه سمع اولى الأبصار تجعلهم يسمعون تسبيح كل حي في السموات و الأرض، لأنهم يتجاوزون المظهر الى اللب، و يعبرون الدلالات الى الحق و الشواهد الى الغيب، فبالنسبة إليهم لا تعنى حركة الأسماك فى البحار، و لا صراع الوحوش فى الغابات، و لا رفرفه الطيور فى الفضاء، مجرد نشاط عابث من أجل البقاء، انما فيه أيضا محتوى ربانى، و ابعاد فوق ماديه، انه تسبيح و صلاه و سعى نحو الأعلى..

كيف لا يسبح ذلك القلب الزكى الذى لا يلتفت الى حى حتى يسمع منه التسبيح، و يرى منه الصلاه و التبتل و إذا وجد بلاء يصيب واحدا من الأحياء عرف انما أصيب لأنه نسي ذكر الله.

جاء فى روايه عن أبى عبد الله الصادق عليه السلام :

«ما من طير يصاد فى بر و لا بحر و لا يصاد شىء من الوحش الا بتضييعه التسبيح. » (١) كُلُّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَ تَسْبِيحَهُ وَ اللَّهُ عَلَيْهِ بِمَا يَفْعَلُونَ

ص: ٣٢٧

من الذكر و التسييح و عموم العباده و الأفعال الصالحه الاخرى، و هذا ما يدعو الإنسان الى الاهتمام بالعباده و التوجه الى رب العالمين.

و هكذا

روى عن الامام أبى جعفر الباقر عليه السلام فى تفسير هذه الآيه :

«ان لله عز و جل ملكا على صوره ديك ابيض رأسه تحت العرش، و رجلاه فى تخوم الأرض السابعة، له جناح فى المشرق و جناح فى المغرب، لا تصيح الديوك حتى يصيح، فاذا صاح خفق بجناحيه ثم قال: سبحان الله، سبحان الله، سبحان الله العظيم الذى ليس كمثله شىء، قال فيجيبه الله عز و جل فيقول: لا- يحلف بى كاذبا من يعرف ما تقول. « (1) و تذكرنا هذه الآيه بعلم الله المحيط بكل شىء حتى بخبايا نيه الطيور.

[٤٢] وَ لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ إِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ فَمَا كَانَتْ مِنْهُ الْبِدَايَةُ كَذَلِكَ تَكُونُ النِّهَايَةُ إِلَيْهِ، وَ فِي هَذِهِ الْحَقِيقَةِ -التي تقوم على إثباتها كل الشواهد العقلية، و تظهر تجلياتها فى كل الطبيعه- أعظم موعظه للمتدبر الذى لم يسمح لحجب الغفله أو الشهوه ان تغطى بصره و بصيرته، و أكبر دافع نحو توجهه الى العزيز الحكيم بأن يجعل عمله خالصا لوجه ربه الكريم، لا يريد جزاء و لا شكورا من أحد غيره، و لا يخشى أو يخاف أحدا سواه.

و تهدينا الآيه الى سلطان الله الفعلى على جوهر الأشياء. و انه الذى يمسك بقدرته ناصيه الحقائق ان تزول و تنعدم.

[٤٣] أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا

ص: ٣٢٨

فلا- موضع للصدفه التى هى اكدوبه الجاحدين،و لا يمكن ان يكون هذا النظام بلا مدبّر حكيم و هو الله الذى يحمل الرياح السحب التى تزن ملايين الاطنان، تتحرك بكل خفه و سهوله فى طبقات الجو العليا..

ثُمَّ يُؤَلَّفُ بَيْنَهُمْ فَلَوْلَا تَكَاثُفُ السَّحَابِ لَمَا هَبَطَ الْمَطَرُ، ثُمَّ ان السحاب مؤلف من شحنات سالبه و موجبه،و لو لا ذلك لما نفع الزرع،فالبرق الذى يفرز المواد الضروريه لنمو النباتات انما تؤلفه الأمواج الكهربائيه القويه التى يولدها الاحتكاك بين هذه الأمواج.

ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَّامًا كَمَا كَى يَنْزِلُ الْمَطَرُ، فبدون ان يتكثف السحاب لا ينزل المطر.و تكثفه لا يتم الا عبر قوانين يجريها الله سبحانه فيها.

فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَهُوَ الْمَطَرُ حَالَهُ تَكُونُهُ وَخُرُوجُهُ، من بين ثنايا السحاب.

وَ يُنَزَّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَالسحب فى الفضاء كما الجبال فى الأرض،من حيث ضخامه كتلتها و تفاوت ارتفاعاتها،و يمكن للإنسان الاطلاع على هذه الحقيقه عند ما يطير مسافرا من بلد لآخر فوق الغمام.

و لعل فى الآيه اشاره الى حقيقه يذكرها العلماء:ان طريقه تكون(البرد)هى ان قطره من الماء ينزل من السحاب،ثم تمر بطبقه بارده فتتجمد،ثم تحمله الرياح الشديده الى الأعلى من جديد.و تتقلب بين جبال السحب،كلما مرت سحابه

حملت قدرا أكبر من الماء، فنزلت فحملتها الرياح-مره أخرى-الى الأعلى حتى تثقل و تهبط الى الأرض.وقد تنزل حبات البرد بحجم البيضة.

فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ، وَ عَمُومِ خَلْقِهِ، اِذْ نِ فَلَيسَ ذَلكَ بِالصِّدْفَةِ.

يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ لِشِدَّةِ الوَمِيضِ الخَاطِفِ الصَّادِرِ عَن تَفْرِيعِ شَحْنَاتِ كَهْرِبَائِيهِ هَائِلِهِ بَيْنِ السَّحَابِ..و هَكَذَا فَاننَا نَجِدُ فِي هَذِهِ الظَّاهِرَةِ الطَّبِيعِيَةِ بِشَارِهِ خَيْرَ بِنزُولِ رَحْمَةِ اللَّهِ (المطر)، و إنذارا صارما بعقاب الله الذى لو نزل فانه لا يبقى و لا يذر و لأفنى الأحياء.

بين الايمان و العلم:

[٤٤] يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ اللَّهُ سبحانه هو الذى بيده الليل و النهار يقبلهما بقدرته، و هذه عبره لأصحاب البصائر النافذه، و العقول التبره.الم يقل الله: « وَ مَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ » و أ لم يقل عن الكفار: « أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ »؟..

و هذا يعنى ان من لا يملك الايمان لا يفهم سر الحياه، كما لا يدرك التحولات و التقلبات الاجتماعيه، و لا يفهم ان الله هو الذى يقبل الليل و النهار الا اولو الأبصار،الذين يمتلكون البصر الحقيقى النابع من الايمان، و هذا يدل على ان معرفه الله بدايه كل معرفه، و ان الكفر بالله انحراف يستدرج الإنسان الى كل انحراف.

اشاره

وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِّن مَّاءٍ فَمِنْهُمْ مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِ وَ مِنْهُمْ مَّن يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَ مِنْهُمْ مَّن يَمْشِي عَلَىٰ أَرْبَعٍ يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٤٥) لَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ مُّبِينَاتٍ وَ ٱللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٤٦) وَ يَقُولُونَ آمَنَّا بِٱللَّهِ وَ بِٱلرَّسُولِ وَ أَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِّنْهُمْ مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ وَ مَا أُولَٰئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ (٤٧) وَ إِذَا دُعُوا إِلَى ٱللَّهِ وَ رَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ مُّعْرِضُونَ (٤٨) وَ إِن يَكُن لَّهُم ٱلْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ (٤٩) أَفِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ أَمْ إِذَا بَآءُوا أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَ رَسُولُهُ بَلْ أُولَٰئِكَ هُم ٱلظَّالِمُونَ (٥٠) إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى ٱللَّهِ وَ رَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَ أَطَعْنَا وَ أُولَٰئِكَ هُم ٱلْمُفْلِحُونَ (٥١) وَ مَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَ رَسُولَهُ وَ يَخْشِ ٱللَّهَ وَ يَتَّقْهُ فَأُولَٰئِكَ هُم ٱلْفَائِزُونَ (٥٢)

اللغة

٤٩ [مذعنين]: منقادين.

٥٠ [يحيف]: الجور بنقص الحق.

ص: ٣٣١

هدى من الآيات:

يبصرنا الرب بملكه و اقتداره عبر تذكيرنا بخلقه الأحياء، أ لم يخلق كل شىء من ماء؟ و لكن انظر الى مدى التباين بين الدواب، فمنهم من يمشى على بطنه كالحيات و منهم من يمشى على رجلين و منهم من يمشى على أربع، هكذا ينشئ المليك المقتدر ما يريد، ليعرفنا بواسع قدرته المحيطة بكل شىء.

و هذه آيات القرآن تبين لنا و تذكرونا بالرب و يهدى الله من يشاء الى صراط مستقيم.

و الهدايه لا تعنى مجرد الاعتراف اللسانى بل لا بد ان تصدقه الطاعه عند القضاء، فهناك من يدعى الطاعه فاذا خالف الحق هو اه أو مصالحه تولى. كلا..

ليس هؤلاء بالمؤمنين فليس الايمان هو الإذعان عند توافق المصلحه و التولى عند مخالفتها، و لكن لماذا هذا التفريق؟ هل فى قلوبهم مرض الجسد و الحقد و حب الدنيا أم هم فى ريب من صدق الرساله؟ أم يخافون من ان يظلمهم الرب فى الحكم

الذى يصدره الرسول؟ الواقع أنهم يظلمون أنفسهم حين يتولون عن العدالة الالهيه.

ما هى علامه الايمان؟ انها الطاعه عند ما يدعوهم الرسول ليحكم بينهم، وهذا يوفر لهم الفلاح و الفوز أيضا ان هم أطاعوا الله و رسوله و خافوا الله و اتقوه.

و يبقى السؤال التالى:

ما هى علاقته هذه الآيات بالمحور الرئيسى لسوره النور(الذى كان الاسره و ما يدور حولها من قضايا اجتماعيه و تربويه)؟ و للاجابه على هذا السؤال يمكننا أن نقول:

أولا- ان القرآن لا- يكتفى ببيان المعالجات التى ترفع الانحرافات الاجتماعيه، بل هو بذاته علاج لها و شفاء لما فى الصدور، و هدى و رحمه للمؤمنين و لا- يكتفى القرآن بإعطاء العلاجات الفوقيه، بل يسعى لعلاج الانحرافات جذريا، من هنا نجد ان الآيه القرآنيه الواحده تذكرنا بالحكم الشرعى، كما تذكرنا بعقوبه الله أو بثوابه.

فالحكم بيان للعلاج، و لكن التهديد بالعقاب و الترغيب فى الثواب هو ذاته علاج، لان كلا من التريب و الترهيب يعطى النفس البشريه سحنه من الاراده القويه التى تقاوم الانحراف.

و فى هذه السوره بالذات يحدثنا القرآن عن الاسره الفاضله و التى من ميزاتها انها تؤمن بالله، و ان البيت الذى يحويها هو بيت الايمان الذى يذكر فيه اسم الله كثيرا.. و هذا علاج للانحراف الذى قد يقع فى الاسره داخل المجتمع، و العلاج هو: ان الانحرافات البشريه يجب ان يزيلها الايمان بالله مع الذكر و التسبيح.

ص: ٣٣٣

بيد ان القرآن لا يكتفى بذلك، بل يقوم بإعطاء العلاج ذاته عبر بث روح الايمان فى قلب الناس، فنراه يحدثنا طويلا عن الايمان بالله، و عن التذكرة بالقيم الحقيقه، و عن التوجه الى رب السماوات و الأرض.. إلخ.

ثانيا: ان كل انحراف فى البشر نابع من انحراف آخر، و تتسلسل الانحرافات الواحده تلو الاخرى، حتى تصل الى الانحرافه الكبرى فى حياه الإنسان و هى الكفر بالله، و الابتعاد عن هداه، و ذلك هو الضلال البعيد.

و فى الوقت الذى يعالج القرآن تلك الانحرافات الفرعيه يعالج الضلال البعيد ذاته (و هو الكفر)، لذلك نجد القرآن -سوره و آياته دروسه و عبره- تبتدى بذكر الله، و تختتم به، لأنه المحور الحقيقى الذى تدور حوله كل القضايا.

ثالثا: ان أهم صفة من صفات الإنسان فى الاسره الفاضله، و التى يجب على الاسره ان تسعى من أجل تركيزها و تنميتها فى ابنائها، هى صفة الطاعه المستقيمه للحق.

ذلك ان الأسنان فى الطاعه مختلف:

أ- فقد ينمو الإنسان متمردا على النظام و على ايه سلطه حتى و لو كانت السلطه سلطه شرعيه، بل و يتمرد ضد ايه نصيحه مما يجعله أشبه ما يكون بالوحش الهائج.

ب- و قد ينمو ذليلا يعطى قياده لاي كان، و يخضع لكل الناس و لكل الانظمه، و يصغى لكل الأوامر و التعليمات، و هذا أشبه ما يكون بالبضاعه يشتريها من أراد..

ج- و قد ينمو الإنسان و يتربى على طاعه الأهواء و الشهوات و بالتالى طاعه كل من يشبع فهم رغباته، بغض النظر عن استقامته أو انحرافه، و عدالته أو ظلمه،

و أكثر الناس فى الواقع هم من هذا النموذج، إذ يطعون من بيده المال أو السلطه، و هؤلاء أيضا فاسدون كغيرهم.

د-انما الفريق الرابع فهو الذى يطيع، و لكن لا للشهوات و المصالح، و لا حبا فى الطاعه العمياء، و انما يطيع القيم، فطاعته لاي أحد نابعه من ولائته للحق، و ايمانه بالقيم الساميه، و هذا هو الإنسان الذى يجب ان تسعى الاسره الفاضله من أجل تربيته و تنميه مواهبه، و بلوره شخصيته.

و يحدثنا القرآن الحكيم فى منتصف هذه السوره عن ضروره الطاعه، و انها يجب ان تكون لله لا- للمصالح، و ليس خوفا من إرهاب اى سلطه بشريه، و هذه هى النقطه المحوريه لبناء الإنسان الفاضل فى الاسره الفاضله..

ثم ان الاسره الفاضله تبتدى من الإنسان المطيع لله، و تنتهى اليه، فالأب الذى لا يخضع لشهواته العاجله، و لا لمصالحه الخادعه، و لا- للشركاء من دون الله كسلطان الجور، و أصحاب المال: انه هو الذى يستطيع تربيته ابنائه على شاكلته، اما الآخر الذى تمتلئ حياته بالطاعه العمياء، للمال و لأصحاب المال، أو السلطه و لأصحاب السلطه، أو للارهاب، فانه لا- يستطيع تربيته ابنائه أحرارا، يقاومون انحراف النفس و المجتمع.

رابعا- لو بحثنا بعمق عن الأسباب الحقيقيه للانحرافات البشريه، لوجدناها تنطلق من طاعه الإنسان للشهوات، فالذى لا يطيع شهواته لا يسرق، لان من يسرق انما يسرق لكى يصبح أكثر ثراء من غيره، أو ليست هذه شهوه؟ و هكذا يكذب الإنسان و يظلم أو يخاف من الناس، و هو يعلم ان كل ذلك طريق للانحدار و التردى.

و إذا ما عالج الإنسان هذا المرض عنده فان سائر الانحرافات التى يعانى منها

بينات من الآيات:

اشاره

[٤٥] وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَّاءٍ لَا يَدْرِي أَلْبَدَنُ أَمْ لَمْ يَلِدْ وَأَنْ يَكْفُرًا لَكُمْ فِيهَا مِنْ أَنْبَاءٍ لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ

تمتلك ما تملكه الحيوانات الضخمة من أجهزه داخلية و أعضاء مختلفه؟ و هى تعرف بما أودع اللّٰه فيها من الهدى ان الحبه التى تحصل عليها يجب ان تفلقها الى عدة أجزاء قبل ان تختزنها،لكى لا تنمو ثانيه و هى فى بطن التراب، و الاغرب من ذلك انها تفلق الحبوب الى قسمين الا- حبه الذره،فانها تفلقها الى اربع أقسام بنظرتها التى أودعها اللّٰه فيها،و كأنها تعلم لو انها فلققتها الى قسمين لا مكن لكن جزء منها ان ينبت لوحده دون سواها من الحبوب،و إذا رأت مكانا فيه غذاء فانها تذهب و سرعان ما تعود و معها جيش من النمل ليتعاونوا جميعا على نقله، و ادخاره،ترى كيف أبلغتهم بالأمر و بأى لغه تكلمت؟ هذه النمله الصغيره خلقها اللّٰه من الماء،و ذلك الفيل الضخم الذى إذا رأيت هالك منظره،هو خلقه اللّٰه من السماء أيضا،و هكذا سائر الحيوانات البريه و البحريه،و الطيور و الحشرات بالاضافه الى البشر.

ان تنوع الخلقه،و التركيز على ان كل نوع منها يسير وفق سلسله معينه فى تدرج الحياه يعطينا ايمانا باللّٰه،و بقدرته اللامتناهيه حيث خلقها جميعا من الماء..

فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِ كَالزَّوَّاحِفِ.

وَ مِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ

وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَىٰ أَرْبَعٍ كَالدَّوَابِّ.

يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.

سأل رجل الامام الصادق عليه السلام لماذا خلق الله كل هذه الأحياء؟ فأجابه عليه السلام: بأن الله عز و جل خلق أنواع الخلقه حتى لا- يقول الإنسان لو كان الله قادرا لخلق حيوانا بالصفات الفلانية، فكل ما يمكن ان يتصوره الإنسان من أنواع الحيوانات يجده مخلوقا، ان لم يكن فى عصره، ففى العصور الغابره، و ان لم يكن فى بيئته، ففى البيئات الأخرى. (١)

فربنا الذى شاء و كانت مشيئته هى الغالبه، و أنت بدورك محكوم بإرادته الله، فلما ذا التمرد و لماذا العصيان؟ [٤٦] و فى الوقت الذى أنزل الله الآيات التى تذكرنا بآياته، فان البشر بحاجه الى الهدايه المباشره من قبل الله برحمه يخصص بها من يشاء منهم ليهتدوا الى الصراط المستقيم، ذلك ان الهدايه نعمه عظيمه و هدف رفيع لا ينالها كل الناس.

لَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ مُّبِينَاتٍ وَ اللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ اذن فعليك ان تسعى من أجل الحصول على هدايه الله بطاعته و التقرب اليه بالأعمال الصالحه.

[٤٧]بيد ان هناك أناسا يدعون الايمان و لكن واقعهم يخالف ما يدعون.

وَ يَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَ بِالرَّسُولِ وَ أَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ مِنْ بَعِيدٍ ذَلِكُمْ وَ مَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ [٤٨]ان أصوب مقياس للايمان هو الطاعه عند الصراع،فاذا أسلم للحق الذى يخالف هداه و مصلحته و قبل العداله التى تكون الى جانب خصومه،و تنازل طواعيه عن دعاويه إذا حكم القاضى العادل ضده،فان ايمانه حق،و الا فان دعوى الايمان غير مقبوله.

وَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَ رَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ [٤٩]و لاین طاعتهم لله و الرسول نابعه من مصالحهم الماديه،فاذا كان الأمر لصالحهم أطاعوا و دعوا الناس الى الطاعه،اما إذا لم يكن الأمر كذلك فإنهم يخالفون حكم الله و يعرضون عن شريعته فاذا عرف أحدهم انه لو ذهب الى الحاكم الشرعى فانه سيحكم ضده،فانه يذهب إلى المحاكم الجائره ليتسنى له التلاعب بالقوانين عبر الرشاوى.

اما المحاكم الاسلاميه الحاسمه التى تقضى بالحق فانه لا يذهب لها الا إذا علم بان قضيته رابحه،و يكون فى هذه الحاله أسرع الناس الى حكم الإسلام،و أكثر الناس دعوه الى الأخذ به.

وَ إِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ [٥٠]و هذا نوع من أنواع الطاعه المصلحيه،و الايمان المنفعى المرفوض فى الإسلام،و لكن ما هو الدافع لهذا الايمان؟

أَفِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَمْ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولَهُ بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ان الذين يخشون العوده الى طاعه الله، و حكم الرسول هم أحد أولئك التاليه صفاتهم:

أولاً: مرضى القلوب:

الذين يخالفون قياده الرسول، استكبارا فى الأرض، و تمردا على هذه القياده الشرعيه، فلقد كان بنوا أميه و غيرهم من بطون قريش يحسدون النبي محمد صلى الله عليه و آله - القياده الشرعيه- لأنه كان من عائله بنى هاشم، التي أثبتت سيادتها و تفوقها على غيرها، مما دفعهم لحسدها و من ثم حسدوا رساله و القياده المنبعثه عنها.

و هذا نوع من امراض القلب، حيث يسارع صاحبه الى اتخاذ موقف النفور و الكراهيه ضد كل من يتحلى الطيبه و الأخلاق الفاضله، لمجرد انه يستقطب الناس حوله و يتفوق عليه.

ثانياً: الربيه:

حيث تستبد بقلب البعض حاله الشك فيكون شخصيه قلقه يشك فى كل شىء، و هكذا يشك فى القياده الرساليه أيضا لشكه الاساسى فى الدين.

ثالثاً: الخوف من الحيف:

و هناك فريق ثالث يتمردون على القياده الرساليه بسبب خوفهم من ان تسبب لهم الضرر، كما لو أرادت اعاده حقوق المظلومين و يعتبرون ذلك ظلما لهم، فى حين ان الظالم الحقيقى هو الذى يمتص دماء المستضعفين، و يترف على حساب المحرومين، و ليس حيفا ان يسترده الله حقوق المستضعفين من المستكبرين، انما هو

العدل و الإنصاف بعينه، و حاشا لله ان يظلم أحدا أو رسوله، بل الذين يخالفون الله و رسوله، لهذه الأسباب هم الظالمون.

[٥١] و فى مقابل هؤلاء الذين يقولون أطعنا، ثم يخالفون القيادة الرسالية فى ساعه الجد، و يميلون الى مصالحهم و أهوائهم الشخصيه، نرى أولئك المؤمنين الصادقين و الذين إذا قالوا أطعنا استقاموا على ذلك، و ثبتوا مضحين بمصالحهم الشخصيه لصالح الإسلام و المسلمين، و استجابوا لكل الأوامر القياديه على الرغم من شدتها و صرامتها.

إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَ رَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَ أَطَعْنَا وَ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ [٥٢] لأنهم يتلقون احكام الله و تشريعاته و تعاليم نبيه الأكرم، و يعملون بموجبها فى معاملاتهم الاقتصاديه و السياسيه و القضائيه و غيرها،- تماما- كما يفعلون ذلك فى شؤونهم التعبديه كالصلاه و الصوم و غيرها، فما من واقعه الا و لله فيها حكم يتبعونه، و هكذا يجب على أبناء الامه الاسلاميه ان يستجيبوا لنداء علماء الإسلام عند ما يدعونهم لمنهج الله فى الحكم و السياسه، أو الاقتصاد، و سائر شؤون الحياه، لا أن يهرعوا الى الغرب تاره و الى الشرق تاره أخرى، يبحثون عن المناهج و الأحكام عندهم.

وَ مَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ وَ يَخْشَ اللَّهَ وَ يَتَّقِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ذَلِكَ لِأَنَّ مَنْ يَمْتَلِكُونَ هَذِهِ الصِّفَاتِ الثَّلَاثَ (الطاعه، الخشيه، التقوى) يكونون قد استكملوا أسباب الايمان الحقيقى، فيحصلون على الفوز من الله.

أنهم يطيعون الله و رسوله خشيه من عقابه المهين، و عذابه الأليم، و لأن الخشيه

شعور مؤقت قد يخبو مع الزمن فى النفس البشرى، فإنهم يدعمونها بالتقوى، وهى الالتزام الدقيق بالتعاليم الاسلاميه صغيرها و كبيرها، والاهتمام البالغ بكل الأوامر الالهيه.

ص: ٣٤١

وَ أَقْسِمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لِنُ أَمْرَتِهِمْ لِيُخْرِجَنَّ قُلُ لَّا- تُقْسِمُوا طَاعَهُ مَعْرُوفَهُ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (٥٣) قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَ عَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ وَ إِن تَطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَ مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (٥٤) وَ عَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسِّرَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا يَسِّرَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِن قَبْلِهِمْ وَ لَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَ لَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعِيدٍ خَوْفِهِمْ أَمَّا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً وَ مَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (٥٥) وَ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَ آتُوا الزَّكَاةَ وَ أَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٥٦) لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَ مَا لَهُمُ النَّارُ وَ لَبِئْسَ الْمَصِيرُ (٥٧)

هدى من الآيات:

فى اطار الحديث السابق عن الطاعه للقياده الشرعيه التى أمر الله بها-تلك الطاعه التى هى أحد اهداف التربيه السليمه-يبين هذا الدرر:ان هناك مقياسا واحدا و حقيقيا لمعرفة مدى تسليم الإنسان لربه،و بالتالى لمعرفة مدى عمق الايمان و صدقه،و ذلك المقياس هو:مدى طاعه الإنسان لقيادته الرساليه التى تجسد أوامر الله سبحانه.

و الطاعه المقصوده هى الطاعه المستقيمه فى أوقات الشده و الرخاء لا فى الرخاء فحسب،لأن الإنسان قد يكون مستعدا للطاعه،و لكن فى حدود القضايا البسيطه التى لا تكلفه شيئا من الجهد،أما حينما يؤمر باقتحام الصعوبات فى الحياه كالجهاد،فانه ينكص على عقبه،خسر الدنيا و الآخره، و كثير أولئك الذين يتظاهرون بالايمان بل و يحلفون بأغلظ الأيمان و أشدها انهم يطيعون القياده عند الشده الا أنهم حين تأمرهم القياده بالخروج الى الحرى ينكثون فاذا بادعائهم مجرد حلف غطاء لنفاقهم.

و يؤكد ربنا سبحانه و تعالى على ضروره الطاعه للقياده الشرعيه، كالرسول صلى الله عليه و آله، و اولى الأمر، و انه يجب ان لا يقلق الإنسان بعد ذلك على المستقبل، لان الله قد ضمنه للمؤمنين الذين يعملون الصالحات، حيث وعدهم بالنصر و التأيد، و أكد ان الرسول قد حمل الرساله، و أنتم حملتم طاعته.

ففى ساعه النصر ينسى الإنسان كل لحظات الصعوبه التى مر بها، لذلك أكد الله سبحانه للمسلمين المؤمنين انه سيجعلهم خلفاء فى الأرض، بعد ان يهلك أعداءهم، كما حقق ذلك للذين آمنوا و عملوا الصالحات من قبلهم، و الخلافه لا تشكل هدفا لذاتها، بل هى وسيله لهدف اسمى، هو تطبيق حكم الله، و من ثم عباده الله وحده و إسقاط سلطه الآلهه الباطله.

و ينهى القرآن الحديث فى هذا الدرس بتسفيه فكر الكفار الذين يعتقدون بقدرتهم على فعل كل شىء، إذ لا يمكن لأحد ان يقف أمام المد الايمانى، الذى تقوده رساله الله، و يتصدره المؤمنون الصادقون، فليس الكفار بمعجزين فى الأرض، و ليسوا بقادرين على ان يمنعوا حركه التاريخ من المضى قدما ضمن سنن الله فى الطبيعه و المجتمع.

بينات من الآيات:

اشاره

[٥٣] وَ أَقْسِمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لِيُنْزِلَ عَلَيْهِمْ لِيَخْرِجُنَّ إِلَىٰ مَعْرَكِ الْحَرْبِ وَ سَوْحِ الْجِهَادِ، فَقَدْ أَقْسَمُوا عَلَىٰ ذَلِكَ بِأَغْلظِ الْإِيمَانِ الْمُمْكِنِ، وَ هَلْ يَحْتَاجُ الْإِنْسَانُ الصَّادِقُ لِلْحَلْفِ حَتَّىٰ يَفِىَ بِالْوَعْدِ؟! قُلْ لَا تُقْسِمُوا طَاعَةً مَعْرُوفَةً الطَّاعَةَ الْحَقَّ مَعْرُوفَةً لَٰنَ الْعَمَلِ يَصْدُقُهَا وَ لَا تَحْتَاجُ إِلَى الْقَسَمِ، فَهَلْ يَحْتَاجُ

الإنسان فى البديهيّات الحياتيه الى القسم؟! بالطبع كلا.. لأنها قضايا معروفه لا داعى للحلف فيها، لذلك ينبغى ان تكون الطاعه أساسا ثابتا فى حياه المسلم، و جزءا من كيانه، فلا داعى لأن يجعلها فى خانه الشواذ، التى يحتاج صاحبها للحلف حتى يبرهن على صدقه فيها، بل يجب تحويلها الى صبغه ثابتة فى حياته.

□
إِنَّ اللَّهَ خَيْرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ فَاذَا خَادَعْتُمَ الْقِيَادَةَ الرَّسَالِيَةَ بِقِسْمِكُمْ، فَلَنْ تَخْدَعُوا رَبَّكُمْ وَهُوَ الْخَبِيرُ بِمَا تَعْمَلُونَ، وَإِذَا كَانَ عَمَلُكُمْ رَدِيئًا فَلَنْ يَغَيِّرَ الْقِسْمَ مِنْ طَبِيعَتِهِ شَيْئًا، مَهْمَا كَانَ مُؤَكَّدًا وَمَغْلُظًا.

دور القيادة و مسئوليته الامه:

□
[٥٤] قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَ عَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ ان طاعه الرسول- و هكذا القيادة الشرعيه من بعده- هى الطريق الى طاعه الله سبحانه، و لا- تعنى طاعه الله شيئا من دون الطاعه للرسول، و يخطئون أولئك الذين يقولون حسبنا كتاب الله، رافضين طاعه القيادة الرساليه التى فرضها الله عليهم كى تحدد لهم المناهج الدقيقه و التفصيليه لمختلف التغييرات الحياتيه.

هذا الموقف و ان حاول أصحابه إعطاءه صبغه شرعيه، الا انه- فى الواقع- نوع من التمرد على الله، لذا تتكرر فى الآيات القرآنيه كلمه (الطاعه)..

و لم يقل تعالى: قل أطيعوا الله و الرسول، بالرغم من ان طاعه الرسول امتدادا لطاعه الله، بل كرر كلمه «أطيعوا» ليؤكد على الطاعه الثانيه تأكيدا مباشرا، و ذلك لصعوبتها على كثير من الناس.

ان طاعه الله قد تكون فى الأمور الثابته، اما طاعه الرسول-التي هى أيضا طاعه الله-فهى اتباع منهج الله العملى فى القضايا السياسيه، و الشرعيه، و فى متغيرات الحياه العامه، كما فى الحوادث الواقعه (الجديده).

و من لم يفهم هذه الحقيقه فانه معرض للتمرد على الرسول، و لمن يخلفه من بعده.

فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَ هُوَ تَبْلِيغُ الرِّسَالَةِ.

وَ عَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ وَ هُوَ الاسْتِجَابَةُ لَهُ فِيمَا يُأْمُرُ بِهِ.

و الله يجازى كل إنسان على حده، دون ان يجعل مسئوليته الناس على عاتق الرسول صلى الله عليه و آله ، كما انه لا يكلف الرسول بان يفرض الطاعه عليهم.

وَ إِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا لِأَنَّكُمْ تَصَلُونَ بِذَلِكَ إِلَى فِهْمِ حَقِيقَةِ الْحَيَاةِ.

و نستوحى من هذه الآيه تأويل قوله سبحانه فى آيه مضت آنفا: « وَ اللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ » حيث نعرف ان طاعه الرسل و أوصيائهم و سبله للهدايه، و ان مخالفتهم طريق الضلال.

وَ مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ وَ بالرغم من أننا نعتقد بهذه الفكره بصفتنا مسلمين، الا أننا حين نضعها موضع

التطبيق يثقل علينا الأمر، لان الإنسان بطبيعته يحاول التهرب من المسؤولية، وإلقاء الإخطاء على كاهل الآخرين، أو يلقي بمسؤوليه عدم قيامه بواجباته على عاتق القيادة، أياً كانت، فالابن يلقي التبعه على الأب، والتلميذ على الأستاذ، والمدارس على اداره المدرسه، و اداره المدرسه على الوزاره المختصه بها، وهكذا..

فلكى يتنصل كل واحد منا من ثقل المسؤولية التي أشفقت منها السماوات و الأرض و الجبال تجده يوزع الاتهامات يمينا و شمالا، و لا يبخل بها حتى على قيادته، بل انها تنال الحظ الأوفر منها، و هذه فكره ضلال فى نفس الوقت.

هدف الدوله الاسلاميه:

[٥٥] وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَ هُنَا ثَلَاثَةٌ اسْئَلُهُ لَّا بَدَّ مِنْ الْجَابِهِ عَلَيْهَا:

الاول: ما هو الربط بين هذا الوعد بعد الأمر بالطاعه؟ الثانى: لماذا أكد القرآن على كلمه «منكم»؟ الثالث: ما معنى الاستخلاف فى الأرض؟ الجواب أولاً: لان الطاعه للقياده أمر صعب جداً، و لا يمكن ان يلتزم الإنسان بها مخلصاً تمام الإخلاص، الا ان يكون وراءه هدف محدد.

و حينما تسعى جماعه مؤمنه لتحقيق الاستخلاف فى الأرض، فان الأفراد يتنازلون مرحلياً عن انانيتهم، و يدوبون أنفسهم فى بوتقه القياده، و هذا يجعل كل واحد منهم يلبس شخصيه جديده، هى شخصيه المجموع، و يتمثل بالتالى شخصيه

ثانيا: جاءت كلمه «منكم» لتبين بأن الاستخلاف سنّه جرت في السابقين، و هي ليست حكرا على أولئك، بل تجرى فينا أيضا، و من سيأتي بعدنا من المؤمنين، إذ ليست هذه السنّه حكرا على فئه محدّده في زمن محدد، بل يكفي أن يحقّق شرطا «الايمان و العمل الصالح» لتأخذ هذه السنّه مجراها في أى مجتمع.

أما الجواب عن السؤال الثالث:

أ- فقال جماعه من المفسّرين إنّ الاستخلاف يعنى ذهاب طائفه من الناس، و حلول أخرى محلّها.

ب- و قال آخرون إنّ معنى الاستخلاف هو إكرام الله المؤمنين بجعلهم أئمه الناس، ليقوموا بتطبيق الشريعة، كما استخلف الأنبياء و الأوصياء و الصّالحين من المؤمنين من قبلهم.

و الواقع إنّ الخلافه كما جاء في (أ)، فهذا هو المعنى الضيق للكلمه، فكل الناس خلفاء لمن سبقهم، حتى الكفار منهم، فلا داعى للتخصيص، لأن الله وعد المؤمنين بالخلافه عامّه.

و عموما فإن الخلافه فى الأرض هى القيادة التى يهبها الله لفئه من الناس، لأنهم يتبعون ما أنزل عليهم من قيم.

إذن فواقع الاستخلاف يعنى أمرين:

الاول: انّ الله يعطى السلطه للمؤمنين و يمكن لهم تمكيننا.

الثانى: ان هذه السلطه لا تكون الا بإذن الله الذى يحققها و يعطيها الشرعيه.

وَ لِيَمَكِّنَ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ فَسَلَّطَهُمُ لَيْسَتْ كَأَيِّ سُلْطَةٍ مَادِيَةٍ، بل هي سلطه روحيه تهديها القيم الرساله.

وَ لِيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ الَّذِي عَاشُوهُ فِي ظِلِّ السُّلْطَاتِ الْجَائِرَةِ وَ هُمْ يَقَاوِمُونَهَا حَتَّى يَقِيمُوا دَوْلَهُ الْحَقِّ.

أَمَّنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا إِنْ هَدَفَ الْحَقِيقِيُّ لِلْحَكْمِ الَّذِي يَعْطِيهِ اللَّهُ لِلْإِنْسَانِ، لَيْسَ التَّسَلُّطُ عَلَى رِقَابِ النَّاسِ، فَهُوَ لَيْسَ هَدَفًا بِذَاتِهِ، بَلِ الْحَكْمَةُ مِنْهُ هُوَ عِبَادَةُ اللَّهِ وَ عَدَمُ الشَّرْكِ بِهِ.

إِنْ تَوَفَّرَ ظُرُوفُ التَّخْلِصِ مِنَ الضَّغُوطِ الشَّرْكِيةِ حَيْثُ يَرْتَاحُ الْإِنْسَانُ مِنْ شَبَكَاتِ الِاسْتِعْبَادِ التَّضْلِيلِيَةِ وَ الْمَالِيَةِ وَ السُّلْطَوِيَةِ هِيَ أَعْظَمُ نِعْمَةٍ يَهْبِئُهَا اللَّهُ لِلْإِنْسَانِ.

وَ مِنَ الْمَعْرُوفِ أَنَّ الشَّرْكَ لَا يَتَحَقَّقُ بِعِبُودِيَةِ الصَّنَمِ، بِقَدْرِ مَا يَتَحَقَّقُ بِعِبَادَةِ الطَّاغُوتِ وَ الْخُضُوعِ لِسُلْطَةِ الْجَائِرَةِ، أَوْ بِعِبَادَةِ الْمَالِ، وَ الْأَرْضِ، وَ الْعَنْصَرِ...إِلْخ.

وَ رَفْضُ الشَّرْكِ أَمَّا هُوَ رَفْضٌ لِلْقِيَمِ الَّتِي يَتَغَذَى مِنْهَا، وَ لَعَلَّ هَذَا مَا نَلَاخِظُهُ فِي التَّعْبِيرِ الْقُرْآنِيِّ، إِذْ لَمْ يَقُلْ تَعَالَى: «لَا يَشْرِكُونَ بِي شَيْئًا» مَثَلًا، وَ أَمَّا أُطْلِقُ وَ قَالَ: (شَيْئًا)، ذَلِكَ لِأَنَّ مِنَ الْخُضُوعِ لِلطَّاغُوتِ لَا يَعْبُدُ جَسَدَهُ، وَ أَمَّا يَعْبُدُ الصُّوْلُجَانَ الَّذِي بِيَدِهِ، وَ الْقُوَّةَ الَّتِي تَحْتَ سَيْطَرَتِهِ، وَ هَكَذَا مِنَ الْخُضُوعِ لِلْأَثْرِيَاءِ، أَمَّا يَعْبُدُ الدِّيْنَارَ وَ الدَّرْهَمَ.

وَ مَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ فَإِذَا قَامَتِ السُّلْطَةُ السِّيَاسِيَّةُ (الشَّرْعِيَّةُ) فَانْ كُلُّ مَنْ يَكْفُرُ يَكُونُ فَاسِقًا، إِذْ لَا

يملك اى تبرير لكفره.

و الواقع ان التأويل الحق و الشامل لهذه الآيه انما يكون عند تحقق وعد الله بالتمكين التام للدين المختار، في كل أقطار الأرض، كما

جاء فى أحاديث مأثوره عن النبى صَلَّى الله عليه و آله انه قال :

«زويت لى الأرض، فأريت مشارقها و مغاربها، و سيبغ أمتى ما زوى لى منها.»

و قال-صَلَّى الله عليه و آله- :

«لا- يبقى فى الأرض بيت مدر و لا وبر الا ادخله الله كلمه الإسلام بعز عزيز، أو ذل ذليل، أما ان يعزهم الله فيجعلهم من أهلها، و اما أن يذلهم فيدينون بها.» (١) أما متى يتحقق ذلك؟ فانه إنما يتحقق عند قيام المهدي من آل محمد حيث

جاء فى حديث اتفق عليه المسلمون :

«لو لم يبق من الدنيا الا يوم، لطَوَّلَ اللهُ ذلك اليوم حتى يلى رجل من عترتى، اسمه اسمى، يملأ الأرض عدلاً و قسطاً كما ملئت ظلماً و جوراً.» (٢) [٥٦] وَ أَفِيْمُوا الصَّلَاةَ وَ آتُوا الزَّكَاةَ وَ أَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ان اقامه الصلاه و إيتاء الزكاه من التشريعات الالهيه التى تدخل ضمن نطاق طاعه الله سبحانه، لذلك فهما لا يكفيان دون طاعه الرسول، و لعل المراد بالرحمه

ص: ٣٥٠

١-١) المصدر/ص ٦٢١.

٢-٢) تفسير «نمونه»/ج ١٤/ص ٥٣٠.

هنا النصر على الأعداء.

الانتصار وليد الثقة:

لا تنتصر أمه لا تثق بطاقتها و قدرتها على الانتصار.

فلا- ينبغي ان يقف حاجزا بين المؤمنين و اقامه حكمه الإسلام و سلطه الشرع فى الأرض ما يجدونه من قوه الطغاه، و ثروه الأغنياء، أو جهل الناس، بل اعتقادهم بأن الكفار قد سلبوا قدرتهم و إرادتهم على الصراع و الانتصار باطل.

فلا- تخشى ايها المؤمن الكفار! [٥٧] لا- تَحْشَى بَنَ الدِّينِ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ لا- تظنوا ان السلطات الكافره قد سلبتكم الإراده، و أوصلتكم الى حافه العجز.

وَ مَا أَوْاهُمْ الدَّارُ وَ لَبِئْسَ المَصِيرُ فمن الناحيه الماديه لا- قوه لهم تمنع المؤمنين من أخذهم حقهم، و من الناحيه المعنويه فإن مصيرهم الى النار و بنس المصير، و هذا يعنى ان الله قد رفع عنهم دعمه، فلن يجدوا من ينصرهم على المؤمنين، «ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَ أَنَّ الكَافِرِينَ لا مَوْلَى لَهُمْ».

و يا ليتنا نحن المسلمين اليوم، نتخذ هذه الآيه الكريمه شعارا فى حياتنا السياسيه، و تحركاتنا الاجتماعيه، فنقاوم أكبر عقبه كأداء فى حياه المسلمين الذين يعتقدون بتفوق الكفار عليهم، و انهم قادرون على منعهم من أخذ حقوقهم، و تحقيق اهدافهم، مع أن الواقع عكس ذلك تماما.

ص: ٣٥١

و الله يفند هذا الاعتقاد الباطل، بوعدہ المؤمنین بالانتصار، و بیان ان الکفار عاجزین و ضعفاء.

ص: ۳۵۲

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَيْسَ تَأْذِنُكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ مِنْ قَلِيلٍ صِيَّ لَاهُ الْفَجْرِ وَ حِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِنَ الظَّهِيرَةِ وَمِنْ بَعْدِ صِيَّ لَاهِ الْعِشَاءِ ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ طَوَّافُونَ عَلَيْكُمْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٥٨) وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسِّرُوا تَأْذِنًا كَمَا إِسْرَأْتِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٥٩) وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَنْ يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ وَأَنْ يَسِيْرَتَّغْفَنَ خَيْرٌ لَهُنَّ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٦٠) لَيْسَ عَلَى الْمَاعْمِي حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَاعْرُجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَالِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَالَاتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكَتْهُم مَفَاتِحُهُ أَوْ صَدِيقِكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبَارَكَةٌ طَيِّبَةٌ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٦١)

هدى من الآيات:

فى اطار حديث سوره النور عن العلاقات الاسريه، و ضروره تنظيمها، يحدثنا ربنا فى هذا المدرس عن بعض القضايا التى تبدو جزئيه، و لكنها- فى الواقع - هامه، لأنها ترسم حدود الاسره، و التى من بينها ضروره تنظيم التزاور بحيث تستطيع الاسره ان تبقى آمنه فى مأواها، بعيده عن العيون الغريبه، فيحرم على المملوك و الأطفال دخول الغرف، الا- بعد الاستئذان، و ذلك فى أوقات الاستراحه فى الليل و عند الظهره و من قبل صلاه الفجر.

و ينهى الأطفال الذين يبلغون الحلم، ان يسترسلوا على عادتهم فى دخول البيوت بلا استئذان فى غير الأوقات الثلاث.

و لان أعظم حكمه فى ذلك هو المحافظه على العفه الاجتماعيه، يحدثنا السياق بهذه المناسبه عن القواعد من النساء، و هى اللاتى لا يرغب فى زواجهن أحد لكبر سنهن، فيسوغ لهن وضع ثيابهن الظاهره كالخمار و الجلباب بشرط عدم التبرج بزينه

من أجل اثاره شهوه الرجال.

ثم يبين السياق حكم الدخول فى البيوت و الاكل منها بالنسبه الى العائله الكبيره، و يبدأ ببيان حكم ذوى العاهات فيجوز دخولهم جميعا البيوت و تناول الطعام بلا استئذان.

بينات من الآيات:

[٥٨] لتزكى اجواء المجتمع، و يبقى الاحتشام و العفاف فى البيئه الاسريه، لا ينبغى السماح للعبيد و الأطفال باقتحام غرف النوم و الراحة من دون الاذن.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنُكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنَ الْعَبِيدِ وَالْإِمَاءِ.

وَ الَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ وَ هُمُ الْأَطْفَالُ مِنَ الْعَائِلَةِ، إِذْ يَجِبُ عَلَيْهِمْ اسْتِئْذَانُ أَصْحَابِ الْبُيُوتِ فِي أَوْقَاتٍ مَعِينَةٍ، وَ هِيَ:

ثَلَاثَ مَرَّاتٍ مِنْ قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَ حِينَ تَضَعُونَ رِجْلَكُمْ مِنَ الظَّهِيرَةِ وَ مِنْ بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ لِأَنَّهَا أَوْقَاتُ الرَّاحَةِ الَّتِي يَتَوَجَدُ النَّاسُ حِينَهَا فِي بُيُوتِهِمْ، بَعْدَ أَنْ يَكُونُوا قَدْ حَضَرُوا صَلَاةَ الْجَمَاعَةِ فِي الْمَسَاجِدِ، أَوْ قَامُوا بِأَعْمَالِهِمُ الْمُخْتَلِفَةَ وَ نَشَاطَاتِهِمُ الْمُتَنَوِّعَةَ لِكَسْبِ الرِّزْقِ، وَ تَحْقِيقِ الْمَعَاشِ، وَ هَكَذَا يَنْظُمُ الْإِسْلَامُ الْوَقْتَ بِدَقَّةٍ، فَجَزءٌ لِاجْتِمَاعِ الْمُسْلِمِينَ فِي الْمَسَاجِدِ كَيْ يُؤَدُّوا الْفَرَائِضَ وَ يَتَبَادَلُوا الْأَفْكَارَ وَ الْخَبَرَاتَ بَيْنَهُمْ، وَ جَزءٌ لِلسَّعْيِ وَ الْعَمَلِ، وَ جَزءٌ لِلرَّاحَةِ وَ الْاسْتِجْمَامِ، حَيْثُ يَسْتَعِيدُوا الْقُوَّةَ وَ النَّشَاطَ وَ يَكْمَلُوا

ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَكُمْ أَحْوَالٌ يَجِبُ أَنْ لَا يَظْهَرَ عَلَيْهَا الْآخَرُونَ، لِأَنَّهَا أَوْقَاتُ الرَّاحَةِ، وَكَمْ يَرْتَاحُ الْإِنْسَانُ نَفْسِيًّا حِينَ يَطْمَئِنُّ بِأَنْ لَا أَحَدٌ يَدْخُلُ عَلَيْهِ إِذْ يَضَعُ عَنْ نَفْسِهِ الْكَلْفَ.

لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ وَ أَمَّا بَعْدَ هَذِهِ الْأَوْقَاتِ فَلَا مَوَازِينَهُ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ وَلَا عَلَيْهِمْ أَيُّ الْأَطْفَالِ وَالْعَبِيدِ وَالْإِمَاءِ أَنْ يَدْخُلُوا عَلَيْكُمْ دُونَ اسْتِثْنَانٍ.

طَوَافُونَ عَلَيْكُمْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ أَي تَأْخُذُ حَرَكَةُ الدِّخْوَلِ وَالزِّيَارَاتِ مَجْرَاهَا عَلَيْكُمْ بَعْدَ الْمَنْعِ وَالْتَوَقُّفِ، وَبِالطَّبَعِ أَنَّ الدِّخْوَلِ بِلَا اسْتِثْنَانٍ يَخْتَصُّ بِالْمَتَعَلِّقِينَ بِالشَّخْصِ دُونَ الْأَجَانِبِ.

كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ فَهُوَ عَلِيمٌ بِمَصَالِحِكُمْ، وَحَكِيمٌ إِذْ يَضَعُ لَكُمْ هَذِهِ الْأَحْكَامَ الرَّشِيدَةَ،

وَجَاءَ فِي النَّصِّ الْمَرْوِيِّ عَنِ الْإِمَامِ الْبَاقِرِ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي تَفْسِيرِ الْآيَةِ :

«فَلَا يَلْجِ عَلَى أُمِّهِ وَلَا عَلَى أُخْتِهِ، وَلَا عَلَى ابْنَتِهِ وَلَا عَلَى مَنْ سِوَى ذَلِكَ إِلَّا بِإِذْنِهِ، وَلَا يَأْذَنُ لِأَحَدٍ حَتَّى يَسْلَمَ، فَإِنَّ السَّلَامَ طَاعَةُ الرَّحْمَنِ.» (1) فَمَا هِيَ فَائِدَةُ هَذَا الْحُكْمِ؟ قَبْلَ أَنْ نُبَيِّنَ الْجَوَابَ عَلَى ذَلِكَ نُرِيدُ مَلَا حِظَهُ هَامَهُ هِيَ: أَنَّ الْإِنْسَانَ قَدْ يَكُونُ

مهتما بحدود التنظيم الاجتماعى و قيوده،دون أن يهتم بجوهره و محتواه،و قد يعكس فيكون مهتما بجوهر التنظيم و هدفه،و لكنه يتجاهل الحدود التى هى وسائل تحقيق الهدف و يعتقد بأنها غير هامه أو قشريه.

بينما يريد الإسلام من ابنائه الاهتمام بجوهر التنظيم و بحدوده،أى بهدفه و بالوسائل التى تحقق هذا الهدف.

ان جوهر التنظيم الاجتماعى هو الطاعه الخالصة لله تعالى،و البعيده عن الأهواء و المصالح الآنيه،و كل أنواع العصبيات الجاهليه،و تبرز أعلى مظاهر الطاعه لله،فى الطاعه للقياده الرساليه و تتدرج هابطا حتى تصل الى ولى الأمر الحاكم الشرعى، و كذا ولى الاسره و رؤساء كافه التنظيمات الاجتماعيه و السياسيه الشرعيه.

و الاسره الفاضله هى الاسره القائمه على أساس التعاون البناء،و لا يأتى ذلك الا عن طريق الطاعه السليمه للقيم الحق،بحيث لا تكون هذه الطاعه خاليه من قانون يحددها، بل يجب ان تصب فى قنوات قانونيه،فلا يكتفى الإنسان المنظم بالطاعه لقيادته أو ولى أمره أو رب أسرته،بل ان يلتزم أيضا بحدود القوانين الاجتماعيه المفروضه،فقد لا تبدو هذه القوانين ذات اهميه،و لكنها حينما تطبق فى الحياه الاجتماعيه تصبح ذات نفع عظيم،مثلا حينما يلزم الإسلام المسلم الوفاء بالعهد و الالتزام بالوعد،أ تدرى كم ينظم هذا الأمر حياه المجتمع،أو كم يحافظ على الوقت الذى يذهب هدرا؟و الى اى حد يحافظ على علاقات الناس متينه و طيبه؟ و هكذا حين يفرض الإسلام تنظيم الوقت،فلأنه حاجه اجتماعيه،و ضروره حياتيه،إذ لا يمكن للإنسان العمل فى أى وقت يريد،أو التبضع متى شاء،أو حتى النوم متى يرغب،بل هناك أوقات محدوده لكل نشاطات الحياه و شؤونها،

و بالرغم من ان تنظيم الوقت يبدو لكثير من الناس عملا- ثانويا،الا- انه أشبه ما يكون بالقناه التي تحافظ على مياه المطر من التشتت،لأنه يحافظ على طاقات الإنسان من التشتت و يجمع طاقات الجماهير ليصبها فى قناه واحده.

من هنا نجد تأكيدا فى هذه الآيات على ضروره ملاحظه أوقات الراحة للإنسان،و التى عاده ما تكون قبل صلاه الفجر و عند الظهر،و كذا بعد العشاء، و بمعنى آخر ضروره مراعه أوقات الآخرين و برامجهم.

و حتى الأطفال يجب عليهم الاستئذان فى هذه الفترات لتبقى البيوت محلا آمنا يستطيع الإنسان الاستراحه فيه أنى شاء.

و لتنفصل أوقات الراحة عن أوقات العمل،كى يكون هناك وقت للراحه، كما ان هناك وقتا للسعى و الكدح ابتغاء فضل الله.و الذى يجد وقتا كافيا للراحه، يستطيع الجد و الإبداع عند العمل،إذ يجب ان تكون أوقات الراحة-كالقيلولة فى الظهر-منطلقا للتحرك نحو العمل من جديد،و بروح نشطه.

و هذا القانون يوفر على الإنسان مزيدا من الوقت المنظم،مما يعنى مزيدا من التقدم الحضارى.

و كلمه أخيره:

ان حكمه هذا التشريع الهام هى ابعاد الأطفال عن بعض المظاهر غير المناسبه المحتشمه فى غرف النوم،حيث تثيرهم و تزرع فى نفوسهم حب الزنا،أو حتى عداوه أحد الوالدين،مما يتسبب فى العقد الجنسيه،و ما تتبعها من نتائج خطيره.

و لقد حذرت النصوص الشرعيه من ذلك و اعتبرته نوعا من التشجيع على الزنا، إذ يسقط الحياء و تصبح المعاشره الجنسيه عملا عاديا عندهم،و سوف يمارسونها عند

ص: ٣٥٩

أول بوادر الحاجه الفسيولوجيه إليها.

حتى

جاء فى حديث مأثور عن النبى صلى الله عليه وآله :

«إياكم و ان يجامع الرجل امرأته،و الصبى فى المهد ينظر إليهما.» (1) اما غير الأطفال و العبيد فعليهم الاستئذان،و قد سبق الحديث عن ذلك فى آيات مضت و على الأطفال إذا بلغوا سن الرشد ان يتوقفوا عن دخول الغرف الا بإذن.

[٥٩] وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا فِي الدُّخُولِ.

كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْأَحْرَارِ.

كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ وَ اللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ وَ هَذَا التكرار تأكيد على أهميه هذه الأوامر الالهيه،و انها ذات أثر عميق فى المجتمع،و ان لم يستطع الإنسان الاحاطه علما بجميع أبعادها،و آثارها الآتيه، و المستقبلية،لقله علمه و ضعف عقله،مما يجعله يستهين بها،فلا يبذل جهدا للالتزام بها و تطبيقها بدقه.

لهذا يجب ان تكون حكمه الله و علمه مقياسا لقوانين المجتمع البشرى،لا أهواء الإنسان و تخرصاته.

[٦٠] وَ الْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَنْ يَضَعْنَ لِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ

ص: ٣٦٠

١-١) تفسير نمونه/ج/١٤ ص ٥٤٦ نقلا عن موسوعه بحار الأنوار ج/١٠٣ ص ٢٩٥.

حيث يجيز الشارع المقدس للمرأة الكبيرة في السن، ان تضع بعض ثيابها مثل جلبابها و خمارها مما يغطي رأسها ما دام لا يرغب أحد في نكاحها، بشرط ان لا- تتبرج بإظهار مواضع زينتها، و لكن الأفضل ان تسود المجتمع الاسلامي كله حاله من العفاف و الاحتشام.

وَ أَنْ يَشِدَّ تَعْفُفَنَ خَيْرٌ لَهُنَّ فَاَلْمَرَأَةُ وَ اَنْ كَبُرَتْ وَ بَلَغَتْ سِنَ الْيَأْسِ، فَاَنْ الْحِجَابَ أَكْثَرَ هَيْبَةً لَهَا، كَمَا اَنْ ذَلِكَ يَشْجَعُ الشَّابَاتِ عَلَى اَنْ يَتَمَسَّكَنَ بِالْحِجَابِ.

□
وَ اللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ فَلَا- يجوز لها ان تقول كلاما تثير به شهوه الرجال، أو تنوى القيام بحركه معينه حراما، إذ ان الله سميع للقول الظاهر عليم بالنيه الباطنه.

[٦١] لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرْجٌ وَ لَا- عَلَى الْأَعْرَجِ حَرْجٌ وَ لَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرْجٌ قَالَ بَعْضُ الْمَفْسَرِينَ: اَنْ النَّاسَ كَانُوا يَتَحَرَّجُونَ مِنْ التَّعَامُلِ مَعَ هَذِهِ الطَّوَائِفِ الثَّلَاثِ فِي الْجَاهِلِيَّةِ، لِأَنَّهُمْ كَانُوا يَعْتَقِدُونَ اَنْ اللَّهَ قَدْ غَضِبَ عَلَى مَنْ ابْتَلَى بِهَذِهِ الْحَالَاتِ، فَيَتَعَدُونَ عَنْهُمْ، وَ جَاءَتْ هَذِهِ الْآيَةُ لِتُبَيِّنَ الْحَقِيقَةَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَغْضَبْ عَلَى هَؤُلَاءِ، بَلْ مِنْ الضَّرُورِيِّ مَعَاشَرَتِهِمْ بِالْإِحْسَانِ،

جاء في الروايه المأثوره عن الامام الباقر عليه السلام :

اَنْ أَهْلَ الْمَدِينَةِ قَبْلَ اَنْ يَسْلَمُوا كَانُوا يَعْزِلُونَ الْأَعْمَى وَ الْأَعْرَجَ وَ الْمَرِيضَ اَنْ يَأْكُلُوا مَعَهُمْ- كَانُوا لَا يَأْكُلُونَ مَعَهُمْ- وَ كَانُوا الْأَنْصَارَ فِيهِمْ تَبِيَةً وَ تَكْرَمًا: فَقَالُوا اَنْ

الأعمى لا يبصر الطعام، والأعرج لا يستطيع الزحام على الطعام، والمريض لا يأكل كما يأكل الصحيح، فعزلوا لهم طعامهم على ناحيه، وكانوا يرون عليهم في مؤاكلتهم جناح، وكان الأعمى والأعرج والمريض يقولون: لعننا نؤذيهم إذا أكلنا معهم، فاعتزلوا من مؤاكلتهم، فلما قدم النبي سألوه عن ذلك فأنزل الله عز وجل: «لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعاً أَوْ أَشْتَاتاً .» (١) و لعننا نستوحى من السياق أيضا ان نفى الحرج هنا يعنى جواز الاكل، فيكون المفهوم من الآيه ليس على الأعمى حرج، ولا على الأعرج حرج، ولا على المريض حرج، أن يأكل من بيوت الناس، أما أنتم فليس عليكم حرج أن تأكلوا من بيوتكم، أو بيوت أقاربكم.

و الحكمه فى ذلك: ان هؤلاء هم العناصر الضعيفه الذين يعجزون عاده عن كسب رزقهم، فعلى الأصحاء كفالتهم و السماح لهم بالدخول الى بيوتهم للطعام و برهم.

وَلَا عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَالَاتِكُمْ تَذَكَّرْ هَذِهِ الْآيَةُ بِالتَّفْصِيلِ الْبُيُوتِ الَّتِي لَا حَرْجَ عَلَى الْإِنْسَانِ فِي دُخُولِهَا وَالْأَكْلِ مِنْهَا.

و يبدو أنها ليست فى مقام إعطاء الاذن فحسب، بل فى مقام التشجيع على ذلك أيضا، فربما يتحرج الإنسان من الدخول الى بيوت أقاربه أو معارفه من الأصدقاء، فيرفع النص، هذا الحرج، لتنمو الالفه و المحبه بين الأسر المختلفه، و كما

يقول

ص: ٣٦٢

الحديث الشريف عن الأئمة عليه السلام :

«أحبكم إلينا أكثركم اكلا في بيوتنا».

لأن الجلوس الى مائدة الطعام فى البيت يفتح القلوب على بعضها، ويمتن العلاقات، و بالتالى يفتح طريق التعاون بين افراد المجتمع.

فكم من تعاون بدأ من جلسه طعام، حتى الثورات الرساليه كثيرا ما تنطلق من مثل هذه المناسبات، فحينما تقترب النفوس و ترتفع الحجب بين الإنسان و أخيه و بعيدا عن انظار الناس و أسماعهم، هنالك يبدأ الإنسان بالحديث عما يعانیه، فيبث همومه و مشاكله لأخيه و بالتالى تتوفر الأجواء الملائمه للمناقشه و تبادل الأفكار مما يكون مناسبا لجمع الامكانيات و الكفاءات المختلفه و ازاله الصعوبات، فربما جلس أناس مؤمنون لبعضهم كى يأكلوا، و لكنهم قاموا من على مائده الطعام لينجزوا أعمالا عظيمه فى سبيل الله.

إن التجمعات الأسريه فى الإسلام هى اللبنة الاولى و الأساسيه فى صرح الصمود و التضحيه فى المجتمع الاسلامى، فلا يستطيع الإنسان الصمود أمام تحديات الزمن و عنجهيه الطغاه، و تحقيق النصر لوحده، و لكنه يستطيع ذلك حينما يجلس الى أقاربه و معارفه و يتفاعل معهم حيث يشعر بالقوه فيندفع بحماس لمواجهة كل التحديات.

و لما فى الجلوس الى الموائد من فوائد اجتماعيه عظيمه، نجد الإسلام يشجع عليها، و لو كانت العلاقات الاجتماعيه فى البلاد التى يحكمها الطاغوت متينه و فعاله لشلّ سيف الطغيان فيها، لأن الطاغوت حينئذ لا يضرب واحدا واحدا، و انما يضرب اسره اسره، و الاسره القويه المتفاعله صخره صماء لا تتفتت، فلو وقف المجتمع بأسره المتعاونه مع بعضها عبر قياداتها لسقط الطاغوت المتسلط على رقاب

ص: ٣٤٣

الناس.

ثم يبين القرآن الكريم حكماً آخر يعطى العلاقات الاجتماعية حراره و دفناً فيقول:

أَوْ مِمَّا مَلَكَتُمْ مَفَاتِحَهُ فَاذَا اعطى المالك مفتاح بيته لأحد، يجوز له تناول الطعام الذى فيه -بالفحوى- لما ينبى ذلك عن رضى قلبى.

جاء فى التاريخ:

إذا بعث رسول الله أحدا من أصحابه فى غزاه أو سريره، يدفع الرجل مفتاح بيته الى أخيه فى الدين (و هو الذى آخى النبى بينه و بينه)، و يقول له: خذ ما شئت و كل ما شئت، فكانوا يمتنعون من ذلك حتى ربما فسد الطعام فى البيت، فأنزل الله هذه الآية. (١)

و اعطى الإسلام الصديق الوفى حكم القريب فقال:

أَوْ صَدِيقُكُمْ

و جاء فى الحديث عن الامام الصادق عليه السلام :

«من عظم حرمه الصديق ان جعله من الانس و الثقه، و الانبساط و طرح الحشمه، بمنزله النفس و الأب و الأخ و الأبن» (٢) لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعاً أَوْ أَشْتَاتاً

ص: ٣٦٤

١-١) المصدر/ص ٦٢٥.

٢-٢) المصدر/ص ٦٢٦.

فيا مكان الاسره ان تجتمع بأكملها حول مائده الطعام، أو يحضر افراد منها فقط كأن يأكل الأخ مع أخيه و الصديق مع صديقه.

فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبَارَكَةٌ طَيِّبَةٌ يَجِبُ أَنْ تَكُونَ الْقُلُوبُ مَتَحَابَةً مَّتَأَلَفَةً، وَمَجْنُودَةً فِي جَيْشٍ وَاحِدٍ، وَالسَّلَامُ هُوَ رَمَزُ تَأَلَفِ الْقُلُوبِ، وَعِنْدَ مَا يَسْلَمُ الْمَرْءُ عَلَىٰ أَخِيهِ، فَإِنَّهُ يَرْبِطُ نَفْسَهُ مَعَهُ بِرَابِطَةِ الْمَحَبَةِ وَيَتَعَهَّدُ بِأَنْ يَكُونَ مَسَالِمًا لَهُ فِي حُضُورِهِ وَغِيَابِهِ.

لِذَلِكَ يُؤَكِّدُ الْقُرْآنُ قَائِلًا: «فَسَلِّمُوا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ» أَيِ أَنْتُمْ تَشْكُلُونَ نَفْسًا وَاحِدَةً، «تَحِيَّةً مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ» فَحِينَئِذٍ يَقُولُ الْإِنْسَانُ لِأَخِيهِ السَّلَامَ عَلَيْكُمْ يَقُولُ اللَّهُ أَيْضًا السَّلَامَ عَلَيْكَ أَيُّهَا الْمَجْتَمِعُ الَّذِي يَتَسَالَمُ أَفْرَادَهُ وَيَتَبَادَلُ أَبْنَاؤُهُ السَّلَامَ، إِنِّي سَوْفَ أَمْنُحُكُمْ السَّلَامَ تَحِيَّةً، «مُبَارَكَةً طَيِّبَةً» وَهَذَا السَّلَامُ يَسَبِّبُ الْبَرَكَهَ أَيِ النَّمُوَ الْاجْتِمَاعِيَّ وَالْمَعْنَوِيَّ، الَّذِي يَخْتَلِفُ عَنِ النَّمُوِ الْمَادِي الْفَاسِدِ لِدَى الْمَتْرَفِينَ أَوْ الْحُكَّامِ الطَّغَاهِ، بَلْ هُوَ تَكَامُلٌ طَيِّبٌ وَمُسْتَقْبَلُهُ عَظِيمٌ.

كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ فَكَلِمَاتُ الْأَحْكَامِ الْقُرْآنِيَّةِ حَسَّاسَةٌ وَعَمِيقَةٌ، كَلِمَاتٌ وَجَدْنَا بَعْدَهَا مَبَاشِرَةً مِثْلَ هَذِهِ الْكَلِمَاتِ: لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ، لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ، لِحَاجَةِ الْأَمْرِ إِلَى التَّعْقُلِ وَالتَّفَكُّرِ حَتَّى يَعْرِفَ الْمُؤْمِنُونَ أَهْمِيَّتَهُ، وَأَنَّهُ لَا يُمْكِنُ فَهْمُ ذَلِكَ إِلَّا إِذَا اسْتَشَارَ الْإِنْسَانُ عَقْلَهُ، وَقَدَحَ زِنَادَ أَفْكَارِهِ.

إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَىٰ أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّىٰ يَسْأَلَهُ تَأْذِينَهُ إِنَّا الَّذِينَ يَسْأَلُونَكَ أُولَٰئِكَ
الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا أَسَأْتَ تَأْذِينَكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأُذِنَ لِمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٦٢) لَا
تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذًا فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ
تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٦٣) أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا
عَمَلُوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٦٤)

هدى من الآيات:

فى ختام هذه السوره التى تتحدث عن الاسره الفاضله،و عن القيم التى ينبغى ان تنمو فيها،و التى من أبرزها الطاعه لولئى الأمر انطلاقا من الطاعه للقيم الحق، يؤكد ربنا فى هذه الآيات الكريمه على ضروره الطاعه للقياده الرساليه فى القضايا الاجتماعيه المختلفه.

فاذا كان المسلمون مجتمعين على أمر كالحرب أو البناء أو اى عمل آخر فلا يجوز لأحد منهم ان يتسلل من الاجتماع فى خلسه و يذهب لأعماله الخاصه،حتى و لو كانت هناك حاجه تدعوه الى ذلك،لان حاجه المجتمع أهم من حاجته الشخصيه.

نعم له ان يستأذن القياده،فاذا أذنت له فليذهب و الا فلا..و القياده- بدورها-تستطيع ان تأذن لمن شاءت إذا عرفت الكفايه فى الباقين،و مع ذلك تستغفر القياده له،لأن استئذانه فى مثل هذا الوقت نوع من الذنب،إذ هو هروب

من المسؤوليه الاجتماعيه.

و بعدئذ يؤكد القرآن على ضروره تمييز الرسول عن الآخرين باعتباره القائد، و المبلغ للرساله، مما يجعله شخصيه ذات تأثير فعال في فرض الأوامر و التعليمات، و يحذر بشده أولئك الذين يخالفون عن أمره بأن تصيبهم فتنه، و أبرز الفتن سيطره الطغاه، أو عذاب اليم في الآخره.

و يحذرنا الله نفسه، أو ليس له ما في السموات و الأرض، و هو عالم بما نحن عليه من خير أو شر؟! و حين نعود اليه يخبرنا بأعمالنا و هو بكل شيء عليم، فلما ذا التبرير و النفاق و الخداع الذاتى؟

بينات من الآيات:

[٦٢] ان الإسلام يريد لمجتمعه ان يكون مجتمعا متكافلا متكاملا موحّدا، و القياده هي الرابط الاجتماعى الذى يعصم المجتمع من الانهيار و التشتت، و هنا تكمن اهميه الوحده، و عدم شق عصاها، فلا- يجوز للفرد ان يعتنق رأيا يفصله عن المسيره العامه للأمة، و هذا هو المقياس الصحيح لمدى ارتباط المسلم بالمجتمع الاسلامى و انتمائه الحقيقى له.

أما الأفراد الذين يرسمون لأنفسهم خططا، يفرضونها على المجتمع، شاءت القياده أم أبت، فلا- يمكن ان يكونوا منتمين الى المجتمع، و هؤلاء هم المنافقون فى منطق القرآن الحكيم.

لذلك نجد التعبير القرآنى يقول: «إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ» للتأكيد على ان هؤلاء وحدهم الذين ينتمون الى مجتمع الايمان، اما الآخرون فلا.

و هكذا يريد الإسلام ترسيخ الشعور بالمسؤوليه فى نفوس المؤمنين، و يبدو من

هذه الآيات ان بعض الناس كانوا يريدون التنصل من مسئولياتهم.

و كثيرا ما ينفر الإنسان من تحمل المسئولية حينما يشعر بثقلها، أو خطورتها على مصالحه، و حتى يخفى هذا الشعور يصنع دثارا من المبررات لنفسه، و لكي يعالج الإسلام هذه النزعة فقد فرض على الإنسان المسلم ان يتحلى بصفيتين اساسيتين هما:

١- الطاعة و التسليم.

٢-التنفيذ الجاد لقرارات القيادة.

و لو عرف الإنسان المسلم نوعيه فكر القيادة الرساليه، و كذلك توجهها، فانه سيسلم نفسه لها تسليما عميقا يذوب بسببه كليا في خطها، و لا- يكتفى باتباع القرارات الظاهره فقط، بل سيتبع روح القرار و اهداف القيادة، حتى من دون ان تحدد هي ذلك بالضبط، و هنا نقل قصه حدثت في إيران:

جاء رجل الى أحد قادة الثوره يستأذنه في قتل أحد افراد الساواك- و هي مؤسسه ارهاييه تجسسيه كانت تابعه للنظام الشاهنشاهي المقبور- فأجابه القائد بالنفي، مما أثار إعجاب الجالسين، فما كان منهم الا ان سألوه و لماذا و هو يستأذنك في قتل مجرم طالما قتل الناس و أفسد في الأرض و فعل كذا و كذا؟! فقال لهم: ان مثل هذا الإنسان ليس لهذه المهمه، لأنه لو كان لها لما أتى يسألني اقتله أم لا! و هو عاقل يعرف الأحكام الشرعيه و التوجه العام لاحاديثي الجماهيري.

و كذلك بنو إسرائيل لما قال لهم موسى عليه السلام ان الله يأمركم ان تذبحوا بقره امطروه بوابل من الأسئلة: ما هذه البقره؟ ما لونها؟ ما شكلها؟ ما.. ما. إلخ؟ « فَذَبْحُوهَا وَ مَا كَادُوا يَفْعَلُونَ » لان التسليم النفسى لم يكن موجودا عندهم بما

ص: ٣٤٩

فيه الكفايه، فكانوا يريدون التنصل من المسؤوليه بأيه وسيله كانت.

ولا يكتمل إيمان المؤمن حتى يذوّب شخصيته في شخصيه الامه، و يبيع نفسه و توجهاته في الحياه للقياده الرساليه، بان يكون رهن أوامرها، كما لا يكتفى بتنفيذ ظاهرها فقط، و انما يغوص الى الاعماق، ليكتشف أبعادها، و يطبقها بالشكل الأكمل، بخضوع قلبي تام، و قد وصف القرآن المؤمنين بذلك حيث قال: «فَلَا وَ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَ يُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا»، و التسليم هو الانصياع النفسى التام.

إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ فَلَا يَشْكُلُ الْإِيمَانَ بِاللَّهِ وَحده قيمه حقيقه ما لم يكن مقترنا بالايمن بالرسول، و ما يترتب على ذلك من تلقى الأوامر و التعليمات و التشريعات الالهيه منه، و هذا ما يميّز المؤمن الحقيقى عن المؤمن الظاهرى.

وَ إِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَىٰ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا حَتَّىٰ يَسْتَأْذِنُوهُ أَيَّ إِنهـم لا يتصرفون وفق رغباتهم الشخصيه، انما يدعون القرار الحاسم بيد القياده.

إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأَذَنَ لِمَن شِئْتَ مِنْهُمْ قَدْ تَحْتَاجُ إِلَىٰ هَذَا الشَّخْصِ فَيَجُوزُ لَكَ أَنْ تَأْذِنَ لَهُ.

وَ اسْتَغْفِرْ لَهُمْ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ لأن ذهابهم و ان كان بأمر الرسول الا أنه نوع من الذنب، لذلك ينبغى للرسول

الاستغفار لهم حتى يغفر الله لهم من جهه، و حتى يكون ذلك اشعارا للآخرين بأن لا يطلبوا أذنا مماثلا، و بالتالى ينفذ الناس شيئا فشيئا و يبقى الرسول وحيدا فى الساعه.

و جاء فى التاريخ: «ان هذه الآيه نزلت فى قوم كانوا إذا جمعهم رسول الله لأمر من الأمور- فى بعث يبعثه، أو حرب قد حضرت- يتفرقون بغير اذنه، فنهاهم الله عز و جل عن ذلك». (١)

و

جاء فى نص آخر: ان الآيه نزلت فى حنظله بن أبى عياش و ذلك انه تزوج فى الليله التى كان فى صبيحتها حرب أحد، فاستأذن رسول الله، ان يقيم عند أهله، فانزل الله عز و جل هذه الآيه «فَأَذِّنْ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ» فأقام عند أهله، ثم أصبح و هو جنب، فحضر القتال و استشهد، فقال رسول الله، رأيت الملائكه تغسل حنظله بماء المزن فى صحائف فضه بين السماء و الأرض فكان يسمّى غسيل الملائكه. (٢)

[٦٣] ان احترام القيادة فى قراراتها يجب ان ينعكس على احترامها فى الظاهر أيضا، فلو نطقت باسم الرسول، أو باسم قيادتك كما تنطق باسم الآخرين دون ائى احترام، أو إذا جلست الى الرسول ترفع صوتك أمامه، كما ترفعه أمام الآخرين أو تناديه من وراء الحجرات كما تنادى الآخرين، فانك لن تكون مستعدا بعد ذلك لتلقى أوامره و من ثم تنفيذها، إذا لا بد من اعداد نفسى كامل سلفا، لتلقى أوامر الرسول أو القيادة الرساليه التى تمثله على الواقع، كأن يتوضأ الفرد قبل الذهاب الى مجلس الرسول، أو يغتسل ان كان عليه غسل، ثم يجلس فى محضره المجلس المستفيد، ليقتبس من علمه بتركيز تفكيره فى كلامه، و تفرغ نفسه لتطبيق تعاليمه.. و هكذا

ص: ٣٧١

١-١) المصدر/ص ٦٢٨ نقلا عن تفسير على بن إبراهيم.

٢-٢) المصدر.

حتى ينتهى الأمر به الى تنفيذ أوامر القيادة بشكل دقيق جدا.

فحينما تحترم القيادة تطبق أوامرها و توجيهاتها، و على العكس فانك تأخذ أوامرها و توجيهاتها مأخذ الهزل لو لم تكن تحترمها.

□ لا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا و لهذا المقطع من الآية وجهان: أحدهما ظاهر و الآخر باطن.

أما الظاهر فهو: ان لا يسمّى الإنسان رسول الله باسمه الخاص، بل بكنيته، و حينما جاءت هذه الآية حرم على المسلمين ان ينادوا رسول الله باسمه، فأخذوا ينادونه يا رسول الله أى باسمه القيادى.

و اما الوجه الباطن فهو: ضروره تهيتؤ المسلم نفسيا لتقبل قياده الرسول صلى الله عليه و آله و كل من جلس مجلسه و حكم باسمه، و لا- يقول هذا إنسان و انا إنسان، بلى انه بشر، و لكنه يمتلك صفة اعتباريه أنت لا- تملكها، هي جلوسه مجلس الرسول، لذلك قال كثير من فقهاءنا: (إذا حكم ولى الأمر المجتهد الجامع للشرائط بحكم ما، و جب على الناس -سواء منهم المقامدون لهذا المجتهد أو غيرهم- اتباع حكمه، بل و حتى على المجتهدين ان يتبعوه فى حكمه)، لأنه حينما يحكم فإنه يحكم باسم منصبه، و اهانه حكمه اهانه لمركزه، و الاهانه لمركزه اهانه للدين، و بالتالى لله سبحانه و تعالى، و كما

يقول الحديث فى حق الائمة :

□ «الراد عليهم كالراد علينا و الراد علينا كالراد على الله» قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذًا اى يتسللون خلسه دون ان يشعر بهم الرسول أو يرأهم و هم يخرجون من مجلسه.

فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ ان المقصود من «الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ» ليس فقط مخالفه الأوامر الظاهره، بل أيضا مخالفه روح القياده.

أنهم استطاعوا ان يتسللوا لو اذا و ان يهربوا خلسه، و لكن هل أصبحوا فى مأمن كما يزعمون؟! كلا.. بل إنهم يعرضون أنفسهم للفتنه، و للعذاب الأليم، فاذا استدعاهم الرسول فى يوم ما، و أصدر إليهم أوامرا مباشره بحمل السلاح، و التوجه الى الغزو مثلا، فإنهم فى هذه الحاله أمام موقفين، فإما الانصياع الى الأوامر، و هذا خلاف ما يريدون، و أما الرفض فيخرجون -بذلك- ظاهرا و باطنا عن الإسلام، و يضعون أنفسهم تحت طائله العقاب الشرعى فى الدنيا و فى الآخره.

و على فرض أنهم اختاروا الأمر الاول، فإنهم سيجدون صعوبه بالغه فى تنفيذ الأوامر، لان الذى لم يرب نفسه على تنفيذ الأوامر الصغيره لا يستطيع ذلك فى القضايا الكبيره، و الذى يهرب اليوم من الحر و البرد، و سهر الليل و مشاكل التدريب و ما أشبهه، كيف لا يهرب غدا من الحرب و القتال؟! اذن فعلى الإنسان ان يربى نفسه على الطاعه و الانضباط و تحمل الصعاب حتى يكون على أتم الاستعداد نفسيا و بدنيا لتطبيق الأوامر الهامه.

أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ

جاء فى حديث مأثور عن الامام الصادق عليه السلام :

«يسلط عليهم سلطانا جائرا، أو عذابا أليما فى الآخره» (1)

ص: ٣٧٣

(١- ١) المصدر/ص ٦٢٩.

و الواقع: ان هناك رابطه وثيقه بين سيطره الطغاه و بين مخالفه أوامر القياده الشرعيه.

[٦٤] أَلَا- إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ أَيْ ان الله و بكل تأكيد يعلم بكل ما تفعلونه، و هو قادر على محاسبتكم و مجازاتكم لأنه مالك الكون و الوجود.

و يَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا وَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ و غدا يخبركم بكل ما فعلتم، لان علمه محيط بالإنسان، و معرفه الإنسان بهذه الحقيقه تجعله مسؤولا عن أقواله و أعماله، فيعمل على إصلاحها و تحسينها، ليكسب ثواب الله، و يتجنب عقابه.

ص: ٣٧٤

سوره الفرقان

اشاره

ص: ۳۷۵

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

فضل السوره:

عن رسول الله صلى الله عليه وآله قال :

«من قرأ سورة الفرقان بعث يوم القيامة و هو مؤمن، أَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ» (نور الثقلين/ص ٢٠٤ ج ٤)

عن الامام الرضا عليه السلام قال :

«يا ابن عمار لا تدع قراءة «بَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ» فان من قرأها في كل ليلة لم يعذبه الله أبدا، و لم يحاسبه، و كان منزلته في الفردوس الأعلى» (مجمع البيان/ص ١٥٩ ج ٧)

الاسم:

لأن هذه السوره تبين حقائق عن الوحي، و لأن أهم ميزه للوحي هو تفريقه بين الحق و الباطل فقد سميت ب(الفرقان)الذي يشير الى الآيات المحكمات في القرآن.

ص: ٣٧٧

انها رساله،و عظمه الرساله أولا تأتي من جانب مرسلها.

و المدرس الأول من هذه السوره التي يبدو انها تبين حقائق الوحي و تنسف العقبات التي تعترض طريق الأيمان به،يذكرنا بمن أرسل الكتاب،و بالكتاب، و بالرسول الذي أرسل معه.

أولا:الله هو الذي انزل الفرقان،و هو رب السموات و الأرض الذي أرسل الكتاب.

انه الله الذي تبارك و تعالى.أو ليس خيره عميم ثابت يغنى و لا يتناقص و له وحده ملك السموات و الأرض و هو الذي قدر كل شيء.

ثانيا:و من آمن بالله عرف رسالاته،أما من اتخذ من دونه شركاء فسوف لا يحظى بالايمان بالرساله،لذلك تراهم يهتمون بالرساله بالافتراء،و يزعمون:انها أساطير.

بينما الذى يعرف الله، وانه العليم بسر الخلق يؤمن بالرساله التى تكشف جانبا من ذلك السر.

ثالثا: قالوا: كيف يبعث الله بشرا رسولا. إنه يأكل و يكتسب معيشته، و قالوا: لماذا لم ينزل معه ملك، و لم يلق اليه كنز، ثم قالوا: انه رجل مسحور.

و هكذا ضلوا عن السبيل بسبب ضربهم الأمثال للرسول.

و بعد ان يجيب السياق عن افتراءاتهم بأنه قادر على ان يجعل للرسول ما يملأ عيونهم من الجنات و القصور، يبين جذر الكفر بالرساله المتمثل:

أولا: فى تكذيب الساعه، ينذرهم بها حيث تستدعيهم من بعيد بزفير و تغيظ، فاذا اقحموا فيها تنادوا بالهلاك، و يقارنها الذكر بالجنات التى وعد المتقون.

ثانيا: باعتمادهم على شركائهم. حيث يذكرنا الرب بأن الأنداد لا يغنون عنا شيئا فى ذلك اليوم الذى يقفون امام المحكمه، و يتبرءون ممن كانوا يعبدونهم.

ثالثا: ان من أسباب الكفر بالرساله نسيان الذكر بسبب تطاول العمر و استمرار النعم، فكان سببا لهلاكهم.

و يعود الذكر الى رد شبهاتهم التى سبقت الواحده تلو الأخرى.

أولا: قالوا: لماذا يأكل رسولنا الطعام و يمشى فى الأسواق، فقال الرب: ان المرسلين سابقا كانوا أيضا يأكلون الطعام، و يمشون فى الأسواق، و ان ابتلاء الناس ببعضهم سنه الله التى تمضى فى الخلق لمعرفه من يصبر، و هو البصير بهم.

ثانيا: قالوا: لماذا لم ينزل معه ملك نذيرا، يقول ربنا: انه الاستكبار و العتو.

أ و لا- يعلمون انه لو تنزلت الملائكه، و انكشف الغطاء فقد لزمهم الجزاء، و لا بشرى لهم يومئذ، و تنتشر أعمالهم فلا تنفعهم، و يمضى السياق فى بيان أهوال الساعه التى كذبوا بها لعلمهم يتذكرون.

ثالثا: من أسباب الكفر بالوحى خله السوء حيث يعرض الظالم- آتئذ- على يديه، و ينادى بالويل على نفسه على ما اتخذ من اخلاء سوء اضلوه عن الذكر.

رابعا: يأتى الرسول يوم القيامة يشكو الى ربه من قومه الذين اتخذوا القرآن مهجورا.

خامسا: و قالوا: لولا أنزل القرآن جملة واحده، و يجب السياق بان الحكمه هى تثبيت الفؤاد، و مقاومه أمثلتهم الباطله بالحق المبين.

و يحدث السياق عن مثل للرساله الالهيه حيث بعث الله موسى الى فرعون رسولا، كما بعث نوحا الى قومه، و أرسل الى عاد و ثمود و أصحاب الرس، فماذا كانت عاقبه الذين كذبوا بالرساله. ان مصير القرية التى أمطرت مثلا- واحدا لعاقبه أولئك المكذبين. أ فلا يعتبر هؤلاء بهم و يكفون عن تكذيبهم؟! سادسا: و يتخذون الرسول هزوا، و لكنهم يعترفون بمدى تأثيره فيهم، و الواقع:

ان الهدى من الله و ليس الرسول و كيلا عنهم، و لا يهديهم الله إذ أنهم اتخذوا أهواءهم آلهتهم، و يبين القرآن ان الله هو الذى جعل الشمس دليل الظل، و أحيى ميت البلاد، و صرف الأمثال فهو الهادى و المذكر، و لكن أكثر الناس يكفرون.

و الله سبحانه المالك المقتدر، و قد أمر الرسول بجهادهم جهادا كبيرا، و بين آيات قدرته البالغه، حيث مرج البحرين، و جعل بينهما حاجزا و قد خلق من الماء بشرا.

و لعل الآيات توحى بأن من يكفر بالرسالة سوف يتعرض لمعاداه المؤمنين، ولا ينفعه الأنداد شيئا، كما أنهم لا يضرونه إذا خالفهم.

و فى المقابل لا يطلب الرسول اجراء، و لا يعتمد الآ على الله.

و يأمر الله الرسول بالتوكل على الحى القيوم، و يذكره بأسمائه الحسنى، فقد خلق السموات و الأرض فى ستة أيام، ثم استوى على عرش القدره، ينشر رحمته على عباده و هم ينفرون من السجود للرحمن بكفرهم! و فى الـدرس الأخير يـذكرنا القرآن باسم «تبارك» الذى به جعل فى السماء بروجاء، و جعل فيها سراجا منيرا، ثم يضرب مثلا من واقع عباد الرحمن الذين صاغهم الوحى، فهم يمشون على الأرض هونا، و إذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما، و هم يبيتون لربهم سجدا و قياما، و يحذرون عذاب الآخرة، و يقتصدون فى الإنفاق، و لا يدعون مع الله إلها آخر، و لا يقتلون النفس التى حرم الله الآ بالحق، و يتوبون الى الله، و لا يشهدون الزور، و يمرون باللغو كراما، و تعى افتدتهم آيات ربهم، و يتطلعون الى ان يصبحوا إماما للمتقين، فيجزئهم الله الغرfe بما صبروا، و يلقون فيها تحيه و سلاما.

و فى الآيه الأخيره يـذكرنا السياق بدور الدعاء، و لعل السبب يتلخص فى انه ردّ التحيه من قبل العبد لرسالات الرب.

ص: ٣٨١

[سوره الفرقان (٢٥): الآيات ١ الى ٦]

اشاره

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . بِبَارِكِ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا (١) الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ تَقْدِيرًا (٢) وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا (٣) وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا (٤) وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمَلَّى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا (٥) قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا (٦)

هدى من الآيات:

فى الدررس الأمول من هذه السوره التى تبين حقائق عن الوحى، يذكرنا ربنا بأنّ من انزل الفرقان هو الله الذى تنوعت و كثررت بركاته، و الهدف من الفرقان الذى أنزله على عبده و رسوله محمد صلّى الله عليه و آله هو إنذار كافة الناس.

و يفصل الذكر حديثه عمن انزل الفرقان. أو ليس خطر شأن الرساله إنما يكون بمن أرسلها؟ و ها هو المليك المقتدر الواحد بلا شريك و المقدر لكل شىء ينزل ما يهدينا الى حقيقه الأشياء.

بينما الضالون الذين يهتدون بالقرآن يشركون بربهم من لا يخلق شيئاً، و لا يملك لنفسه ضراً فيدفعه أو نفعاً فيجلبه، و لا يملكون موتاً و لا حياه و لا نشورا.

و شركهم الله يجعلهم يكفرون بالفرقان و يزعمون انه ليس إلاّ إفك صنعته الرسول بالتعاون مع آخرين. هكذا يظلمون الرسول، و هكذا يقولون باطلاً.

و يقولون:انها مجموعه أفكار السابقين تملى عليه فيكتبها بكره و أصيلا.

كلآ..انما انزل الفرقان الخبير بسر السموات و الأرض.أو ليس الله هو الغفور الرحيم يتجاوز عن ذنوب عباده و يرحمهم بانزال الوحي إليهم!؟

بينات من الآيات:

اشاره

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ :

[١]ان من أبرز مميزات القرآن الكريم أنّ الحكمة تتجلى فيه،لأنه من لدنّ حكيم خبير،فلا تجد لفظه من ألفاضه على صيغه معينه الا لحمه.

و لعل سبب تسميه هذه السوره بسوره«الفرقان»هو التالي:

أولاً:لاشتمالها على هذه الكلمه فى بدايتها.

ثانياً:بما ان الإنسان خلق للبقاء فى حياه أخرى لا- تفنى،و إنما جىء به الى الدنيا لتتكامل نفسه،و يعدّ لتلك الحياه،و طريق التكامل الوحي،و سوره الفرقان تحدثنا عن الوحي،و ضروره الايمان به،و كيفيه تجاوز العقبات التى تعترض طريق الايمان به،و نقرأ فى نهايه السوره عرضاً لأبرز صفات المؤمنين به،و التى تبين فى ذات الوقت-صوره عن الإنسان المتكامل الذى يعده الفرقان للجنه،و من هنا سمى الوحي هنا بالفرقان لأنه يميز الإنسان المتكامل المعدّ للجنه عن البشر الناقص الذى يلقى فى النار،فالفرقان هو القرآن الذى يعمل به،و تصاغ عبره شخصيه أصحاب الجنه.

فبالقرآن يعرف الحق من الباطل، والخير من الشر، ومن اهتدى به أوتى الفرقان، وارتفع إلى درجة الولاية على الناس تشريعياً، إذ يستخلفه الله على أرضه، لا لميزه ذاتيه، بل لأنه يجسد أكثر من غيره-رسالة الله في سلوكه و تصرفاته، كما أنه يسمو لمستوى الولاية التكوينية، لأنه قد طبق بنود رسالته على نفسه مما يعطيه القدره على تسخير الأرض و ما فيها.

و عند ما تبدأ آيات هذه السوره المباركه بكلمه «تبارك» و التي تعنى التكامل فى الحياه، فلكى تشير الى حقيقه عظيمه تهتم الإنسان كمسؤول عن حياته و مصيره، فلو طمح يوماً إلى التكامل، فلا بد له من ادراك هذه الحقيقه، و إلا فإنه سيظل عاجزاً عن بلوغ الهدف الكبير.

تلك الحقيقه هى أن الإنسان لا يمتلك القدره الذاتيه على التكامل، و لا سبيل له إلى ذلك الا بالارتباط بينوع التكامل و البركه و هو رحمه الله-جل شأنه-عبر التمسك بحبله الممدود من السماء الى الأرض، و هو القرآن، حيث يسمو بالإنسان نحو مدارج الكمال، و يفجر طاقاته الخيره التى أودعها ربنا فيه.

لذا نجد هذه الكلمه تتكرر ثلاث مرات أو أكثر بعبارات مختلفه فى هذه السوره، التى يستوقف الإنسان سياقها فى الآيه الاولى ليبيّن ان الهدف الأساس من الوحي هو الإنذار لأن الإنسان أقرب الى دفع الشر عن نفسه منه عن جلب الخير، فلو علم بعدو يريد اقتحام البيت تراه يتحرك استعداداً للدفاع بنشاط أكبر مما لو علم بوجود فرصه امامه للكسب، و لربما كان هذا السبب الذى يجعل الإنذار يسبق التبشير.

القرآن رساله الى العالمين:

و تشير الآيه الكريمه الى أنّ القرآن ليس رساله موجهه الى طائفه من بنى البشر

دون أخرى، إنما هي رسالته مترامية الأبعاد، تسع البشرية كلها، فهي شاملة و عامه، وهذه الميزة من أكبر الدلائل الواضحة على أنها وحي أرسله الله سبحانه، و إنما ليس من اصطناع الرسول (صلى الله عليه و آله و سلم) لأن الإنسان لا يمكنه الوصول الى مستوى متقدم من التجرد عن الذات و المصلحه العنصريه و الاقليمييه و غيرها من الانتماءات الماديه، و إنما يستطيع ذلك عند ما يتصل بمشكاة النور، و يتصل من اى انتماء مادي، و يرتبط بالله المهيم على جميع الحدود و القيود و الولاءات.

فكون القرآن حديثاً للبشرية دليل على صدقه، و انه مرسل من عند الله، ثم إن من يضع المنهج للحياه، و يفرضه على الإنسان لا بد أن يكون مطلعاً على شيئين:

الإنسان و الكون، فلا بد ان يعرف طبيعه الإنسان، و مكوناته من الطاقات و التطلعات، أما الكون فلا بد أن يكون مهيمنا عليه، عارفا بسننه و انظمته، و لا يتسنى هذا الأمر لغير الله - سبحانه - الذى أودع السنن و الانظمه و قدرها تقديراً.

لَبَّارِكَ الَّذِي نَزَلَ الْفُرْقَانُ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا لماذا اختار الله سبحانه كلمه «عبده»؟ يبدو لى أن الهدف من هذا التعبير أمران، هما:

أولاً: ان عظمه الرسول صلى الله عليه و آله نابعه من عبوديته لربه، و إخلاصه له سبحانه.

ثانياً: ان القرآن ليس من فكر الرسول، و لا هو إفراز طبيعى يعلمه، و كمال عقله، أو دليل على اختلاف عنصره.

«الفرقان» كلمه مشتقه من فرق يفرق مفارقه، و قد سمي الذكر فرقانا لأنه

يهب الإنسان قدره على التمييز، و عليه مسئولية الاختيار.

جاء في النص المأثور عن أبي عبد الله عليه السلام في معنى الفرقان :

في قوله « أَنْزَلَ الْفُرْقَانَ » قال:

«هو محكم، و الكتاب هو جملة القرآن، الذي يصدقه من كان قبله من الأنبياء. » (1)

و في الصحيفه السجادية عن أبي محمد الباقر زين العابدين -عليهما السلام :-

«و فرقانا فرقت به بين حلالك و حرامك، و قرآنا أعربت به عن شرائع أحكامك. » (2) [٢] و إذا عرف الإنسان رب العزه الذي انزل الفرقان عرف صدق هذا الكتاب، و كلما زادت معرفته بربه كلما زادت قدرته على الاستفادة من كتابه، و تحول الكتاب عنده الى مقياس سليم لمعرفة الخير و الشر، و النفع و الضر. ذلك لأن من عرف ربه بأسمائه الحسنی ثم تليت عليه آيات الكتاب، رأى تجليات ربه فيها، و عرف انه لا يكون مثل هذا الكتاب الا من الله الخبير، فلا يخالجه ريب في صدق رساله ربه.

و هكذا ذكرتنا سورة الفرقان أولاً بمن انزل الكتاب.

الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَ لَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ تَقْدِيرًا

ص: ٣٨٧

١-١) تفسير نور الثقلين/ ج /١ ص ٣١٠.

٢-٢) المصدر.

إن من الناس من يعبد الآخرين باعتقاد ذواتهم الالهيه- كما يزعمون- أو ان شرعيتهم نابعه من الله ذاتا، كالاعتقاد بأن السلطان ظل الله في الأرض، أو أن الله أمر بعباده التراب، و تقديس القوم و العشيره.

و عند ما ينسف الله هاتين الفكرتين، فانه ينسف بذلك قاعده التمايز الطبيعي بين العناصر البشريه، أو القوميات و الوطنيات، أو أى شىء آخر.

و يأتي عجز الآيه الكريمه مكملا-بتناغم و تناسب-مع كلمه «الفرقان» التى مر ذكرها فى الآيه الاولى، فهى ليست بعيده عما تهدف اليه كلمتى «فَقَدْرُهُ تَقْدِيرًا» فى آخر هذه الآيه، لأن الفرقان جاء لتعريف الإنسان بالتقديرات الالهيه، و الأنظمه الربانيه، و التقادير هى الانظمه و السنن.

و قد أضافت الأحاديث فى معنى التقدير و حدوده و نذكر فيما يلى بعضا منها:

روى عن على بن إبراهيم الهاشمى قال: سمعت أبا الحسن موسى بن جعفر عليهما السلام يقول :

«لا يكون شىء الا ما شاء الله و أراد و قدر و قضى».

قلت: ما معنى شاء؟ قال: «ابتدأ الفعل».

قلت: ما معنى قدر؟ قال: «تقدير الشىء من طوله و عرضه».

قلت: ما معنى قضى؟ قال: «إذا قضى أمضاه فذلك الذى لا مرد له» (1)

ص: ٣٨٨

و التقدير الالهى سبق الخلق بمدته طويله، هكذا

يروى مسندا عن أبى على بن موسى الرضا عن آبائه عن على (عليهم السلام) قال قال رسول الله (صلى الله عليه و آله) :

«ان الله عز و جل قدر المقادير، و دبر التدابير قبل ان يخلق آدم بألفى عام» (١)

و قال الامام الرضا عليه السلام ليونس :

«تدرى ما التقدير؟ قلت: لا، قال: هو وضع الحدود من الآجال و الأرزاق و البقاء و الفناء» (٢)

وَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً:

[٣] وَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَا يُخْلَقُونَ شَيْئاً وَ هُمْ يُخْلَقُونَ و ينساب السياق القرآنى ليظهر الافئده من الأساطير الجاهليه، فلا آلهه من دون الله تخلق و تصنع. كلاً..انما هى التى تخلق و تصنع، بل قد يكون الإنسان هو الذى يصنعها كما تشير اليه آيات أخرى، و التى توحى بأن الله يخلق الآلهه خلقاً أولياً من العدم، و لكن الإنسان يعطيها منصب الألوهيه، و ليس الله الذى لبس رداء الوحده، و تسربل بالعزه و الفردانيه، و لا من قبل أنفسهم.

اننا نجد هجوما قرآنيا شديدا بين الحين و الآخر على الأساطير و الخرافات انما لإبطالها، و الأخذ بيد الإنسان الى الحقيقه بعد إسقاط الآلهه الكاذبه التى نبتت فى مستنقع أو هام البشر البدائى، الإنسان ذو الذهنيه الساذجه و المحدوده.

تخلف الإنسان هو المسؤول الاول و الأخير عن ضلالاته و فساده سواء على صعيد

ص: ٣٨٩

١- ١) المصدر/ص ٤.

٢- ٢) المصدر/ص ٥.

الإفراد و المجتمعات و الأمم، إذ لا وجود لهذه الآلهة المزيفة لولا جهله و ضيق أفقه، و توجهاته المنحرفة فى قوالب الشهوه و المصلحه.

و الا- فما تفسير ظاهره الطغيان. إذ يعتلى فرد أو تتكبر جماعه لتتحكم بمصير مجاميع بشريه هائله و كأنها آلهه، فيتزلف له أولهم الناس، و يتسكعون على أبوابه، متناسين الحقيقه العظمى فى هذا الكون، و متغافلين عن واقع الذين يعبدونهم بأنهم أناس مثلهم، خلقوا من طين لازب، و هم الآن من لحم و شحم، و عظم و دم.

تحكمهم ذات القوانين و الانظمه الجسديه و النفسيه التى تحكم سائر الناس، و انما أصبحوا بهذه الهاله من التقديس الأجوف بخوف الناس منهم، و رغبتهم فى خيرهم.

و إذا أراد مجتمع ما ان يكتشف هذه الحقيقه، فما عليه الا- ان ينفذ غبار التخلف عن نفسه، و ينتفض لله ضاربا بالخوف عرض الحائط، متنازلا عن المصلحه و الشهوه العاجله فى سبيل هدف مقدس هو رضوان الله، فان الطاغوت آتئذ لا يمكنه الوقوف على عرش السلطه لحظه واحده، لان عوامل انهياره موجوده- إذا- فى ضمير الإنسان و المجتمع و فى سنن الحياه.

و لا يقصد بالآلهه المزيفه الحاكمين فقط بقدر ما يعنى بهذه الكلمه كل شىء يقدهه الإنسان الى حد العبوديه له، سواء تجسد ذلك فى الحاكم كفرعون، أو القبيله كقريش، أو العنصر كاليهود، أو الإقليم أو الحزب أو ما أشبه.

فلربما يشرد بالإنسان خياله فى مغبات الانحراف ليصور له الوطن شيئاً قائماً بذاته، أو العلم المصنوع من القماش هو الذى يحفظ البلاد و الإنسان، هكذا قد يتصور الإنسان قطعه القماش التى لا تعدو كونها رمزا لما فى قلوب الناس من حب مكون للوطن.

فاذا أصبح حب الوطن بغضا للاوطان الاخرى، أو التضحية من أجله بطشا و عدوانا على الآخرين بغير الحق،فانه بذلك يصبح إلهها يعبد من دون الله.

و يدرك البشر بفطرته ان لا إله في الكون الا الله،فهو خالقه،و مقدر سننه، و المهيمن عليه،و انه قد بعث نبيه برسالة تبين تلك السنن،إلا أن الإنسان قد يستجيب لدعوات الشيطان و النفس التي تتحول إلى آلهة مقدسه بعد تبلورها في الواقع الخارجى.

و لو وقف الإنسان ساعه تفكر لنفسه،و عرض دعوات الشيطان،و ضغوط النفس على ضوء الفطره و العقل لتبدد ظلام الانحراف عن قلبه،و لوجد الآلهة التي تعبد من دون الله لا تملك شيئا،بل الله يملكها و من يعبدها من دونه.

و ينشئ السياق ليهتف بالإنسان قائلاً:ما دمت أنت الذى تعطى لهذه الآلهة الشرعيه،فلما ذا تخضع لها تاره خوف البطش،و تستجيب لها أخرى رغبه فى الخير؟!و لكن لا يستجيب لهذا الهتاف المقدس الا من هدى الله قلبه للايمان،اما من غرق فى بحر الجحود و الكفر،و توغل فى الضلاله و الهوى،فانه بالاضافه الى رفضه هذا النداء،يتهم القرآن بالإفك و الرسول بالافتراء،و انما يافك الإنسان الذى يفترى على الله تكديبا و زورا،من أجل لذه عابره،إذ لا يكذب كذاب لغير مصلحه و رغبه.

أما الرسول ذلك الإنسان العظيم الذى تجرد عن رغباته و ذاته،فأصبح موضوعيا فى كل شىء لا يمكنه ان يخلق هذه الفريه الكبيره،و لماذا يخلقها و قد تجرد عن المصلحه؟! و انه من السخف ان يتهم أحد رسول الله بالفريه و الكذب،فان القرآن لا يولى اهتماما بالغاً لتهمه هؤلاء الرسول بذلك،بل يمر عليها مرور الكرام،و اى مصلحه

له من ذلك وقد وهب حياته كلها و ما يملك من أجل الناس؟! و كذلك لا يولى اهتماما لمن اتهموا الرسول بأنه يقتبس هذا القرآن ليلا، من مجموعته عبيد كانوا فى مكة بينهم عبد بن طحىّ «مولى طحىّ»، و ربح «مولى عبد شمس» و أناس آخرين لم يكونوا يميزون الهر من البر، لقصور افكارهم عن إنتاج فكرى أقل من إنتاج إنسان عادى، فكيف بالقرآن العظيم الذى هو ضمير الحياه، لأن من خلق الحياه هو الذى بعث رسوله محمدا صلى الله عليه و آله به؟! إن القرآن حق لا ريب فيه، و كلما توغل الإنسان فى الحياه أكثر، و تدبر فى آيات الذكر أكثر كلما اكتشف العلاقه الوثيقه بين السر الذى يكتشفه عند ما يتوغل فى الحياه، و الآخر الذى يعثر عليه عند ما يتدبر فى القرآن، و كلما نمى عقل الإنسان و زاد علمه، و تكاملت شخصيته كلما كان أقرب الى فهم القرآن و معرفه آياته الكريمه.

و يبقى الإنسان هو المسؤول عن تسلط الآلهه، و تلبسها بالقداسه المزيّفه، و هى ليست أكثر من حجر يتحطم بضربه.

و صدق أبو ذر الغفارى (رضوان الله عليه) حيث قال عند ما رأى الثعلب - الثعلبان - يبول على رأس صنم قبيلته:

أرب يبول الثعلبان برأسه لقد هان من بالت عليه الثعالب

□ □
وَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ ضَرًّا وَ لَا نَفْعًا إِذَا كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ دَفْعَ الضَّرِّ عَنْ أَنْفُسِهِمْ، فكيف يستطيعون الحاق الضر بغيرهم؟! □ □

ص: ٣٩٢

انهم أعجز، و لكن الثقافه الجاهليه هي التي تهول الأصنام و تعظيمها، و هي التي ترمز للقوى الاجتماعيه الحاكمه حتى اننا نقرأ في التاريخ: ان بعض القبائل العربيه كانت تدخل الإسلام و لكنها ترفض تحطيم أصنامها بأيديهم خشيه نزول العذاب عليهم ان هم كسروا تلك الأحجار التي صنعتها أيديهم، و في التاريخ ان الرسول (صلى الله عليه و آله) قبل من ثقيف شرطهم عليه الا يتولوا هم تكسير أصنامهم، فأمر بعض أصحابه بذلك، و كانوا يزعمون ان الجذب و البلاء سيحلان بهم لو أهانوا تلك الأحجار الصماء بسبب كثافه الاعلام السلطوى الذى مارسه بحقهم المترفون الذين كانوا يحكمون البسطاء باسم تلك الأصنام.

و اليوم نرى بعض الشعوب تقدر أصناما بشريه، و يظنون انهم مصدر الاستقرار و الرخاء، فمنهم من يقول: «الله يعز الملك» أو «الله يعز الشيوخ» أو «الله، المليك، الوطن» بدلا من التوجه الى الله، و الدعاء للمؤمنين، ثم من هو الملك و من هو الرئيس و من هو الأمير حتى نعتقد انه أساس كل خير و بركه؟! بلى. ان سلبه الناس هو انسحابهم من الساحة السياسيه، و هي التي صنعت الأجواء المناسبه لنمو الانظمه الفاسده، و انتفاخ الطاغوت.

وَ لَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَ لَا حَيَاةً وَ لَا نُشُورًا وَ لَعَلَّ الْمَقْصُودَ مِنَ الْآلِهَةِ الَّتِي ذَكَرَهَا الْقُرْآنُ فِي قَوْلِهِ: «وَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً» الرموز الاجتماعيه المعبوده من دون الله لا الأصنام الحجريه، إذ ليس للصنم موت و لا حياه، بل هما من طبيعه الإنسان.

و النشور هو البعث بعد الموت، و كيف يعبد من لا يملك لنفسه ذلك؟ [٤] وَ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا إِفْكُ افْتَرَاهُ وَ أَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ

آخِرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَ زُورًا مِنَ النّاحية اللغوية الافك هو: الكذب، و الافتراء هو: اصطناع الكذب من غير أساس.

و كما هي العادة يسم الكفار الرسول بهذه الخصال الرديئة، و لا يكتفون بذلك بل يدعون اعانه مجموعه من موالى مكه للرسول على هذه الأمور، و لا يستمهلهم القرآن دون ردّ، بل يجيبهم: انكم جئتم ظلما و زورا، و لعل الآيه تشير الى ان الانحراف هو وليد الظلم العملى و الزور الفكرى.

[٥] وَقَالُوا اللَّهُ أَطِيرُ الْمَؤَلِّينَ اَكْتَبْتَهَا فَهِيَ تُمَلَّى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَ أَصِيلاً اتهموا الرسول بأنه يتلقى القرآن من جماعه تأتية أول النهار و آخره، ثم يطلع عليهم ليسمياها و حيا نازلا من عند الله، و لا لشيء الا لتبرير الكفر و الجحود بآيات الله، إذ ان اعترافهم بالقرآن و الرسول - انهما من عند الله - يكلفهم الكثير.

[٦] قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السَّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُوراً رَحِيماً لا ين الله عالم السّرّ فى السماوات و الأرض و لأنه غفور رحيم، يريد الغفران لذنوبنا، و الرحمة لنا. لهذا و ذاك كشف لنا سر الحياه دون ان يجهدنا فى البحث عنه، و كان ذلك عبر رسوله محمد صلى الله عليه و آله و الصالحين من أوليائه الذين جعلهم نورا و سراجا منيرا، كي ينقذوا الناس من الضلاله و الضياع.

فكيف يكون من أساطير الأولين التى لا تكشف سرا و لا تهب نورا؟!!

وَقَالُوا مَا لِهَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا (٧) أَوْ يُلْقَىٰ إِلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا (٨) أَنْظِرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا (٩) لِيَبْزُقَ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلْ لِمَكَ خَيْرًا مِنْ ذَلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْعَلْ لَكَ فُصُورًا (١٠) بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَاعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا (١١) إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا (١٢) وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا (١٣) لَا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا (١٤) قُلْ أَدْرَأَكُم خَيْرًا أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَاصِرًا (١٥) لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاؤُونَ خَالِدِينَ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَسْئُولًا (١٦)

هدى من الآيات:

بعد أن ذكرنا الرب بمن أنزل الفرقان ليهدينا- كما يبدو لي- إلى المنهج القويم لمعرفة الكتاب، و للتصديق به بعدئذ. دحض تبريرات الكافرين بالرسالة، ولا يزال يفندها السياق. الواحد تلو الآخر.

لقد قالوا: كيف يبعث الله إلينا بشرا رسولا يحتاج إلى الطعام، بل و إلى اكتساب المعيشه من الأسواق، فلو لا انزل إليه ملك ليكون معه نذيرا.

أو يستغنى عن اكتساب رزقه بأن يلقي إليه كنز أو لا أقل تكون له جنه يأكل منها.

و تطرف الظالمون فقالوا: ليس هذا الذين تتبعونه سوى رجل مسحور.

و يعالج القرآن هذه الأفكار المريضة:

أولاً: بأن قياس الرسول بأنفسهم و ضربهم الأمثال له، جعلهم يضلون السبيل. و لعلهم لو تجردوا عن الأحكام المسبقة لم يضلوا عنه.

ثانياً: إن القرآن نزل فعلاً من عند الله تبارك خيره، و عظم فضله، فلو شاء و قضت حكمته البالغه لجعل لرسوله خيراً من ذلك، جنات تجرى من تحتها الأنهار (فى الآخرة، أو حتى فى الدنيا عند ما جرت ثروات الأرض على أقوام تابعيه بما لم يحلموا به، و لا تخيله أولئك الجاهلون الذين كفروا برسالته أول مره).

ثالثاً: إن سبب جحودهم إحساسهم بالأمن من عذاب الله، فهم قد كذبوا بالساعه، و لقد أعدّ لهم الرب سعيراً ملتعباً. يدعوهم إلى نفسه من بعيد، و يستقبلهم بالتغيط و الزفير.

إنه مكان ضيق. محلهم فيه كمحل الود فى الحائط، و هم مغلولون ببعضهم مع شياطينهم، و ينادون بالويل، و يناديهم الملائكه: ألا أدعوا ويلاً كثيراً.

ما قيمه الكنز و البستان، فى مقابل قيمه الخلاص من نار جهنم؟! و أيضاً قيمه الجنه التى وعد المتقون كانت لهم جزاء و مصيراً، لهم فيها ما يشاءون خالدين.

هكذا يعالج القرآن النظرة الماديه اللامسؤوله بتذكير النفس البشريه بعذاب الساعه، و ثواب الله فى الجنه.

و هكذا ينسف العقبات و يزيلها عن طريق الإيمان بالفرقان.

بينات من الآيات:

المقاييس الخاطئه:

[٧] لقد أراد الكفار أن يكون الرسول الذى بعث إليهم كأحد قياداتهم

ص: ٣٩٨

المزيفه، أو بالأحرى آلهتهم التى تعبد من دون الله، و بالتالى خاضعا للمقاييس الجاهليه لاختيار القيادة، و من أهم المقاييس التى كانوا يعتمدونها فى تمييز القيادة:

١- القوه البشريه (عدد التابعين و الأصحاب).

٢- القوه الاقتصاديه (الثروه و المال).

٣- السيطره السياسيه، و عاده ما تكون نابعه من القوتين السابقتين.

و ما دام الرسول لا يمتلك الجنود المجنده حتى يخضعوا لقمعها، و لا تلك الثروه التى تستعبدهم بها الطبقة الرأسماليه، و لا تلك الأراضي الواسعه حتى يحترموه كما يحترمون اقطاعيهم الكبار، فهو لا يستحق -إذا- قيادتهم، و لكنهم لم يعلموا أن هناك فرقا شاسعا بين الرسول و قادتهم الجاهليين، فقد ضلوا السبيل لَمَا ضربوا له الأمثال.

وَقَالُوا مَا لِهَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا فَمِنْ جَانِبٍ يَتَعَجَّبُونَ لِأَنَّ الرَّسُولَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ يَشْبَهُهُمْ فِي حَيَاتِهِمْ وَ مَعِيشَتِهِمْ، يَأْكُلُ الطَّعَامَ، وَ يَبْحَثُ عَنْ رِزْقِهِ فِي الْأَسْوَاقِ - وَ كَانَهُمْ كَانُوا يَرِيدُونَ لَهُ الْإِقَامَةَ فِي الْبُرُوجِ الْعَاجِيَةِ، وَ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَهُ وَ بَيْنَهُمْ عَشْرَاتِ الْحِجَبِ، كَمَا يَفْعَلُ الْمُلُوكُ وَ السَّلَاطِينُ - وَ مِنْ جَانِبٍ آخَرَ يَتَسَاءَلُونَ لِمَاذَا لَمْ يَنْزَلْ مَعَهُ مَخْلُوقٌ غَيْبِي، يَتَوَعَّدُ كُلَّ مَنْ يَعْضُرُ عَنْ دَعْوَةِ الرَّسُولِ، وَ لَعَلَّنَا نَسْتَوْحِي مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى «نَذِيرًا» عَنْ لِسَانِ الْكُفَّارِ، وَ لَمْ يَقُولُوا «بَشِيرًا» أَنَّهُمْ أَرَادُوا أَنْ يَكُونَ لِلرَّسُولِ قُوَّةٌ قَامِعَةٌ تَدْعِمُ رِسَالَهُ بِإِذْلَالِ الرِّقَابِ، وَ كَانُوا يَرِيدُونَ قُوَّةَ مَادِيهِ يَشَاهِدُونَهَا بِأَعْيُنِهِمْ، أَمَا أَنْ تَكُونَ قُوَّةُ الْغَيْبِ الْإِلَهِيَّةِ هِيَ السَّنْدُ، فَهَذَا مَا لَمْ تَسْتَوْعِبْهُ عَقُولُهُمْ الَّتِي لَمْ تَتَحَرَّرْ مِنْ قَيْدِ الْمَفَاهِيمِ الْمَادِيَةِ.

[٨] أَوْ يُلْقَىٰ إِلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ تَكْوَنُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ۗ وَإِذَا لَمْ تُهَيَّبْ عَلَيْهِ الثَّرْوَةُ بَصُورَهُ كَنْزٌ يُلْقَىٰ لَهُ مِنَ السَّمَاءِ لِيَجْعَلَ مِنْ طَبَقِهِ الْأَثْرِيَاءَ، فليكن عنده بستان يدر عليه من الدخل ما يغنيه عن الاكتساب لطعامه الخاص؟! و قد أغفل هؤلاء بهذه التخرصات كرامه الإنسان التي هي فوق القوه و المال و ما تغله الأرض من ثمرات.

وَ قَالَ الظَّالِمُونَ إِن تَبْعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا ۗ وَ قد نسب القرآن صفه الظلم لهم دون الاكتفاء بضمير يعود على ما تقدم ذكره لان لكلامهم جانبيين:

الأول:المطالبه بحجه قاطعه على صدق الرساله،و قد يتصور لها جانب الموضوعيه.

الثانى:اتهامهم الرسول بأنه رجل مسحور.أى فاقد العقل و الاراده الحقييين، و هذا ظلم فى حق الرسول،و من يدعى باطلا مقابل الحق يتحول من مجرد منكر باللسان إلى محارب بكل معنى الكلمه،و حين يدعو شخص أحدا إلى فكره فإما يرفض أو يقبل،و اما أن يعلن الحرب ضده،و يتهمه بالجنون،فإنه الظلم ذاته؟ لأن عدم اقتناعه بالدعوه-لو افترضناه-لا يسمح له أن يمنع الناس من قبولها.

[٩]عند ما بدّل الكفار المقاييس،ضربوا الأمثال لمقاييسهم الخاطئه،حيث أرادوا الرسول قياده كقياداتهم،كى يستجيبوا له،فطالبوا بملك كرمز لقياده أصحاب القوه،أو كنز كرمز لقياده أصحاب الثروه،أو جنّه كرمز لقياده أصحاب

الأرض، و لكن ماذا كانت تبعه هذا الخطأ الفادح؟ إنها الضلاله لا غير.

أَنْظُرْ كَيْفَ ضَمَّ رَبُّو لَكَ الْأُمَّةَ أَلْ فَضَلُّوا فَلَا يَشِيءُ تَطِيعُونَ سَبِيلًا. و حينما قاسوا قياده الرسول بالقوى الماديه، حرموا أنفسهم من فهم الحقيقه، و لا سبيل لهدايتهم ما دامت الأفكار الجاهليه تستبد بعقولهم.

[١٠] لِبَارِكِ الَّذِي إِذَا شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِنْ ذَلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَ يَجْعَلُ لَكَ قُصُورًا إِذَا شَاءَ اللَّهُ جَعَلَ لِلرَّسُولِ جَنَّاتٍ وَ قُصُورًا وَ لَكِنْ أَيْنَ كُلِّ ذَلِكَ؟ قال بعض من المفسرين: ان المراد من ذلك-جَنَاتٍ وَ قُصُورًا-فى الدنيا و ذلك محتمل، إلا أن الأفضل القول: بأن ربنا يذكر بالآخره، فليست الدنيا آخر المطاف بالنسبه للإنسان.

لهذا جاء الرد الالهى بأن الرسول كريم على الله و هو يحبه، و لكنه لا يعطى له الدنيا جزاء لعمله، لعدم كونها فى مستواه، بما فيها من زخرف و زينه، و كذلك يتعامل الله مع المؤمنين، و يسند هذا الرأى قوله تعالى مباشره بعد هذه الآيه:

[١١] بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَ أَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا فَهُمْ انما اقتصروا فى مقاييسهم على الدنيا لتكذيبهم بالعالم الآخر، و ما جزاؤهم سوى السعير.

إن آيات الذكر تعالج الأمراض النفسيه التى تصيب القلب و تمنع عنه الرؤيه.

أ رأيت من غرق فى لجه، و تكاثفت عليه الأمواج، هل يقدر على الاستقرار، أو السيطره على نفسه. كذلك الذى تتقاذفه أمواج الشهوات، و تعصف به عواصف

فلكى يستقر هذا القلب الذى يتقلب على كف الشهوه و الغضب،حتى يفكر بموضوعيه،و يستضىء بنور العقل المودع فيه،و يعود إلى فطرته التى خلق عليها.لا بد له من مرساه يحفظ سفينته عن هيجان الأمواج.لا بد له من قوه تصونه من التقلبات.

و ان الايمان بالساعه لهو تلك المرساه و انه لتلك القوه.

و ان الايمان بالساعه يعطى النفس موضع استقرار ينطلق منه نحو تقييم سائر الأشياء،انه يعطيه قوه،لتتعالى بها عن أمواج الشهوه و العصبية. كيف؟ لنضرب مثلا:من لا يملك إلا ديناراً واحداً و خشى عليه من السرقة، يكون كل تفكيره فى دينار، حتى يكاد ينظر إلى الدنيا كلها من خلالها، أما من يملك مليون دينار غيره فهو يتغافل عن ذلك الدينار الواحد، فحتى لو سرق منه فله ما يسليه عنه.

هكذا الذى يؤمن بالجنه. يتسلى عن شهوات الدنيا، و يتغلب نفسياً عليها، و بالتالى يقوى على مقاومه ضغوطها.

كذلك من يخشى النار، فان قلبه يلهو عن مصيبات الدنيا. أو ليست هى حقيره جدا إذا قيست بسعير جهنم؟! و هكذا يسمو قلبه عن الحب و البغض، و عن الشهوه و الغضب، عن العصبية و العداوه، و يتعالى على الخوف و الطمع، فيرى الحقائق كما هى لا كما توحى به مصالحه الآنيه.

كذلك الذين كفروا بالرساله لأن الرسول لا يملك كنزاً أو جنه يأكل منها، أو

لم ينزل معه ملك نذيرا. إنما هم مرضى القلب، ولا بد أن يستشفعوا وشفأؤهم في التذكرة بالساعة. حيث تتضاءل عندها ثروه الدنيا ومصيباتها، وعندها تتحرر أفئدتهم من قيود الشهوات.

ومن هنا كانت الآية هذه والتي نلونها بيانا لسبب كفرهم، وأيضا شفاء لمرض كفرهم.

ويستمر السياق في وصف النار ليزداد القارئ تجردا عن أغلال القلب، وبالتالي يزداد إيمانا بالكتاب. ذلك أنّ القرآن لا يجادل الكفار بالرسالة فقط، وإنما هو يزيد إيمان المؤمنين بها عبر إنذارهم بالساعة، فكلمة وعوا حقيقة العذاب كلما أبصروا بنور قلوبهم حقائق الوحي أوضح وأجلى.

صور من العذاب:

[١٢] ومن صفات جهنم أنها تلتقط طعمتها من مسافة بعيدة لقوه جذبها، فإذا رأت أصحابها مصفدين بالأغلال، مستسلمين لا يملكون حراكا ولا هربا، فإنها تسحبهم بلهيبها، وفي الوقت نفسه تستعر استعارا شديدا وبصوت رهيب وهذا هو التغيط. كل ذلك لاستقبال أعداء الله والرسالة،

وفي الحديث الشريف عن الامام الصادق عليه السلام:

«إن جهنم تدعو أصحابها من مسيره سنه» (١) إذا رأتهم من مكان بعيد سيمعوا لها تغيطاً وزفيراً وبالإضافة إلى ذلك فإنهم لا يدخلون جهنم دخولا عاديا، وإنما يهونون فيها لأنها موجودة في مكان سحيق.

ص: ٤٠٣

[١٣] وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا مُقَرَّنِينَ: أى مصفدين بالاغلال، و الثبور: هو الهلاك.

و هنا تصور لنا الآيه الكريمه أنواعا من العذاب فى جهنم، فبالاضافه للحريق هناك:

١-الإلقاء من شاهق: و يمكن للإنسان أن يكون قريبا و لو بعض الشىء من تخيل ذلك، لو تصور شخصا يلقى من الطابق العاشر ليرتطم جسده برصيف الشارع، فتسحق عظامه، و إلا فان الإلقاء فى جهنم يوم القيامة لا يستوعبه عقل الإنسان المحدود، إذ من بين من يلقون من يهوى ألف عام حتى يصل إلى مقامه فيها.

٢-المكان الضيق: و فيه التعذيب النفسى الشديد، إذ يجلب الكآبه و الضجر لصاحبه،

و جاء فى الحديث :

«و الذى نفسى بيده: انهم يستكروهون فى النار كما يستكروه الوند فى الحائط» (١) ٣-التصفيد بالاغلال: حيث معاناه المصير التعيس بثقل الأصفاد و فقدان قدره على الحركة تماما.

٤- و ينادى المكذبون بالويل و الثبور، لهول ما يرون، فأتىهم النداء الذى يزيدهم ألما لآلامهم.

[١٤] لَا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَ ادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا .

ص: ٤٠٤

لا تتلفظون بهذا الكلام مره واحده، بل كرروه مرارا، و لن يجديكم ذلك نفعاً لأنكم فى العذاب خالدون.

[١٥] قُلْ أَذَلِكْ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَ مَصِيرًا أَيُّهُمَا أَفْضَلُ الدُّنْيَا بِمَا فِيهَا مِنْ ثَمَرَاتٍ وَ كُنُوزٍ. تعقبها النار و السعير، أم جنه الخلد يسبقها العمل الصالح، حيث النعيم المقيم و العز الدائم؟! بالطبع لو حكم الإنسان عقله فى هذه المسأله لأجاب الصواب، و لكن ذلك وحده لا يكفيه لدخول الجنه إلا بالعمل الصالح فى سبيل الله، لأنها للذين يأكلون الطعام، و يمشون فى الأسواق، غير مستكبرين على الناس، و لا مبتغين العز إلا من عند الله.

[١٦] لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ خَالِدِينَ كَأَنَّ عَلَى رَبِّكَ وَ عِيدًا مَسْئُولًا. لا أحد ينكر ما بلغت إليه مدنيه اليوم من التقنيه و المنهجيه و العلميه، و لكنها تبقى عاجزه أمام طموحات الإنسان، فهى لم و لن تستطيع تحقيق كل ما يصبو إليه، و من كان عاجزا عن أن يهب للإنسان الحياه بعد الموت، لهو أعجز على إعطائه الخلود.

إن أسمى ما يفكر الإنسان فى الوصول إليه شيان:

أ- أن يدرك ما يريد.

ب- الخلود و هو ما يسمى بغريزه حب البقاء.

و لا يمكن تحقيق هذه الطموحات فى الدنيا بطبيعتها، فلا بد أن يفكر الإنسان فى

الدار التي يمكنه تحقيق طموحاته فيها، وليست إلا الدار الآخرة، وهذا وعد أكيد من الله للمتقين «وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ» وَ مَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا.؟ روى أن الفضل بن سهل وزير المأمون العباسي أراد تزويج المأمون من ابنته «يوران» وكان مترفاً، و جندوا كل أموال الدولة الاسلاميه من أجل حفل الزفاف، و كذلك الطغاه يصرفون المليارات من الدولارات على حفلات زواجهم.

فصنعنا ما صنعنا، و من جملة ذلك صنعوا فراشا منسوجا بخيوط الذهب، و مرصعا باللاكي و الجواهر، و عند ما أراد الأب الأخذ بيد ابنته يسلمها إلى عريسها- كما تقتضى التقاليد آنذاك- قال لها: يا بتي هل قصرت في حقك؟ و هل تريد مني شيئاً آخر، فقد أعددت لك كل ما تتمنى نفسك؟ قالت: لم تقصر في حقى، و لكنى أريد شيئاً واحداً.

و ما هو ذلك؟ أريد مسماراً و مطرقة أسمر بهما الفلك حتى يتوقف عن الدوران، كي تبقى كل الليالى مثل هذه الليله.

و أنى لى بذلك؟ قالت العروس: و ما تنفع ليله واحده إذن؟ إن الإنسان مهما أوتى من نعم الله فى هذه الدنيا، إلا أنه سيبقى قاصراً عن بلوغ تطلعاته البعيده، فلو فكر بعقله ملياً لأدرك الجنه هدفا لا الدنيا.

ج- كلما ازدادت النعم على الإنسان فى الدنيا، كلما ازداد خوفه من زوالها.

ألا ترى أنه كلما أوتى الإنسان خيرا يزداد بخلا؟

و فى الحديث :

«ما فتح الله على رجل بابا من الدنيا إلا و فتح عليه من الحرص ضعفيه » لأنه كلما ازدادت النعمه عليه. كلما ازداد حرصه عليها
كى لا تزول، و هو يعلم فى قراره نفسه انها زائله لا محاله.

لذلك لا- يمكن للإنسان أن يفرح بالنعم، و احساس عميق بخوف الزوال يساوره بين اللحظه و الأخرى، أما أصحاب الجنه فهم
خالدون فيها لا يبغون عنها حولا.

ص: ٤٠٧

اشاره

وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَايُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا هَؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ (١٧) قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ
يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَّبِعَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا (١٨) فَقَدْ كَذَّبْتُمْ بِمَا
تَقُولُونَ فَلَمَّا تَشَاءُ تَطِيعُونَ صِدْقًا وَلَا نَضْرًا وَمَنْ يَظْلِمِ مِنْكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا (١٩) وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ
الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَضْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا (٢٠) وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا
أَنْزَلْنَا عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةَ أَوْ نَرَى رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَاعْتَوْا عَتْوًا كَبِيرًا (٢١) يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ وَ
يَقُولُونَ حِجْرًا مَحْجُورًا (٢٢) وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا (٢٣) أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ
مَقِيلًا (٢٤) وَيَوْمَ تَشَقُّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنْزِيلًا (٢٥) الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا
(٢٦)

اللغة

١٨ [بوراً]: البور الهلكى و هو جمع البائر.

٢١] وعتو عتوا[العتو هو الخروج الى أفحش الظلم.

٢٣] هباء منشورا[:و الهباء هو الغبار يدخل الكوه من شعاع الشمس.

٢٤] مقيلا[:المقيل محل القيلولة.

ص: ٤٠٩

هدى من الآيات:

لقد كفروا بالرسول، و آمنوا بالجبت و الطاغوت، و قالوا: لولا القى عليه كنز؟! او تساءلوا: لماذا يأكل الطعام، و يمشى فى الأسواق و لكن هل ينفعهم الأنداد شيئاً يوم يحشرهم الله و ما عبدوا، فيتبرءون منهم و يقولون: شَيْءٌ بِحَاثِكَ.. مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءٍ متعتهم، و يرون أنّ طول متعتهم أنساهم الذكر، فهلكوا.

إذا: غرورهم بقيم الماده، و كفرهم بالرسول لأنه لم يلق اليه كنز أرداهم، و جعلهم قوما بورا.

و هكذا ينسف الذكر الحكيم هذه العقبه عن طريق الايمان بالوحى. و يقول:

ان سنه الله فى بعث الرسل مضت على أنهم يأكلون الطعام، و يمشون فى الأسواق، و أمر الله الناس باتباع واحد منهم ليفتنهم. فهل يصبرون على طاعته؟! و الله من ورائهم يبصرهم، و هو عليم رقيب.

ثم ينسف العقبه الأخرى، حيث قالوا: لولا أنزل علينا الملائكة، أو نرى ربنا، فيقول: انه عتوّ كبير. فكيف يطالبون برؤيه الملائكة؟! افلا بشرى يومئذ للمجرمين إذ ينزل بهم عاقبهم العاجل في ذلك اليوم، و تراهم يقولون حجرا محجورا -اشاره الى ذلهم و استسلامهم- و يجعل الله أعمالهم هباء منثورا، بينما أصحاب الجنه خير مستقرا في ذلك اليوم، الذي تشقق السماء بالغمام، و تنزل الملائكة، و يتجلى ملكوت الله لكل شخص، و هو يوم عسير على الكافرين.

بينات من الآيات:

متعنتهم حتى نسوا الذكر:

[١٧] أهم عقبه تعترض الايمان بالوحي هي اتخاذ الأولياء من دون الله. ذلك أن الانتماء الى العجت أو الطاغوت يجعل الإنسان يتكئ على الشيء دون القيم، و يعتمد على الباطل و ليس الحق، و بالتالى يضلّ السبيل.

و لأن يوم القيامة هو اليوم الذى تجلو فيه الحقائق، و تتوضح السرايا، فان الحقيقه التى يبينها القرآن هنا تكون اجلى حينذاك. إذ يتنصل كلّ من العابد و المعبود كل من صاحبه، و ذلك عند ما يكتشفون أنّ هؤلاء الأولياء لا يملكون صرفا و لا نصرا، و فى ذلك اليوم لا- تنفعهم معرفتهم. و انما يكشف الذكر هذه الحقيقه لينسف أساس تبريرهم الكفر بأن الرسول لا يملك كنزا أو جنه، و أنه ليس رجلا من القريتين عظيم.

ذلك ان أساس هذه التبرير هو الاتكال على القيم الماديه، غافلين عن أنها تتلاشى و لا تغنى عنهم شيئا يوم يكونون بأشد الحاجة إليها فى الآخرة، بل حتى فى الدنيا إذا كشف عنها غطاء الغرور بدت خاويه زاهقه.

و يَوْمَ يَحْشُرُهُمْ و مَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ أَأَنْتُمْ أَضَلَلْتُمْ

عَلِيَّ دِي لِّلْهُوْلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ وَ هَذَا السُّؤَالُ مَوْجَّهٌ إِلَى كُلِّ مَنْ يَسَاهِمُ فِي إِضْلَالِ النَّاسِ، كَالصَّحْفِيِّ الْمَاجُورِ، وَ السُّلْطَانِ الظَّالِمِ، وَ عِلْمَاءِ الْبِلَاطِ. وَ يَبْدُو أَنَّ الْإِنْتِمَاءَ إِلَى الْقِيَادَةِ الْجَاهِلِيَّةِ كَانَ مِنْ عَوَامِلِ الْكُفْرِ بِالرَّسُولِ، الَّذِي هُوَ الْقَائِدُ الْحَقُّ الْمَطْرُوحُ عَلَى السَّاحَةِ بِدِيْلَا عَنْ الْقِيَادَاتِ الضَّالَّةِ، وَ لِذَلِكَ نَبَّهَ الذِّكْرُ إِلَى ضَرْوَرِهِ التَّخْلِصَ مِنْهَا، وَ مِنَ الْوَلَاءَاتِ الْجَاهِلِيَّةِ تَمْهِيْدًا لِلْإِيْمَانِ بِالْوَحْيِ.

[١٨] قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ الْمَسْبُوحُ وَ الْمَقْدُوسُ عَنْ أَيِّ شَرِيكَ.

مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ فَنَحْنُ بِدَوْرِنَا عَبِيدُ لَكَ أَيْضًا، فَكَيْفَ نَكُونُ آلِهَةً.

ثم بين الذكر الحكيم العامل الحقيقي للشرك و الانتماءات الجاهليه، فقال:

وَ لَكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَ أَبَاءَهُمْ حَتَّى نَسُوا الذُّكْرَ أَنْتَ الَّذِي فَتَنْتَهُمْ بِالنَّعْمِ حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ.

وَ كَانُوا قَوْمًا بُورًا أَيْ هَالِكِينَ، وَ الْأَرَاضِي الْبُورَاءُ هِيَ الَّتِي لَا تَصْلِحُ لِشَيْءٍ مِنَ الزَّرْعِ.

[١٩] إِنَّ الطَّغَاهَ الْمُؤَلِّهِينَ مِنْ دُونِ اللَّهِ، يَدْرِكُونَ أَنَّهُمْ لَيْسُوا آلِهَةً.

فَقَدْ كَذَّبُوكُمْ بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا

للعذاب عن أنفسهم أو عن عبدوهم.

وَلَا نَصْرًا وَلَا يَنْصُرُونَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ.

وَمَنْ يَظْلِمِ مِنْكُمْ نُدْفَةً عِذَابًا كَبِيرًا إِذَا لَمْ يَسَاهِمِ الْإِنْسَانُ فِي تَسْخِيرِ النَّاسِ لِعِبَادَتِهِ، بل عبدوه بجهلهم، فليس عليه شيء، كالنبي عيسى ابن مريم عليها السلام، الذي اتخذ النصارى إلهًا من دون الله، بينما سيكون أول المتبرئين من عملهم يوم القيامة.

[٢٠] و يواصل السياق تزييف تبريرات الكافرين بالرساله بعد نسف أساسها آنفاء، حيث يبطل هنا قولهم: كيف تتبع رسولا يأكل الطعام، و يمشى فى الأسواق.

أولاً: بان تلك سنه الله التى مضت فى الأولين، إذ لم يبعث الله رسولا إلا و هو يأكل الطعام، و يمشى فى الأسواق.

و ثانياً: بان تلك وسيله لامتحان الناس، فهل يصبرون على الطاعه أم لا.

وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لِيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ فَلَمْ يَكُنِ الرَّسُولَ بَدْعًا، و إنما جاء خاتماً لمسيره مباركته ممتده.

و الجاهلون لم يستوعبوا هذه السنه لأحد الأسباب التاليه:

ألف: لجهلهم بواقع البشر، و زعمهم: أن الإنسان لا- يمكن ان يكون رسولا لرب العالمين، كلاً.. الإنسان كريم عند ربه إذا عبده و أطاعه.

باء:لزعمهم:انّ الرسول ينبغي ان يكون غنياً أو مقتدراً،وقد نسف القرآن آنفاً أساس هذه الفكره القائمه على تقديس الماده.

جيم:لجهلهم بحكمه الخلق،حيث زعموا:ان الله يريد هدايتهم حتماً، بينما الله شاء بحكمته البالغه ان يهديهم بطوع إرادتهم،و ليس بصوره حتميه، و هكذا امتحنهم بالرسول الذى هو منهم،و أمرهم بطاعته لينظر هل يصبرون.

وَ جَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَ تُصْبِرُونَ وَ مِنْهُج القرآن الكريم هو بيان الحكم عند بيان ما يناسبها،و لذلك تتسع آياته لتشمل ما وراء حدود السياق.

و هكذا نجد أنّ هذه الحكمه البالغه تذكر هنا بمناسبه الحديث عن الرسول لتبين لنا:أن طاعه الرسول،و المخالفه لهوى النفس نوع من الفتنه بالنسبه الى الناس.

و لكنّ الآيه تعطينا أيضاً بصيره نافذه تكشف الكثير من اسرار الحياه.فالغنى فتنه للفقير الذى قد يفكر فى الكذب أو الغش و السرقة كى يصبح مثله غنياً،و كذلك الغنى فتنه للفقير،فهو مبتلى به امام الله،اما بالبخل و الربا أو بالغرور و التكبر.

جاء رجل فقير الى رسول الله صلى الله عليه و آله يوماً،و جلس على مقربه من رجل غنى - كان قد سبقه الى مجلس الرسول- فتنحى الغنى بعد ان لملم ثيابه بطريقه تنم عن الاحتقار،فنظر الرسول اليه و قال:اخشيت ان ينتقل غناك اليه أم فقره إليك؟ فقام الغنى و قد أدرك سوء عمله يقول:اخطأت يا رسول الله..اخطأت..ثم دار بوجهه الى ذلك الفقير و قال:انى أهب لك نصف مالى،فقال الفقير:أ تريدنى ان أصبح غنيا فأصنع مثل ما صنعت؟فأتكبر على الفقراء؟احفظ عليك مالك فانى لا أريد غنى هذه نهايته.

هكذا كانت الحكمة من تفاضل الناس. ابتلاؤهم ببعضهم لمعرفة مدى صمودهم أمام اغراءات الدنيا.

وَ كَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا يَحْصِي عَلَى النَّاسِ تَصْرِفَاتِهِمْ، وَيُرْصِدُ سُلُوكَهُمْ تَجَاهَ بَعْضِهِمْ، وَ كَيْفَ لَا وَ اللَّهُ يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَ مَا تَخْفَى الصُّدُورِ.

[٢١] الى هنا يكون السياق القرآني قد عالج العقبة الاولى فى طريق الايمان، و هى النظرة الخاطئة للرسول، لذا فانه ينتقل الى علاج العقبة الثانية و هى عقبة الكفر بالساعة.

عند ما يؤمن الإنسان بفكره ما فانه يبحث عن اى شىء ليبرر هذا الايمان، حتى ليمكننا تقسيم فكر الإنسان الى جانبين:

١- جانب الاعتقاد: و هو الايمان بالفكره ذاتها.

٢- جانب التبرير: و ذلك للإبقاء على الاعتقاد.

و هذا التقسيم نجده ليس لدى الكفار بالحق فحسب، بل حتى لدى المؤمنين، إذ لا بد ان يسعى كلا الطرفين ليبرر موقفه، فالتبرير له وجه ايجابى و ذلك إذا كان من أجل الحق، و له وجه سلبى عند ما يكون من أجل الباطل.

إنَّ قَسْمًا مِّنَ النَّاسِ يَبْرُرُ رَفْضَهُ لِرِسَالِهِ بِأَعْدَارٍ، فَيَسْأَلُ: إِذَا كَانَ اللَّهُ قَدْ بَعَثَ رَسُولًا، فَلَمَّا ذَا لَا يَنْزِلُ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ لَتُخْبِرَنَا بِصِدْقِ الرِّسَالَةِ؟ أَوْ يَسْأَلُ: عَنِ اللَّهِ لِمَاذَا لَا نَرَاهُ جِهْرًا؟ وَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْ لَا أَنْزَلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَ عَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا

ص: ٤١٥

استكبروا فى أنفسهم حينما أراد كل واحد منهم ان يصبح رسولا تنزل عليه الملائكه، وعتوا حينما طالبوا برؤيه الله سبحانه و تعالى.

[٢٢] إن الدنيا دار اختبار، و لا يتم الاختبار من دون حرّيه القرار، و إذا ظهرت الملائكه فان ذلك إيذان بنهايه مرحله الاختبار الى مرحله الجزاء، و آنذ لا ينفعهم شىء.

يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا ان الملائكه التى يطالب هؤلاء بمجيئهم مخلوقات جبّاره، أصوات بعضهم كالرعد و نظراتهم كالبرق، يستطيع أحدهم ان ينسف الأرض بمن فيها و من عليها بنفخه واحده، إذا أوكل الله له ذلك.

و سيكتشف المجرمون مدى حماقتهم، حين وضعوا شرط نزول الملائكه عليهم، و سيعلمون كم أوقعهم عنادهم فى الجهل، عند ما يرون الملائكه، و سيكون قولهم آنذ «حجرا محجورا» أى يا ليت بيننا و بينهم حاجزا يحجبهم عنا، فتنخلص من هول الموقف، الذى لا طاقه لنا به. و كانت هذه الكلمه إيذانا بالتسليم عند العرب، و الطلب من العدو الا يضربه.

[٢٣] وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنْثُورًا فالكدح الذى كدحوه فى الدنيا، للحصول على الثروه و الجاه، سيضيع من أيديهم، و لن يجدوا غير الحسره و الندامه. لأنهم كانوا يعيشون ضيق الأفق، فلم يحسبوا للآخره حسابها. و لعل فى الآيه إشاره الى أنّ الأعمال الصالحه لا تنفع من

[٢٤] أما ما يقدمه المؤمنون برسالة الله، المصدقون لرسوله فإن الله عز و جل سيحفظه لهم، و يعيده عليهم فى صورته ثواب عظيم و جزاء كريم، يدخلهم الجنة، و سيكونون فيها صالحى البال، يشعرون بالاستقرار و الطمأنينه، و ينامون ملىء أعينهم، كما ينام الإنسان وقت القيلولة لا يزعجه ألم و لا يهدده خطر:

أَضْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَ أَحْسَنُ مَقِيلًا [٢٥] وَ يَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ ربما يكون تفسير هذا المقطع من الآيه، أن السماء تنفطر و كأنها غمام، أو أن فيها غمام ينكشف عن السماء. و كم هو مريع حين تنفطر هذه السماء المتراميه الأطراف أمام ناظرى هذا الإنسان الضعيف الذى لا يتحمل أبسط الشدائد.

من جهه أخرى: لقد جعل الله السماء سقفا محفوظا، و جعل منظرها فى النهار بهيا، و فى الليل جميلا، و جعل فؤاد البشر يطمئن إليها، و انما يسعى الإنسان للدفاع عن نفسه عبر وضع الحواجز من حوله، و لا يمكنه ان يحتاط لنفسه عن الأخطار التى تصله من السماء. لذلك كان تشقق السماء- هذا السقف المحفوظ- أشد رهبه و أعظم.

و الخطر لا- ينزل بصوره عمياء كالصاعقه أو الشهب المتساقطه، كلاً.. بل يتنزل الملائكه الغلاظ الشداد، يأخذون المجرمين و يسلكونهم فى الأغلال و يسحبونهم الى النار و ساءت مصيرا.

وَ نُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنْزِيلًا فَنَاهُ فَنَاهُ، و المره تلو الأخرى.

[٢٦] الْمَلِكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ بِالرَّغْمِ مِنْ أَنْ الْمَلِكُ لِلَّهِ فِي كُلِّ حِينٍ، وَ عَلَى كُلِّ حَالٍ، إِلَّا أَنْ مَلَكَتِ اللَّهُ يَتَجَلَّى بِصُورِهِ أَظْهَرَ وَأَعْظَمَ فِي يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَقَدْ ذَكَرَتِ الْآيَاتُ بِصِفَةِ الرَّحْمَةِ الْإِلَهِيَّةِ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ، وَ لَيْسَ بِصِفَةِ الْغَضَبِ لِتَشْيِيرِ إِلَى أَنَّهُ فِي الْوَقْتِ الَّذِي تَتَجَلَّى قُوَّةُ الرَّبِّ الَّتِي لَا تَحُدُّ، يُعْطِينَا السِّيَاقَ أَمَلًا فِي رَحْمَتِهِ الْوَاسِعَةِ، وَ لَكِنْ يَحْذَرْنَا أَنْ نَضِيعَ الْفُرْصَةَ وَ لَا نَسْتَفِيدَ مِنْ رَحْمَتِهِ، وَ كَمَا يَكُونُ الْإِنْسَانُ شَقِيحًا لَوْ تَرَكَ الْإِسْتِفَادَةَ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ، الَّتِي وَسَعَتْ كُلَّ شَيْءٍ! وَ كَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا حِينَمَا يَنْظُرُ الْإِنْسَانُ إِلَى رَحْمَةِ اللَّهِ يَزِدَادُ أَمَلًا وَ رَجَاءً، إِلَى حَدِّ قَدْ يَتَصَوَّرُ أَنْ لَا عَذَابَ عِنْدَ اللَّهِ، وَ أَنَّهُ سَيَدْخُلُ النَّاسَ جَمِيعًا إِلَى جَنَّتِهِ الْوَاسِعَةِ.

وَ لَكِنْ حِينَمَا يَفْكَرُ الْبَشَرُ فِي مَعْاصِيهِ، وَ مَخَالَفَتِهِ لِرَبِّهِ، يَحْسُ أَنْ كُلَّ الْعَذَابِ قَلِيلٌ بِحَقِّهِ، لِهَذَا نَجِدُ مَعَادِلَهُ قُرْآنِيَّةً تَتَجَلَّى فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: الْمَلِكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ مِنْ جِهَةٍ، وَ فِي قَوْلِهِ: وَ كَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا مِنْ جِهَةٍ ثَانِيَةٍ، وَ هِيَ مَعَادِلُهُ التَّوَازُنَ النَّفْسِيَّ بَيْنَ الرَّحْمَةِ وَ الْغَضَبِ، الَّلَّذِينَ يَجِبُ أَنْ يَنْعَكَسَا عَلَى سُلُوكِ الْإِنْسَانِ.

اشاره

وَيَوْمَ يَعْصُ الظَّالِمُ عَالِي يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا (٢٧) يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا (٢٨) لَقَدْ أَضَلَّنِي
عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا (٢٩) وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا (٣٠) وَ
كَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا (٣١) وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ لَا نَزَّلَ عَلَيهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً
وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا (٣٢) وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا (٣٣)

اللغه

٢٨[خليلاً]:الخليل هو الصديق.

ص:٤١٩

هدى من الآيات:

فى جو تشقق السماء، و تنزل الملائكته، و تجلّى ملكوت الرب الرحمن-الذى مرّ أنفا-يعالج هذا الدرس صداقات السوء التى تنفصم عروتها يوم القيامة حتى يقول الظالم: يا ليتنى لم أتخذ فلانا خليلا، و يشتد به الندم حتى تراه لا يكتفى بعض سبابتة، بل يعرض على يديه، و يقول: «يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا».

إن صديق السوء يضل صاحبه و يبعده عن الذكر، ثم يتركه لشأنه كما يفعل الشيطان. حيث يخذل من اتبعه فى ساعه العسره.

و يجىء الرسول شاهدا على قومه الذين هجروا القرآن، فلم يؤمنوا به، أو لم يعملوا به بعد ان تظاهروا بالايمن.

و يسدل السياق الستار على مشهد القيامة المهيب. بعد ان يهدم بنيان النظم الجاهليه للمجتمع. حيث الولاءات الجاهليه التى لا تنفع و لا تضر، و حيث صداقات السوء التى تضل عن السبيل، و يختم كل ذلك ببيان ان لكل رسول عدوا

من طغاه الجاهليه، و مجرمى المجتمع.

ثم يواصل القرآن ردّ شبهات الجاحدين للرساله حيث قالوا: لَوْ لَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَّاحِدَةً، و يرده: بأنّ التنزيل المتدرج اثبت لفؤاد الرسول، و أوضح فى البيان، و أبلغ فى معارضه ثقافه الجاهليه بالحق المبين.

بينات من الآيات:

اشاره

[٢٧] الناس فى الدنيا محكومون بالضغط الاجتماعيه التى تدعو الكثير منهم الى ترك الرساله الالهيه.

إن الشيطان يدعو الإنسان الى الانحراف، و يعده بالنصر، ثم يكون أول المتبرئين منه، حينما يواجه مصيره و عاقبه امره، و لكن من هو الشيطان؟ إن للشيطان صورتين، فتاره يتجسّد فى القوى الخفيه التى تضلّنا عن الحق، و أخرى فى القوى الظاهره و بصوره مختلفه، فقد يكون صديقا يدغدغ فينا الآمال و الشهوات، و قد يكون المجتمع الذى يضغط باتجاه التقاليد و العادات المنحرفه، و ربما يكون السلطان الحاكم، أو الاعلام المضلل، و... إلخ، و هؤلاء جميعا يتبرءون من البشر يوم القيامه.

و يَوْمَ يَعِضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا حينما يرى الظالم أن الجنّه و النار بيد الله - سبحانه - و أن الطاعه أو العصيان للرسول هما المقياس عنده لدخول أحدهما، فانه يندم على ما فرط فى جنب الله و رسالته، و يتمنى لو كان متّبعا للرسول، و سبيله الحق.

ص: ٤٢١

[٢٨] يَا وَيْلَتَىٰ يَدْعُو عَلَىٰ نَفْسِهِ مَتَدَمَا.

لَيِّنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا الَّذِي أَضَلَّهُ مِنْ صَدِيقٍ سَوْءٍ أَوْ سُلْطَانٍ جَائِرٍ أَوْ ضَرَبَ شَيْطَانِي، وَلَكِنْ مَاذَا يَنْفَعُهُ كُلُّ أَوْلِيكَ، وَقَدْ ضَلَّ بِمَا زَخَرَ لَهُ هُوَ لِأَوْلِيَاءِ الْأَخْلَاءِ، فَتَرَكَ رِسَالَةَ اللَّهِ سَبْحَانَهُ، وَعَلَيْهِ إِنْ أَرَادَ أَنْ يَتَخَلَّصَ مِنَ النَّارِ، وَيُزْحِزِحَ إِلَى الْجَنَّةِ أَنْ يَتَخَلَّصَ مِنَ الْوَلِيَّاتِ الشَّيْطَانِيَّةِ فِي الدُّنْيَا، وَيَخْلُصَ وَوَلَاءَهُ لِلَّهِ وَلِمَنْ أَمَرَ اللَّهُ.

[٢٩] لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذٍ جَاءَنِي وَكَثِيرٌ أَوْلِيكَ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ أَصْدِقَاءَ السَّوِّءِ الَّذِينَ يَضَلُّونَ النَّاسَ عَنِ ذِكْرِ اللَّهِ بِدَعْوَتِهِمْ لِلْمَعَاصِي، وَيَبْدُو أَنْ مَشْكَلُهُ أَصْدِقَاءَ السَّوِّءِ الْهَاءِ الْإِنْسَانِ عَنِ ذِكْرِ اللَّهِ بِبَعْضِ التَّوَافِقِ، وَلِذَلِكَ يَنْبَغِي أَنْ يَتَّعَدَّ الْمُؤْمِنُ عَنِ مَجَالِسِ اللَّهْوِ وَاللَّغْوِ وَحَفَلَاتِ الْبَطَالِينِ وَيَأْوِي إِلَى رَوْضَاتِ الْجَنَّةِ.. أَلَا- وَهِيَ مَجَالِسُ الْعُلَمَاءِ، وَحَلَقَاتُ الذِّكْرِ، وَمَدَارِسُ الْعِلْمِ، وَجُلُوسَاتُ الْعَمَلِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ.

وَهَذَا الشَّيْطَانُ الَّذِي يَدْعُوكَ لِلْمَعَاصِي هُوَ الَّذِي يَخْذُلُكَ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ، وَيَتَّبِعُكَ مِنْكَ بِحُجَّتِهِ أَنَّهُ يَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ، وَقَدْ وَرَدَ فِي الْحَدِيثِ أَنَّ الشَّيْطَانَ يَتْفَلَّحُ - يَبْصُقُ فِي وَجْهِهِ تَابِعِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ.

وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَدُوعًا

لكي لا يكون الرسول خصيماً:

[٣٠] لكي لا يكون الشفيع خصيماً، ولا يشهد علينا سيدنا وإمامنا الذي هو

ص: ٤٢٢

أرحم خلق الله بعباد الله. لا بد ان نعيش رياض القرآن فنتخذه أنيسا في الوحده، حاكما في التجمع، قاضيا عند الخلاف، إماما للمسيره، هاديا لدى تواتر الفتن.

فقد جاء في الحديث المأثور عن الامام الصادق (عليه السلام) عن آبائه عن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) أنه قال :

«إذا التبت عليكم الفتن كقطع الليل المظلم فعليكم بالقرآن، فإنه شافع مشفع، و ما حل مصدق، و من جعله أمامه قاده الى الجنه، و من جعله خلفه ساقه الى النار، و هو الدليل يدل على خير سبيل و هو كتاب فيه تفصيل، و بيان و تحصيل» (١) وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا الرسول يقاضى أمته يوم القيامة عند ربّه إذا تركوا العمل بالقرآن.

هكذا تدل الآيه، و بهذا جاءت السنه الشريفه،

فقد روى الامام الباقر (عليه السلام) عن جدّه الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) أنه قال :

«أنا أول وافد على العزيز الجبار يوم القيامة، و كتابه، و أهل بيتي، ثم أمتى، ثم أسألهم ما فعله (فعلوه) بكتاب الله و بأهل بيتي» (٢) دعنا نتسائل اليوم -و قبل ضياع الفرصه- هل نحن نؤدى حق القرآن علينا.

كيف لو جاء الرسول يوم القيام ليشهد فى قومه. هل يشهد لنا أم علينا.

حقا نخشى ان يشهد علينا، فأين معارف القرآن إذن فى ثقافتنا؟! و اين

ص: ٤٢٣

١- (١) تفسير نور الثقلين/ ج ٤/ ص ١٣.

٢- (٢) المصدر.

التعاليم الخلقية فى سلوكننا؟! و اين احكامه فى سياستنا و قضائنا، و قوانين بلادنا؟! فهل نحن مسلمون قرآنيون؟! و ما الفرق بين من لا يؤمن بالقرآن، و من يهجره هجرا؟! ان قلب المؤمن يكاد يتصدع إذا استمع الى النبى و أهل بيته (عليه و عليهم صلوات الرب) و هم يؤكدون عليه الوصيه بالقرآن- أقول يكاد يتصدع قلبه خشيه الا يكون قد ادى حق كتاب ربه-.

قال رسول الله صلى الله عليه و آله :

«القرآن هدى من الضلاله، و تبيان من العمى، و استقاله من العثره، و نور من الظلمه، و ضياء من الأحداث، و عصمه من الهلكه، و رشد من الغوايه، و بيان من الفتن، و بلاغ من الدنيا فى الآخره، و فيه كمال دينكم، و ما عدل أحد من القرآن الا الى النار» (١)

و قال الامام الصادق عليه السلام :

«القرآن: القرآن! إن الآيه من القرآن و السوره لتجىء يوم القيامه حتى تصور ألف درجه (يعنى فى الجنه) فتقول: لو حفظتنى بلغت بك هاهنا» (٢) فهل نعود الى القرآن، و نبلغ تلك الدرجات العلى فى الجنه، و النجاح و السعاده فى الدنيا؟ نرجو ان يوفقنا الله لذلك.

ص: ٤٢٤

١-١) المصدر/ص ١٤.

٢-٢) المصدر.

[٣١] فى الآيات الماضيه حديث عن قياده المضاده للرسول فى المجتمع، و التى هى من أسباب ابتعاد الناس عن القيم الرساليه، المتمثله فى الوحي الالهى، و الآن تصرح هذه الآيه بذلك مؤكداً بأن هذه سنه الهيه أن يكون للحق سنام هو القياده الرساليه، و أن للباطل سنام أيضاً هى قياده الباطل، و الإنسان بين هذه و تلك يختار طريقه بنفسه.

وَ كَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ الْمُجْرِمِينَ كَمَا أَن اللّٰهُ سَنَهُ فِى خَلْقِهِ أَن يَبْعَثَ رَسَالًا يَحْمِلُونَ مَسْئُولِيهِ الْهُدَايَةَ لِلبَشَرِ، أَوْ مَصْلِحِينَ عَلَى رَأْسِ كُلِّ قَرْنٍ وَ فِى كُلِّ قَرِيهِ، فَان لَه سَنَهُ فِى قِبَالَتِهَا أَن يَجْعَلَ فِى مَقَابِلِ كُلِّ قِيَادِهِ حَقَّ قِيَادِهِ بَاطِلًا، تَسْتَقْطِبُ سَلْبِيَّاتِ النَّاسِ ضِدَّ الْقِيَادَةِ الرَّسَالِيَّةِ، وَ هَذِهِ هِيَ الَّتِى يَتَبَرَّأُ مِنْهَا النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ قَائِلِينَ: لَيْتَنَا لَمْ نَتَّخِذْ فَلَانًا خَلِيلًا.

فهنا نظام و هنالك نظام. هنا تجمع و هنالك تجمع. هنا انتماء و هنالك انتماء، و علينا أن نختار خطنا بوعى.

هكذا كان مع إبراهيم نمرود، و مع موسى فرعون، و مع نبينا الأكرم طغاه قريش.

وَ كَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَ نَصِيرًا إِنْ فِى الْحَيَاةِ خَطَيْنِ مُتَنَاقِضَيْنِ هُمَا خَطُّ الْحَقِّ، وَ خَطُّ الْبَاطِلِ وَ حَتَّى لَا يَشْتَبِهَ الْبَشَرُ فَيَضِلُّوا الطَّرِيقَ، ثُمَّ يَقُولُوا: يَا رَبَّنَا إِنَّا لَمْ نَعْرِفْ قِيَادَةَ الْحَقِّ مِنْ قِيَادَةِ الْبَاطِلِ، فَقَدْ تَكْفَلَ رَبَّنَا بِبَيَانِ صِفَاتِ كُلِّ مِنْهُمَا عَبْرَ وَحْيِهِ الَّذِى لَوْ اتَّبَعْنَاهُ لَاهْتَدَيْنَا إِلَى الْحَقِّ، وَ لَانْتَصَرْنَا عَلَى الْبَاطِلِ بِعَوْنِهِ تَعَالَى.

[٣٢] وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ لَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً بَعْدَ أَنْ فَشَلْتَ كُلَّ تَبْرِيرَاتِهِمْ قَالُوا: نَحْنُ لَا نُؤْمِنُ لَأَنَّ الْقُرْآنَ لَمْ يَنْزَلْ جَمْلَةً وَاحِدَةً، وَذَلِكَ دَلِيلٌ عَلَى ضَعْفِ الرَّسُولِ، فَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لَمَا أَعْجَزَهُ أَنْ يَبْعَثَ بِهِ دَفْعَهُ وَاحِدَةً، لِأَنَّهُمْ كَانُوا يَجْهَلُونَ خَلْفِيَّاتِ التَّنْجِيمِ. فَلَمَّا ذَا جَاءَ الْقُرْآنَ مِنْجَمًا؟ ١- إن القرآن ليس كتابا عاديا كأى كتاب، بل هو كتاب حياه، ينبغى أن يصنع جيلا من المتمسكين به، ولا يمكن ذلك الا إذا ترسخت أفكاره و آياته فى نفوس الناس، و نجد اشاره الى الجيل القرآنى فى الآيات الأخيره من هذه السوره حين ذكرت صفات عباد الرحمن.

و التنزيل المتدرج هو الذى صاغ الجيل الرسالى فى الرعيل الاول من المسلمين، إذ كان المسلمون يصوغون حياتهم وفق كل آيه تنزل عليهم، لتأتى الآيه الثانيه مكمله لسابقتها، و لتضيف تكاملا- جديدا فى شخصيتهم، إذ لم يكونوا قادرين على صياغه شخصيتهم وفق المنهاج القرآنى دفعه واحده، و لم يكن الله يريد للقرآن أن يكون تراثا فكريا و علميا، بل منهجا عمليا لحياه الناس.

و يهدينا ذلك الى ضروره أن يطبق كل من المجتمع و الفرد القرآن على نفسه كلما استطاع الى ذلك سبيلا، و تشير الى ذلك الآيه الكريمه «فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتِطَعْتُمْ» حيث يجب تطبيق الميسور من الآيات الآن تمهيدا لتنفيذ غيرها فى المستقبل، و يوحى الى ذلك قوله تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَلَا قُولُوا نُنْظَرُ عَلَى تَفْسِيرِ مَضَى: ان معنى النظر- هنا- الانتظار لوقت الإمكان.

و يبدو أن هذه من أعظم القواعد التربويه فى الإسلام، و لا ريب أن ذلك لا

يرتبط بالواجبات الدينيه كالصلاه و الصوم،انما تختص بدرجات المعارف الالهيه أو المراتب العاليه من الطاعات.

و فى هذه الأمور يتثبت الإنسان من خلال القرآن عند ما يرتله على نفسه، كما رتل الله كتابه على نبيه ليثبت فؤاده.

٢- إن فى ذلك بيانا لعظمه القرآن و انه من عند الله، فمع أنه نزل على امتداد (٢٣) عاما و فى ظروف مختلفه. الا أن ما تهدى اليه الآيه الاولى و ما تنطلق منه، هو عين ما تهدى اليه و تنطلق منه كل الآيات، لان الله الذى أنزله صاغه على نمط و منهج واحد، لا اختلاف فيه و لا تناقض.

و مع أن مراحل الدعوه قد اختلفت فى حياه الرسول صلى الله عليه و آله حيث انتقل من مكه الى المدينه، و التى تختلف فيها الظروف و المشاكل الاجتماعيه الا أن ذلك لم يخلف و لا أثرا بسيطا على واقع القرآن روحا و منهجا.

إن من المستشرقين ممن لا يؤمن بالوحي حاول ربط الآيات بالاوضاع الاجتماعيه التى مرت بها الأمه آنذاك، فجمعوا الآيات حسب نزولها، فسوره العلق تسبق سوره الحمد، فلما لم يكن مرتبا بشكل جيد. عرفوا بأنه من عند الله. حيث ان بعض الآيات من بعض السور تنزل فى مكه، و بعضها الآخر فى المدينه المنوره، بينهما فتره زمنييه ليست بالقليله. تتخللها آيات من سور آخر، و لكننا نجدهما فى غايه التناسق، و الوحده الموضوعيه. بحيث لو أضفنا كلمه زائده الى السياق أو حذفنا كلمه لاختلف السياق اختلافا كبيرا، بل لا يمكن ذلك حتى مع الحفاظ على ذات الكلمات القرآنيه مع التقديم و التأخير.

و كلما تدبر البشر أكثر فى القرآن الحكيم، كلما ازداد يقينا بأنه من عند الله، إذ يستحيل على الإنسان أن يجد ترابطا وثيقا بين كلام ينطقه الآن و كلام نطقه منذ

عشرين عاما. من يحث المحتوى و نضوج الأفكار، وحتى فى الأدب و الصياغة، و قد قال ربنا تبارك و تعالى: أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ
الْقُرْآنَ وَ لَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا.

هذا إذا ما تركنا الروايات و الأحاديث التى تحدثنا عن أسباب النزول جانبا لأن أكثرها لا ترقى الى درجة اليقين العلمى.

٣- لتثبيت قياده الرسول فى المجتمع. حيث يعود الناس اليه، و ينتظرون منه حلا و رأيا كلما مرت بهم حادثه.

كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَ نَجْعَلْكَ تَصْبِغَ شَخْصِيَّتِكَ وَفَقِ آيَاتِهِ.

وَ رَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا آيَهُ آيَهُ، و مقطعا مقطعا، حتى يصير واضحا غير مختلط ببعضه، لكى يدخل فى ضمير المجتمع، و يمتد عبر الأجيال
فى التاريخ.

و ينبغى أن نتلوا القرآن- إذا تلوناه- بتدبر، و نرتله بتأمل، و نستضىء بهديه فى ظلمات حياتنا، و نسلط اشعته الكاشفه على كل زاويه
مظلمه.

يقول الحديث الشريف المروى عن النبى صلى الله عليه و آله انه قال لابن عباس:

يا ابن عباس إذا قرأت القرآن فرتله ترتيلا قال: و ما الترتيل؟ قال:

«بينه تبيان، و لا تنثره نثر الرمل، و لا تهذه هذ الشعر، فقفوا عند عجائبه،

و حرّكوا به القلوب، و لا يكون هم أحدكم آخر السوره « (١).

و نحن نرى أن القرآن نزل مرتين:

هبط به الروح الأمين جمله واحده على قلب النبي الامى صلى الله عليه و آله فى ليله القدر، حيث قال ربنا سبحانه: «إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلِهِ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ» (٢) و قال:

«إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلِهِ الْقَدْرِ» (٣) هكذا نزل القرآن حسب الحاجه الاجتماعيه، ثم نزل مفزقا حسب الظروف و المناسبات، حيث كان سبحانه يأمر رسوله بأن يتلو كل آيه فى مناسبتها، و ربما تدل على ذلك الآيه الكريمة: لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ.

[٣٣]ربنا الرحمن شافى بالقرآن امراض المجتمع البشرى المتمثله فى الثقافات الجاهليه. فكلما طرحت فكره جاهليه غامضه جاء الوحي بالحق المبين.

و لا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَ أَحْسَنَ تَفْسِيرًا ما هو المثل؟ يبدو ان كل مجموعه فكرية يعبر عنها بمثل (أو حسب تعبيرنا اليوم بشعار) و الامثله عند الناس تختزل حشدا متناسقا من الأفكار، و تعبر عن سلسله فكرية متشابهه.

و لتوضيح ذلك دعنا نضرب مثلا:

ألف: العشائريه نهج اجتماعى، و قيمه فكرية كان شعارها «انصر أخاك ظالما

ص: ٤٢٩

١-١) المصدر/ص ١٥.

٢-٢) الدخان/٣.

٣-٣) القدر/١.

أو مظلوما» أو «أنا و أخى على ابن عمى، و أنا و أخى و ابن عمى ضد عدوى».

و لكن القرآن يقول: «كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ» (١) ان هذا هو الحق يواجه ذلك المثل الشائع.

باء: القوميه إطار سياسى يعبر عنه المثل ينفيه القرآن بقوله: «ءَ أَعْجَبِيَّ وَ عَرَبِيَّ» (٢) و تقابلها العالميه الاسلاميه التى يقول عنها الرب: «إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَ أَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ».

جيم: و هكذا عباده الأصنام منهج سياسى عبر عنه قريش بشعارهم فى يوم أحد: اعل هبل، و قابلها الرسول بالحق حيث قال: الله أعلى و أجل.

و هكذا فى سائر الحقول جاء الوحي منجما لكى يواجه الثقافات الجاهليه مثلا بمثل أحسن، و فكره باطله بحق واضح ذا تفسير حسن بليغ.

ص: ٤٣٠

١ - ١) النساء ١٣٥.

٢ - ٢) فصلت ٤٤.

اشاره

الَّذِينَ يُحْشِرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا (٣٤) وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزَيْرًا (٣٥) فَقُلْنَا اذْهَبْ إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا فَدَمَّرْنَا هُمْ تَدْمِيرًا (٣٦) وَقَوْمَ نُوحٍ لَمَّا كَذَبُوا الرُّسُلَ اعْرِفْنَا هُمْ وَجَعَلْنَا هُمْ لِلنَّاسِ آيَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا (٣٧) وَعَادًا وَثَمُودَ وَأَصْحَابَ الرَّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا (٣٨) وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَالَ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا (٣٩) وَلَقَدْ اتَّوَا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمِطْرَتْ مَطَرُ السَّوَاءِ فَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا (٤٠) وَإِذَا رَأَوْكَ إِذْ يَنْجُذُونَكَ إِلَّا هُزُؤًا أَهْزَاءً هَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا - (٤١) إِنْ كَادَ لَيُبْدِلَنَا عَنْ إِلَهَتِنَا لَوْلَا أَنْ صَبَرْنَا عَلَيْهَا وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرُونَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا (٤٢) أَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا (٤٣) أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْإِنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا (٤٤)

اللغه

٤٠[نشورا]:من النشر و هو الحياه بعد الموت(البعث).

هدى من الآيات:

لا يزال السياق ينسف عن طريق الإيمان بالوحي العقبات التي يضعها الشيطان، و ذلك بالإنذار الشديد بعاقبه المكذبين، و ضرب الأمثال من واقع الغابرين، و يهدينا الذكر هنا إلى أنّ واقع الإنسان الذي لا يتمسك بالوحي في الدنيا يشبه واقعه الذي يتجسد له في الآخرة، فهو يمشى و وجهه إلى الأرض لا يبصر الطريق، فإن وقف وقف موقف شرّ، و إن سار كان طريقه ضلالا.

و يؤكّد القرآن أنّ من لا يؤمن بالوحي و لا يتمسك بالرسالة، ليس فقط لا يحقّق تطلّعاته، بل و يفقد بالإضافة إلى ذلك نعم الله عليه من عقل و علم.

إنّ الله منح البشر قدرا من العقل و العلم، لو استثمره عن طريق تمسّكه بالوحي الذي يثير في قلبه دفائن العقل، لآزاد عقلا و علما، و لكن إذا رفض الرسالة فإنّه يفقد العقل، حيث يسلبه الله ما أوتى، فيمشى مكبا على وجهه يتخبط خبط عشواء، كالأنعام بل أضلّ سبيلا.

و بعدها ينذر القرآن من يسمعه دون أن يتعظوا بمصير السابقين كقوم نوح و عاد، و ثمود و آل فرعون، إذ كذب آل فرعون موسى و أخاه فدمرهم، لأنهم لا يعترفون بشرعيته القيم، فلا يشكّل البشر بما يملكون من قوى و طاقات و أسماء و شعارات و زنا عند الله لولا القيم، لأنّ الأهمّ لديه هو الإيمان و العمل الصالح، و تفقد كلّ أمّه مبرّر وجودها عند ما تفقد هذين الأساسين، و ما تدمير الله لأصحاب الرّسّ إلاّ لأنهم أمّه كفرت بالحقّ، و هذه سنّته في الحياه.

و من الناس من أشرب قلبه حبّ الدنيا، و يتجاهل قيمه العلم و التقوى، و ينظر إلى رسول ربّه من منطلق قيمه الماديه، فهو يكفر بالرساله قائلاً: أ هَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا؟! و يرى أنّ صبره أمام تأثير الرساله فضيله، و لا يتذكر أن كفره بها يكلفه كثيرا، لأنّه يرديه إلى مهوى الضلاله.

و لكنّ منطلق هذه النظرة الخاطئه إلى الرسول و من ثمّ الوحي نابع من عباده الهوى، فيدعه الرسول لشأنه لأنه ليس وكيلا عنه، و لأنه أفقد نفسه نعمه العلم و العقل، فهو أضلّ سبيلا من الأنعام و البهائم.

هكذا بيّن القرآن هنا الحقائق التي تمسّ الوحي:

أولا: الذي يكفر بالوحي يكفر بالنور، فهو يمشى على وجهه.

ثانيا: إنّ نهايته ستكون كما الذين كفروا من قبل فدمرهم الله في الدنيا، و أعدّ لهم عذابا أليما في الآخرة.

ثالثا: من استهزأ بالرسول فكفر لذلك برسالته فقد اختار الضلال، و أضحى كالأنعام و أضلّ سبيلا.

بينات من الآيات:

[٣٤] إن الله يسلب العقول و الأبصار من الذين يكفرون بالقرآن في الدار الدنيا

بصوره معنويه، أما فى الآخره فإنهم يفقدون كل ذلك بالصورتين المعنويه و الظاهريه، فاذا بهم يمشون مكبين على وجوههم.

الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ قَالَ بَعْضُ الْمَفْسَرِينَ: أَنَّهُمْ يَمْشُونَ بِعَكْسِ الْآخِرِينَ، فَتَكُونُ رُؤُوسُهُمْ إِلَى الْأَرْضِ. وَ أَرْجُلُهُمْ إِلَى السَّمَاءِ، وَ لَعَلَّ التَّفْسِيرَ الْأَحْسَنَ لِلآيَةِ: أَنَّهُمْ لَا يَرُونَ أَمَامَهُمْ، فَهُمْ مَكْبُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ.

أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا إِذَا تَوَقَّفُوا.

وَ أَضَلُّ سَبِيلًا إِذَا تَحَرَّكَوا وَ سَارُوا، وَ يَبْدُو أَنَّ الْآيَاتِ التَّالِيَةَ شَوَاهِدٌ تَارِيخِيَّةٌ عَلَى حَقِيقَةِ هَؤُلَاءِ، وَ لَعَلَّ هَذِهِ الْكَلِمَةُ لَا تَخْصُ الْآخِرَةَ بَلْ تَشْمَلُ الدُّنْيَا أَيْضًا، فَإِنَّ لِلْكَفَّارِ بِالْوَحَىٰ عَقَبَى الشَّرِّ فِي الدُّنْيَا كَمَا فِي الْآخِرَةِ.

[٣٥-٣٦] ثم تتعرض الآيات إلى قصه قوم فرعون الذين كذبوا موسى عليه السلام كمثل على عاقبه السوء التى تنتظر المكذبين بالرسالات، و يلاحظ الاختصار الشديد فى القصه، و ذلك من أجل الاعتبار بالنهايه. إذ هى الهدف من بيان هذه القصص هنا.

وَ لَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَ جَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيرًا* فَقُلْنَا اذْهَبَا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا فَدَمْزَلْنَاهُمْ تَدْمِيرًا وَ يوحى هذا التصوير القرآنى البليغ بفكره هامه، و هى أن المقياس عند الله هو

الايمان بآياته، أما السلطه و الثروه و غيرهما فلا قيمه لكل ذلك عنده تعالى.

[٣٧]و تستمر الآيات تضرب لنا الأمثال من واقع الذين هلكوا بكفرهم، و كيف أنهم دمّروا بسبب تكذيبهم لرسول الله و آياته. أو ليس خلق الله الخلق لعبادته؟! بلى. إذن فاذا كذبوا بالوحي فقدوا مبرر وجودهم، فلا ضير أن يهلكهم الله.

وَ قَوْمَ نُوحٍ لَمَّا كَذَبُوا الرُّسُلَ أَعْرَفْنَاهُمْ بِالطُّوفَانِ.

وَ جَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً علامه و شاهدا على مصير المكذبين برسل الله و رسالاته.

وَ أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا و يبين هذا الشطر من الآيه أن العذاب لا ينحصر في الماضين فقط، بل يطال كل من يسير في خطهم، و ذلك حتى لا نتصور أنفسنا فوق سنن الله، أو قادرين على الفرار منها.

و لكن لماذا يقول القرآن عذابا أليما و ليس عظيما مثلا؟ ربما لان الذي يكذب بآيات الله بهدف التمتع بحرام الدنيا و من يفعل ذلك لا بد و أن يؤلم بالعذاب في الآخرة، و هذه الفكرة تتجلى في مواقع كثيره من القرآن، فغالبا ما يتطرق الذكر للعذاب الأليم بعد استعراض لذه حرام مباشره، ليبين ان الله يؤلم الإنسان في مقابل تلك اللذه.

[٣٨] وَ لَعَاداً وَ ثَمُودَ وَ أَصْحَابَ الرَّسِّ الرَّسِّ: تعنى البئر، و أصحاب الرّس قوم كانت لهم بئر يعيشون عليها، فأنذرهم رسولهم، فلم يؤمنوا، فهدم الله عليهم بئرهم و أهلكتهم و مواشيهم.

و يظهر من حديث مفصل

يرويه الامام الرضا عليه السلام عمّن سأل جدّه الإمام على عليه السلام و نختصره هنا :

إن أصحاب الرّس كانوا يعبدون اثنتى عشره شجره صنوبر، سمّوا أشهر العام باسمها (و هى الأسماء الفارسيه المتداوله للأشهر) و زعموا أن نوحا عليه السلام قد زرعها، و أنهم حرّموا على أنفسهم مياه نهر لهم، و جعلوها خاصه بتلك الأشجار المقدسه فى زعمهم! و إن الله بعث إليهم نبيّا من بنى إسرائيل من ولد يهودا بن يعقوب، فدعاهم إلى التوحيد فرفضوا، فدعا ربّه أن يهلك معبودهم فيبست كبرى الأشجار، فزعموا أنّها غضبت عليهم لدعوه الرسول بنبذها، و قالوا: دعنا ندفن نبيّنا تحتها حيا فلعلّها ترضى، فحفروا حفيره فى وسط النهر، و ألقوا نبيّهم فيها، و وضعوا عليها حجرا كبيرا، فغضب الله عليهم و عمّم بعذاب شديد، حيث هبّت عليهم ريح عاصف، شديده الحمرة، ثمّ صارت الأرض من تحتهم حجر كبريت يتوقد، و أظلمت سحابه سوداء فألقت عليهم كالقبة جمرا يلتهب، فذابت أبدانهم كما يذوب الرصاص. (١)

و يبين حديث آخر أنّ من أفعالهم القبيحه فعل السحاق، و هو الشذوذ الجنسى عند النساء، و ذكر الإمام الصادق عليه السلام أنّ حدّها حدّ الزانيه. (٢)

ص: ٤٣٧

١-١) راجع تفسير نور الثقلين ج ٤ ص ١٦-١٩.

٢-٢) المصدر ص ١٩.

وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا فكلّ هؤلاء جرت عليهم سنة الله، حيث دمرهم لتكذيبهم بآياته، ورفضهم لما أتى به رسله.

و يبدو ان المقصود من كلمه القرن فى القرآن الحكيم هو الجيل حسب تعبيرنا اليوم، و هم الذين يقارن بعضهم بعضا. و قيل ان القرن مائه عام أو سبعون سنة، و قيل خمسون خريفا، و لعله أربعون عاما لأنّ الجيل من الناس يتبدلون كلّ أربعين عاما، و سبق ان فضلنا القول فى قصه تيه بنى إسرائيل.

[٣٩] وَ كَلَّا صَرَيبًا لَّهُ الْأُمثال و يبدو ان المراد من المثل هنا إنذارهم ببيان مصير المكذبين من قبلهم.

وَ كَلَّا- تَبْرُونَ تَبْرًا تَبْرًا التبر هو: القطعات المفتته من الذهب، و يسمى بالتبر لأنه ينقطع، و التبير يعنى التقطيع الكامل، فالله قطع هؤلاء القوم تقطيعا.

و الملاحظ تحول القرآن من أسلوب لآ-خر، فمره يقول «دمرنا» و أخرى «عذاباً أليماً» و ثالثة «تَبْرُونَ تَبْرًا» و رابعة «يُحْشَرُونَ عَلَى وُجُوهِهِمْ» فهل فى ذلك ما يجرنا عن التكذيب بآيات الله؟ و كم يجب أن يكون قلب الإنسان قاسيا حتى يمنع من الهدايه أو للتأثر بهذه التهديدات المتتاليه.

[٤٠] وَ لَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أَمْطَرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ أَ فَلَمْ يَكُونُوا يَرُونَهَا بَلًا كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا

لقد كانت القرية هذه آية من آيات الله التي يجب على الإنسان الاتعاظ بها، و هي كما يذكره الحديث قرية سدوم لقوم لوط، و لكن هؤلاء لم يعتبروا بما يرون من آثارها، ليس لأنهم لم يروها و انما لأنهم يعتقدون ان الدنيا آخر المطاف، فلا حساب و لا نشور.

و لا تشمل هذه السنه من يكفرون بالوحي جملة و تفصيلا فحسب، بل كل واحد يتخذ القرآن مهجورا تشمله هذه السنه، و نذكر بهذه الحقيقه لان مشكله الكثير منا اعتقاده باقتصار الإنذار و التبشير على الآخرين.

فترتل القرآن ليستمعه غيرنا، و كأننا أنهينا واجبنا بمجرد لقلقه لسان اعترفنا عبرها بالشهادتين. كلا.. لا بد أن يعرف كل فرد منا أنه لا يمكنه الوصول إلى درجه الايمان إلا بالجهد الكبير و العمل الجاد، و يعتقد كل منا ان القرآن حديث الله إليه.

فالذى لا يقرأ القرآن أو يقرأه دون تدبر، أو يتدبره دون عمل، أو يعمل ببعضه دون بعض، أو يعمل به كله دون استمرار و تحمل للصعاب، كل أولئك يشملهم قوله تعالى: **إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا** لان من كفر بالقرآن سابقا ليس لأنه من طينه تختلف عن طينتنا، بل مثله كأى بشر وجد صعوبه الايمان بالقرآن، و تطبيق آياته و مناهجه، فتركه و لذلك تشمله سنه العذاب.

و نحن عند ما نتبع ذات الخطوات فنحن مثله. بلى. اننا عشنا فى بيئه مسلمه تشهد بالشهادتين، و تقول بنزول القرآن من الله، فأما بذلك إيمان التقليد و الوراثة، و تتضح حقيقتنا عند ساعات الحرج التى يسميها القرآن بالعقبه، و التى من واجبنا اقتحامها، و فى الآيه إشاره إلى إن الكفر بالنشور سبب سائر مفردات الكفر.

[٤١] و بعد أن ذكرنا الوحي بمصير المكذابين بالوحي. لعل القلوب تلين

فتستقبل الرساله.أخذ يداوى أمراض القلوب الجاحده.

ذلك أن مرض الاستهزاء بصاحب الرساله.يقف حاجزا دون استقبال نور الوحي.أ رأيت لو استصغرت أحدا.و استهنت بكلامه أيضا،و لكن لماذا استهزاءوا بالرسول الكريم؟لأن قلوبهم أشربت بحب الماده،فلم تعد تعترف إلا-بالثروه و القوه و الجاه العريض،و بهذه المقاييس و زنوا العلم و الفضيله،و أرادوا أن تكون موازين الرب تابعه لأحداثهم الشاذه،و نظراتهم الضيقه.

و قد بين القرآن في مطلع السوره هذه سخف تلك المقاييس الماديه،و لكنه-كما يبدو لي-عاد هنا إلى ذات الحديث ليذكرهم بخطأ منهجهم العلمى،فهل من الصحيح أن نرفض إنذارا وراءه التدمير و التتير عبر الاستهزاء بمن يحمله.هب إنه كما يحسبون-حاشا لله-فهل من العقل أن نقع فى البئر لمجرد اننا لا نكرم من أندرنا؟ وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوءًا هَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا مِنْ هَذَا حَتَّى تَتَّبِعَهُ،أَوْ نَسْتَجِيبُ لِإِنذاره.

[٤٢]و كم هؤلاء غارقون فى الغباء و الضلال فلقد كاد الوحي يصل قلوبهم، و كادت أنوار الهدايه تخرق حجب العناد فى أنفسهم،و لكنهم صبروا على آلهتهم، و استقاموا على الضلال بعناد و جحود،فأوا الهدايه ضلالا،و الإصرار على الضلال صبرا على الحق.يا ويلهم ما أكفرهم قالوا:

إِنْ كَادَ لَيُضِلَّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلَا أَنْ صَبَرْنَا عَلَيْهَا وَ سَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا [٤٣]و ان هذه العقبه النفسيه منشؤها عقبه أخرى تحصل بتغيير محور الإنسان من القيم

إلى الهوى. فيتبع أهواءه بدل عقله، مما يجعله لا يميز الحق من الباطل.

إن عباده الأهواء أساس كفر الإنسان، لأن مقياسه فى تقييم الحياه سيكون -آئنذ- شهواته (حبّه و بغضه) لا عقله و علمه، فلأن فلانا محبوب لديه فهو جيد، و أفكاره سليمه، فيتبعه، و لأن فلانا الآخر مبعوض عنده، فهو خبيث و كل أفكاره خاطئه، و سلوكه منحرف.

أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهُهُ هَوَاهُ وَ نَرَى الْآئِنَ وَ بوضوح ان أساس الانتماء و الولاء فى عالمنا اليوم قائم على الحب و البغض و ليس العقل و العلم، و قد عرف أولوا السياسه و أنصار الثقافه الجاهليه، ان مفتاح شخصيه المجتمع الجاهلى هو الحب و البغض، فسعوا لزعرفه أفكارهم الخاطئه بما يثير شهواتهم، فشوهوا تقييمهم للأفكار، و جعلوهم يلهثون وراء كل مجله تنشر الصور المثيره، و اتبعوا أجهزه الاعلام بالغناء و الرقص و صور الفاتنا، و ما يثير شهوه الجنس أو السيطره أو الطعام و..و..

و هكذا ضلوا و أضلوا، و لم يكتفوا بتضليل الناس فى القضايا المختلفه حتى سلبوهم قدرتهم على أن يسمعوا أو يعقلوا.

فلو ذهب شاب مثقف إلى مكتبه ما و رأى فيها كتابا قيما يحوى أفكارا هامه، و لكنه مطبوع قبل مائتى عام و على ورق أصفر ردىء، فانه قلما يجد دافعا لشرائه و قراءته. و ان تجشم الصعاب و ضغط على نفسه ليقرا بعض صفحاته، فانه يشمئز من جراء الأخطاء المطبعيه أو عدم الوضوح فى كلماته حتى ليكاد أن يخطئه.

و كذلك إذا وصلت بيده ورقه منشور لحركه إسلاميه، و من جماعه مؤمنه لم تسرق أموال الناس لتطبع أفكارها على الأوراق المصقوله الجميله، أو فى المجلات

ذات الأغلفه الملوته،فانه يتركها جانبا ليقرأ بدلا عنها مجله تمويلها أجهزه الاستكبار لتضليل الناس،و تصرف عليها بعض ما سرقته من الشعوب المستضعفه،أو تمويلها اعلانات المترفين الذين يمتصون ثروات الفقراء و المساكين،و ينفقون جزء منها على وسائل الاعلام الجاهليه لتبرر للناس أفعالهم القبيحه.

و هكذا تجد المجتمع الجاهلى يتردى فى بؤر الجهل بسبب طاعه أبنائه الشهوات و الأهواء بدل العقل و العلم.

و هنا يتضح أساس الخطأ فى المحور المعتمد للتقييم.فهل المحور الصحيح ان كل ما تحبه حق؟ أم الحق هو الذى ينبغى أن تحبه؟ أ فأنت تكون عليه و كَيْلاً- و مثل هذا الإنسان لا- تنفعه شفاعه الشافعين،و رسول الله لا يشفع له و لو استغفر له سبعين مره،بسبب توليه عن القيم و اتباعه الهوى.

[٤٤]الذى يترك عقله لهواه،و الحق لما يحب و يبغض،فانه يجعل نفسه أضل سبيلا من الأنعام،لأنها أوتيت مقداراً من الشعور و الفهم تعتمد عليه و لا- تحيد عنه، فلم نر الأنعام يوماً تدخل جحيماً من النار أو تتبع مضرتها لحبها،و لكن الإنسان يستخدم ما يؤذيه و يتبع ما يضره.

أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَشْعُرُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ كَلَّا- إنهم لا- يسمعون العلم و لا- يعقلونه إن سمعوه،و هم بلا- علم يستفيدونه من الآخرين و لا عقل يستوعب ذلك العلم.

إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ

ص: ٤٤٢

و هذه نتيجة اتباعهم الهوى. إذ جعلهم يبدلون مقاييسهم، فبدل أن يحبوا الحقّ يعتبرون ما يحبونه حقاً.

و يبقى سؤال:

أيهما أفضل الأنعام تتبع شعورها القليل، أم البشر يتركون عقلهم المنير؟ و ندع الاجابه للقرآن حيث يقول:

بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا الْأَنْعَامُ تَعْمَلُ بَغَائِرَهَا بَصُورَهُ شَبَهَ إِجْبَارِيهِ، بَيْنَمَا أُوتِيَ الْإِنْسَانُ الْعَقْلَ لِيَقُومَ بِدَوْرِ الْغَرَائِزِ وَ أَفْضَلَ مِنْهَا، فَاذَا تَرَكَ عَقْلَهُ هَلَكَ، لِأَنَّهُ لَا يَمْلِكُ كَالْأَنْعَامِ دَافِعًا غَرِيزِيًّا، أَمَا هُوَ قَدْ أَفْقَدَ نَفْسَهُ نَعْمَةَ الْعَقْلِ الْبَدِيلَ عَنْهُ.

ص: ٤٤٣

إشاره

أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا (٤٥) ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا (٤٦) وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِيَسَاءَ وَالنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا (٤٧) وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا (٤٨) لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَيِّتًا وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا (٤٩) وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِيهِمْ لِيَذَّكَّرُوا فَأَبَىٰ أَكْثَرَ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا (٥٠)

اللغه

٤٩[اناسى]: جمع إنسان و جعلت الياء عوضا عن النون و قيل أنها جمع أنسى.

٥٠[صرفنا]: بثنا و وزعنا.

ص: ٤٤٤

هدى من الآيات:

فى الدررس السابق قرأنا عن أولئك الذين اتخذوا إلههم أهوائهم و استهزءوا بالرسول فكفروا برسالة الله..و يعالج القرآن هذا المرض بتذكير البشر بربه فاذا عرفه تلاشت الآلهه من دونه.

أفلا تنظر الى آثار ربك فى هذا الظل الممتد؟ كيف يبسطه ثم يقبضه بتحريك الشمس مشرقا لمغرب؟! ثم يقسم الليل و النهار بقدر ليكون الليل سباتا و سترًا و راحة، و يتخذ النهار نشورا و نشاطا و بحثا عن المعاش.

و المعاش بدوره يدره الرب حين يرسل الرياح لتبشر برحماته و بركاته.فاذا بالسمااء تنزل الماء الطهور.فاذا بالحياه تدب فى البلد الميت أرضه و بشره و بهائم.

كل ذلك ليتذكر الإنسان،و لكن أكثر الناس يكفرون.و كفرهم هذا يدعوهم ليتخذوا إلههم الهوى،و يتحدوا-بالتالى-قيادة الرسول.

[٤٥]الايان بالله قاعده كل معرفه و منطلق كل ايمان،فلا يمكن للإنسان ان يؤمن بالوحى قبل الايمان بمن أنزله.

و فى أول آيه من هذا الديرس نجد قوله تعالى: «أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ» و ذلك مما حير المفسرين، و جعلهم يؤولون الكلام تأويلا. أو يستطيع الإنسان-هذا الضعيف المحدود- أن ينظر الى ربه؟! فقال بعضهم: ان فى الآيه لقلبا، و معناها: ألم تر الى الظل كيف مده ربك و قال البعض ان فيه حذفاً، و معناه ألم تر الى فعل ربك و لكن يبدو لى: ان فى تعبير الآيه احياء لا نجده فى غيره، فالإنسان يرى ربه بالفعل و ليس بعينه و لا بصوره مباشره، بل يراه بقلبه المنفتح من خلال آياته فى الكون، فهى لوضوحها الشديد تعتبر عن بديع صنع الله، و تشهد على ما ورائها من قوه مهيمنه عليها، و هى قوه الله و أسماؤه الحسنى.

و ماذا يحصل للإنسان عند ما يرى شيئا ما؟ أو ليس يؤمن به ايمانا عميقا؟ و الا فلما ذا يؤمن بالشمس و ظلها، و بالأرض و ما فيها؟ بالطبع لأنه يرى كل ذلك، اذن فالرؤيه تعطيه هذه المعرفه، و تصنع هذه الحاله النفسيه من الايمان و الاطمئنان لديه حتى يصل الى درجه اليقين الاعمق.

بالطبع أنه لا يرى الا انعكاسا لنور الشمس عليها.

و من الشمس ماذا يرى؟ أ ليس نورها دون جرمها؟ و هكذا بالنسبه للقمر و سائر النجوم و الأشياء.

فمن النجوم ما يحتمل العلم أنها اندثرت و لا نرى منها سوى نورا انبعث قبل مليون عام ليصلنا اليوم مثلا،فلا نستطيع ان نتأكد من فناء النجم،الا بعد مليون عام.

و ماذا نرى من التفاحه التى نحملها بين أيدينا غير النور المنبعث من اى مصدر ضوئى انعكس عليها؟ و حتى جرم التفاحه لا نرى منه غير الاجزاء المحيطه به،فالثقل ظاهر محيط بالجسم لا ذات الجسم.

و هكذا الحقيقه غيب،لا يصل إليها الإنسان الا عبر الظواهر و الشواهد المرتبطه بها و الداله عليها،فهى تشبه أمواج الأثير التى لا ترى الا على شاشه التلفزيون، و أمواج اللاسلكى التى لا تلتقط و لا تسمع بغير المذياع و الاجهزه المشابهه.

و هل هناك حقيقه ترى بأحسن ما يمكن ان يرى الإنسان ربه؟ إذا كانت الشواهد هى التى تحملنا على الايمان و الاعتقاد بكل شىء و ليس الاحاطه به،و إذا كان الأمر هكذا بالنسبه لسائر الأشياء،كالأرض و السماء و ما فيها،فهل لشىء من الآيات و الشواهد و بالتالى من الظهور و الوضوح مثلما لله سبحانه و تعالى؟! فلما ذا يجوز ان نقول رأينا الشمس و نظرنا الى القمر..إلخ و لا يجوز ان نقول رأينا

ص: ٤٤٧

ربنا؟! ان ايماننا بالله يجب ان يكون أقوى من ايماننا بأى شىء سواه، لأننا نجده فى كل شىء، (و فى كل شىء له آيه تدل على انه واحد).. ففى كل شىء تتجلى آثار القدره و العظمه، و الحكمه و النظام، و الجمال و الروعه و هى من أسماء الله الحسنى.

و نحن عن طريق النور الذى ينبعث من الشمس الى الأرض نكتشفها و نؤمن بها، و الشمس أظهر الحقائق عندنا، فاذا أراد الواحد بيان وضوح شىء قال:

«كالشمس فى رابعه النهار»، و لكن هل رأينا الشمس رأى العين؟ كلا.. بل ان كل ما نراه هو ظلها الممتد على البسيطه. و قد قال بعض المفسرين ان الظل هو موجود منذ البدء فى الكون، ثم تأتى الشمس لتذهب به، فكلما ارتفعت انحسر أكثر، حتى يأتى وقت الزوال فينعدم تقريبا ثم يعود فيثا بعد دوران الأرض حول الشمس، فيصبح الوقت مساء.

الا ان هناك احتمالا آخر لمعنى الظل أطرحه ليتدبر فيه المتدبرون: إن الظل هو انعكاس نور الشمس، و لذلك

جاء فى الحديث فى تفسير على بن إبراهيم و فى روايه أبى الجارود عن أبى جعفر (عليه السلام) فى قوله عز و جل: أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ فَقَالَ: «الظل ما بين طلوع الفجر الى طلوع الشمس».

و إذا سميت شبح الأشياء ظلًّا فلأن شعاع الشمس يمتد إليه.

و نسأل: ماذا يرى الناس من ظل الشمس؟ لا يرون الا نورا منبعثا منها منبسطا على الأرض، و هو فى انقباض و انبساط بمشيئه الله فبين الحين و الآخر يتبدل النهار ليلا و الليل نهارا، و كل ذلك آيه داله على وجود الشمس.

إننا نؤمن بالشمس، دون ان نرى غير ظلها،الذى نعرف من خلاله طبيعتها وقوتها،و مدى دفئها، كما لو كانت الشمس هي التي نراها،و كذلك عن طريق أسماء الله و آياته في الكون يجب ان نعرف ربنا و نتيقن يقينا راسخا به،و كما ان الشمس هي دليل الظل بإذن الله و ليس العكس،كذلك الرب هو الدليل إلى ذاته بذاته،و بآياته و أسمائه و ليس العكس.

أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا و ذلك بوقف دوران الأرض لتبقى في ليل دائم،أو نهار مستمر.

ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا- تتماوج التعابير و الإيحاءات القرآنيه لتبث حزمه نور الى القلب و توصل الإنسان الى غيب الحقائق،فما نراه ظل للشمس،و آيه من آيات الله،فلما ذا عن طريق الظل نكتشف الشمس و لا نعرف وجود الله؟!و اين نحن من ذلك الإمام الذى

قال: «ما رأيت شيئا الا- رأيت الله قبله و معه و بعده»؟! فالمؤمن يعيش محاطا بمعرفه الله،لأنه أنى ينظر يجد آيات الله الواضحه،مما يزيد ايمانا الى ايمانه،فان رأى الجمال و الكمال قال سبحان الله،و ان رأى العظمه و القدره قال الله أكبر. و لعل الآيه توحى الى التشابه بين شمس الطبيعه و شمس الوحي،و أن الذى جعل الشمس دليل الظل أوحى بالرساله لتكون هدى و نورا.

[٤٦] ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَىٰ قَبْضٍ سَيْرًا و هنا تتجلى هيمنه الله،و كيف أنه ينشر الظل،ثم يقبضه بصورة سهله و ميسره،دون نصب و تعب تعالى الله عن ذلك.

[٤٧] بين ساعه و أخرى يرتدى الكون ظلمه الليل، و يتوقف كل شىء فى مكانه، فالنور المنبعث من السماء يخفت، و زرافات الحيوانات المنطلقه من هنا و هناك تعود الى مهاجعها، و أسراب الطيور تؤوب الى و كورها، و يعود الإنسان الى بيته يبحث عن ملجأ يأوى اليه و كأنه يخشى من شىء غريب. و بعد لحظات يرى الإنسان الذى كان كتله من النشاط، قد تراخى على فراش نومه.

و لعلّ هذا التعبير يشير الى التعبير الذى يحصل فى الإنسان المؤمن، فان الذى يهتدى بالقرآن كمن يعيش الصباح و النهار فكله معرفه و حركه و نشاط، بينما يشبه الكافر و الضال من انغمس فى سبات عميق، فى ظلمه ليل بهيم، فكله سكون عن النشاط و خوف و جمود.

و بين هاتين الحالتين يجب على الإنسان التحرك نحو النشاط عبر الوحي، فالله فى هذه السوره يحدثنا عن القرآن و لكنه يختار ما يتناسب مع موضوعها من آيات الطبيعه.

وَ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا حَيْثُ يَشَبُّ رَبَّنَا اللَّيْلَ وَ كَأَنَّهُ لِبَاسٌ يَشْمَلُ مَلَائِينَ الْبَشَرِ، كَمَا يَغْطِي الطَّبِيعَةَ سَهْلَهَا وَ جَبَلَهَا، بَرَّهَا وَ بَحْرَهَا.

وَ النَّوْمُ سُبَاتًا السَّبات هو الانقطاع عن العمل و الحركه. فاذا توقفت الآله عن العمل قيل لها سبتت، و سمي يوم السبت كذلك لأن الماضين كانوا ينقطعون عن العمل فيه، و هكذا تنقطع أعضاء و جوارح الإنسان عن النشاط و الحركه ليلا، و لذا سمي النوم سباتا.

وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا فَهُوَ عَكْسُ اللَّيْلِ لِأَنَّهُ انْبِعَاثٌ وَعَمَلٌ.

[٤٨] وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ إِنْ الْإِنْسَانُ لَيْفِرِحَ بِالرِّيَّاحِ وَهِيَ تَقُلُّ لَهُ عَرَفَ الْوُرُودِ وَالْأَوْكْسَجِينَ، كَمَا تَحْمِلُ السَّحْبَ الْمَلِيئَةَ بِالْمَطَرِ، فَهِيَ مَصْدَرٌ بِشَارِهِ وَسُرُورٌ لَهُ.

وَ أَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا لَقَدْ أَثْبَتَ الْعِلْمُ أَنَّ أَفْضَلَ أَنْوَاعِ الْمِيَاهِ هُوَ مَاءُ الْمَطَرِ، لِأَنَّ مَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ بِالْإِضَافَةِ إِلَى كَوْنِهِ مَاءً فَانْه يَحْمِلُ الْاَوْكْسَجِينَ النَّقَى، فَهُوَ نَظِيفٌ وَ مَنْظَفٌ، كَمَا هُوَ إِنْ نَزَلَهُ يَزِيلُ الْأَمْرَاضَ.

[٤٩] لِنُحْيِيَ بِهِ بَلَدَهُ مَيِّتًا إِنْ التَّعَابِيرُ الْقُرْآنِيَّةُ هُنَا إِشَارَاتٌ إِلَى رِسَالَةِ اللَّهِ - كَمَا يَبْدُو - فَاللَّهُ الَّذِي يَطْهَرُ الْأَرْضَ بِالْمَاءِ الَّذِي يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ يَطْهَرُ الْقَلْبَ بِالْوَحْيِ.

وَ نُشَقِّيهِ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَ أَنْاسِيًّا كَثِيرًا خَلَقَ اللَّهُ الْمَاءَ وَ أَوْدَعَهُ الْأَرْضَ لِيَسْقَى بِهِ الْإِنْعَامَ وَ النَّاسَ.

[٥٠] وَ لَقَدْ صَرَّفْنَا بَيْنَهُمْ لِيَذَكَّرُوا فَمَا ذَا صَرَّفَ اللَّهُ بَيْنَهُمْ؟ قَالَ الْبَعْضُ أَنَّ هَذِهِ الْعِبَارَةُ تَدُلُّ عَلَى تَصْرِيفِ اللَّهِ لِلْسَّحَابِ، يَنْزِلُهَا بِإِذْنِهِ عَلَى

المناطق المختلفه من الأرض، و لو لا ذلك لتجمعت فى مكان واحد و أنزلت كل حمولتها من المطر على بلد واحد حيث تفيض المياه، بينما تبقى سائر البلاد قاحله لعدم وصوله لها.

و لكن القرآن يقول: « وَ لَقَدْ صَيَّرَفْنَا بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا » و كلمه صَيَّرَفْنَا لا تدل على السحب بقدر ما تدل على الأمثال التى ضربها أنفا.

و المعنى أنا صرفنا أمثالنا و كلماتنا فبينناها للناس كافه، و فى البلاد المختلفه أنزلنا كتابا من الله يحمل رسالته للبشرية عبر رسول منه.

فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا وَ هُنَا نَرَى نَوْعَ التَّشَابُهِ وَ التَّنْسِيقِ، بَيْنَ المَطَرِ الذى ينزل من السماء، و عن طريق توزيع القنوات الطبيعیه فى الأرض يجرى ليسقى الانعام و الاناسى، و بين الرساله التى تهبط من السماء فتستقر فى قلوب الناس.

إشارة

وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا (٥١) فَلَا تَطْعَمُ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا (٥٢) وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ
فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَحْجُورًا (٥٣) وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ
رَبُّكَ قَدِيرًا (٥٤) وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِ ظَهِيرًا (٥٥) وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَ
نَذِيرًا (٥٦) قُلْ مَا أَسئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا (٥٧) وَتَوَكَّلْ عَلَىٰ الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ
بِحَمْدِهِ وَكَفَىٰ بِهِ بُدُوبِ عِبَادِهِ حَبِيرًا (٥٨)

اللغة

٥٣[مرج]: أصل المرج الخلط و مرج أى خلط.

هدى من الآيات:

لم يخلق الله البشر عبثاً، ولم يتركهم سدى، فلقد وُفّر لهم سبحانه جميع وسائل الهدايه، وعند ما تكون الاكثريه هي الكافره، فان ذلك لا يدل على انعدام الفرصه امامهم، بل لان الايمان تكامل عظيم قلما يرتفع إليه إنسان. كما لا تدل قله المصلحين الاجتماعيين أو المخترعين و العلماء على عدم أهميه العلم و الاختراع، أو الإصلاح الاجتماعى، و انما هي مراتب عاليه لا يصل لها الا القليل.

و ان يرسل الله رسولا واحدا للعالم بأكمله لا يدل على ضآله قيمه رساله عند الله حاشا، بل العكس هو الصحيح فلعظمتها اكتفى بشخص واحد يبلغها البشريه كلها. و كما تكفى الشمس ان تكون مصباحا لكل الأرض و الكواكب المحيطه بها، فان رسول الله صلى الله عليه و آله يكفى ان يكون بشيرا لكل العالمين.

و بالطبع لا يكون ذلك الا إذا تسلح بالقرآن و تحدى الكافرين دون طاعه لهم أو تنازل عن القيم، فواحد يتسلح بالقرآن يمكنه الانتصار على الجاهليه العالميه

بأكملها، و يذكرنا الرب بقدرته لعلنا نخشى إنذاره و نتبع النذير المبعوث من عنده.

انظروا الى البحرين كيف أرسل الله المياه فيهما من عذب فرات و ملح أجاج و جعل بينهما حاجزا لكي لا يختلطا.

و من مظاهر قدرته خلق الإنسان من الماء و تنظيم حياته عبر جعله نسبا يتصل بعضهم ببعض عبر الولاده، و صهرا يتكاملون بالزواج.

كذلك ينبغي ان نخلص له العباده و نسلم لمن أرسله، بينما يعبد الكفار من دون الله أصناما و أناسا لا ينفعون من أطاعهم، و لا يضرهم من رفضهم، و يتظاهرون ضد رسل الله و رسالاته.

و ليس الرسول و كيلا- عنهم انما هو مبشر و نذير، و هو لا- يطالب بأجر لقاء اتعابه و انما يسعى لإسعاد الإنسان عبر هدايته الى السبيل السوي.

و لا يعتمد الرسول على قوه بشريه فانيه، انما يتوكل على الحي الذي لا يموت، و يستمد منه القوه حين يسبح بحمده، و هو وحده الذي يحاسب عباده، و كفى به خبيرا.

بهذه الصفات ينعت القرآن رسول الله، و يزيل الشبهات التي ألقاها الشيطان في قلوب البسطاء ليكفروا بالوحي.

بينات من الآيات:

الجهاد الكبير:

[٥١] وَ لَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا ان الله قادر على أن يبعث نذيرا في كل قريه، و لكنه بالحكمه جعله واحدا لكل

ص: ٤٥٥

البشر، و ليس هذا دليل على عدم عظمه النذير، و لا هو دليل أيضا على عدم أهميه الفئه القليله الملتفه حوله من المؤمنين، بل لعله يدل على العكس تماما.. و إذا كان القلب طاهرا و الأذن واعيه يكفي نذير واحد للعالمين، أما إذا كان فى الآذان صمم و على القلوب رين فلا ينفع وجود المنذرين فى كل قريه بل و لا فى كل بيت.

[٥٢] الكثير من المؤمنين يفقدون احساسهم بشخصيتهم، و ثقتهم بذاتهم إذا وجدوا أنفسهم فئه قليله، فينهارون أمام ضغوط الكفار، و هنا يحذر الله الرسول من هذه السلبه إذ يقول:

فَلَا تَطْعِ الْكُافِرِينَ وَ جَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا اى جاهد الكفار بسلاح القرآن جهادا لا هواده فيه. و قد قال بعض المفسرين ان الجهاد الأكبر هنا هو جهاد الكلمه و الحججه، و لكن السياق لا يدل على هذا التفسير، لان التعبير فى هذا المورد اشمل من ان يدل على جهاد الكلمه فحسب، لان المؤمن حينما يرفض طاعه الكفار أو الاستسلام لأفكارهم و ضغوطهم، فذلك يجره الخوض المعارك معهم مما يجعله يدخل الصراع بجهاد أكبر، و من جميع الأنواع و فى مختلف الجبهات، و لا بد ان يعرف الكفار أن مخالفتهم للرساله تعرضهم للخطر من موقعين، من عند الله و من عند رسوله و المؤمنين. فلا يحسبوا ان النعم التى خشوا زوالها بالايمان سوف تستمر لهم إن هم كفروا بالوحى، كالأ.. سوف يعلن الرسول جهادا كبيرا عليهم سواء بالكلمه الصاعقه أو بالسيف الصارم أو بوسائل ضاغظه أخرى.

و نتساءل ماذا تعنى كلمه «به» هنا؟ الجواب: أن القرآن ذاته نهج الجهاد الثقافى و السياسى و الاقتصادى و العسكرى، فالجهاد يتم بالقرآن شاملا متكاملا مستمرا.

[٥٣] ولقد حذرنا الرب نفسه، وابلغنا واسع قدرته، وذكرنا بآياته في الخلق.

أفلا نخشاه؟! دعنا نقرأ في كتاب الطبيعه أسماء ربنا العزيز المقتدر.. دعنا نخرق حجب الظاهر الى غيب الحقائق.. هذه المياه التي أقرب ما تكون الى الامتزاج بها، يجريها الرب في مجاريها بحرين مختلفين هذا عذب فرات، وهذا ملح أجاج، و يجعل بينهما فاصلا يحجز هذا عن ذاك. أو ليست تلك علامات القدره و شواهد الحكمة؟! فما أكثر من يتحدى ربا هذه آياته و تلك هي أسماءه الحسنی.

وَ هُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَ هَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَ جَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخاً وَ حِجْرًا مَحْجُورًا الْعَذْبُ هُوَ الْمَاءُ الْحَلُوهُ، وَ الْفُرَاتُ هُوَ أَحْلَى الْمِيَاهِ، وَ الْمِلْحُ هُوَ الْمَاءُ الْمَالِحُ، وَ الْأُجَاجُ هُوَ أَشَدُّ الْمِيَاهِ مَلُوحَةً. وَ الْبَرْزَخُ هُوَ السَّدُّ الَّذِي يَمْنَعُ الْمَائِينَ مِنَ الْاِخْتِلَاطِ بَعْضُهُمَا.

[٥٤] وَ هُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَ صِهْرًا وَ كَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا وَ كَمَا جَعَلَ اللَّهُ الْاِخْتِلَافَ فِي الْمِيَاهِ، جَعَلَ ذَلِكَ فِي بَنِي الْبَشَرِ، فَالنَّاسُ كُلُّهُمْ مِنْ مَاءٍ وَاحِدٍ، وَ اَرْضٌ وَاحِدَةٌ، اَلَا أَنَّهُمْ يَخْتَلِفُونَ بِالنَّسَبِ وَ الصَّهْرِ عَنْ بَعْضِهِمْ، فَالْبَعْضُ يَنْتَسِبُ إِلَى الْآخَرِينَ عِبْرَ النَّسَبِ كَالْأَبِ وَ الْإِخْوَانِ، وَ بَعْضُهُمْ يَنْتَسِبُ لِلْآخَرِينَ عِبْرَ التَّصَاهُرِ بِالزَّوْجِ.

[٥٥] وَ يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَ لَا يَضُرُّهُمْ وَ تَسْأَلُ: وَ هَلْ عِبَادَةُ الْإِنْسَانِ لِلْأَصْنَامِ تَضُرُّهُ أَمْ لَا؟ بِالطَّبَعِ أَنَّهُ تَضُرُّهُ، وَ لَكِنَّ الْقُرْآنَ يَقُولُ: «وَ يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَ لَا يَضُرُّهُمْ» ذَلِكَ اِنْ مَا يَضُرُّ الْإِنْسَانَ عِبَادَتُهُ لِلْأَصْنَامِ وَ لَيْسَ الْأَصْنَامُ ذَاتَهَا،

فالطغاه من الحكام، والمترفون، والمؤسسات الثقافية المضله.. كل أولئك أصنام، والإنسان هو الذى يلحق الضرر بنفسه عند ما يخضع لهم، ويؤيد الشيطان والكفار.

و لو لا خضوع البسطاء من الناس و استسلام أصحاب المصالح لما قامت للظلم قائمه. دعنا نقرأ معا حديثا حكيما فى ذلك:

عن على بن أبى حمزه قال: كان لى صديق من كتاب بنى أميه فقال لى:

استأذن لى على أبى عبد الله فاستأذنت له، فلما دخل سلم و جلس ثم قال: جعلت فداك إنى كنت فى ديوان هؤلاء القوم، فأصبت من دنياهم مالا كثيرا و أغمضت فى مطالبه، فقال أبو عبد الله عليه السلام: لو لا أن بنى أميه وجدوا من يكتب لهم، و يجيبى لهم الفىء، و يقاتل عنهم، و يشهد جماعتهم، لما سلبونا حقا، و لو تركهم الناس و ما فى أيديهم ما وجدوا شيئا إلا ما وقع فى أيديهم، فقال الفتى: جعلت فداك فهل لى من مخرج منه؟ قال: إن قلت لك تفعل؟ قال: أفعل، قال: أخرج من جميع ما كسبت فى دواوينهم، فمن عرفت منهم رددت عليه ماله، و من لم تعرف تصدقت به، و أنا أضمن لك على الله الجنه، قال: فأطرق الفتى طويلا فقال: قد فعلت جعلت فداك. قال ابن أبى حمزه: فرجع الفتى معنا إلى الكوفه فما ترك شيئا على وجه الأرض إلا أخرج منه حتى ثيابه التى كانت على بدنه، قال: فقسمناه له قسمه، و اشترينا له ثيابا، و بعثنا له بنفقه (1).

وَ كَانَ الْكَاْفِرُ عَلَى رَبِّهِ ظَهِيْرًا اَنْ مِنْ يَعْبُدُ الطَّاغُوْتِ بِخُضُوْعِهِ يَظَاهِرُهُ وَ يَعاوَنُهُ ضِدَّ الْحَقِّ، وَ اِلا فَمِنْ اسْتِطَاعَ الطُّغَاهُ التَّسَلُّطَ عَلَى رِقَابِ النَّاسِ؟!

ص: ٤٥٨

١- أليس بالصحفيين المأجورين و أمثالهم، ممن يتسكعون على عتبات القصور من أجل فتات الخبز و فضاله الطعام، ثم يلمعون أوجه الطغاه القبيحه بمقالاتهم السخيفه؟! ٢- أو ليس بالجنود المجنده من الشباب الذين يصرفون طاقاتهم فى خدمه الطغاه، بدلا من ان يكون كل واحد منهم قائدا فى مجتمعه؟! ٣- أو ليس بالموظفين الذين أذّلّوا أنفسهم فى دوائر السلطه كى يشبعوا بطونهم؟! ٤- ثم الأهم من كل ذلك، أليس بسكوت الناس عنهم، و خنوعهم عن مواجهه و الثوره ضدهم؟! اذن فالجريمه ليست من الطغاه وحدهم، بل للشعوب المستسلمه نصيب وافر من المسؤوليه أيضا.

[٥٦]الرسول ينذر و يبشر و الناس يتحملون مسئوليتهم. و إذا ساد الظلام أمه من الناس يتمون ظاهرا الى رساله الهيه فلا يعنى أبدا أن فى رسالات الله نقصا..

بل أنهم هم المسؤولون لأنهم تركوا العمل الجاد بها، و تحمل مسئوليه الثوره ضد الطغاه.

وَ مَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَ نَذِيرًا إِذَا تَسَلَطَ الطَّاغُوتُ، فان البعض يحاول ان يلقي باللوم و المسئوليه على كاهل الحركه الاسلاميه العامله، ثم ينتظرها تخلصه من هذه الازمه كلاً و هذا خطأ.

فكما ليس من الصحيح ان ينتظر الناس الرسول أن يجاهد الطاغوت وحده،

ليس من الصحيح أيضا ان تنتظر الامه الاسلاميه اليوم، الطليعه الرساليه أن تقوم بهذا الدور، ذلك أن دور الرسل كما الحركات الرساليه هو قياده النضال و توجيهه، لا- القتال نيابه عن الناس، كما كان بنو إسرائيل ينتظرون من نبيهم موسى عليه السلام فلما جاءهم و حملهم مسئوليه الجهاد « قَالُوا أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِنَا وَ مِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا » (١).

فأعضاء الحركه الاسلاميه يبذلون أقصى الجهود، من كتابه، و توزيع، و مؤتمرات، لفضح الطواغيت بإبراز أعمالهم الا-جراميه، متحملين في سبيل ذلك التبعات، من السجن و التعذيب و الاعدام، حتى هتك الاعراض و الحرمات، و لكن لا يجوز للناس ان يتفرجوا و ينتظروا الانتصار.

لأن مسئوليه الطليعه من حمله الرساله هي مسئوليه الرسول نفسها، اى تبليغ الرساله للناس و قياده المعركه و على الناس المقاومه و الثوره ضد الفساد و الانحراف.

[٥٧] قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَيَّ رَبِّهِ سَبِيلًا إِنَّ الرسل و من يمثلهم عبر التاريخ لا يطالبون الناس اجرا مقابل ما يقدمون لهم من خدمه البشاره و الإنذار، هذا فيما يخص الناس.

[٥٨] أما فيما يخص الرسول و حمله الرساله فان واجبهم السير في الطريق رغم الصعاب، بالتوكل على الحى القيوم، دون التفات لقله الأنصار حولهم، أو مدى الطاعه و الرفض من قبل الناس.

وَ تَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ

ص: ٤٦٠

١- (١) الأعراف ١٢٩.

فاذا اعتمد البعض على قوه بشرية فان المؤمن يعتمد على الله الذى لا يموت وحده، ولا يعتمد حتى على الأنصار و الاصحاب، فقد تزل قدم هؤلاء أو تعثر فيأس و يترك الجهاد.

وَ سَيَّبِحُ بِحَمْدِهِ ان القيادة أو الطليعه الرساليه هم الاقليه فى بدء الانطلاق، وهم الغرباء عن واقعهم، إذ يشعرون بالوحشه و هيبه الطريق، كما يتحسسون الفراغ الاجتماعى، و لكى يقاوموا هذه السلبيات فان عليهم التعويض عن كل ذلك بالارتباط المتين و العميق بالله سبحانه و تعالى، لان ذلك يثلج صدورهم، و يسكن روع قلوبهم، فيعطيهم الثبات و الطمأنينه.

وَ كَفَى بِهِ بِذُنُوبِهِ عَجَبًا إِنَّ خَيْرًا لِّعَنِ ان الله قادر على إحصاء ذنوب الذين يتركون المؤمنين الحاملين للرساله، فلا تشغل الفئه المؤمنه نفسها بإحصاء سلبيات و ذنوب الآخرين من المخالفين، و لا تفكر فى رفض الناس لها و لرسالتها، و انما عليها المضى قدما على خطها، تاركه ما يجرى حولها الى الله، فهو الذى يحصى ذنوب الناس و كفى به خيرا بها.

اشاره

الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ فَسئَلُ بِهِ خَبِيرًا (٥٩) وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا
لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا (٦٠) لَبَّازِكِ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا
مُنِيرًا (٦١) وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا (٦٢) وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى
الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا (٦٣) وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا (٦٤) وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا
عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا (٦٥) إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا (٦٦) وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ
ذَلِكَ قَوَامًا (٦٧)

اللغة

٦٣[هونا]:و الهون مصدر الهين فى السكينه و الوقار.

٦٥[غراما]:الغرام هو أشد العذاب.

ص:٤٦٢

هدى من الآيات:

فى إطار التذكرة بالتوحد الذى هو قاعده الإيمان بالرسالة يبين الدرس بعض أسماء ربنا، وبالذات أسمى «الرحمن» و«تبارك».
و يتجلى اسم «الرحمن» فى خلق السموات و الأرض و تدبير هما بالرغم من نفور الكفار من هذا الاسم الكريم، و رفضهم السجود للرب الذى أحاطت بهم رحمته، و زعموا أنهم لا يسجدون لمن يأمرهم الرسول (استهزاء به و تحديا له).
بينما يتجلى اسم «تبارك» فى ذلك البناء المتين الذى تعالى فوقنا، و السراج المنير الذى تعلق به كالقنديل، و القمر المنير الذى زينه و فاض نوره الهادى على الربايا و السهول.
و هكذا فى توالى الليل و النهار ليكون فرصه لمن يريد ذكر الله، أو أراد له شكورا.

إن أسماء الله تتجلى في أفئده الذاكرين الشاكرين، فيكونون عباد الرحمن حقا.

فتراهم يمشون على الأرض هونا لا - أذلاء و لا متبخترين، و يواجهون الجهل بالسلام، و يبيتون الليل بالتبتل، و يتطلعون لاتقاء نار جهنم اللاهبة البئسه، و إذا أنفقوا اقتصدوا، فلم يبخلوا و لم يترفوا.

و يواصل الدرس التالي الحديث عن سائر صفات هؤلاء الصالحين.

بينات من الآيات:

فَسَلِّ بِهِ خَيْرًا:

[٥٩] يحدثنا القرآن الكريم في هذه المجموعه من الآيات عن أمرين متقاربين:

الأول: الايمان بالله.

الثانى: كيف يتجلى الايمان فى سلوك الإنسان الصادق. لتوضيح هذا الأمر لا بد أن نتذكر أن هناك فرقا بين الايمان بالله و بين معرفته -حقا- لأن هناك درجات فى مسيره التوحيد و هناك مفارقات ينبغى أن نعرفها و هى كما يلى:

١- فقد يكون الايمان إجماليا، كما لو عرف الإنسان أن وراء الاكمه أشجارا، أو أن وراء الجبل غابه، و ربما يؤمن بذلك عن طريق العلم بكثافه الأمطار وراء الأكمه، أو وجود الحيوانات المختلفه الآتية من وراء الجبل، أو عن طريق مخبر صادق يثق به.

و قد يكون الايمان عرفانيا، و ذلك حينما يدخل الغابه أو يشرف عليها من قريب، و يزداد هذا العرفان كلما أحاط بما فى الغابه من جزئيات.

٢- الذين يؤمنون بالله عبر آيه واحده من آياته، قد لا يندفعون إلى السلوك

ص: ٤٤٥

المتكامل الذى يصوغ الايمان العرفانى به شخصيه المؤمنين. عبر معرفتهم بآيات الله المختلفه التى يرونها.

٣- إذا أراد الإنسان اكتشاف حقيقه ايمانه، و هل وصل إلى درجه العرفان، أم لا يزال ايمانه بسيطا يخرجه عن حدود الجحود و الكفر فقط، فان عليه أن يبحث عن آثار الايمان الصادق، فاذا كانت موجوده بصورة كامله على سلوكه و تصرفاته كان و إلا فلا.

لذا نجد القرآن يربط بين من يؤمن بالله إيماننا كاملا-و الذى ينعكس فى صورته توكل على الحى الذى لا يموت-و بين سلوكيات عباد الرحمن كما تصفهم الآيات الكريمه.

٤- كلما عرف الإنسان ربه بالتقرب إليه من خلال العباده، كلما عرف نفسه بصورة أكمل، فهاتان معرفتان متقابلتان، و سبب المقابله إن الله هو خالق الإنسان، فإيمانه بالإله الخالق يدعوه للإيمان بالعبد المخلوق. مما يجعله عارفا بمدى عبوديته و ضعفه، أو محدوديته و ضيق أفقه، و بين الأمرين (معرفة الله، و معرفه النفس) تتنامى نحو التكامل الشخصيه الايمانيه لدى الإنسان المؤمن.

كذلك يبصرنا القرآن بآيات ربنا المبتوثه فى الآفاق ذكرى من بعد ذكرى فيقول تعالى:

الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَ مَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ حِينَما يقف الإنسان على ربوه تل، فيرمى ببصره نحو الأرض الممتده من تحته، أو السماء الواسعه من فوقه، فانه ينبهر بكل ذلك، و هنا و فى لحظات الانبهار بالذات، عليه أن يجعل الانبهار سبيلا إلى الايمان بالله، فكلما وجد عظمه و قدره

و جمالا و روعه تتجلى فى الخلق، كلما تعمق إيمانه بعظمه الخالق.

و لعلّ خلق الله السماوات و الأرض فى ستة أيام، دليل على أنه يطورهما باستمرار، حتى وصلت إلى ما هى عليه الآن، و هذا لا يدل على عجز الله، بل يشير إلى استمرار الهيمنة الالهيه عليهما، فلم يتركهما بعد الخلق لشأنهما سدى.

ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ و على هذا فهناك علاقة سياقيه بين كلمتى «فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ» و «ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ» حيث تشير الآية إلى ان الذى خلق السماوات و الأرض يشرف عليهما و يدبر أمرهما.

و «ثُمَّ اسْتَوَىٰ»: أى هيمن على العرش، و هو رمز التدبير بعد التقدير و الإمضاء بعد القضاء.

الرَّحْمَنُ تتكرر كلمه الرحمن فى مواضع كثيره من هذه السوره، و لعلّ الحكمه فى ذلك أنّ الرساله الالهيه هى أعظم منه من ربنا علينا، و أنّ السبيل إلى الإيمان بها يمر عبر الإيمان بأن الله هو الرحمن، و أنّ آيات رحمته فى الخلق تجعلنا نثق بل نوقن انه لن يترك عباده فى بؤر الجهل و الضلاله. تتجاذبهم شهوات المترفين، و نزوات المستكبرين.

إذا فلنؤمن برسالته التى يشكل إرسالها أكبر شاهد على رحمته.

فَسْئَلُ بِهِ خَيْرًا أى فاسأل بهذا الأمر (خلق السماوات و الأرض و على مراحل متتابعه

و متكامله) خيرا يتبؤك به، وهو - كما نعرف - من خلال الآيه، الله و جبرائيل عليه السلام فتكون هذه الآيه مختصه بالنبي محمد صلى الله عليه و آله .

و لعل المراد من الخير كل عالم من علماء الفلك و الفيزياء و الكيمياء و غيرهم ممن توصلوا إلى الاكتشافات العلميه التي تعرفنا بآثار رحمه ربنا سبحانه، و بالتالي يكون هذا استشهاد بالعلم، حيث يأخذ بأعناق المثقفين و المفكرين للايمان بآيات الله و الاعتراف بالرساله.

عند ما يتصور البشر به:

[٦٠] يتساءل الكفار: «و ما الرحمن؟» عند ما يؤمرون بالسجود له ظناً منهم بأن الرسول يريد من وراء ذلك تعظيم نفسه، و هذا سبب رفضهم الخضوع لله.

وَ إِذَا قِيلَ لَهُمْ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَّا نَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا أَي هَل تَرِيد التأمير علينا بفرض السجود؟ إن المجتمع الجاهلي القائم في علاقاته الاجتماعيه على أسس فاسده، كالعنف و الاستغلال لا يمكنه أن يؤمن برحمانيه الله، و هو يحسب ان العلاقات القائمه في الكون تشبه العلاقات القائمه بين أبناء البشر، فالمجتمع الجاهلي إذا تصور الله فانما يتصوره حسب مزاجه النفسى المستوحى من الخيال، أو من الوضع الاجتماعى القائم.

فعند ما أراد المجتمع اليونانى تصور الله بادر مفكروه يضعون آلهه من التماثيل الحجرية و اللوحات الفنيه المتضاربه، فلكل إله جيش و شعب، و عنده حدود و إقليم، و يستخدم شعبه و جيشه فى محاربه الآلهات الأخر.

و هذا الخيال يعكس التضارب القائم فى ذلك المجتمع الاغريقى القديم، فلأن وضعهم ملئ بالصراع، و علاقاتهم مشحونه بالبغضاء، تصوروا الله كذلك يشاركهم فى المزاج و الشعور (تعالى الله عما يصفون).

و هكذا كان يصنع المجتمع العربى قبل الإسلام فكل حزب بما لديهم فرحون، لذا

جاء فى الحديث المروى عن الامام الصادق عليه السلام :

«لو ان النمله تصورت ربها لتصورت له قرنين» فما دامت القضيه لا تتجاوز التصور، فان النمله تمتلك القدره على تصور الرب، و لكن من واقعها و شعورها.

و قد وقع بعض البسطاء من المسلمين فى ذات الخطأ، فقالوا: ان الله شخص عنده لحيه بيضاء طويله، و يركب الحمار لينزل الى الأرض فى ليالى الجمع، فكان بعضهم يضع حزمه علف على سطح بيته فى كل ليله جمعه، حتى يأكل ما فيها حمار الله، (سبحانه و تعالى عن الأمثال).

و سبب هذه التخيلات خضوع الإنسان لخياله المحدود عند تصور الله، فيتصوره تاره من واقعه و طبيعته كإنسان فيحسبه كذلك، أو من واقع المجتمع و طبيعته تاره أخرى، فينعكس الوضع الاجتماعى على تصور الله أيضا، فلأن علاقه المجتمع الجاهلى بالتجمع الايمانى ماديه فهى صلفه، فإنهم لم يكن بمقدورهم تصور الرحمه صفه من صفات الله، فلا عجب ان يرفضوا أمر الرسول لهم بالسجود للرحمن.

فقالوا: «و ما الرحمن»؟ فهذا اسم جديد على واقعهم ليس بعيدا أن يستغربوا منه، فواقعهم مشبع بالخوف و الإرهاب و ما الى ذلك من الصفات المشينه.

وَزَادَهُمْ نُفُورًا لَمْ يَكُنْ أَمْرُ الرَّسُولِ لَهُمْ بِالسُّجُودِ لِلَّهِ الْإِلَهِيِّ لِمَجْمَعِ شَتَاتِهِمْ. كَيْ تَشْرُقَ عَلَيْهِمْ شَمْسُ الرَّحْمَةِ، وَتَلْفَهُمْ غَمَامَةُ اللَّطْفِ الْإِلَهِيِّ، وَلَكِنَّهُمْ لَعَمَقِ الْإِحْسَاسِ بِالْأَرْهَابِ وَالْخَوْفِ وَ مَا أَشْبَهَ مِنَ الصِّفَاتِ الرَّذِيلَةِ نَفَرُوا حَتَّى مِنْ هَذِهِ الْكَلِمَةِ كَمَا تَنْفِرُ الْإِبِلُ الْمَذْعُورَةُ.

ويعبر هذا النفور عن مدى الجهل الغارقين فيه، والذى لا يزال جاهليى العصر يغرقون فيه أيضا، ولا فرق بين الجاهليتين الا أن إحداهما حديثه و الاخرى قديمه.

فلو نهض رسالى يدعو الشرق الملحد، و الغرب المشرك للسجود للرحمن، و اشاعه السلام و العدل فى أرجاء المعموره لردوا«و ما الرحمن»؟ أيضا، و مَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَ لَكِنْ أَنْفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ .

من آيات الكون:

[٦١] بَلِّغْ بَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَ جَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَ قَمَرًا مُنِيرًا ربما تشبه كلمه البركه كلمه التكامل فى منطقنا الحديث، فالمبارك يعنى واسع الخير و ثابتة، أو المتكامل الذى ينمو-و تعالى الله عن النمو لأنه-

«الكامل الذى لا كمال بعده. إذ ليس لصفته حد محدود، و لا نعت موجود، و لا أمد ممدود» كما قال الامام على عليه السلام .

فما معنى: «بَلِّغْ بَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا»؟ ان الذى اعطى البركه للسماء هو الذى يعطى البركه للإنسان، و البروج هى المواقع الظاهره و المرتفعه فى نفس الوقت، و عاده ما يكون برج المدينه رمزها،

و الشمس و القمر و سائر الكواكب و النجوم بروج للسماء، و الذى جعل الشمس و القمر و البروج هو صاحب البركه، فالاولى أن نتوجه اليه دون غيره لأنه الرحمن، فلما ذا لا نعرف هذه الصفه الحميده من صفات ربنا؟ [٦٢] وَ هُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا لَقَدْ جَعَلَ اللَّهُ كَلِمَاتٍ مِنَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ يَخْلَفُ بِهِنَّ أُولَئِكَ لَنْ تُجِبُوا اللَّهَ بِحُلُمِكُمْ إِذْ كُنْتُمْ كَالْغَنَمِ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ، و لو دام النهار لانعدمت الراحة.

و لكن متى يتذكر الإنسان؟ فى الليل.

و متى يحصل على النعم فيشكر الله؟ فى النهار.

و كم هو جميل السياق إذ يقول: جعلنا الليل لمن أراد ان يذكر! فحينما تهدأ الأصوات، و تسكن الأحياء، فيعم الصمت حيث الناس كل آوى الى فراش نومه، فينبعث ضمير المؤمن حيا ليناجى ربه « إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلاً ».

اما فى النهار حيث ينهض الإنسان من نومه طلبا للرزق و المعاش، لا- لكى يطغى و انما ليشكر ربه، و يصل بوظائف النعم التى وفرها له، نجد انعكاس المعرفة الايمانيه على سلوك عباد الرحمن الذين يصوغون به شخصيتهم من خلال الايمان العرفانى.

عباد الرحمن:

[٦٣] ان لعباد الرحمن الذين تتجلى أسماء الله و فى طبيعتها(الرحمن) على

ص: ٤٧١

افدتهم و سلوكهم صفات حسان كثيره أبرزها:

١- التواضع:

وَ عِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا ۖ وَعَلَقَهُ الرَّحْمَهُ، لأنهم عباد الرحمن - و لا غرابه - فقد انعكس اسم الرحمن الالهى على شخصيتهم فصيغت بقالب هذا الإسلام المقدس، و هذا ما يدعوهم للسير هونا على الأرض، مشيه متواضعه لا كمشيه المتكبرين على العباد و المفسدين فى الأرض، و لا كمشيه الأذلاء و الدونيه، لذلك

جاء فى الحديث فى تفسير الآيه :

«يمشى بسجيته التى جبل عليها لا يتكلف و لا يتبختر» (١) فعباد الرحمن يحبون حتى الأرض التى يضعون اقدامهم عليها، و كما يقول المعزى:

خفف الوطء فما أظن أديم الأرض الا من هذه الأجساد

و لما يتعاملون به من خفه مع الأرض، لا- يسحقون حتى النمل، و لا يقتلون حتى النبتة الصغيره، و لا ينفرون الحيوان، بل يمشون عارفين بمواقع اقدامهم.

هذا بالنسبه للأرض، أما بالنسبه للمجتمع فان علاقتهم علاقه رفق مع الآخرين، و خلفيه كل ذلك أنهم يتكيفون مع السنن و القوانين الالهيه الثابته، فى علاقاتهم مع الطبيعه و المجتمع، مقتنعين بوجود سبل و أساليب ينبغى العمل وفقها،

ص: ٤٧٢

و السير فى اطارها للاستفاده من الامكانيات الهائله المودعه من قبل الله فى الطبيعه، و ينعكس ذلك أيضا على مواقفهم الاجتماعيه و السياسيه، فلأنها نابعه من فطرتهم النقيه التى ترفض التكلف و التبختر فانها مشيه معتدله. لا تظاهر فيها و لا صخب.

جاء فى الحديث المأثور عن الامام الباقر عليه السلام :

«الائمه عليهم السلام يمشون على الأرض هونا خوفا من عدوهم» (١) و هذا خلاف ما يفعله الآخرون ممن لا تشملهم الآيه الكريمه « وَ عِبَادُ الرَّحْمَنِ » فانا نجد علاقتهم مع الطبيعه و المجتمع علاقه قائمه على أسس فاسده من الخشونه و العنف، و استغلال الناس، و توجيههم منصرف الى التمرد على الانظمه و القوانين الطبيعيه، مما نرى آثار ذلك فى إفساد العلاقات الاجتماعيه، و انتشار التوتر و الحروب بين الدول المختلفه.

٢- الرفق:

وَ إِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا لِأَنَّ عِلْمَهُمْ عِلْمَهُ السَّلَامِ وَ الْأَمْنُ فِيهِمْ يَجِيبُونَ الْجَاهِلِينَ -ممن يخاطبونهم بالجهل- بقولهم: سلاما، و قيل: ان المقصود بالسلام سلام الوداع، اى انهم ينصرفون عن الجاهل بعد السلام عليه، عند ما يحتكون به دون مبادلته جهلا بجهل.

و لكن الأقرب الى قوله تعالى « قَالُوا سَلَامًا » انهم يبدءون كلامهم و علاقاتهم مع الناس عن طريق السلام، و هو إبداء حاله من الأمن و العلاقه الايجابيه مع الطرف الآخر.

ص: ٤٧٣

[٦٤] وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا قَلِيلٌ هُمُ الَّذِينَ يَحْيُونَ لَيْلَهُمْ بِالْعِبَادَةِ، مَكْثَرِينَ مِنَ الصَّلَاةِ وَالِدُعَاءِ تَضَرَعًا لِلَّهِ وَخَوْفًا مِنْهُ. وَالنَّاسُ فِي نَوْمٍ عَمِيقٍ، وَالكَثِيرُ مِنَ النَّاسِ مِنْ يَطْمَحُ فِي الْوَصُولِ إِلَى مَسْتَوَى عِبَادِ الرَّحْمَنِ، وَلَكِنْ لَا يَسْتَطِيعُ فَلَمَّا ذَا؟ لِأَنَّ هَذَا الْقِسْمَ مِنَ النَّاسِ يَرِيدُونَ إِجْبَارَ أَنْفُسِهِمْ عَلَى الْفَضَائِلِ وَهِيَ لَا تَأْتِي بِالْإِكْرَاهِ، وَأَمَّا بِصِيَاغَةِ الشَّخْصِيَّةِ، فَذَا لَمْ تَتَعَكَّسْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ عَلَى سُلُوكِ الْإِنْسَانِ، فَلَا يَنِمُّ نَفْسَهُ بِالسُّجُودِ لَهُ لَيْلًا لِأَنَّهُ سَيَرَى نَفْسَهُ عَاجِزًا أَمَامَ هَجُومِ النَّوْمِ، أَمَّا عِنْدَ مَا تَتَجَلَّى آيَاتُ الرَّحْمَنِ أَمَامَ نَاطِرِيهِ، وَتَتَعَكَّسُ عَلَى سُلُوكِهِ فَتَصَوِّغُ شَخْصِيَّتَهُ، آتِنْدُ لَا يَسْتَطِيعُ النَّوْمَ لَيْلًا بَلْ تَتَجَافَى جَنُوبَهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ.

فَفِي وَقْتٍ مَتَأَخَّرَ مِنْ أَحَدِي لَيَالِي صَيْفٍ مَضَى، كُنْتُ نَائِمًا عَلَى سَطْحِ الْمَنْزَلِ مُسْتَلْقِيًا عَلَى فِرَاشِي وَ لَمَّا يَسْتَوْلِ عَلَيَّ النَّوْمُ بَعْدَ.

وَ كَانَ صَاحِبِي عَلَى مَقْرَبَةٍ مِنِّي وَ عَيْنَاهُ تَحْمَلِقَانِ فِي آفَاقِ السَّمَاءِ، وَ كَأَنَّهُ أُدْرِكُ عَنْ طَرِيقِ النُّجُومِ قَرَبَ الْفَجْرِ فَرَأَيْتَهُ - كَمَنْ لَدَغْتَهُ حِيَه - يَقْفِزُ مِنْ فِرَاشِهِ قَفْزًا، وَ يَتَوَضَّأُ بِسُرْعَةٍ لِيَقِفَ يَصَلِّي، وَ هَكَذَا هُمُ عِبَادُ الرَّحْمَنِ.

فَالْأَصْلُ فِي كُلِّ فَضِيلَةٍ مَعْرِفَةُ اللَّهِ وَ إِصْلَاحُ النَّفْسِ، فَمَنْ لَا يَعْرِفُ اللَّهَ، وَ مِنْ ثَمَّ لَا يَصْلِحُ نَفْسَهُ لَا يَحْصُلُ مِنَ الْفَضَائِلِ الْآخَرَى عَلَى شَيْءٍ، إِذْ لَيْسَتْ الْمَسْأَلَةُ مَسْأَلَةَ تَكْلُفٍ بِقَدْرِ مَا هِيَ سَجِيهَ لِقَلْبِ الْإِنْسَانِ.

٤- التقوى من النار:

[٦٥] وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ ان شهيقي جهنم و زفيرها لا يعزب عن بالهم طرفه عين أبدا، بل تتجسد صور النار أمام أعينهم في كل لحظه، فيقول أحدهم: الهى اصرف عنى عذاب جهنم، و كأنه يرى نفسه ينصلى فيه، أو لا يقول تعالى: «وَ إِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا ثُمَّ نُنْجِي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَ نَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثًّا».

فكل إنسان سيمر من فوق الصراط على جهنم، و العاقل من فتش عن سبيل للنجاه.

إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا إى ان عذاب جهنم يلزم الإنسان الذى يدخله، و انه لخساره كبرى، فليس الخسران الحقيقى خسران الدنيا بما فيها من لذات، و انما الخساره ان يخسر الإنسان رحمه الله فى يوم القيامة حيث المطاف الأخير.

[٦٦] إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَ مُقَامًا فهى ليست مستقرا مرغوبا كى يقيم فيه الإنسان، و ليست مكانا طيبا يصلح ان يستمر فيه.

٥- الاقتصاد فى المعيشه:

[٦٧] وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَ لَمْ يَقْتُرُوا وَ كَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا

ص: ٤٧٥

الكثير من الناس من ينفق المال، والقليل من يحصل على الثواب، والأقل من ينفقه كما يريد له الله، وهم عباد الرحمن حقاً، فانفاقهم ليس بدافع الترف والشهوه، أو الرياء والسمعة، وإنما بدافع الإيمان والعقل والارادة، فلم يسرفوا ولم يقتروا و كان بين ذلك قواماً.

فبين هذا و ذاك ينفقون و باعتدال ما يقيمون به حياتهم و حياه الآخرين.

و هكذا

يروى العياشى يقول :استأذنت الرضا عليه السلام النفقة على العيال؟ فقال:

«بين المكروهين. قال فقلت: جعلت فداك لا والله ما اعرف المكروهين، فقال:

بلى-يرحمك الله-أما تعرف ان الله تعالى كره الإسراف و كره الإقتار فقال:

« وَ الَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَ لَمْ يَقْتُرُوا وَ كَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا » (١).

و ضرب الامام الصادق عليه السلام مثلاً لذلك فأخذ قبضه من حصي و قبضه بيده فقال:هذا الإقتار-الذى ذكره الله عز و جل فى كتابه-ثم قبض قبضه أخرى فأرخى كفه كلها ثم قال:هذا الإسراف ثم أخذ قبضه أخرى فأرخى بعضها و أمسك بعضها و قال:هذا القوام.

و تربط روايه ثالته بين الإنفاق و مستوى المعيشه فى المجتمع،بينما نجد روايه رابعه:تجعل الإنفاق فى سبيل قوام البدن و فيما يصح البدن إسرافاً-مهما كان- و تأمر نصوص أخرى بضروره التوسعه على العيال،و نفهم من مجموع النصوص أنّ الإقتصاد فى المعيشه يرتبط بمجموعه عوامل يحددها الشرع و العقل و العرف.

ص: ٤٧٤

إشاره

وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا (٦٨)
يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا (٦٩) إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ
وَمَا كَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (٧٠) وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا (٧١) وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ
مَرُّوا كِرَامًا (٧٢) وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا (٧٣) وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا
وَدُرِّيَاتِنَا قُوَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا (٧٤) أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسِلَامًا (٧٥) خَالِدِينَ فِيهَا
حَسَنَتٌ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا (٧٦) قُلْ مَا يَعْبُؤُا بِكُمْ رَبِّي لَوْ لَا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا (٧٧)

اللغه

۱۷۷ [لزاما]: أي أنه واقع لا محاله.

ص: ۴۷۸

هدى من الآيات:

فى الغالب تلخص الآيات الأخرى من السوره أفكارها، لتزيدنا إيضاحا و تبياناً، و لتزرع فى نفس القارئ، خلاصه مركزه عما مرّ الحديث عنه.

و فى نهايه سوره الفرقان التى خصصت لبيان الرساله و الوحى، و الايمان بهما، يوجز لنا الله عدّه موضوعات هامه ذكرنا بها خلال السوره.

أولاً: ليس الايمان بالرساله كلمه تقال، انما هو وقر عظيم و موقف حاسم يشعر كل فراد من افراد المجتمع بوطنه و خطورته.

ثانياً: ان المجتمع الذى تصنعه الرساله بعيد عن السلطه، فلا يتسلط فيه أحد على الآخر، إذ لا خضوع لغير ولايه الله فيه، اما الخضوع لولى أمر الله كالرسول أو الامام أو الفقيه العادل العارف فحقيقته خضوع و تسليم لله سبحانه. إذ لا يقدر المجتمع أشخاصهم، و انما يقدر و يخضع للقيم التى يجسدونها.

ثالثاً: ان هذا المجتمع تحكمه روح الاحترام المتبادل فى العلاقه بين ابنائه، فلا يقتلون النفس و لا يزنون.

و هناك علاقه بين قتل النفس من جهه، و الزنا من جهه أخرى، فكلاهما يعتبر نوعاً من الاعتداء على كرامه الإنسان، و بالتالى فكلاهما قتل للنفس كما سنوضح ذلك فى البيئات.

و ان الذين يفضلون سياده سلطه غير الهيه عليهم، فلا يحترمون النفس البشريه، و يفعلون الفاحشه سيلقون العذاب فى الدنيا و الآخره، إلى ان يتوبوا الى الله ربهم.

رابعاً: فى المجتمع الرحمانى لا يظلم أحد أحدا أبداً.

و حتى لا يظلم الإنسان غيره، فان عليه الامتناع عن شهاده الزور، و كثير من الذين يجدون جواً مناسباً للظلم تدفعهم شهواتهم و مصالحهم لارتكاب الجريمه، و الاعتداء على حقوق الآخرين، أما فى المجتمع الاسلامى فان الجور العام، و القانون الالهى الحاكم لا يشجع على الظلم أو البغى، فلو فتش ظالم عمّن يشهد فى صالحه فسوف لن يبلغ مناه.

خامساً: الجديه من أهم مميزات المجتمع الايمانى.

فهو بعيد عن اللغو، الذى يكون عاملاً من عوامل الانحرافات الاجتماعيه الفكرية و غيرها، كما اللامبالاه التى تعنى العثيه و اللاهدف، فيجب ان يكون المجتمع جدياً فى البحث عن اهدافه، بعيداً عن اللغو و اللامبالاه اللذان يجعلانه بعيداً عن الرحمانيه، قريباً من الجريمه و الانحراف.

و هذا المجتمع هو الذاكر الذى يتكامل بذكره لله، إذ يجعل ذكره لخالقه معراجاً لسموه المعنوى و المادى أيضاً، و بتعبير آخر هو الذى يجعله يعرج الى مستوى التحضر

والتقدم، فيصنع بذلك حضاره الايمان، كما صنعها نبي الله سليمان منذ قبل.

سادسا: ان صفه التطلع من أبرز سمات المجتمع الاسلامي، الذي يصفه القرآن في هذه السوره، فبالرغم من اعتماد ابناؤه على العناصر الفاضله من الاسره في تربيتهم، الا أنهم لا ينسون تطلعاتهم الاجتماعيه. إذ يطمحون لإمامه المتقين، و تنتهى السوره بذكر الدعاء الذي هو ردّ التحية من البشر لرساله الرب سبحانه.

يعنى إمامه أفضل طبقه و فئه فى المجتمع، فقد يطمح الإنسان ان يكون إماما و فقط، اما عباد الرحمن فطموحهم قياده الطليعه فى المجتمع، و هذا يدل على التطلع الواسع فى البعد المستقبلى و الحاضر لأبناء المجتمع الإسلامى الرحمانى.

فمن جهه يسعون لصياغه شخصيه أبنائهم وفق المفاهيم الصادقه، ليمتدوا عبر أولادهم كما أزواجهم عموديا فى عمق الزمن.

و من جهه أخرى فإنهم يسعون و جادين أيضا ليصبحوا قدوه لمن حولهم من الناس، ليمتدوا أفقيا عبر أبناء المجتمع، الذى يعيشون فيه و فى أوسع رقعه من المكان.

و هؤلاء بتطلعاتهم و سلوكهم هم الذين سيبنون حياه فاضله فى الدنيا، و يجوزون جزاء حسنا فى الآخره، إذ يأمر الله الملائكه و الطبيعه ان يكونا مسلمين لهم، و عند ما تكون الملائكه و الطبيعه معا مسلمين لإنسان ما، فحينئذ لا يخشى هذا الإنسان من شىء، لأنه يشعر و كأن رب الطبيعه و الملائكه و خالقها من جهه، و ذات الطبيعه و الملائكه الموكله بها من جهه أخرى، يحبونه و يعينونه.

ذلك لان عباد الرحمن كانوا مسالمين مع أنفسهم، و قد علموا ان دورهم بناء إنسان رسالى فاضل انطلاقا من ذواتهم، و أمه رساليه فاضله انطلاقا من أسرته،

و حضاره اسلاميه متقدمه انطلاقا من مجتمعهم، و كل ذلك فى اطار السنن و القوانين الرساليه الصحيحه.

و على العكس فى كل ذلك من يرتكبون الجرائم و يقترفون الآثام، فيضلوا أنفسهم و أسرهم و مجتمعهم، و لا يصلون الى اهدافهم التى يطمحون إليها، فتكون المعادله عكسيه إنسان منحرف، أمه متخلفه، نهايه حضاره أو مدنيه- كما وصل الى هذه النتيجة السابقون من الأقسام- قال تعالى:

أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَّلَ رَبُّكَ بِعَادٍ * إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ * الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ * وَ ثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ * وَ فِرْعَوْنَ ذِي الْأُوْتَادِ * الَّذِينَ طَعَوْا فِي الْبِلَادِ * فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفُسَادَ * فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ * إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ (١).

سابعا: فى نهايه هذه السوره لفته غريبه.

فسوره الفرقان التى بدأت بذكر القرآن معبره عنه بالفرقان، أى الميزان بين الحق و الباطل، نجدتها تنتهى بذكر الدعاء فى قوله تعالى: قُلْ مَا يَعْجُبُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ. فما هى العلاقه بين القرآن و الدعاء؟

ربما يفسر هذه العلاقه حديث شريف يقول :

«إذا أردت ان يحدثك الله فاقرا القرآن، و إذا أردت ان تحدث الله فاقرا الدعاء» فقبل ان ينتظر الإنسان رساله تنزل من الله عليه، يجب ان يبعث رساله الى الله

ص: ٤٨٢

عبر الدعاء، فإن الله يحب رساله الإنسان، و يستمع إليها، فهو الذى قال: «أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَ يُكْشِفُ السُّوءَ» و هو الذى قال: «وَ إِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ» و هو الذى يقول: «لييك عبدى» إذا دعاه داع.

بينات من الآيات:

الوجه الآخر للقتل:

[٦٨] وَ الَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ أَي لَا يَخْضَعُونَ لِسُلْطَةِ مَا دِيهِ أُخْرَى، إِنَّمَا لِلَّهِ وَحْدَهُ، فَهُوَ صَاحِبُ السُّلْطَةِ الْمَطْلُوقَةِ فِي مَنْطِقِهِمْ لَا أُخْرَى.

وَ لَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَ لَا يَزْنُونَ يَعْنِي لَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الْمُحْتَرَمَةَ، وَ لَا يَرْتَكِبُونَ فَاحِشَةَ الزَّوْنِ، وَ لَكِنِ السُّؤَالُ لِمَاذَا جَاءَ ذِكْرُ الزَّوْنِ بَعْدَ قَتْلِ النَّفْسِ؟! الْجَوَابُ أَنَّ قَتْلَ النَّفْسِ نَوْعَانِ:

١- القتل عبر إزهاق الروح.

٢- القتل عبر سلب الروح الانسانية بسوء التربيه و التوجيه، و أيضا بطمس العقل و الاراده فى نفس الإنسان، فاذا سلب الإنسان عواطفه الحسنه و شخصيته الايمانيه فان ذلك أشد عليه مما لو قتل بزهد روحه أو إهدار دمه.

و لقد جاء فى تفسير الآيه الكريمة «مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ

قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا. ان من قتلها يا ضلالها فكأنما قتل الناس جميعا، و من أحياها بهدايتها فكأنما أحيا الناس جميعا.

و الذى يزنى فيتسبب فى مجيء أبناء زنى يتربون فى الشوارع كأنما قتلهم، لأنهم لن يجدوا اسره تحتضنهم لتربيتهم، مما قد يحولهم الى وحوش كاسره على المجتمع، إذ تموت الصفاه الخيره و المواهب الفاضله فيهم، و تنمو مقابلها كل صفات الشر، و هذا هو القتل المعنوى.

و عند ما يسأل رجل الامام الرضا عليه السلام أيهما أشد يا ابن رسول الله، القتل أم الزنا؟ يجيبه الامام «الزنا أشد من القتل».

فيسأل الرجل يا ابن رسول الله و لم ذلك؟ فيجيب عليه السلام: ان من يولد بالزنا سيكون له أولاد آخرون.

و ربما يكون هؤلاء جيل من المنحرفين، بينما إذا أزحق الرجل روح آخر يكون بذلك قد أزحق روح شخص واحد أما الاول فقد قتل اجيالاً.

وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا مِنَ الطَّبِيعِيِّ ان يلقى جزاء عمله،

و جاء فى الحديث :

«انّ اثم واد من اوديه جهنم من صفر مذاب، قدامها حره (اي ارض ذات أحجار سود) فى جهنم يكون فيه من عبد غير الله تعالى، و من قتل النفس التى حرّم الله، و يكون فيه الزناه، و يضاعف لهم فيه العذاب» (١)

ص: ٤٨٤

[٦٩] يُضَاعَفُ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدُ فِيهِ مُهَانًا فكل عمل يلحقه جزاء بقدره و عذاب بامتداده، فلو كذب رجل على آخر سأل عن طريق فأرشدته الى غيره تعمدا، فانه سيجازى اولا- على الكذب، و ثانيا على العذاب و النصب العملى الذى سيواجه المكذوب عليه، و يكون الكاذب مسئولا لو أصاب هذا الإنسان شىء فى طريقه.

و لعل هذا هو معنى مضاعفه العذاب.

التوبه قرار و عمل:

[٧٠] إِلَّا مَنْ تَابَ وَ آمَنَ وَ عَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَ كَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ان رحمه الله واسع جدا، فمهما فعل الإنسان من ذنوب كالزنا و القتل، الا أنه سيجد باب الرحمه مفتوحا على مصراعيه للتائبين و المستغفرين - و ليس هذا فحسب - بل الأ-عظم من ذلك ان الله يحول سيئات التائبين الى حسنات يثابون عليها، و لعل سبب تحول السيئات الى حسنات ان التائب سيجعل تذكره لها، و ندمه على فعلها منطلقا للتصحيح، و المسارعه الى معرفه أكبر، و ايمان اعمق، و كلما تذكر سيئه شعر بمسؤوليه محوها، و إبدالها بعمل صالح، و الشقى الشقى من حرم غفران الله بإصراره على الذنوب دون التوبه. إن ذنوب العباد مهما كبرت و كثرت لأصغر و أقل من رحمه الله.

جاء فى حديث مروى عن الامام الباقر عليه السلام فى تفسير الآيه :

«يؤتى بالمؤمن المذنب يوم القيامة حتى يوقف بموقف الحساب فيكون الله تعالى هو الذى يتولى حسابه لا يطلع على حسابه أحد من الناس فيعرفه بذنوبه، حتى إذا أقرّ بسيئاته قال الله عز و جل للكتبه: بدلوها حسنات و أظروها للناس،

فيقول الناس حينئذ: ما كان لهذا العبد سيئه واحده، ثم يأمر الله به الى الجنة « الخبر (1) حقا ان الأمل في رحمه الله، يجعل المؤمن يزداد لربه حبا. فيبتعد عن معاصيه.

لذلك استفاضت آيات القرآن و نصوص السنه تؤكد رضوان الله، والحديث التالي يعكس مدى تعطف الرب لعباده، كما يبين كيف تساهم معرفه هذه الحقيقه في إصلاح البشر،

يروى عن الامام الرضا عليه السلام: « قيل لرسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- هل لك فلان، يعمل من الذنوب كيت و كيت فقال رسول الله صلى الله عليه وآله بل قد نجى، و لا يختم الله عمله الا بالحسنى، و سيمحو الله عنه السيئات و يبذلها حسنات، انه كان مره يمر في طريق عرض له مؤمن قد انكشفت عورته و هو لا يشعر فسترها عليه و لم يخبره بها مخافه ان يخجل، ثم ان ذلك المؤمن عرفه في مهواه، فقال له: أجزل لك الثواب و أكرم لك المآب، و لا ناقشك الحساب، فاستجاب الله له فيه، فهذا العبد لا- يختم له الا- بخير بدعاء ذلك المؤمن، فاتصل قول رسول الله بهذا الرجل، فتاب و أناب، و أقبل على طاعه الله عز و جل، فلم يأت عليه سبعة أيام حتى أغير على سرح المدينة، فوجه رسول الله في أثرهم جماعه- ذلك الرجل أحدهم- فاستشهد فيهم «
(2) [71] وَ مَنْ تَابَ وَ عَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا يَعْنِي ان الذي يتوب و يعمل صالحا، فانما يتوب الى الله الرحيم.

صفات عباد الرحمن:

١- لا يشهدون الزور:

[72] وَ الَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ

ص: ٤٨٦

١- (١) راجع المصدر/ص ٣٤.

٢- (٢) المصدر/ص ٣٥.

١- ان عباد الرحمن لا يشهدون بالباطل زورا، و من جانب آخر لا يطلقون الكلمه الا فى وقتها و محلها المناسب، شعورا منهم بان الكلام هو من عمل الإنسان،

كما قال الرسول صلى الله عليه و آله لاعرابى سأله و هل يحاسبنا الله على ما نقول؟ قال صلى الله عليه و آله :

«و هل يكب الناس على مناخرهم فى النار الا حصائد ألسنتهم»

و فى حديث آخر عن الامام الصادق عليه السلام قال :

«لو علم الناس ان كلامهم من عملهم لقللوا الكلام»

و فى بعض الروايات «انّ الزور هنا الغنى» (١)

و جاء فى حديث آخر :«انه مجالس الفساق و لا يحضرون الباطل» و

روى الامامان الباقر و الصادق عليهما السلام، عن عيسى بن مريم عليه السلام «ياكم و مجالس الخطائين» (٢) و

جاء فى حديث رابع «ان هؤلاء إذا ذكروا الفرج كانوا عنه لعفّه ألسنتهم».

هكذا تتسع دلالة الآيه لتشمل كل باطل، فهم لا يشهدون لأنهم تدبروا فى الحياه فعرفوا أنّ هناك هدفا مقدسا لها، فسعوا اليه، فعزفت أنفسهم عن الباطل.

وَ إِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا

٢- يَمْرُونَ بِاللَّغْوِ كِرَامًا:

فلا يتشدقون بالكلام الخاطئ أو غير الهادف، و كذلك لا يشاركون فى اجتماعات اللهو و اللعب، و الضرب و الرقص لان وقتهم اثن من ذلك، و لعلمهم

ص: ٤٨٧

١- ١) الحديث المروى عن الامام الصادق عليه السلام المصدر/ ص ٤١.

٢- ٢) المصدر.

ان الحياه فرصه لا تتكرر، فلا بدّ من استغلالها، بسنينها و أيامها و ساعاتها و دقائقها، كل ذلك اتقاء ليوم الندامه على التفریط فى فرصه العمر.

و هم يمرون كراما على اللغو لأنهم يشعرون انهم أكرم من اللغو، فكرامتهم و شرفهم يدعوهم لتجنب مجالس اللهو.

٣- البصيره و الوعى:

[٧٣] وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا البصيره من الصفات البارزه لعباد الرحمن. إذ يتفكرون فى آيات الله التى تتلى عليهم بحثا عن الحقيقه، و طمعا فى البصيره، متأملين فى شؤون الحياه على ضوئها، عاكفين على استنباط الانظمه و التشريعات الاجتماعيه و الاقتصاديه، و السياسيه، و التربويه و غيرها منها، علما منهم بأن من أنزل الآيات هو الذى خلق الحياه، و سن فيها القوانين و الانظمه.

يبدو ان ترك اللغو يوفر لهم فراغا كبيرا. يملأونه بالنشاط الفكرى الرشيد.

جاء فى دعاء مكارم الأخلاق :

«اللهم اجعل ما يلقى الشيطان فى روعى من التمنى و التظنى و الحسد، ذكرا لعظمتك، و تفكرا فى قدرتك، و تدبيرا على عدوك، و ما جرى على لسانى من نقطه فحش أو هجر، أو شتم عرض، أو شهاده باطل، أو اغتيال مؤمن غائب، أو سب حاضر، و ما أشبه ذلك نطقا بالحمد لله، و إغراقا فى الثناء عليك، و ذهابا فى تمجيدك، و شكر لنعمتك، و اعترافا بإحسانك و إحصاء لمنتك».

و روى ابو بصير عن الامام الصادق عليه السلام: فى تفسير الآيه هذه قال :

«مستبصرين ليسوا بشكّاك» و لكن اين المسلمون الآن من هؤلاء؟! فلو تطلعنا الى واقع الامه الاسلاميه لرأينا أكثر المسلمين ممن يخرون على آيات الله صما و عميانا، يرتلونها مبدعين، و لكنهم لا يفقهون معانيها و لا يدركون مدلولاتها، بل لا يتدبرون فيها ليطبقوها على سلوكهم، و من ثم على مجتمعهم.

٤- الطموح الكبير:

[٧٤] وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا ذُرِّيَّتًا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ان العلاقة بين طلب الأزواج و الذريه الصالحه، و بين طلب الامامه و القيادة لدى عباد الرحمن، تتجلى فى طموحهم نحو امتداد رسالتهم فى ذريتهم و أيضا فيمن يلتقون بهم من الناس، فيصبحون قدوه للمتقين، و المتقون - بدورهم - طليعه المجتمع، فهم يطمحون ان يكونوا قدوه الطليعه و ليس الطليعه فحسب.

و تدل الآيه الكريمه على ما يحملون من روحه التنافس على الخير، ففى المجتمع الرحمانى يتطلع الكل لأن يصبح أفضل فى مجال الخير و العمل.

و جاء فى أحاديث أئمه آل البيت عليهم السلام ان الكلام إياهم عنى، و هم تأويلها.

و جاء فى حديث شريف: عن أمير المؤمنين على بن أبى طالب عليه السلام :

«و الله ما سألت ربي ولدا نضير الوجه، و لا سألته ولدا حسن القامه، و لكن سألت ربي ولدا مطيعين لله خائفين و جليلين منه، حتى إذا نظرت اليه و هو مطيع

لله قرت به عيني قال: «و اجعلني للمتقين إماما» قال: نقتدى بمن قبلنا من المتقين فيقتدى المتقون بنا من بعدنا. « (١) [٧٥] أَوْلِيكَ يُجْزُونَ الْعَرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّهً وَسَلَامًا حَيْثُ يَسْتَقْبِلُهُمُ اللَّهُ بِغُرُفَاتٍ مَبْنِيَةٍ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ، وَمِنَ الْيَاقُوتِ وَالذَّرِّ، وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا مِنَ اللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ.

و توحى هذه الآيه الى فكره هامه و هى، ان تحقيق الطموح و بلوغ الاهداف يحتاج الى كثير من الصبر، فالطموح الأ-جوف و التطلع الميت لا يجدى نفعاً، و الإنسان لا يجزى على تطلعه بمقدار ما يجزى على سعيه فى تحقيق ذلك التطلع و ما نستوحيه من الآيه ان الجزاء يكون على الصبر فى سبيل الاهداف الساميه.

[٧٦] خَالِدِينَ فِيهَا حَسَنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا

٥- الدعاء معراج المؤمن:

[٧٧] قُلْ مَا يَعْجُبُا بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ الدَّعَاءُ هُوَ جَسْرُ الْاِرْتِبَاطِ مَعَ اللَّهِ، وَمَا يُمَيِّزُ عِبَادَ الرَّحْمَنِ دَعَاؤُهُمْ. فَهَمَّ بِجَانِبِ الْعَمَلِ وَالسَّعْيِ يَهْتَمُونَ بِالدَّعَاءِ، اِيْمَانًا مِنْهُمْ بِأَنْ تُوَفِّقَ اللَّهُ أَفْضَلَ مِنْ عَمَلِهِمْ، بَلْ هُوَ رُوحُ الْعَمَلِ الَّتِي تُوَصِّلُهُ إِلَى أَبْوَابِ الْجَنَّةِ.

إذ لا فائده من عمل لا خشوع لله فيه، و من طلب الحساب على عمله دون فضل الله خسر، و الرسول الأعظم صلى الله عليه و آله لا يدخل الجنة بعمله، و انما بفضل الله فلو حاسب الله الناس بأعمالهم ما دخل أحد الجنة.

ص: ٤٩٠

فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا عِنْدَ مَا يَنْصَرِفُ النَّاسُ عَنِ اللَّهِ، وَلَا يَتَوَجَّهُونَ لَهُ بِالْدَعَاءِ وَالتَّضَرُّعِ، فَانْزِلْ عَلَيْهِمُ الْعَذَابَ، وَكَمَا

فِي الْحَدِيثِ أَنْ :

«الْصَّدَقَةُ تَدْفَعُ الْبَلَاءَ وَالدُّعَاءُ يَرُدُّ الْقَضَاءَ الْمَبْرُومَ».

ص: ٤٩١

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ
الزمر: ٩

المقدمة:

تأسس مركز القائمية للدراسات الكمبيوترية في أصفهان بإشراف آية الله الحاج السيد حسن فقيه الإمامي عام ١٤٢٦ الهجرى في المجالات الدينية والثقافية والعلمية معتمداً على النشاطات الخالصة والدؤوبة لجمع من الإخصائيين والمثقفين في الجامعات والحوزات العلمية.

إجراءات المؤسسة:

نظراً لقلّة المراكز القائمية بتوفير المصادر في العلوم الإسلامية وتبعثها في أنحاء البلاد وصعوبة الحصول على مصادرها أحياناً، تهدف مؤسسة القائمية للدراسات الكمبيوترية في أصفهان إلى التوفير الأسهل والأسرع للمعلومات ووصولها إلى الباحثين في العلوم الإسلامية وتقديم المؤسسة مجاناً مجموعةً إلكترونيةً من الكتب والمقالات العلمية والدراسات المفيدة وهي منظمة في برامج إلكترونية وجاهزة في مختلف اللغات عرضاً للباحثين والمثقفين والراغبين فيها. وتحاول المؤسسة تقديم الخدمة معتمدةً على النظرة العلمية البحتة البعيدة من التعصبات الشخصية والاجتماعية والسياسية والقومية وعلى أساس خطة تنوى تنظيم الأعمال والمنشورات الصادرة من جميع مراكز الشيعة.

الأهداف:

نشر الثقافة الإسلامية وتعاليم القرآن وآل بيت النبي عليهم السلام
تحفيز الناس خصوصاً الشباب على دراسة أدق في المسائل الدينية
تنزيل البرامج المفيدة في الهواتف والحاسوبات واللابتوب
الخدمة للباحثين والمحققين في الحوزات العلمية والجامعات
توسيع عام لفكرة المطالعة
تهميد الأرضية لتحريض المنشورات والكتّاب على تقديم آثارهم لتنظيمها في ملفات إلكترونية

السياسات:

مراعاة القوانين والعمل حسب المعايير القانونية
إنشاء العلاقات المترابطة مع المراكز المرتبطة
الاجتناب عن الروتين وتكرار المحاولات السابقة
العرض العلمي البحت للمصادر والمعلومات

الالتزام بذكر المصادر والمآخذ في نشر المعلومات
من الواضح أن يتحمل المؤلف مسؤولية العمل.

نشاطات المؤسسة:

طبع الكتب والملزمات والدوريات

إقامة المسابقات في مطالعة الكتب

إقامة المعارض الالكترونية: المعارض الثلاثية الأبعاد، أفلام بانوراما في الأمكنة الدينية والسياحية

إنتاج الأفلام الكرتونية والألعاب الكمبيوترية

افتتاح موقع القائمة الانترنتى بعنوان : www.ghaemiyeh.com

إنتاج الأفلام الثقافية وأقراص المحاضرات و...

الإطلاق والدعم العلمى لنظام استلام الأسئلة والاستفسارات الدينية والأخلاقية والاعتقادية والردّ عليها

تصميم الأجهزة الخاصة بالمحاسبة، الجوال، بلوتوث Bluetooth، ويب كيوسك kiosk، الرسالة القصيرة (sms)

إقامة الدورات التعليمية الالكترونية لعموم الناس

إقامة الدورات الالكترونية لتدريب المعلمين

إنتاج آلاف برامج فى البحث والدراسة وتطبيقها فى أنواع من اللابتوب والحاسوب والهاتف ويمكن تحميلها على ٨ أنظمة؛

JAVA.١

ANDROID.٢

EPUB.٣

CHM.٤

PDF.٥

HTML.٦

CHM.٧

GHB.٨

إعداد ٤ الأسواق الإلكترونية للكتاب على موقع القائمة ويمكن تحميلها على الأنظمة التالية

ANDROID.١

IOS.٢

WINDOWS PHONE.٣

WINDOWS.٤

وتقدّم مجاناً فى الموقع بثلاث اللغات منها العربية والانجليزية والفارسية

الكلمة الأخيرة

نتقدم بكلمة الشكر والتقدير إلى مكاتب مراجع التقليد منظمات والمراكز، المنشورات، المؤسسات، الكتاب وكل من قدم لنا المساعدة في تحقيق أهدافنا وعرض المعلومات علينا.

عنوان المكتب المركزي

أصفهان، شارع عبد الرزاق، سوق حاج محمد جعفر آواده اى، زقاق الشهيد محمد حسن التوكلى، الرقم ١٢٩، الطبقة الأولى.

عنوان الموقع : : www.ghbook.ir

البريد الإلكتروني : Info@ghbook.ir

هاتف المكتب المركزي ٠٣١٣٤٤٩٠١٢٥

هاتف المكتب فى طهران ٠٢١ - ٨٨٣١٨٧٢٢

قسم البيع ٠٩١٣٢٠٠٠١٠٩ شؤون المستخدمين ٠٩١٣٢٠٠٠١٠٩.

مركز
للبحوث والتحريات الكمبيوترية
اصبحان
الغمامة



للحصول على المكتبات الخاصة الاخرى
ارجعوا الى عنوان المركز من فضلكم
www.Ghaemiyeh.com

www.Ghaemiyeh.net

www.Ghaemiyeh.org

www.Ghaemiyeh.ir

و للايحاء من فضلكم

٠٩١٣ ٢٠٠٠ ١٥٩

